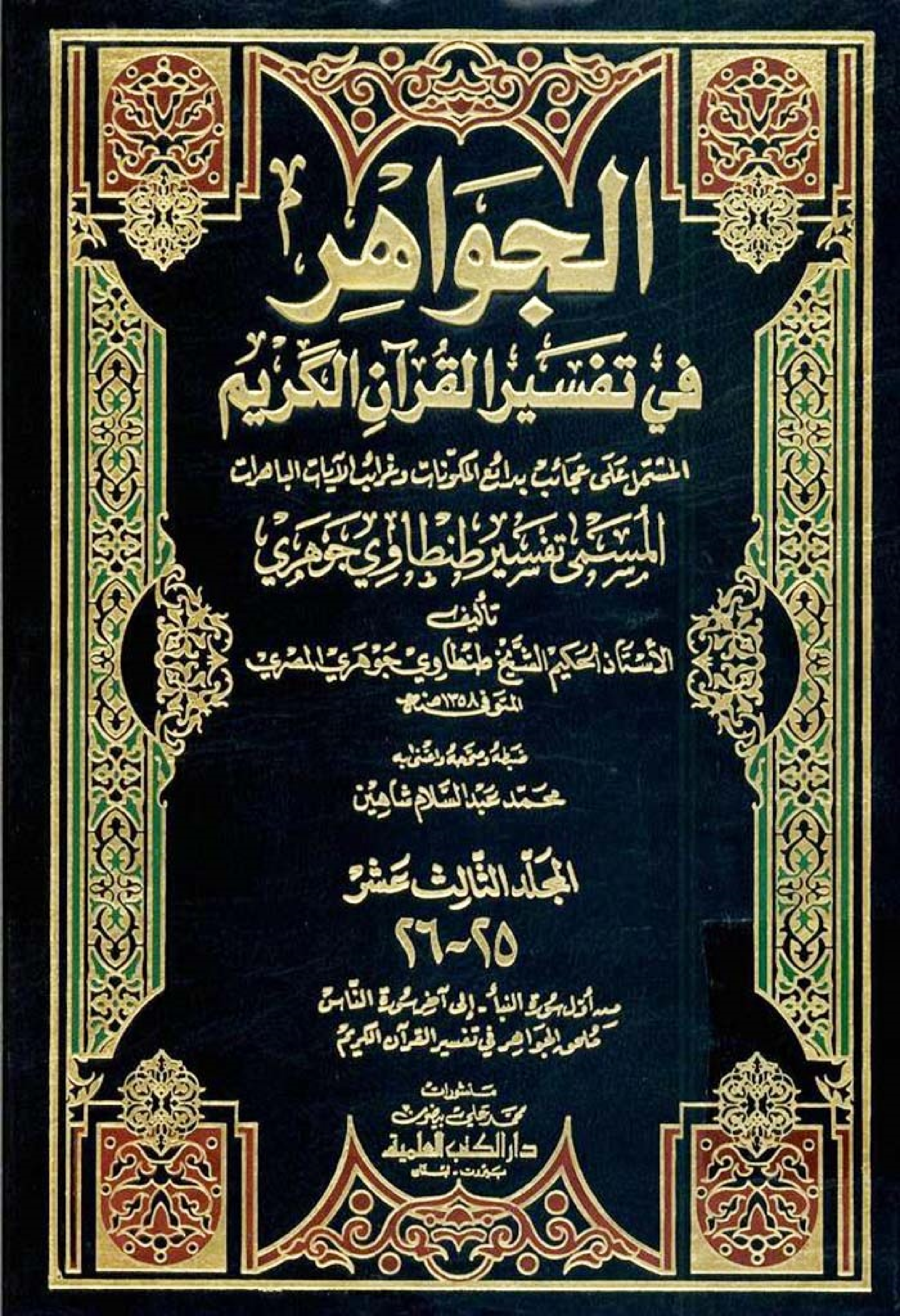

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨ هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الثالث عشر
٢٥-٢٦
من أول سورة النبأ - إلى آخر سورة الناس
خاتمة الجواهر في تفسير القرآن الكريم
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر
في
تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨ هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

الجزء السادس والعشرون

ملحق

يحتوي هذا الملحق على تفصيل ما أجمل في هذا التفسير من العلوم الكونية والأحكام الشرعية واختلاف المذاهب فيها

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾
[النحل: ٤٤]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد: فإنا فقد كتبنا في مواضع من كتاب الجواهر في تفسير القرآن أننا سنتبعه بملحق يوضح بعض ما أغفلناه في ذلك التفسير، ولقد حالت عوائق جمة عن إنجاز ما وعدنا به، ولكن الله عز وجل الذي أعان على التفسير قد أزال تلك العوائق، وشفى من المرض، وساعد على إبراز الملحق الذي وعدنا به.

وسنذكر إن شاء الله ما سنراه موسعاً للمعارف في أمم الإسلام، ونبتدئ بسورة «الفاتحة» وفي أولها البسملة، وهكذا سورة بعد سورة فنقول:

تفسير ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

قد ذكرنا هناك عجائب من بدائع الحيوان والنبات، وكيف كانت الحشرات لها إلهام بديع يعينها على نظام الحياة، ويساعدها في تربية الأبناء بدون معلمين ولا مرشدين، وكيف ترى النحل يتقن هندسة الخلايا ولا مهندس علمه، ولا مدرسة تلقى فيها العلوم الهندسية، ولا مربين، وهكذا العنكبوت في نسجها البديع، وهكذا تلك الحشرة التي تضع لذريتها مواد سكرية من النبات، وبعد ذلك تموت وتلك المواد تكفي تلك الذرية سنة تامة في أثنائها يتم نموها فتطير.

إن تلك المناظر مدهشة تدلنا على أمرين: رحمة لا حد لها، وعلم لا آخر له، وهذا قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر: ٧]، هذه رحمة يصحبها علم تدهشنا نتائجه، وتبهجنا عجائبه، وهناك نرى كيف كان في كل عود من أعواد نبات الذرة ذكور في أعلاه، وإناث في أسفله، والذكور ينزل منها الطلع على الإناث، وهي التي تتجلى على المطر، وهو ما رصع عليه الحب، وكيف كانت تلك الخيوط الجميلة الحمر والبيض التي فوق ذلك المطر هن القابلات لتلك الحبوب، وفيها يكون بزور تلك الحبات المنظمات الجميلات من الذرة، والناس يأكلون ولا يدرسون، ويعيشون ويموتون وهم لا يعلمون، وهكذا من العجائب التي تراها في تفسير سورة «الفاتحة».

ولما كانت العجائب لا حد لها، والبدائع لا نهاية لحصرها؛ حتى إننا لو أردنا استيعاب ما عرفناه هنا لم نجد وقتاً لإحصائه فضلاً عن نشره للناس في كتاب، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله.

فلنذكر في هذا المقام عاطفة الأمومة في رحمة الله التي تجلت في:

(١) عواطف الأمهات، وفي(٢) طبقات الجو، وفي (٣) أحاديث الرحمة وآياتها، وفي تركيب العوالم الحية والجامدة، وفي العوالم العلوية وعجائبها وغير ذلك، وكيف تجلت الرحمات فيها مع العلم الذي يشعر العاقل بحبه للصانع فيشكره بقلبه، ويقول بلسانه: الحمد لله رب العالمين، فلن يتم الحمد باللسان خالصاً إلا بعد الحب، ولا حب إلا بعد العلم الذي يتجلى بعضه في هذه الجواهر الثلاث:

الجوهرة الأولى:في عاطفة الأمهات

فهناك ما جاء في بعض المجلات العلمية من الصور البديعة اخترناها هنا لتتبين عجائب الرحمة الإلهية، وكيف يتضح بالمشاهدة قوله صلى الله عليه وسلم ما يفيد في الحديث الصحيح: «إن لله مائة رحمة ادخر منها تسعة وتسعين لعباده في الجنة، وجعل رحمة واحدة في الأرض بها يعيش الإنسان والحيوان، وتعطف الأمهات على ذريتها». ولا جرم أن الصور المشاهدة لها آثار في النفوس، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]، وقال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣].

وهذا الزمان هو الذي ظهرت فيه آيات الرحمة بطريق أتم ومنهج أكمل، فانظر كيف ترى عاطفات الأمهات في الحيوان.

وهذا نص ما جاء في بعض تلك المجلات ذكرناه لما فيه من الصور الحيوانية الدالة على رحمة الله التي غرسها في الحيوان، قال:

الأمومة في الحيوان

يمتاز الإنسان عن الحيوان بقوة العقل والمنطق، ولكن يشترك معه في كثير من المشاعر والحواس. وفي مقدمة ما يشترك فيه كلاهما عاطفة الأمومة، فهي غريزية في كليهما.

والغريزة: هي تلك القوة الغامضة التي توجد في كلا الإنسان والحيوان والتي بها يعرف كل منهما ما ينفعه فيلتمسه، وما يضره فيسعى لاجتنابه، والغريزة تحل في الحيوان محل العقل في الإنسان. فهي التي توحي إليه بوسائل الدفاع عن نفسه وعن صغاره، وتدفعه إلى طلب القوت والفرار من الهلكة، وترشده إلى ما فيه نفعه ومصلحته.

والذي يراقب حياة الحيوانات ويدرس طبائعها يدهش لما يراه فيها من عاطفة الأمومة، حتى إنها لا تحجم عن بذل حياتها وسفك آخر نقطة من دمها في سبيل الدفاع عن صغارها، والحيوانات المفترسة لا تفارق صغارها لحظة واحدة، بل تلبث بجانبها للدفاع عنها. فالأسد الذي يهاجم الإنسان عادة قد يضطر إلى ملازمة شبله أو جروه ولا يهاجم الإنسان ولو رآه على مقربة منه، ذلك لأنه يخشى إن هو هجر جروه لحظة أن يصاب بمكروه.

(شكل ١ ـ الدب الأمريكي الأسمر)

ليس الدب الأمريكي الأسمر من الحيوانات المؤذية، ولا هو يهاجم الإنسان إلا في حالتين: الأولى: للدفاع عن نفسه، والثانية: للدفاع عن جرائه، وتراه في الصورة يحمي اثنين من تلك الجراء وينظر حوله ليتقي ما يحتمل من خطر داهم.



(شكل ٢ ـ الأوبسوم)

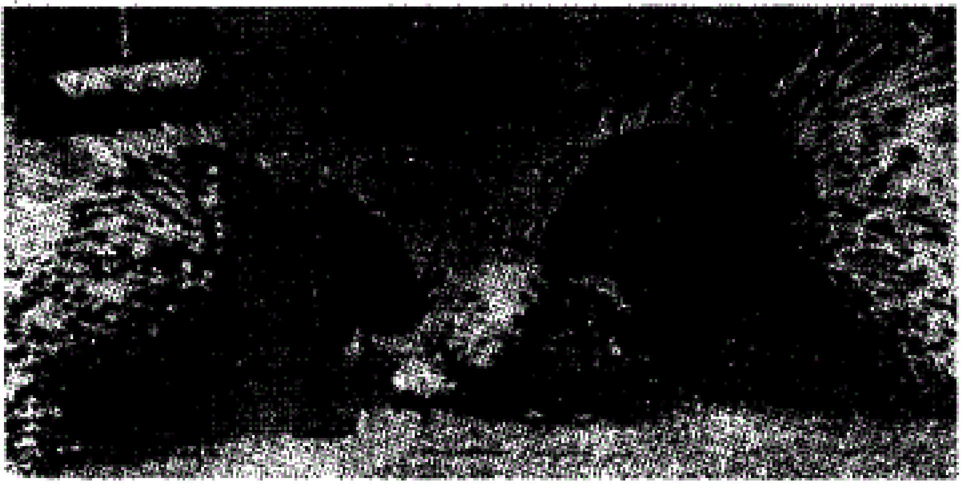
الأوبسوم حيوان أمريكي بري، وهو شديد العطف على صغاره يحملها فوق ظهره أينما سار أو حل، كما تدل على ذلك الصورة



(شكل ٣ ـ اللبوة وجروها)
ترى إلى اليمين لبؤة قد عضت على رقبة جروها لتنقله إلى موضع أمان، وهي بعضّها على رقبة الجرو لا تؤلمه أبداً.



(شكل ٤ ـ الماعز البري)
أخذت الصورة من حديقة الحيوانات بلندره، وهي تمثل الماعز البري، وعطفه على صغاره.



(شكل ٥ ـ مشهد من حياة القنفذ)
ترى في هذه الصورة قنفذاً وقنفذة يداعبان جرواً صغيراً لهما، وكأنهما يعجبان بأشواكه.

والدب الأسمر لا يتعرض للإنسان إلا في حالتين: الأولى: عندما يحول الإنسان دون طعامه، والثانية: عندما يعتدي على صغاره. ولعل هذا يصدق على سائر أنواع الحيوان.

وفي التوراة إشارة إلى الدب الثكول، والدب الثكول هو الذي فقد جروه فشعر بمرارة فراقه، وفي الواقع إن الحيوان بوجه الإجمال أشرس ما يكون عندما تصاب صغاره بمكروه.

ومهما يكن الحيوان شرساً ضارياً فإنه يحب صغاره ويتحمل من أجلها كل تعب وعناء. وقد يعق الشبل أباه، والعقرب وصغار الأفاعي أمهاتها، ومع ذلك تحول عاطفة الأمومة الغريزية في تلك الحيوانات دون الرغبة في الانتقام. ولعلك إذا راقبت القردة في حديقة الحيوانات تراها شديدة الحنان على صغارها حتى لقد تحرم نفسها الطعام لتعطيه لصغارها، وإذا أصيب أحد أولئك الصغار بتعب أو مرض أكبت عليه أمه بحنان لا مزيد عليه وعالجته بما توحي به إليها الغريزة.

وإذا نظرت إلى الصور المدرجة هنا وجدت آثار عاطفة الأمومة بادية على جميعها، ومعظمها كما ترى من الحيوانات الوحشية، فما أغرب الطبيعة وأعجب مظاهر الغريزة فيها.

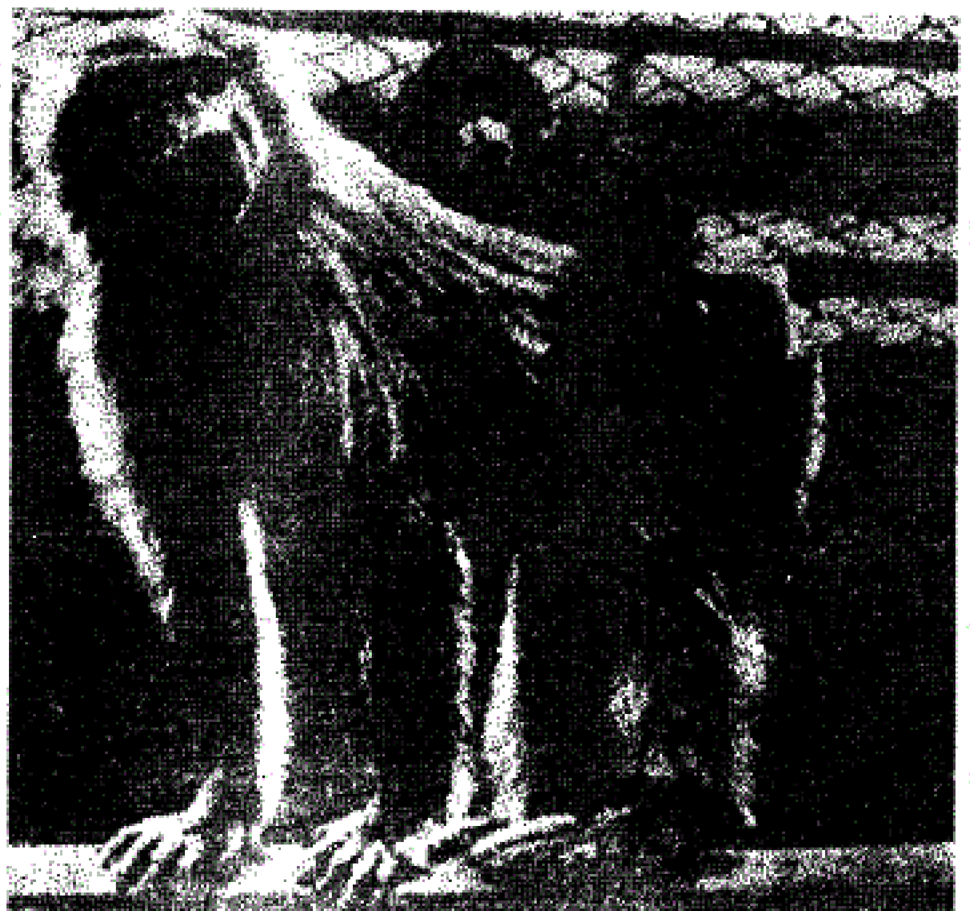


(شكل ٦ ـ اللاما وولدها)
صورة لأنثى اللاما في حديقة حيوانات لندن ومع اللاما أحد صغارها، ودلائل العطف بين الأم وولدها بادية للعيان.

(شكل ٧ ـ الكيانغ أو الحمار البري)
في الصورة تبدو عاطفة الأمومة على أجلاها في الحمار البري، فقد وقف جحش صغير بجانب أمه وكأنه يحتمي بها من الخطر.

(شكل ٨ ـ الزيبرا وعاطفة الأمومة)

ترى في جانب الصورة أنثى الزيبرا، وقد وقف معها أحد صغارها يداعبها، وهي تترك له الحرية ليفعل ما يشاء.



(شكل ٩ ـ القردة وأحد صغارها)

هذه الصورة أيضاً مأخوذة من مناظر حديقة الحيوانات بلندرة، وترى فيها قردة، ومعها صغيرها يداعبها ويحتمي بها، وهي تنظر حولها كأنها تريد أن تحمي صغيرها من الخطر.

انتهى الكلام على الجوهرة الأولى.

الجوهرة الثانية

رحمة الله في الهواء والأضواء وطبقات الجو

إلى إخواني المسلمين في الأرض اليوم، وإلى أبنائي بعد اليوم، السلام عليكم: هل لكم أن أحدثكم عما أراه من الجمال والبهاء والبهجة والحسن والإشراق والرحمات في الجو وفي الضوء، هل لكم أن تروا من الجمال أبهاه، ومن الحسن أعلاه، ومن الإشراق أوفاه؟ سبحانك يا رب سبحانك أنت البديع الحكيم، نعم. وسعت كل شيء رحمة وعلماً، فرحمتك مصحوبة بالعلم، ولولا العلم لكانت الرحمة أقرب إلى العذاب، فحكمة الله وعلمه بهما حفظ الناس والحيوان من الهلاك، رحم الله العوالم بالأضواء والأشعة، هذه هي الرحمة، وبالأشعة والضوء والحرارة كان حيوان وكان نبات وكان كل مخلوق على الأرض، ولكن ماذا جرى في هذه الأشعة وماذا ترى فيها؟ ترى أنها تكون حمراء، وبرتقالية، وصفراء، وخضراء، وزرقاء، ونيلية، وبنفسجية. هذه هي الألوان السبعة وهي التي تراها في قطرات الماء المعترضات ضوء الشمس في وصولها إلينا، أعيننا لا ترى غيرها، عيوننا ترى ضوء الشمس الأصفر، وترى ما حلل إليه وهي هذه السبعة، ولكن هل الله عز وجل لم يخلق غير تلك السبعة؟ كلا. هو خلق من الأضواء ما لا حصر له.

طول الأمواج

أيها المتعلم من أمم الإسلام، أنا أريد الساعة أن أتحدث معك في هذه الأمور الغامضة بهيئة بسيطة لتسهل عليك معرفتها لغرضين معاً:

الغرض الأول: أن تسعد بفهم الرحمة الإلهية المحيطة بنا لتفهم بسم الله الرحمن الرحيم.

الغرض الثاني: أنك تسمع لفظ موجات قصيرة وموجات طويلة في الراديو فيحار عقلك في فهمها، فأنا الآن أريد أن تفهم ذلك لتسعد في الدنيا بالعلم وفي الآخرة بالعلم.

إن الله جعل الشمس أشبه بإنسان يحمل ما لا حصر له من النبال، وهذه النبال بعضها يبلغ طول مئات الأمتار وبعضها يبلغ طوله جزء من ألف ألف من البوصة الواحدة، والبوصة مقياس أقل من القيراط. وستقول لي: ما هذه النبال في الشمس؟ أقول لك: هذه النبال هي الأضواء، فالأحمر أطول من البنفسجي، أي: أن البنفسجي طوله نحو نصف طول الأحمر، فالبوصة الواحدة تسع أطوال (٣٣) ألف موجة من اللون الأحمر، ولكنها تسع (٦٦) ألف موجة من البنفسجي. هذه موجات صغيرة جداً جداً لا ندركها إلا بالتعقل، والعلم هو الذي أبرز ذلك.

محادثة بيني وبين العالم الكبير

هاهنا حضر صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال: ما هذه المهامه البعيدة المرامي، ما هذه المشقات الشديدة، ما هذه الأمور المعقدة؟ فقلت: يا صاح ماذا جرى؟ فقال: إن هذه بعيدة المرام. فقلت: كلا اقرأها. فقرأها فقال: لقد فهمت، وأقول حقاً إنك سهلت هذا المقام، وماذا بعد ذلك؟ فقلت: سترى ما هو أسهل وأعجب من هذا مع أنه في الكتب صعب لا يفهمه إلا علماء ذلك الفن. فقال: أحب أن أعرف ماذا هناك. فقلت: انظر يا صاح، هذه هي الألوان السبعة، وهذه

مقاديرها أن الأمواج المرسلة من الشمس كثيرة جداً كما قدمنا، فما فوق البنفسجية أقصر وأقصر بما لا يسعه الخيال، فإذا كان البنفسجي طوله نصف طول الأحمر، فهناك تنصيف وراء تنصيف حتى يبلغ أحد عشر تنصيفاً. فقال: هذا غامض علي. فقلت: اسمع يا صاح شرح الله صدرك للعلم، قلت لك: إن طول موجة اللون الأحمر ضعف طول البنفسجي. فقال: أنا فهمت هذا وعلمت أن طول البنفسجي جزء من (٦٦) ألف من البوصة، وأن طول الأحمر جزء من (٣٣) ألف من البوصة. فقلت: إذا علمت هذا فاجعل البنفسجي أصلاً واقسمه نصفين، والنصف أيضاً اقسمه نصفين، أي أن كل طبقة تكون نصف ما قبلها إلى إحدى عشرة مرة، فقال: إذن تكون الموجة في الدقة كالهباء أو كالذرة التي لا ترى ولو بالمنظار. فقلت: هو ذلك. فقال: أنا فهمت الآن فماذا تكون الموجة إذن؟ قلت: تكون أشعة إكس أي: أن أشعة إكس تأتي بعد البنفسجية بنحو إحدى عشرة طبقة، ومعلوم أن أشعة إكس تنفذ خلال المواد الخفيفة، ولو سقطت على خليط من مواد خفيفة ومواد ثقيلة لظهر للمواد الخفيفة ظل أقل من ظل المواد الثقيلة، وبذلك استخدمت هذه الخاصة في علم الجراحة لتصوير العظام وغيرها.

فقال: وما بعد هذه الأشعة؟ فقلت: تأتي أشعة «جاما» وهذه يشغلها عنصر الراديوم، فقال: ثم ما بعد ذلك؟ فقلت: تأتي أشعة بعد (٣١) طبقة، وهي الطبقة الثانية والثلاثون، وهذه تسمى الأشعة الكونية «كوسمك ريز»، وهذه أشعة تخترق عدة أمتار من الرصاص، فقال: هذا عجب! هذه أقوى أشعة عرفها الإنسان، فأقوى الأشعة أقصرها قصراً دقيقاً جداً لا يدرك.

فقال: إذا كان هذا آخر ما عرفه الناس من الأشعة القصيرة التي فوق البنفسجية ولم يصلوا لما هو أدق منها فما الذي عرفوه في الأشعة التي تحت الأشعة الحمراء؟ وإنّما قلت تحت؛ لأن الحمراء أضعف من البنفسجية، وما بعد البنفسجية يقال له فوقها، فأما هذا فإننا نصفه بأنه تحتها، فقلت: أحسنت في التعبير، اعلم أيها الأخ أن الذي عرفوه تحت الأشعة الحمراء أشعة أطول أمواجاً منها، مثلاً الإناء الذي فيه الماء المغلي يكون مما هو تحت الأحمر في المرتبة الرابعة، وهكذا طبقة تحت طبقة، ولقد وضعوا صفائح فوتوغرافية فأثرت فيها الأشعة تحت الحمراء وأمكنهم بهذه الطريقة التصوير في الظلام الدامس.

ثم إننا كما قلنا فيما هو فوق البنفسجية إن الطبقة التي بعد (٣١) هي أشعة إكس، هكذا هنا نقول فيما هو تحت الأشعة الحمراء، إن الطبقة التي فوق (٣١) هي موجات الراديو، ويبلغ طولها حوالي ألف مليون مرة بقدر طول موجات الطيف.

ومعنى هذا أننا إذا رأينا أن موجة الضوء الأصفر جزء من (٤٠) ألف جزء من البوصة؛ فإن طول موجة محطة إذاعة القاهرة للراديو (٤٨٢) متراً، فلما سمع ذلك صاحبي ظهر السرور على وجهه وقال: والله لقد انشرح صدري، لك الحمد يا ربي على نعمة العلم، واحسرتاه على المسلمين، يسمع المسلم أشعة إكس، ويسمع كلمة الراديوم، ويسمع كلمة الراديو، ويسمع كلمة طول الموجة (٤٨٢)، ولا يفهم لهذا كله معنى. المسلمون يسمعون الراديو ويسمعون أن طول الموجة كذا، ولكن لا يفهمون معنى موجة ولا طولها، أما الآن فإني فهمت وعلمت أن أشعة إكس أقصر قصراً لا حد له من

الأشعة البنفسجية التي هي أقصر من الأشعة الحمراء، وعلمت أن أشعة الراديو هي أطول وأطول وأطول من الأشعة الحمراء، وأن الأشعة الحمراء جزء من آلاف من البوصة، فأما أشعة الراديو فإنها أطول وأطول حتى تصل إلى مئات الأمتار، الحمد لله على العلم وعلى الحكمة.

دراسة الجو

ولكني الآن أريد أن تحدثني عن الجو الذي نعيش فيه، لأنه ظهر لي الآن أن هذا الجو مملوء من أشعة قصيرة وطويلة، فماذا هناك وماذا فوق الجو؟ فقلت: أيها الأخ لقد أدخلتنا الآن في عالم الجمال والبهاء والصفاء والعلم والحكمة والسعادة، فقال: أيكون أجمل مما عرفناه؟ فقلت: أجمل وأكمل، فقال:

أنعم بردّ جواب ما أنا باحث عنه فنار العلم ذات تشعشع

فقلت: أخي تعلم أننا الآن في تفسير ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وفي فهم معنى الرحمة، فقال: نعم. قلت: انظر أتدري ماذا فعل الله بالجو؟ قال: لا والله وإلا فلماذا سألتك، فقلت: بنى فيه قنطرة كبيرة لصد أمواج الضوء التي تهلكنا. فقال: قنطرة كبيرة، أتريد أن تقول إنها أشبه بخزان أسوان في النيل عندنا وخزان جبل الأولياء في السودان الذي يحجز الماء الزائد عن الحاجة، والقناطر الكثيرة المبنية على النيل في القطر المصري؟ فقلت: أحسنت جداً هو كذلك. فقال: أين هذه القناطر؟ فقلت: ستعرفها وستعرف ما هو أعجب منها، فقال: وما هو؟ فقلت: جعل هناك ثلاث مرءآت تحيط بالجو، وهذه المرءآت أشبه بمرءآت الزجاج عندنا، وبها يعكس الصوت المرتفع من الراديو إلى الأرض.

فهاهنا بالقنطرة التي ذكرناها منع عنا الأشعة المحرقة المرسلة من الشمس لئلا يهلك كل حيوان وبالمرءآت يعكس أشياء ترجع إلى الأرض، ومنها أصوات الراديو، فهذا كله من معنى الرحمن الرحيم لأنه لشدة رحمته يحفظنا من العطب بالقنطرة ويعطينا العلم والحكمة والفهم بتلك الأصوات كما يفرح قلوباً وقلوباً بها، فهذه من الرحمات التي لا حد لها.

واعلم أن للجو طبقتين معروفتين: إحداهما هي التي تحيط بنا مباشرة وتبلغ (٧) أميال، وثانيتهما هي التي تبلغ (٧) أميال أخرى فوقها، فالسبعة الأولى تسمى «تروبوسفير»، والثانية تسمى «استراتوسفير».

إن في الطبقة الأولى الرياح، والزوابع، والأعاصير، والسحب، والمطر، والثلج، والبرد، وغيرها.

والثانية ساكنة لا شيء فيها، وفي الطبقة الأولى غازات مختلفة وفيها الهواء الذي خمسه أوكسجين وأربعة أخماسه آزوت، ومع ذلك يكون بخار الماء وغيره، وبخار الماء لا يخرج إلى الطبقة الثانية، فإن الرياح ترده ليكون سحاباً ومطراً الخ. والسحاب يرتفع عن الأرض بضع مئات من الأقدام إلى نحو ميل أو أكثر منه، وعلى سحاب يبلغ نحو خمسة أميال أو ستة، وأعلى هذه الطبقة يخرج إلى خمسين درجة تحت الصفر.

وقد ظن العلماء سابقاً أن البرودة تستمر في الزيادة، ولكن علماء القرن العشرين علموا أن الطبقة الثانية لا تزداد البرودة فيها، بل تميل إلى ارتفاع الحرارة.

ولقد أرسلت روسيا منطاداً سنة ١٩٣٤ فوصل إلى ارتفاع (١٣,٧) ميلاً، و ذلك لأن هذه الطبقة قد ظهر أنها ثابتة فيها حرارة ما.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: هذا حسن وقد عرفت هذه الطبقة والتي فوقها.

المرءآت الثلاث والقنطرة في جو السماء

فأريد أن أفهم القنطرة السماوية والمرءآت الثلاث، فقلت: إن في الجو على ارتفاع (٢٥) ميلاً طبقة الأوزون، وهو نوع من الأكسوجين مركب الجزء الواحد منه من ثلاث ذرات لا من ذرتين فقط، هذا الأوزون طبقة تحيط بكرتنا الأرضية، وهو الذي يمنع عنا الأشعة التي فوق البنفسجية ولا يرسل لنا منها إلا ما ينفعنا. فأما ما عداه فإنه يرسل من خلاله.

الله أكبر. الله أكبر. لك الحمد ربنا أحطت أرضنا بسياج من الأوزون يمنع عنا المهلكات الضوئية التي تقتلنا وتقتل كل حيوان، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩] ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧] نعم. ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، هذه هي الرحمة.

إن موجات الراديو لا تخالف موجات الضوء في طبيعتها وإن كانت أكبر منها بضعة آلاف الملايين، لأنهما كليهما يسيران على خط مستقيم، وكلاهما يعوقه الجسم الصلب.

الكلام على الطبقات الثلاث المحيطة بالكرة الأرضية التي سميناها مرءآت كما سمينا الأولى قنطرة تصد الضوء وتحيط بالأرض.

إن موجات الراديو وإن كانت مثل موجات الضوء كما تقدم؛ تخالفها في أن موجات الراديو نسمعها وإن كانت في جهة بعيدة عنا، فالبعيد عنا منها كالقريب، والسبب في ذلك أنها عند ارتفاعها تقابلها طبقة في الجو تعكسها، وهذه الطبقة على بعد (٦٥) ميلاً، فهذه الطبقة متى قابلت الأمواج الصوتية عكستها كما تعكس المرآة الضوء، ومعلوم أن الموجات تسير في الثانية (١٨٦) ألف ميل، فإذا ارتفع الصوت ورجع إلينا عرفنا ارتفاع تلك الطبقة بحساب الزمن، وقد وجدوا على بعد (٢٥٠) ميلاً بهذه الطريقة طبقة ثانية، وهكذا عرفوا أخرى عاكسة ثالثة، وارتفاعها ثلاثة ملايين ميل، ويقولون: إن هذه الطبقة ربما كانت من كهارب ترسلها الشمس، إن موجات الصوت عند ارتدادها إلينا نعرف منها أنها وصلت إلى جو دافئ، ولهذا عرفوا أن هناك جو «استراتوسفير» المتقدم، والقذائف تصل إلى بعد معين وترجع، فعرفنا أنها تصل إلى «استراتوسفير» المذكور.

زرقة السماء

يعجب الناس من أن لون السماء الزرقة، مع أن ألوان الشمس سبعة، فكيف اختص لون السماء بالزرقة؟ ولقد أجابوا عن هذا بأن لون موجات اللون الأزرق أقصر من غيرها، وبهذا القصر صارت أقرب إلى ذرات الغبار والبخار في الجو، فهذا الاقتراب في المقدار والطول تقدر تلك الذرات أن تمزق موجات اللون الأزرق فيصل إلى عيوننا فنرى الزرقة، أي أن ذرات البخار والغبار لا قدرة لها على تمزيق غير الموجات الزرقاء، ولو قدرت على تمزيق الحمراء والخضراء والصفراء لكان اللون بأحد هذه الألوان.

هنالك قال صاحبي: يا سبحان الله هذا كلام جميل وعجيب جد عجيب، من ذا الذي كان يظن أن فوقنا أربع طبقات: إحداها لمنع الهلاك عنا، ولولاها لاحترقنا، والأخريات لحفظ الأصوات ونحوها فترجع إلينا لإسعادنا، فالطبقة الأولى من الأمور الضرورية والحاجية لحياتنا، والأخريات من المكملات، وهذا قوله: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون:١٧]، وقوله: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر:٤٩].

فقلت: أحسنت، إن هذه العجائب تعرفنا بطش الله وقدرته وسعة علمه، وفي نفس الوقت شدة رأفته ورحمته، فبالإحسان بهذه الطبقات ونحوها يحب، وبسعة هذه العوالم يخشى بأسه، وهذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[فاطر:٢٨].

الرحمة والعلم

سبحانك اللهم وبحمدك رحمت وعلمت، رحمة بلا حد وعلماً بلا نهاية، رباه أنت بعلمك وبرحمتك استفدنا الحياة والسعادة، ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر:٧]. نعم. رحمتك مصحوبة بالعلم، والرحمة التي لا يصحبها العلم وبال، أرسلت أمواج الضوء من الشمس هي رحمة، هي رحمة، كما أرسلت ماء نهر النيل من جبال السودان وهي رحمة هي رحمة، ولكن لو أننا تركنا ماء النيل يجري بلا قناطر وسدود كجبل الأولياء وخزان أسوان وكالقناطر الخيرية؛ لأغرق البلاد والعباد، وذلك كما كان في الزمان السابق، فإن النيل كان يجري في الأرض ولا زرع في أيامه، فإذا ذهب ماء النيل زرعوا الأرض.

سبحان الله، هانحن أولاء قد بنينا القناطر فحفظت الماء وأنزل لنا بقدر معلوم فكثر العمران، أليس ذلك لأن الرحمة بالنيل قد صاحبها العلم الهندسي فكثر الزرع والضرع في البلاد.

هكذا نقول في ضوء الشمس المرسل لنا من الله أنه رحمة، ولولا أن الله جعل لنا على بعد (٢٥) ميلاً طبقة الأوزون؛ لأطلقت علينا تلك الأشعة النارية التي عبر الله عنها في القرآن فقال: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ ﴾[الرحمن:٣٣-٣٥] الخ.

ولكن فرق بين الأشعة وبين النيل، إن هذه الأشعة لو أطلقت علينا لأهلكتنا مرة واحدة، ولكن النيل مهما أهملناه فلنا به انتفاع وإن كان أقل.

فهذه الطبقة، وهكذا الطبقات الأخريات بالنسبة لموجات الصوت قد دخلت في سر قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر:٧]، فقوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ يتضمن هذا المعنى، لأنه لم يقل باسم الرحمن الرحيم، بل قال: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ولفظ الجلالة يتضمن جميع الأسماء والصفات، منها العلم. أما الرحمن والقادر ونحوهما من الأسماء فإنها لصفات خاصة.

فقال صاحبي: هذا جميل جد جميل، ولكن ألاحظ مسألة واحدة، هي آية: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾[الرحمن:٣٣] الخ، فإنك ذكرت الآية عند الكلام على الطبقة الأولى وهي الأوزون التي

سميتها قنطرة، وإني أقول: إن هذه العلوم أكثرها ظنون، لأنك في نفس هذا المقال أثبت أن العلماء قبل القرن العشرين كانوا يظنون أن برودة الجو مستمرة في الارتفاع إلى ما لا نهاية له، ولكن علماء القرن العشرين أثبتوا طبقة ثانية فيها حرارة ما وتميل إلى الارتفاع بعد سبعة أميال فوق أرضنا، لهذا نقول مثل ذلك في طبقة الأوزون المذكورة، فكيف شرحت آي القرآن بهذه الظنون والقرآن محقق، وأمثال هذه ظنون. فقلت: هذا سؤال متين قوي.

وقد ورد هذا السؤال من كثير وأجبت عنه في جريدة «الوادي» بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤ وفي أول عدد من مجلة «هدى الإسلام» تحت عنوان العلم والدين وهذا نصه:

العلم والدين

الحمد لله ما كاد يصل نبأ «هدى الإسلام» إلى مسامع العظماء والأدباء حتى وافانا صاحب الفضيلة الأستاذ العلامة حكيم الإسلام الشيخ طنطاوي جوهري بهذا المقال القيم، رداً على مقال نشرته مجلة العلوم الإنجليزية لمستشرق ينكر وجود الرابطة بين العلم والدين، والكل يعلم من هو الشيخ طنطاوي جوهري، فهو حديث إعجاب في فم الشرق والغرب، ومن أراد أن يستجلي المظاهر الكونية، ويتفهم آيات الله في الآفاق فليرجع لمؤلفاته القيمة ككتابه «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» فإنه يعد مفخرة للمسلمين وأسوة حسنة يحتذي بها العاملون. قال حفظه الله:

إن دين الإسلام يحض على العلوم، ويأمر بالبحث، ويحث النوع الإنساني جميعه على استطلاع الحقائق، ولا يؤيدهم برأي من الآراء، بل يكلف كل امرئ بالبحث والتنقيب من تلقاء نفسه ليقف على الحقيقة، فإن اقتنع برأي غيره من العلماء فيها، وإلا دحض الفكرة بما هو خير منها، وإذا قال الله في سورة «البقرة»: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[الآية: ١٠٦] وهو الرب الشهيد، والعالم بالظواهر والبواطن؛ أفلا يجعلنا نحن المخلوقين الضعفاء أحراراً في فهم ما نراه بحسب عقولنا وننسخ اليوم ما أثبتناه أمس، وهو القائل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦]، وهو الذي يحرم التقليد على القادرين فيقول: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٦]، فإذا سمعناه يقول: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[يونس: ١٠١]، ويقول: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف: ١٨٥]، ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾[فاطر: ٢٧-٢٨] ثم أتبعها بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨]. أفلا نفهم من هذا القول أنه لا يقترب منه بالحب والخشية إلا الدارسون لهذه العلوم التي في السماوات والأرض، وأن من عداهم أقل منهم حباً وخشية، وأن هذه الدراسة مناطها العقل وحده، والتقليد منبوذ لمن يستطيع التعقل والفهم.

فإذا درسنا علم الفلك عند سماعنا الله يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[آل عمران: ١٩٠]؛ فلا نتقيد بمذهب من المذاهب، فإذا كنا في القرون الوسطى درسناه على أن الشمس دائرة حول الأرض ولا حرج علينا، وإذا درسناه في هذا

الزمان درسناه باعتبار أن الأرض دائرة حول الشمس، وليس ذلك منافياً للدين، لأن الله لم يأمرنا بأن نتبع رأياً خاصاً، بل وكل الأمر لعقولنا، غاية الأمر أننا إذا وجدنا رأياً لا يسير مع العقل رفضناه، وقد حصل هذا فعلاً، فإن علماء الإسلام قد كشفوا دوران الأرض حول الشمس قبل كشف «غاليلو» الإيطالي، و«كوبرنيكوس» البولوني، و«نيوتن» الإنجليزي، بمدة (١٥٠) سنة، وهذا في كتاب «المواقف» المؤلف في ذلك التاريخ الذي ذكرناه، وقد اتفق المصنف والشارح له على ما بيناه فليقرأه من أراد، والكتاب معروف مشهور في كل زمان، فلم يقم من علماء الإسلام مضادون لأصحاب هذا الرأي، بل قدسوهم، وهذا الكتاب في علم التوحيد. وإذا سمعنا الله يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[الحج: ٦٣]؛ فإننا لا نتقيد برأي عالم من العلماء في تقسيم النبات، بل نتبع الأقرب إلى العقل، فإذا رأيناهم قسموه باعتبار الأشجار والشجيرات وأنواع النبات بحسب أشكالها الظاهرة، ثم رأيناهم قسموه تقسيماً أتم باعتبار الزهرات الذكور والإناث؛ فنحن نقبل ما هو أقرب إلى الحقيقة، ولا نقول إن هذا يخالف ديننا، لأن ديننا لا يعين رأياً منهما، بل وكل الأمر إلى عقولنا نحن، وهل دين الإسلام هو الذي ينقض بنيانه ويضعف شأنه لأحداث رأي جديد، ألم ينص الله على احترام حكمين في قضية واحدة صدرا من داود وسليمان عليهما السلام، وثانيهما أدق حكماً من أولهما في مسألة الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم، فنرى القرآن يصرح بأن سليمان أعطي فيها فهماً، وإن كلًّا منهما أوتي حكماً وعلماً، إذن ليس الإسلام هو الذي تزلزله الأوهام فلا ينقض بنيانه لارتقاء العلم، كأن ندرس سرعة الحس الجارية من الأطراف إلى المخ، فنرى علماء من أهل العصور المتأخرة يقولون: إن السرعة باعتبار مائة قدم في الثانية، فجاء آخرون وحققوا أن السرعة تبلغ مائة وعشرين متراً في الثانية، إذن القرآن الذي يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦] يحرض على ذلك بل يأمر به، بل إن في القرآن (٧٥٠) آية تحض على هذه العلوم التي لا يعرفها إلا العقل الذي يدرس العلوم على حسب طاقته وتظهر له حسب استعداد الأمم، ولذلك خاطب الله سبحانه وتعالى الناس فقال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[الأنبياء: ٣٧] أي: إنني أنزل العلوم على عقولكم بمقتضى استعدادها ولم أنزل عليكم علماً قبل استعدادكم له، ويقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾[النمل: ٩٣]. إذن ربنا يخبرنا أنه يعطينا العلم بالتدريج، وأننا سنكون علماء بعجائب خلقه.

هذا هو دين الإسلام الذي لا تقوم له قائمة تامة إلا على العلم. أما ما عدا هذا الرأي فإنّما هي وساوس تلقى لأفئدة تجهل العلوم أو تجهل الدين أو تجهلهما معاً، أو لأناس قيدوا أنفسهم بدين آخر فخيل لهم أن دين الإسلام كدينهم، وهذا رأي مبني على شفا جرف هار.

وعلى ذلك إذا سمعنا «فرانسيس باكون» من أعلام الإنجليز في القرن السابع عشر قد انتخب عضواً في مجلس العموم.

وقد برع في العلوم وظهرت باكورة أعماله سنة ١٦٠٦م يقول: إن من الغباوة أن نصرف وقتاً أكثر من اللازم في المذاكرة والاطلاع على الكتب، ومن الكبرياء السخيف أن نفخر ونزدهي بمعلوماتنا

وليس من الحزم وأصالة الرأي أن نأخذ بما في الكتب قضية مسلمة، مثلنا في ذلك مثل الطالب الصغير، إن الاطلاع مفيد ولكنه يكون أفيد لو اقترن بالتجربة والملاحظة.

إن القوى الطبيعية في الإنسان تشبه الكائن الحي، فهو في احتياج دائماً إلى الغذاء والتشذيب بالدرس، والمذاكرة لا تؤتي نتائجها المرجوة إلا إذا طبقت عملياً عن طريق الملاحظة والتأمل، أقول: إذا سمعناه يقول ذلك فإنا نقول هذا هو صريح القرآن. وهذا هو دين الإسلام وجوهره وأصله، فهو يقول: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦]، وهو الذي يوبخ الجاهلين القائلين: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾[البقرة: ١٧٠]، فرد عليهم قائلاً: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[البقرة: ١٧٠].

فإذا عرفنا هذا فما أيسر أن نقول لهذا الفيلسوف «فرانسيس باكون» ذلك العلامة الذي رتب العلوم الطبيعية والرياضية والإلهية بترتيب غير ما كان معمولاً به من قبل. وقد سارت جميع الدول على قانونه ونظامه حين نسمعه يقول ما نصه: إن من الخطل في الرأي محاولة تطبيق النظريات العلمية على مبادئ الدين، لأن ذلك مضيعة للوقت وزج بالنفس في طريق الإلحاد.

يجب أن يعلم بأن الدين مبعثه الاعتقاد، فهذا يريحنا من عناء البحث إذا ما وجدنا منه شيئاً لا يتفق مع العقل ويبعد عن نفوسنا الشك القاتل الذي يقلق بالنا ويسبب لنا الحيرة، وقد كان الشك دائماً، وفي كل عصور الفلسفة الداء العضال الذي يقتل في الإنسان غريزة حب الاستطلاع ويقف عقبة في طريق تقدمه ورقيه، وآثاره بارزة في فلسفة السوفسطائيين، وفي العصر الأخير من الفلسفة اليونانية التي تفرعت إلى مذاهب شتى، وانتهت آخر الأمر إلى جعل الفكر خادماً مطيعاً للعقيدة ووضع آخر المذاهب الفلسفية في التاريخ القديم وهو فلسفة الأفلاطونية الجديدة.

أقول: إذا سمعنا هذا القول من هذا الفيلسوف فما أيسر أن نقول له: إن كلامك ينطبق على الديانات التي جاءت قبل الإسلام، أما دين الإسلام فهاهو ذا.

وإذا سمعنا هذا العالم يقول يجب أن لا يكون عمل العقل كعمل العنكبوت الذي نسج من لعابه خيوطاً، والنمل الذي يجمع غذاءه من غير ترتيب، بل يجب أن يكون كعمل النحل الذي يستخلص من الزهور مواد يصنع منها العسل، فلنقل له: هذا هو الذي توخيناه في تفسير القرآن المسمى بـ «الجواهر».

ثم أقول: ليعلم الجميع أن التفسير الذي ألفته لم أكتبه إلا بعد إتقان وبحث خاص، واقتناع تام بهذه النظرية التي قدمتها، وليعلم أهل الشرق والغرب أن هذه الفكرة صادفت رواجاً عظيماً، وأشربت القلوب حبها، وسيأخذ المسلمون في القريب العاجل حظهم في هذا الوجود ويدرسون الحقائق، وهذا أمر حتم وصدق، وإذ ذاك يفهم الناس قول الله لأتباع دين الإسلام: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[البقرة: ١٤٣]. انتهت الجوهرة الثانية.

الجوهرة الثالثة

لما كتبت هذا العنوان حضر صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال:

سيدي لقد عجبت من تعبيرك بالجوهرة، مع أن عادة المصنفين أن يعبروا بالأبواب ويجعلون تحت الأبواب فصولاً، ولعلك غلب عليك التعبير بالجوهرة لأنك مغرم دوماً بما يوافق لقبك، وإلا فلماذا نراك تكثر من ذلك والمناسبة ظاهرة وواضحة. فقلت: أيها الأخ، لقد خطر لي هذا في نفسي وأخذت أجيل الفكر فيه منذ أيام، فلاح لي أمر عجب، ما هو هذا الأمر العجب؟ هو الجمال والكمال والبهاء والنور والعرفان هو الحسن والإشراق، هو السعادة العظمى، هو المسرة، هو البهجة. إن هذا العالم إذا نظرنا إليه نظرة سطحية رأيناه عالماً كثير الشرور، عظيم الأحزان والآلام، والوجود والهموم حرب وضرب، وعداوة وحسد ومرض، وموت وفراق، وشدائد وقحط، وزلزلة وخسف، وهلاك أمم واستعباد أخرى، إن ذكرى ذلك تنغص العيش، وتؤلم النفس، وتقلب المسرات آلاماً، والأفراح أتراحاً، والقرآن والكتب السماوية ورد فيها أمثال ذلك، ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

هذه أوصاف الدنيا، ولكن المفكرين من نوع الإنسان الذين اصطفتهم العناية الإلهية لهم نظر آخر، ولهم وجهة غير هذه الوجهة الظاهرة، لهم نور ونعيم، ولقد يخيل إلي أن هذا الفريق مبعثر في الأرض مجهول للناس، يعيشون بينهم وكأنهم من عالم آخر، ينظرون إلى هذه الدنيا نظرة أجمل، وتتجلى لهم بهيئة عروس تجلت في حبر تبهر العقول وتذهل العقلاء، فهؤلاء يرون هذه الدنيا فعلاً جوهرة بهيئة بهجة تسر الناظرين، لا يعبؤون بظواهرها بل قلوبهم ناظرة إلى جمالها، هذا الجمال الباهر، الجمال الساحر، فإذا فكروا في هذه الحيوانات المرسومة سابقاً، وقد حمل كل حيوان وحشي جراءه على ظهره أو أخذ يداعبه ويطعمه ويسقيه، يرون في نفوسهم مسرة لا حد لها، ويرون عناية فائقة، وتتحول أنظارهم عن هذه المظاهر إلى ما تحتها ويقولون: إن الأصل في العالم الرحمة، الأصل فيه الجمال، الأصل فيه الكمال، وينظرون إلى صانع هذا العالم نظرة الحب، نظرة الغرام، نظرة الشوق يحنون إليه، ويشتاقون إلى لقائه، ويودون أن تدوم مسرتهم به، وإني لأحس في نفسي بأن هذه الطائفة التي تعشق هذا الجمال وتفرح به تكون سعادتها حاضرة عندها من الآن، وأمثال هؤلاء أشبه برجل له كنز مدفون هو يعلمه، والناس حوله لا يعلمون، فهو في فرح دائم لأنه يعلم أنه مالك ملكاً عظيماً يورثه سعادة نفيسة بالغنى وبالثروة، ولا يهتم بإبراز ذلك الكنز وظهوره، كذلك هذه الطائفة في هذه الحياة الدنيا حينما يقرؤون أمثال ما نكتبه في هذا التفسير؛ فإنهم يشعرون بعزة وسعادة وجمال مشرق، ولا يستعجلون الجنة، بل يعلمون علماً لا شك فيه أنهم الآن أمام رؤوف رحيم، منعم متفضل، وينسون كل مكروه وكل كرب لما يذوقون في أنفسهم من ذلك الجمال، ويقولون: ما هذه العناية، كيف نرى شموساً تدور محسوبة حساباً متقناً، كل ذلك لإسعادنا، كيف نرى فضاء يظنه الناس خلاء، أي: لا شيء فيه، وهم مخطئون، يقولون: لا سماء فوقنا، وعند التحقيق يكشف لهم العلم الحديث على

مقتضى ما وصل إليه علم النوع الإنساني الآن؛ أن فوقنا كما تقدم طبقات فوقها طبقات على أبعاد تختلف ما بين (٢٥) ميل و(٣٠٠٠) ميل، وهذه الطبقات جعلت لمصالحنا، طبقات مكورة يدفع بعضها الأذى عنا إذا نزل من العوالم البعيدة، ويحفظ بعضها أصواتنا فترجع إلينا في الراديو لمنافعنا. ثم إن نفس هذا الجو عالم قوي متين مع أن ظاهره فراغ لا شيء فيه.

ولقد قال «نتشيه»: إن المليمتر من هذا الفراغ يعادل ثقله لو كان مادة ثقل ألف طن، ومعلوم أن الطن يبلغ نحو ٢٢ قنطاراً، فإذا فكرت في ذلك هذه الطائفة دهشوا من هذا الجمال ومن هذه العناية فهم فرحون بالرحمة الشاملة أولاً، وفرحون ثانياً بأن ما جاءت به الكتب السماوية من ذكر أن السماوات شداد فضلاً عن كونها موجودة، كل ذلك قد كاد يظهر للجمهور بهيئة غير التي تصوروها، وليس معنى قولي هذا أن الطبقات الثلاث التي ذكرناها آنفاً في مسألة الراديو هي سماوات، كلا. وإنّما هذه تدلنا على أن معارف الناس أبعد من أن تصل إلى نهاية هذه الحقائق، وإنّما هذه تدل على جمال وكمال وعزة وعظمة وحكمة لا حد لها، وإذا أضيف ذلك إلى ما أثبتته الحكمة من أن موت الحيوان وأكل بعضه بعضاً وفناء الأعمار؛ كل ذلك مبني على حكمة عادلة كما أفضنا فيه مراراً في هذا التفسير إذ ثبت ثبوتاً لا شك فيه أن الموت نعمة كما أن الحياة نعمة، ولولا الموت ما كانت الحياة، ولو دامت هذه الحياة على الإنسان والحيوان والنبات لكان ذلك خللاً في النظام، وجهلاً بقواعد الرحمة، وخروجاً عن سنن الاعتدال، فلا بد من أن تخلع صوراً وتلبس صوراً أخرى ليستخرج ما كمن فيها من القوى والمعاني ويبرز ذلك للوجود. إذن هنا جمال، هنا كمال، هنا حسن، هنا إشراق.

ما الناس سوى قوم عرفوا وسواهم همج الهمج

فهذا هو الذي تجلى لي أيها الأخ في السبب في تسمية هذه العلوم التي في هذا المقام جواهر.

فإن الجواهر إنّما هي التي تتولد في الصدف الغائص في قاع البحر، وتلك الجواهر أغلى ما في البحار لأن في البحار حيوانات، وفيها مرجان، وهذه الجواهر أجمل من المرجان وأغلى منه وأغلى من جميع ما في البحار، كذلك هذه المعاني التي نبرزها في هذا الكتاب ينبغ بها عقول وعقول، وتصبح تلك العقول مشرقة بهيئة نسبتها إلى بقية العقول في الأرض كسبة الجوهر في صدفة إلى بقية ما في البحار من العوالم البحرية، بل هذه الطائفة في الأرض تشرق عليها هذه العلوم وتتجلى في أفئدتها، وتكون تلك الأفئدة أشبه بالبؤرة.

حينئذ سألني صاحبي قائلاً: ما هي البؤرة؟ فقلت: يا صديقي أنت تعرفها، ألم تدرس في هذا التفسير أن «العدسة» البلورية إذا عرضناها لضوء الشمس وأشرقت عليها وسرت أنوارها في ثنايا تلك البلورية؛ فإن ألوان الشمس السبعة تجتمع وراءها وتكون بيضاء، وذلك في نقطة خاصة وراء العدسة، كما يحصل ذلك في عين الإنسان، فإن الضوء يدخل في عدستيها ويجري وراءها ويرتسم على شبكتيها، وتلك الشبكية في نفس البعد الذي يجتمع فيه أشعة الشمس مثلاً، وهذا هو المسمى «بؤرة»، هكذا هذه العقول الإنسانية الخاصة التي خلقت في هذه الدنيا واصطفاها الله لذلك الجمال تكون مركزاً يحوي جميع ما يصل إليه من الأشعة العلمية في الجو والسحاب والسماء والأرض،

ويكون إشراق أنوار تلك القلوب على مقدار ما وصل إليها من أشعة العلم، وتكون تلك الأشعة في القلوب أشبه بالجوهرة من حيث تلألؤها وجمالها.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: أما الآن فقد ظهر الحق واستبان السبيل، وعرفت لماذا عبرت بالجواهر في أغلب كتبك وفي هذا الكتاب. فقلت: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. والحمد لله رب العالمين. كتب هذا في يوم الاثنين ١٩ محرم سنة ١٣٥٤، و٢٢ أبريل سنة ١٩٣٥ صباحاً.

السعادة بالمحبة والسعادة بإنكار النفس والسعادة باتحاد القلوب وأن ذلك حاصل في نظام الطبيعة

ثم حضر صديقي بعد الظهر في نفس اليوم وقال: لقد خطر لي بعد تمام الموضوع صباحاً أنه في حاجة إلى إكماله وازدياد شرحه، فإني أريد أن نستخرج من هذا القول كيف يسعد الفرد بالمحبة وبإنكار النفس، وكيف يسعد المجموع بتفاني كل فرد من أفراده في خدمة المجموع وحبه والإخلاص له؟.

فقلت: أيها الأخ لقد طلبت مطلباً عزيزاً نفيساً يعز الوصول إليه، ولكني سأجد في البحث عنه والجد والتشمير في استخراجه، وبالله أستعين فأقول:

الله ما أجمل العلم، وما أبهج الحكمة، جمال رائع نراه يبهجنا منظره، ويسرنا مرآه، أفواج من العوالم تعطينا دروساً ونحن عنها غافلون ساهون لاهون، أمهات يحرصن الحرص كله على فلذات أكبادهن من حيوان وحشي وبهائم وإنسان كلهن ينكرن أنفسهن، يجاهدن حفظاً على تلك الذرية، تود إحداهن لو تفتدي ولدها بأعز ما تملك، وببذل روحها، وتنسى كل نعيم وكل بؤس، ومتى سلم ولدها تنفست الصعداء ورفعت طرفها إلى السماء وقالت: رباه لك الحمد، لك الحمد.

وهذه طوائف الحيوان المصورة آنفاً تشهد بذلك. إذ تحمل بعضها صغارها على ظهرها، وبعضها يداعب ولده. وأن من الحيوانات كالعقارب ما تدع أطفالها تعيش على ظهرها وتتغذى بجسمها، وهي فرحة وسعيدة، ولا تمضي أيام حتى تكون قد أسلمت روحها بعد أن صارت أجزاء جسمها غذاء لذريتها، وقد فارقت الحياة مبتسمة راضية فرحة ذات فخار وسعادة وهناء، أليست هذه سعادة؟ أليس عمل الأمهات طاهراً واضحاً والناس عنه غافلون هائمون نائمون؟.

هذا درس أعطاه الله لنا وأبرزه بصورة ظاهرة واضحة يقول لنا، الرحمة الرحمة، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[الأنعام: ٥٤]. وفي الحديث الذي سنذكره قريباً: «إن الله أرحم بعباده من الأم بولدها».

الله أكبر، الله أكبر، نعم نعم إن هذا لا يفهمه إلا درس علوم الكائنات، أما غيره فلا يعرفه إلا بالسماع والتقليد بلا فكر.

إن المفكر العاشق للعلم تدهشه تلك الرحمات التي لا عد لها، أنوار الكواكب والشموس والأقمار الساطعات على الأرض، وبعض هذه الأنوار يختلط بالنبات فيكون سبباً للتفاعل مع العناصر

والماء وإنتاج الثمرات والحبوب والنعم التي لا حصر لها لينتفع بها الإنسان والحيوان، وما هذه الحرارة السارية في الكائنات التي لا يعيش الحيوان بدونها، وبها تكون الرياح، ويرتفع البخار، ويجري السحاب وتكثر الأرزاق، وما هذه الموانع والحواجز في الجو التي بها يسلم الحيوان من الهلاك بمنع سقوط الأمواج القصيرة الآتية لنا من أقاصي السماوات العلى، وكذلك التي تمنع الحركات الصوتية من الذهاب إلى مدى غير محدود فنحرم من الانتفاع بها، ما هذا الكون المنظم الذي يستمد بعضه من بعض؟ .

رحمات لا حد لها، أما رحمة الأم فإنها مقيدة محدودة على مقدار طاقتها. أما رحمات صانع العوالم فإنه قد جعلها في عوالم وراء عوالم، ونظمها كلها وأمد بها الفرد والجماعة، وأصبح كل فرد في حاجة إلى جميع هذه الرحمات، فإذا أحس الطفل بحب أمه لما يعلمه من برها وحبها؛ فإن العالم المفكر العاشق للبحث يحس من هذه العجائب والرحمات بما لا حد له منها، وحينئذ ينمو حبه لصانع العالم على مقدار علمه بتلك الرحمات البهجات، ومتى ازدادت تلك المعارف ورسخت وأحس بها العارف؛ استغرق حب صانع العالم قلبه وشغله عن جميع ما سواه، فنسي الهموم والأحزان، ونسي كل نعيم ما عدا ذلك الحب كما نسيت الأم كل نعيم وكل بؤس إلا صيانة فلذة كبدها، وإن كان هذا التشبيه ليس تاماً من كل وجه، لأن حب الوالدة لولدها حب منشؤه الرحمة، أما حب الحكيم المفكر لصانع العالم فإنه كحب الطفل لأمه، منشؤه إغداق النعم عليه.

عشق الفتيات للفتيان

وفي عشق الفتيات للفتيان ضرب مثل لإنكار الذات، فلقد تواترت الأخبار في زماننا عن شبان كانوا وارثين لعروش آبائهم، ولكنهم تركوا تلك العروش ونبذوا الملك ورضوا باحتقار شعوبهم لهم وذهاب جاههم وسمعتهم بسبب اقترانهم بمن لسن من بيت الملك، والإحساس بالجمال هو الذي جعلهم هائمين في ذلك الحب وأضاعوا ذلك المجد، ولقد تكون الفتاة ذات مجد وعز شامخ، ثم تذر ذلك كله وتعيش حياة بؤس في قفر مع من تحبه، نحن لسنا في مقام استحسان العمل أو استقباحه، إنّما نحن الآن في مقام دراسة هذا العالم لنستنتج منه كيف تكون السعادة، فلم نجدها إلا في نحو الحب وغرام النفوس وولوعها بأمر واحد، فإن ذلك الغرام يحول بينها وبين أحزانها وأتراحها، وتبقى بسبب ذلك في نعيم مقيم ما دامت حية، وجعلنا ذلك ضرب مثل لما نحن فيه، فالأمهات أحبت أولادهن شفقة ورحمة، والعاشقون والعاشقات أغرم كل منهما بالآخر ولوعاً بالجمال، ويتبع ذلك الرحمة والرأفة.

نتيجة ذلك كله أن المفكرين في هذه العوالم تهرع قلوبهم وتحن إلى صانع العالم محبة وغراماً، يذكرهم به طلوع الشمس وغروبها، وبزوغ القمر، وطلوع النجوم وتلألؤها في جو السماء، وهبوب الرياح، وخطرات النسمات، وتمايل الأغصان، وبسمات الأزهار، وطل الندى، وحفيف الأوراق، وخرير الأنهار، وصرير الأبواب، ورنين الحشرات، وتألق البرد، وسقوط المطر، ومنظر النيران، ومنظر البرق، وسماع الرعد، وينسيهم ذلك هموم الحياة وأثقالها، ويقول أحدهم في نفسه: متى أصابني مكروه فإن أزمته سريعة الزوال قريبة التحول، والملتقى قريب، وغداً أو بعد غد ألاقي من أنا في شوق إليه، وقلبي يهفو إليه.

وقد أثبت علماء التربية اليوم في أنحاء الممالك الأوروبية أن المدرس الذي ليس مغرماً بعلمه ودراسته ليس سعيداً، فهو شقي بتلامذته، وتلامذته أشقياء به، فأما إذا صار العلم غراماً عنده وهو به مولع فإنه يكون سعيداً به مسعداً لغيره، إذن حياتنا لا سعادة فيها البتة إلا بأن يكون الإنسان مغرماً بما هو قائم به. والحكماء خاصة ومفكرو الأمم سعادتهم الخاصة بهم عشق العلوم جميعاً، وحب صانعها الناجم من دراسة العوالم، ذلك هو الصراط المستقيم، والله يقول: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، ويقول: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]. فانظر إلى التعبير بالرحمن واعجب، أليس ذكر الرحمن في هذا الآية يرجع إلى جميع ما ذكرناه؟ ألا ترى أن الإنسان إذا غفل عن دراسة العوالم الموجبة لحب صانعها يتخبط في ديجور الظلمات وتحدثه نفسه، وتوسوس له شياطينه، فيقول: ما هذه العوالم المبعثرة المتناثرة؟ وما هذا الموت والمرض؟ وما هذه الحياة؟ وهكذا حتى تصبح حياته كلها آلاماً وأحزاناً وندامة وهو في الأذلين.

سعادة الجمعية الإنسانية واستنتاجها من العوالم الطبيعية

لك الحمد رباه، لك الشكر خالصاً، لقد مننت علينا بالعلم وأورثتنا من الحكمة ما نعرف به الجمال فنستدل به على مقاصد الإنسانية السامية من العدل والإخاء والسعادة العامة.

يا سبحان الله! ألسنا نرى حيوان «الزوفييت» الآتي وصفه قريباً. وكيف كانت أفراده مرصعة جميعها على أغصان متجاورة، فهي في أسلوب معيشتها أشبه بأسلوب معيشة النبات من حيث إن الأوراق مشتركة في أطعمتها وأغذيتها متبادلات المنافع متحابات لا ظلم لا جور لا حسد لا بغض، فهذه الحيوانات كل منها له فم وشوارب حساسة وأعضاء هضم كما ستراه، وكلهن تمد المخزن العام بما لديها من العصارات الغذائية، وهن من جهة أخرى يستمددن الأغذية من ذلك المخزن العام، ولا عتاب ولا حساب ولا قهر ولا ظلم ولا كفران للجميل.

أليس معنى هذا أن الإنسان لن يسعد، ومستحيل أن يسعد ما دام غافلاً عن هذه الجمهورية، جاهلاً بما فيه من القوى الكامنة المدفونة في جبلته التي يعوزها عمل وعلم حتى تظهر وتستخرج كما تستخرج الكهرباء بالأعمال المعروفة في العلوم اليوم بين أمم الأرض أجمعين.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد أجدت وأفدت وعرفت حقيقة لم سميت هذه المقالات بأسماء الجواهر، وأن هذه العوالم تصبح عند الحكماء كالجوهرة في الجمال بعد البحث والتنقيب، وأن عقولهم وقلوبهم مراكز لاستقبال ذلك النور والبهاء الساطعين المشرقين من العوالم المحيطة بهم حتى تصبح مشبهة جمال العوالم من حيث إشراقها وبهاؤها، وأنهم بذلك ينسون كثيراً من هموم الحياة وأسقامها وأنهم ليسوا يهتمون بالنعيم الدنيوي ولا بالشقاء الإنساني، فإن الحب يغطي تلك الرزايا ويغشى على تلك النعم فيصبحون مغمورين في جو من نور العرفان، وأن ذلك يجعلهم هائمين بالحب لصانع العالم وبالحب لأممهم يكونون عوناً لها في رقيها وإسعادها وإغاثتها من الجهالة، ويكونون خلفاء الله في أرضه وينسيهم أنواع الجمال ما يحيق بهم من المكروه كما أنسى الجمال الإلهي الأنبياء ما كان يحل بهم من المكروه، وما كان يصيبهم من البلاء، وهكذا تابعيهم، حتى قال بعضهم يخاطب أصبعه:

ما أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وإذا كنا نرى في الطبيعة الأمهات والعاشقين والعاشقات يبذلن أرواحهن لمن أحبوه؛ فبالأحرى والأحرى يكون أولئك الأنبياء وتابعوهم من العلماء والمفكرين، فهؤلاء يكونون أحرص على هداية الناس وإسعادهم لغرامهم بربهم، وحبهم لخلقه تبع الحب لخالقهم. فهاهنا تجلى معنى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[الزخرف: ٣٦]، ومعنى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. وفهمنا حقاً وصدقاً معنى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

فقال صاحبي: والله لقد تجلى لنا هذا المعنى الآن بأبهج ما رأيناه، وأروع ما سمعناه، فالحمد لله على العلم، والحمد لله على الحكمة، والحمد لله على الهداية للصراط المستقيم. انتهت الجوهرة الثالثة.

فقلت له: إذن آن لنا بعد ما عرفت أيها الأخ سر التعبير بالجوهرة أن نبين أن هذه الجوهرة مرصع معها في الكتاب ماستان وأربع زبرجدات.

أما الماستان فإنهما في معنى لفظ الرحمة وفي آيات واردة فيها.

وأما الزبرجدات فإنها:

أولاً: في نوع من الرحمة خاص بالتربية العامة بالعوالم الأرضية من الحيوان والنبات والجماد، وهذا النوع هو المقتضي للحمد لله رب العالمين، لأن الحمد مبني على الرحمات.

ثانياً: في عجائب بعض الحيوان.

ثالثاً: في المدهشات السماوية من كواكبها ونجومها وسدمها وأبعادها في علم الفلك الحديث.

رابعاً: فيما تبع ذلك من عجائب وبدائع تسر المفكرين. فهاهنا ماستان وأربع زبرجدات.

الماسة الأولى: في لفظ الرحمة واشتقاقها
ومعناها في اللغة العبرانية والآرامية والسريانية والعربية
وفي أحاديث الرحمة

هاهنا أخذ صديقي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال: قد رأيت في تفسير سورة «الفاتحة» أنك تقول: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ أدهشته كلمة الرحمن، وأخذ يحدث نفسه قائلاً: مم اشتقت هذه الكلمة؟ وذلك بعد أن ضرب أخته وخضب وجهها بالدم، وقد رأى أمامه صحيفة فقرأ فيها ذلك، وقالت له أخته: لا يمس هذا إلا المطهرون، الخ.

ثم قرأت قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[الفرقان: ٦٠]. ثم قرأت قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الإسراء: ١١٠].

قال محدثي: فعجبت كيف يكون الرحمن محل إنكار العرب؟ ثم كيف يكون مقروناً باسم الله ولم يذكر اسم غيره، وذلك في أول كل سورة، وفي قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

ثم يقول العلماء: إن الرحمن خاص بالله تعالى، أما الرحيم فيطلق على العبد، ولا جرم أن رحمة الله مسلم أمرها له لا يعلمها إلا هو، وهكذا جميع صفاته، ونحن لا نعرف إلا الآثار، ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾[الروم: ٥٠].

فقلت: إن ما سألت عنه أيها الأخ قد أفادني به شاب مصري قد تعلم في أوروبا علوم فقه اللغات السامية المقارن، وعلم مقارنات الأديان وفلسفتها، وآداب اللغة الإنجليزية، واسمه الأستاذ إبراهيم حسن الموجي، فقال: معلوم أن الرحمن يفيد معنى شدة المبالغة في الرحمة، فقلت: نعم. فقال: إن رحم بالعربية يقابلها «رَاحَمْ» بالعبرية، و«رِحِمْ» بالسريانية، وتجدها في القواميس الإنجليزية السامية بمعنى: أحبَّ.

وفي العبرانية ورد في البيت الأول من المزمور الثامن عشر: «ارْحَمَكَ يِهوْه حِزقى»، وترجمتها في التوراة بالعربية: أحبك يا رَبُّ يا قُوَّتِي.

وفي الإنجيل السرياني نجد: «ارْحَمْ لِخَبْرِكَ أَيْكْ نَفْشَك»، وترجمتها في إنجيل مرقس بالعربية: أحب قريبك كنفسك.

والرحمن بالعبرية: «إِيلْ رخوم»، وترجمتها بالإنجليزية: «الله كامل المحبة». والرحمن أيضاً: «مَرَحْمَتَا» بالسريانية، و«رحمن» بالآرامية. وكلمة «رِحِمْ» العبرانية يقابلها «رَحِمْ» بالعربية. وهذه الكلمة يشتق منها «رَحَمِيمْ» وهو مصدر بمعنى المحبة. أي أن المصدر مشتق من هذا الاسم الجامد في العبرانية، ولفظه «رَحْمِيمْ» المذكورة يقابلها «رَحَمَا» بالآرامية، و«رِحمَتَا» بالسريانية.

و«رِحِمٌ» العبرانية المذكورة التي هي «الرَّحِمُ» العربية قد جاء في القاموس الإنجليزي العبري أنها بمعنى مركز جميع المحبات.

ومما تقدم ومن غيره يلخص أن «رَحِمَ» العربي يقابله «رَاحَمْ» العبري، و«رَحِيمٌ» ممدود الآرامي، و«رِحِمْ» السرياني.

وهذه كلها بمعنى أحب في سائر القواميس الإنجليزية السامية، هذا كلام هذا الشباب المجد. فلما سمعت منه ذلك قلت له: ظهر لي من قولك أنك تريد أن تجعل الرحمن بمعنى كامل المحبة. فقال: نعم، فقلت: لعل الذي جعلك تفعل ذلك إنّما هو مكوثك في إنكلترا زمناً طويلاً، ونجاحك في علوم القوم، وأنك رأيتهم يذكرون المحبة كثيراً ويفتخرون بأنهم يعيشون في جو الجمال والحب، وأن الإسلام ليس كذلك.

فقال: نعم. هذا هو الذي أغواني لهذا المبحث، وقد خطبت في القوم به لأدلهم على أن الإسلام دين الحب.

فقلت: ولماذا جعلت الرحمن للمحبة وأبقيت الرحيم على حاله المعروف؟ فقال: الرحيم كان مستعملاً عند العرب بهذا المعنى وهو إيصال الخير للغير، أما الرحمن فهو كلمة غير مستعملة في العربية نزل بها الوحي فبقيت على معناها الذي جاءت به من اللغات السامية الأخرى.

فقلت: أولاً: إن محبة الله أو رحمته كما تقدم خاصة بعظمته لا يعرفها الناس، وإنّما يعرفون محبتهم هم ورحمتهم الحادثة الناقصة.

وليست المرأة براحمة ولدها أو الحيوان بمحافظ على ولده إلا المحبة مصاحبة لذلك، فهاهنا الرحمة يصحبها المحبة، فكل واحد من المحبة والرحمة يلازم الآخر مع تنزيه الله في الجميع عن صفات العبيد.

وقد جاء في القرآن: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة: ٥٤]. وأما كون الله رحمن الدنيا ورحيم الآخرة كما يقوله بعض المفسرين فهذا تفصيل يفصله كل عالم على مقتضى ما عنده من العلم، ونحن لا نتقيد في معنى الرحمن الرحيم بأي قيد، فالرحمة على كل حال في العباد ملازمة للمحبة.

أما رحمة الله ومحبته فأمران فوق عقولنا لا نعرف إلا آثارهما في العوالم، ودين الإسلام دين الحب العالم، ومن قرأ الآيات التي تحض على النظر في جمال السماوات والأرض التي تبلغ (٧٥٠) آية وهي الدلالة على جمال العوالم كما أثبتناه في هذا التفسير؛ عرف وتحقق أن هذا الدين دين الجمال والبهاء والحسن والإشراق.

وقد أجمع علماء النفس في أمريكا وأوروبا أن الناظر في جمال هذه العوالم يعشقها أولاً، ويعشق ويحب أمته وتشرق نفسه بالجمال. ولذلك يقول القوم في كتبهم: ليس بوطني صادق من لم يمتلئ قلبه بحب جمال الطبيعة، إذن القرآن جاء لإخراج أجيال عاشقة للجمال العام، مغرمة بالعوالم محبة لنوع الإنسان ولخالق نوع الإنسان. إذن لسنا في حاجة إلى الاستنتاج من اللغات السامية كالعبرية والسريانية، والآرامية، كلا فالقرآن هو المصدر العام لعالم الجمال وللحب وللبهجة، والكمال.

فلما سمع ذلك محدثي قال: والله بديع وجميل هذا المقام، فلقد احترست كل الاحتراس في قولك ولم ترض بتقييد القرآن بتلك المعاني واستخرجتها من نفس القرآن بهيئة أوسع وأجمل من الاشتقاق من الصفات.

أحاديث الرحمة

وأخذ محدثي يسامرني فقال: إن هذا القرآن مملوء بالجمال الإلهي والحب الإنساني، ولقد ذكرني هذا بقوله صلى الله عليه وسلم وقد أجلس أسامة بن زيد على فخذه والحسن على فخذه الأخرى ثم ضمهما وقال: «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما».

فظاهر من هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تختص رحمته ولا حبه بأبنائه كلا، هو لا يفرق بين أبنائه وأبناء غيره من العرب وغير العرب كأسامة. هذه رحمة ومحبة عامة نبوية، والله رحمته عامة، فرسوله رحمته عامة، وعلينا أن نقتدي بنبينا صلى الله عليه وسلم فتكون رحمتنا عامة.

فقلت لسميري: لقد أحسنت الاستنتاج فزدنا، فقال: ورد في الحديث: «أنا الرحمن وأنت الرحم، شققت اسمك من اسمي، فمن وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته». وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها

عن ولدها خشية أن تصيبه ». وفي حديث عائشة رضي الله عنها: « جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: تقبلون الصبيان فما نقبلهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أوَأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ».

وفي حديث عمر: « قال: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا. وهي تقدر ألا تطرح. فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها ».

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « لما خلق الله الخلق كتب في كتابه. هو يكتب على نفسه وهو وضع عنده في العرش: إن رحمتي تغلب غضبي ». وفي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « قام أعرابي فقال: اللهم ارحمني وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال: لقد حجرت واسعاً ».

فلما قال سميري ذلك سرني، ولم أشأ أن أبحث معه في أسانيد الأحاديث، لأن لها شواهد من القرآن والسنة، وهذا التفسير يصح أن يكون ما فيه تفسيراً لمعنى هذه الأحاديث من حيث شمول الرحمة جميع المخلوقات، فشكرت سميري شكراً كثيراً لما جاء به من النقل المنطبق على العلم وعلى العقل، وفي بهاء الله وجماله وحسن إبداعه، فتبارك الله أحسن الخالقين.

هاهنا سألني صديقي قائلاً: أرجو أن أسمع بعض آيات مفصلات لمعنى الرحمن الرحيم من آيات القرآن التي نزلت نموذجاً وتذكرة للرحمات العامة في العوالم كلها، انتهت الماسة الأولى.

الماسة الثانية

في بعض الآيات المفصلات لمعنى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

من آيات القرآن التي نزلت نموذجاً وتذكرة للرحمات العامة في العوالم كلها

عجائب ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

وكيف سرت الرحمات في العوالم سريان الكهرباء في الأجسام، وظهر آثار ذلك في القرآن بالإفصاح عن ذلك الجمال والبهاء.

رباه، بهر صنعك، وجمل وضعك، وحسن الإبداع في عوالمنا الأرضية والسماوية، عمت الرحمة وظهرت آثارها، فخفيت على أكثر نوع الإنسان، إن من شدة الظهور الخفاء، يعيش الإنسان دهراً ويموت ولا يخطر بباله نعمة الهواء ولا الشمس ولا القمر ولا النجوم، لا يحس بذلك أكثر نوع الإنسان.

سبحانك يا الله! عممت الرحمة، ومنحت النعمة، ولكنك حجبت أكثر النفوس عن إدراكها والتمتع بجمالها، شمس تضيء، وقمر ينير، ونجوم تسير، ورياح تموج، وسحب ماطرات، وزروع نضرات، وأشجار بهجات حول أنهار جاريات، وجبال شامخات، ومعادن جميلات، كل ذلك مكشوف منظور، ولكن أكثر الناس لا يحسون ما فيها من سعادة، ولا يبهرهم ما بها من جمال.

حتى إن الدين المنتشر في كثير من بقاع الأرض وهو النصرانية ؛ زاد الحجب على الرحمة حجاباً فلم يبدأ بها كما في القرآن، بل قال: بسم الأب والابن والروح القدس إله واحد، رموز لا تحل، وكلمات يقف العقل أمامها مبهوتاً لا يدري ما المقصود منها، أجيال تموت، وأخرى تتبعها، وكلهم في حل هذه المعميات ذاهل عما في العوالم من البهجات الرائعات، والعجائب البديعات.

أما القرآن فإنه يفجأ المسلم بالنعمة والرحمة في أول آية منه، فينطلق بالبسملة عند كل صلاة، وفي خلال الركعات، وعند الأكل والشرب، وسائر الأعمال الإنسانية، ويذكر الإنسان اسم ربه ويتذكر رحمته.

الرحمات في آي القرآن ساريات كما سرين في الكائنات

يقول تعالى:

(١) ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[غافر: ٧].

(٢) ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الروم: ٥٠].

(٣) ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾[الملك: ١-٣]. فهاهو ذا سبحانه ذكر الملك كله الذي بيده، وذكر عموم قدرته، وأخذ يشرح تقلب العوالم وأحوال ذوي الأرواح من موت وحياة، وهكذا أطباق العوالم العلوية، ثم أتبع ذلك كله بذكر الرحمة التي بها صقل الله ذلك كله، فإذا كان الرحيم واحداً فلتكن العوالم سارية على ناموس رحماني واحد، فلا يكون هناك تفاوت في نظام الوجود، بل يكون التناسق والتناسب والبهجة والجمال.

(٤) ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[الأنبياء: ١١٢]. ذكر الرحمة هنا لاستعانة ذوي النفوس الصادقة بربها ليدفع عنها ضرر أعدائها.

(٥) ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[الملك: ٢٩]. فكما سرت الرحمة في جميع الكائنات أحس بها المؤمنون في نفوسهم، فتوكلوا عليه لشمول رحمته الأجسام والأرواح.

(٦) ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ ﴾[الأعراف: ١٥٦]، وبعدها آية: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾[الأعراف: ١٥٦]، وهذه هي الرحمة التي تخص النفوس صافية.

(٧) الذين أدركوا معنى: ﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾[المؤمنون: ١١٨].

(٨) بخلاف أولئك الذين غفلوا عنها فقيل فيهم: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾[الزخرف: ٣٦].

(٩) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ ﴾[الروم: ٢١].

فالمودة والرحمة بين الذكور والإناث من أعجب الرحمات وأبهر الآيات.

فبينما نسمع الله يقول في سورة « القصص » : إنه لم يجعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة ، ولم يجعل النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، بل إنه برحمته جعل ليلاً وجعل نهاراً ، ليتم المعاش ، ويسعد الحيوان والإنسان ، وتكون النعمة على كل مخلوق في العوالم ، وتطمئن المخلوقات في الأرض .

فيقول : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[القصص : ٧١-٧٣] .

أقول : بينما نراه يقول ذلك ويقص علينا نبأ رحماته العامات في عوالمنا الأرضية بالظلمات والأضواء وعموم رحماته بتناوبها ، إذا به يقص علينا نبأ رحماته في نفس أرواحنا ، فيقول في الآية قبلها نمرة (٩) : إن الرجل يسكن إلى المرأة بالرحمة المودعة في قلبيهما كما يسكن الرجل وتسكن المرأة في الليل ويطلبان المعاش في النهار . ثم يختم الآية بالشكر . فيا ليت شعري أي شكر على نعمة لم يدرسها نوع الإنسان؟ وأي نعمة يجهلها أكثر نوع الإنسان أكثر من نعمة الليل والنهار والشمس والقمر وجميع العوالم التي تخدم الإنسان وهو غافل عنها ، لعمري لا شكر إلا حيث يكون العلم بالنعم ، ولا علم إلا بالدراسة ، وبها يفهم المسلمون معنى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ .

(١١) إن أسرار بسم الله الرحمن لا يحصيها عد ولا يوقف لها على حد ، فوالله لو أني أمسكت بهذا القلم وكان لي عمران أو ألف عمر كعمري لم أقدر أن أفي بمعنى بسم الله الرحمن ، الله أكبر ، فلتقرأ أيها الذكي المفكر سورة « الشعراء » فماذا ترى؟ ترى الله يقول فيها :

(أ) ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾[الشعراء : ٥] ، وهذه رحمة موجهة إلى النفوس الإنسانية ، وهي رحمات العلم والحكمة . ثم أعقب ذلك بذكر بعض الرحمات فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء : ٧-٨] .

(ب) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الشعراء : ٩] . فهاهو ذا هنا ذكر الرحمة بعد أن ذكر نبات الأرض ، وأنه ذكران وإناث ، وبينهما تناسل كتناسل الحيوان والإنسان ، وأن الرحمة سارية عامة في ذلك ، وأتبع ذلك بقصة موسى وفرعون وما تخللها من نعمة الرسالة التي أنعم الله بها على موسى ، فذكر أن الله رب العالمين ، وأنه رب السماوات والأرض ، ورب النوع الإنساني جيلاً بعد جيل ، ورب المشرق والمغرب ، وأتبع ذلك بنصر حق النبوة على باطل السحر ، وبصبر السحرة على ما خوفوا به من تقطيع الأيدي والأرجل ، والقتل بالصلب ، ثم نجاة موسى وهلاك فرعون ، وختم ذلك كله بالرحمة السارية في جميع ذلك فقال :

(ج) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الشعراء : ٩] ، وفعل مثل ذلك في قصص إبراهيم إذ نبذ الأصنام وقرع القوم على عبادتها ، وذكر نعم الله بالهداية والإنعام بالطعام والشراب والشفاء من

الأسقام وعروج الأرواح من الأجسام لتنجو من شرور عوالم المادة، وكذلك الحياة التي بها التزود لعالم الأرواح وغفران الخطايا، وختم ذلك كله بالرحمة فقال:

(د) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الشعراء: ٩]، وفعل مثل ذلك بقصة نوح بعد أن حاج قومه وأراهم أنه لا يطرد الذين آمنوا بل يكفلهم، وختم ذلك كله بذكر الرحمة الإلهية والعزة الربانية.

(هـ) ثم هكذا قصة عاد بعدها وما تخللها من أنباء المؤمنين الناجين والكافرين الهالكين، وختمت بالعزة والرحمة.

(و) ثم قصة ثمود وكيف عقر القوم الناقة وعصوا ربهم فهلكوا، وختم ذلك بالعزة والرحمة.

(ز) ثم قوم لوط وما كانوا يفعلون من الفواحش وهلاكهم وعناية الله بالمؤمنين. وختم ذلك بعزة الله التي بها أهلك الكافرين ورحمته التي بها نجى المتقين.

(ح) وهكذا شعيب لما أرسل إلى أصحاب الأيكة، وكانوا يفسدون في الأرض، ويخسرون المكيال، ويبخسون الناس أشياءهم فهلكوا، ونجى المؤمنون، وتمت الرحمة والنعمة لهم.

(ط) وختم السورة بخطاب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأن ينذر عشيرته الأقربين، وأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأن يتبرأ من الذين يعصونه، ويتوكل على العزيز الرحيم، فهو بعزته يدفع عنه شر الأعداء وبرحمته يتولاه، وهذا قوله:

(ي) ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[الشعراء: ٢١٧]، فهذه السورة ذكرت فيها الرحمات عشر مرات تتخلل قصص الأمم القديمة السابقة على النبوة وتستمر في أمة الإسلام وتتخلل أمورها وأحوالها.

عجب يا ربنا! سرت رحمتك في العوالم سريان الكهرباء، وأنزلت كتابك وأخذت تفصل الرحمات فيه تفصيلاً تبعاً لوجودها في العوالم والأمم، فإن ذكرت الشمس والقمر ذكرت الرحمات معهما، أو ذكرت الليل والنهار أردفتهما بالرحمة، أو الذكر والأنثى ذكرت الرحمة معهما والأمم والأجيال قرنتها بالرحمة.

رباه رحمة وعزة سرتا في جميع العوالم وذكرتا في سورة «الفاتحة»، فأنت رب العالمين، رحمن رحيم، مالك الأمر كله، فالعزة والرحمة ساريتان في هذا الوجود كما سرى الليل والنهار والموت والحياة والذل والعز والزوجان من كل ذي روح.

سورة الرحمن

وإن أعجب سور القرآن من حيث الرحمات وتفصيلها سورة «الرحمن»، الله أكبر، إن ابتداء القرآن بالبسملة سر الأسرار وبهجة الأنوار، فقد جعل للرحمة سورة خاصة بها، وهي سورة «الرحمن» التي ابتدأها:

(١) بقصة العلم والحكمة والإرشاد والهداية، بماذا؟ هذا كله بالقرآن.

(٢) وثنى بذكر خلق الإنسان.

(٣) وثلث بأنه علمه البيان.

(٤) ثم شرع يقص علينا ما بينه الإنسان بسبب العلم، فأخذ يقص علينا قصص الشمس والقمر وحسابهما البديع الجميل الذي لا يتم إلا بعلم الحساب والجبر والهندسة والفلك.

(٥) ويذكر كل ما لا ساق له من النبات كالقمح والشعير والذرة والأرز، وكل ما لـه سـاق من الأشجار في الحدائق الغناء كـالنخيل والأعنـاب والتفـاح والرمـان وسـائر ذوات الفواكـه مـن الأشـجار فيقول: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾[الرحمـن: ٦]، ولا جـرم أن هـذه رحمـات واسـعات، كيـف لا؟ شمس وقمر وحساب لهما، ثم تكون نتائج ذلك الحساب زروع وأشجار يسعد بها الإنسان والحيوان، ولولا ذلـك الحساب الدقيـق والصنـع الجميـل لـم يكـن فاكهـة ولا أب للإنسـان وللحيـوان، هـذه هـي الرحمة وهذه هي الرأفة التي تجلت في العوالم والنـاس عنـها غـافلون، وبرزت بأبهر جمـال في سـورة « الرحمن » التي جعلت كأنه تفصيل لما أكمل في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في أول « الفاتحة »، الله واحد رحمن، ورحمته بها فصلت هذه العوالم تفصيلاً.

(٦) ويذكر السماوات ورفعها وإبداع نظامها، وأن ذلك نموذج لنظامنـا في أرضنـا، سـواء أكـان ذلك في أعمالنا الجزئية أم في أحوال أممنا السياسية.

(٧) ويذكر أنه خلق الإنسان من طين محرق إذا نقر صوّت كما خلق الجان من مارج مـن نـار. فالإنسان مركب من مادة أرضية ممتزجة بالقوة الغضبية التي بها تحافظ على حياتها وبقائها في الحياة كما يحفظ الطين باليبوسة الحاصلة له من الحرارة التي توقد عليه فيطول بقاؤه، ولا جرم أن هذه رحمة لولاها لم يعش حيوان ولا نبات ولا إنسان، فاليبوسة إذا لم تكن لهذه الأجسام لزالت من الوجود.

(٨) وختم ذلك بخطاب الإنسان والجن مذكراً لهما بهذه النعم التي هم غافلون عنها حتى كأنهم يكذبونها ويستحقون التقريع والتوبيخ عليها فقال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الرحمن: ٧٧].

(٩) ثم أتبع ذلك بذكر المشرق والمغرب من حيث النهار والليل وتناوبهما.

(١٠) ويذكر نعم البحار الملحة والحلوة وتجاورها فلا يختلط الحلو بالملح، وهذه من أجلّ النعم والسعادات للإنسان.

(١١) وذكر أنه لم يقف في رحماته عند حد الضروريات أو الحاجيات. كلا، بل أخذ ينعم على الناس بما هو زينة وبهجة تسر الناظرين، وتكون حلية لإتمام السعادة علـى نـوع الإنسـان، فذكـر اللؤلـؤ والمرجان الناجمين من حيوانات بحرية، فيكون الصدف والدر من بعضها، والمرجان من البعض الآخر وهذا المرجان ناجم من حيوانات دقيقة على هيئة أمم متحدة مشتركة مؤتلفة متآخية، حتـى تـرى كأنـها تكون شـجرة واحـدة ذات فـروع وأغصـان وأزهـار جميلـة، ومـا هـي بأزهـار، إن هـي إلا أنفس تلـك الحيوانات الحية المتصلة ببعضها اتصالاً مدهشاً عجز عن مثله الإنسان في هذه الحياة، فضلّ في سياسته، ولم يهتد لوحدة نظامها، ولا بهجة إتقانها، فأنتج جزائر وجزائر في البحار ولا سيما في المحيط الـهادي، فكم من جزيرة ازدانت بالأشجار العظيمة وعاش فيها الحيوان والإنسان، والفضل في بناء تلك الجزائـر التي تعد بالآلاف لذلك الحيوان الدقيق العجيب الجميل الذي أعجز الإنسان من جـهتين: جهـة النظـام السياسي الاجتماعي، وجهة المقدرة على إحداث جزائر يعيـش فيـها الحيـوان والإنسـان، وتكـون فيـها

الجنات والنخيل والأعناب من كل زوج بهيج. سبحانك اللهم ابتدأت كتابك بذكر أنك رحمن رحيم ولم تكلنا إلى عقولنا، بل أخذت تفصل تلك الرحمات في نفس القرآن وقلت: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٩]، ومن بيان القرآن بيان هذه الرحمات بطريقين: طريق القرآن كما ذكرناه هنا. وطريق العلوم، كيف لا؟.

أليست العلوم هي التي بها أمكننا أن نشرح الدر والمرجان ذلك الدر البديع الجميل البهيج الذي يتربى في البحار؟ وذلك المرجان المشروح بالصور الشمسية في كتاب «الجواهر»، وهو الأصل لهذا الملحق، أليس هذا كله من بيان الله لنا؟. بين الله لنا الرحمات بالقرآن، وبينها لنا بالعلوم: الله أكبر، يا رباه آمنا وعرفنا وعلمنا أنك الآن ابتدأت تبين للناس رحماتك في سماواتك وأرضك بالعلوم. إن علوم الشرق وعلوم الغرب كلها تبيان للقرآن، تبيان للرحمة الشاملة التامة في عوالمنا السماوية والأرضية.

(١٢) وذكر السفن الجاريات في الأقيانوسات بين الشرق والغرب، بين أمريكا وآسيا، وأفريقيا وأوروبا، وأستراليا في بحر الهند، وبحر الظلمات، وبحر البلطيق، والبحر الأسود، والبحر الأحمر، والبحر الأبيض، والبحر الهادي، والأنهار كالنيل والفرات، وختم ذلك بتقريع الإنسان والحيوان على الغفلة عن ذلك الإنعام بهذه الرحمات.

(١٣) ثم ذكر ما يخص ذوي الأرواح كالإنسان والحيوان، وأنهم يسألون حاجاتهم الخاصة، وهو بهم رؤوف رحيم، فكيف يغفلون عن نعمة وهو لا يغفل عما دق من أمورهم، كما هو محيط بما عظم من أعمال العوالم، فالصغير والكبير عنده عميان، فالفرد الواحد من إنسان أو حيوان شأنه شأن العوالم كلها من حيث الرحمة والرأفة والإنعام.

(١٤) ثم ذكر أن نتائج أعمال الناس موزونة بميزان، وأن هذا العدل منحة على وزان، ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الرحمن: ٧]، فالميزان في سير الشمس والقمر يسري نظيره على أعمال سائر الناس، فهي موزونة كما وزن سير الشموس والأقمار، وهذا قوله: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾[الرحمن: ٣١] وعدّها من النعم، بل نقول: إنها من أجلّ أنواع الإنعام.

(١٥) ثم أفاد أن الناس في الأرض ما داموا فيها لا يستطيعون عنها حولاً، فلا يصعدون إلى الكواكب العليا، ولا يمكنون من ذلك، وإذا حاولوا ذلك بالطيران أزعجوا واحترقت طياراتهم، لأنهم لو عرفوا العوالم العلوية لشغلهم جمالها عن كمال أنفسهم في الأرض، وهذا الكمال لا يتم إلا بالسراء والضراء وأنواع النعم والشرور، وكل ذلك يقوم النفوس فتستعد للعروج وتعطى قوة بذلك. وهذا قوله: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[الرحمن: ٣٣-٣٦]. إذن حبسكم أيها الناس في الأرض نعمة لكم، كما يبقى التلميذ في المدرسة، فإذا أتم التعليم أعطي الحرية في عمله الذي استعد له في المدرسة.

(١٦) ثم أتبع ذلك بذكر خراب العالم المادي الحاضر وإبراز عوالم أخرى ليرتقي الناس ارتقاء مناسباً لأعمالهم في هذه الحياة الدنيا، ويوضع كل امرئ في مرتبته الخاصة به، ويكون المتقون في جنات والكافرون في جحيم، على مقتضى الميزان الذي وزنت به عوالم السماوات والأرض.

(١٧) وهاهنا ذكر المقام الأمين للمتقين في الجنات، والأشجار وأفنانها، والعيون الجاريات تحتها، والفواكه فيها وتفننها، ثم الفرش ذات البطائن من الاستبرق، ودنو الفواكه من أهل الجنة.

(١٨) وذكر الحور العين اللواتي لا تحب غير أزواجهن من أهل الجنة وهن أبكار، وذكر العيون الجاريات، وهكذا من الأوصاف الجميلة البهجة، وختم السورة بقوله: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾[الرحمن: ٧٨]، إذ كرم عباده بمجامع الرحمات في العوالم العلوية والسفلية، وأغدقها عليهم في الدنيا والآخرة، وجعل النظام متقناً موزوناً حتى تستقر النفوس وتسعد بما ترى من العدل والإحسان في هذا الوجود، وأن كل امرئ يوضع في مرتبته الخاصة به بحساب دقيق كحساب الليل والنهار بالدقائق والثواني، فحديث الجنة والنار، والحور العين، والنيران المتأججة، لم يخرج عن حديث كون الشمس والقمر بحسبان.

والنفوس الإنسانية مخلوقة على مقتضى هذا الحساب، فهي تفرح بالعدل والميزان، وتجزع من عدمهما، فإذا رأت القاتل حكم عليه بالقتل سرّت، لأنها تفرح بالميزان والعدل والصدق، وإذا رأت المجرم أفلت من العقاب انقبضت وحزنت وزايلها السرور، لأنها مخلوقة من آثار نور الله، والله على عدل لا يضع إلا الجمال، وهل يتم الجمال إلا بالعدل والحساب والنظام التام.

فقصة الجنة والنار التي يقرؤها المسلم لم تخرج عن قضية الليل والنهار وحسابهما، وسيكشف للناس بعد الموت عن أسرار هذه الأمور ويطلعون على العدل، فهناك يحسون بلذات لا حد لها من تلك الموازين، ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾[الأنبياء: ٤٧]. الله أكبر، إذن حساب النفوس كحساب الدقائق والثواني في علم الفلك وسير الشمس والقمر.

إذن هناك جمال وجمال. رباه أدهشنا صنعك، رباه قرأنا علم الفلك واستخدمنا فيه الحساب والهندسة والجبر، وحارت عقولنا والله في حسابك، وأبهجها إبداعك فيها، وأنك لم تجعل في حسابها خطأ ما. ورأيناك أشرت لهذا كله بقولك في أول سورة «الرحمن»: ﴿ وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴾[الآيتان: ٧-٨]، فبذلك حذرتنا من الضلال في وزن أعمالنا، وأن نزنها كما وزنت أنت حركات الكواكب، فإذا أخللنا بموازين أعمالنا أخذت تظهر العدل في جزائنا بحساب دقيق، عبرت عن نتائجه بالجنات، وحورها وقصورها، وأشجارها وأنهارها، وبالنيران وسعيرها، وحرها وإحراقها وكأنك تقول: إن لنفوسكم من الحساب ما هو دقيق دقة الحساب الذي شاهدتموه في عوالم السماوات والأرض.

إن رحمتك مقرونة بعلمك، رحمة واسعة، وعلم واسع، ورحمة بلا علم ضرها أكثر من نفعها، فالرحمات بحسب العلم فتكون سعادات.

إن الميزان المنصوب في السماوات والأرض يزن الضدين: ما نسميه خيراً، وما نسميه شراً، وبعبارة أخرى: محبوبنا ومكروهنا، بميزاننا نحن الذي نسميه بالحواس الخمس، وهو الميزان الضعيف لذلك كان ميزان الله مسلط علينا يزن لنا المحبوب والمكروه، وبانتظامهما يكون رقينا. ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[الأنبياء: ٣٥].

أول سورة النحل تفصيل لما أجمل في سورة الرحمن

حضر صاحبي العلامة الذى اعتاد محادثتي في التفسير الذي سميته من الآن «الأصل» وفي ملحقه فقال: إن هذا المقام جميل جد جميل، لقد فتح لنا باباً واسعاً من العلم، وأوضح لنا كلام أمير المؤمنين سيدنا عليّ كرم الله وجهه إذ يقول: لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً في تفسير ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، وهذا القول يدل على نفوس عالية أشرقت عليها الشمس المحمدية، وهذا عجب عجاب، فهاهو ذا العالم من سماوات وأرضين مشمول بالرحمات، وهاهي ذه آيات القرآن، وسورة «الرحمن» وسورة «الشعراء»، وكيف تخللها ذكر الرحمات كما تخللت نظام هذه المخلوقات. ولكني الآن أريد أن أسمع منك آيات مفصلات لما أجمل من الرحمات في أول سورة «الرحمن»، ولكني أريد معاني الآيات لا لفظها بحيث تكون المعاني كفرائد في سمط الآيات، ثم إنك قلت فيما تقدم: هنا ما يشير إلى أن علوم الأمم تبيان للقرآن، إذن دين الإسلام اليوم على هذا يبتلع جميع العلوم ولا حرج.

فقلت: يا سيدي أما الآيات التي أردتها فهي المذكورات في أول سورة «النحل»، وأما ما ذكر من أن علوم الأمم في عصرنا تبيان لمعاني القرآن فذلك حق، وسأفصل القول تفصيلاً في ذلك، ناقلاً عن أمهات الكتب الفرنجية ما يفيد معنى الآيات في أول سورة «الرحمن» وأول سورة «النحل» تبياناً لآية: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ومعنى: الحمد لله رب العالمين، فإن من الرحمة العامة تربية العوالم، فلذلك أعقب الله الرحمة في البسملة بأنه يستحق الحمد لتربية العالمين، وأعقب ذلك بذكر الرحمة ثانياً للإشارة إلى أن هذه التربية ناشئة من الرحمة.

ففي هذا المقام مبحثان: في آيات النحل، وفي التربية العامة لهذه العوالم التي تحيط بالإنسان.

المبحث الأول: في آيات أول سورة النحل

لقد ابتدأ الله سورة «النحل» باقتراب يوم القيامة، وبأنه تعالى عن أن يكون له شريك، وأنه يوحي إلى الأنبياء أن ينذروا الناس ويعرفوهم توحيد ربهم، وذكر لذلك من الدلائل مثل:

(١) أنه خلق السماوات والأرض، وجعل نظامهما نظاماً واحداً متقناً، فكيف يكون له شريك والعمل منظم؟ فيه معنى الوحدة فكثرة العوالم راجعة للوحدة العلمية العملية.

(٢) ومن تلك الوحدة وحدة الجسم الإنساني، ذلك المخلوق من نطفة أخلاط كثيرة جمعت وصورت وجعلت مزاجاً واحداً ذا عقل واحد، وعواطف خاصة، وحواس كثيرة ترجع في أمرها إلى مدبر واحد تصدر عنه جميع الأعمال، إذن الذي دبر هذا الجسم واحد، لأن نتيجة أعماله الكثيرة فيه واحدة، فالكثرة فيه ترجع إلى الوحدة التي تنزلت من المدبر لهذا الجسم.

(٣) وإذا كانت الأنعام ذوات صوف ووبر وشعر، بها دفؤنا، ولحم ولبن به غذاؤنا من جبن وزبدة.

(٤) وبها جمال لنا في الغداة والعشي.

(٥) وعليها نحمل أثقالنا وأجسامنا إلى البلاد البعيدة.

(٦) وهكذا الخيل والبغال والحمير نركبها ونتخذها زينة لنا، وقد سخر لنا نظائرها من العوالم المحيطة بنا من الطيارات والسيارات والقطرات والجاريات على قضبان الحديد فوق اليابسة، كل هذه مما سخره الله لنا مما لم نكن لنعلمه قبل هذا الزمان.

(٧) فهذه كلها مع كثرتها قد رجعت إلى الوحدة، فهاهي ذي الأنعام من الإبل والبقر والغنم، وهكذا الخيل وما عطف عليها قد رجعت جميعها إلى مركز واحد وهو الإنسان، فهاهي ذه الكثرة قد رجعت إلى الوحدة، ذلك أن الخالق واحد، وإلا من أين جاءتنا هذه الوحدة، وكيف رجعت أنواع الحيوان إلى نوع الإنسان فاتخذها له.

(٨) ولم تقف الوحدة عند هذا الحد، بل نرى الماء ينزل من السماء فيشرب منه شجرنا وزرعنا وحيواننا ونوع الإنسان. فالماء واحد اختلف شاربوه، ثم اتحدوا عند النهاية في خدمة الإنسان، فالماء وما ينتفع به من نبات وحيوان مرجعها إلى الإنسان، فالماء وحدة تجمع النبات والحيوان والإنسان، ولهن وحدة عند اتصالهن بالإنسان.

(٩) وإذا اختلف الزرع كالقمح والفول والشعير والذرة، والشجر كالنخيل والأعناب وجميع الأشجار المثمرات؛ فإنها اتحدت في أنها منافع للإنسان.

(١٠) وإذا كان الماء يعم النبات والحيوان والإنسان في تنميتها وإصلاحها، فإن الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم غاديات رائحات لتربية هذه المواليد الثلاثة، ولإرسال الحرارة لتثير الرياح اللاتي يحملن السحاب في جو السماء فيكون ماء تحيا به هذه المواليد الراجعات في آخر أمرها للإنسان فهذه دوائر بعضها فوق بعض مركزها كلها هذا الإنسان.

(١١) وهاهنا بيان اختلاف الألوان والأشكال في أنواع النبات.

(١٢) وتسخير البحار الملحة التي نستخرج منها السمك ونصيده، والدر البهيج حلية للغادات الحسان من نوع الإنسان.

(١٣) وعلى سطحه تسير السفن تجري شرقاً وغرباً ليبتغي الناس من فضل ربهم بأنواع التجارة والربح وكسب المعاش.

(١٤) ومن البحر يعلو البخار إلى الجو فينعقد سحاباً وتصده جبال فيمطر ماء على اليابسة، فالجبال تصد الرياح فيكون حياة للمواليد الثلاثة، ونفس الجبال مخازن للماء وفوقها الثلج يمد البحار والعيون بالماء على طول الزمان. المطر ينزل على الجبال ويجمد فوقها ثم يمد الأنهار فيسقي كل نبات وكل حيوان.

(١٥) وإذا كانت حرارة الشمس هي التي تثير الرياح فيكون السحاب ويكون المطر، فإن النجوم بها هداية السفن في البحار، إذن الأجرام السماوية انتهى الأمر فيها إلى عالم الإنسان من حيث إنه

مركز الدائرة، فمهما كان في العوالم الأرضية من نعمة أرضية أو سماوية فنهاية ذلك راجع للإنسان وإن كان نفعه عاماً لسائر الأنواع.

(١٦) ولما انتهى الأمر إلى العوالم العلوية هناك وقف العقل الإنساني عن دوام التفكير، وعجز عن أن يفهم ما وراء ذلك من العوالم البديعة، لذلك ختم المقام بأن نعم الله لا يحصيها عد، وليس لها من حد.

فهذه الآيات مفصلات للآيات في أول سورة «الرحمن» من ذكر الشمس والقمر والنجوم، وذكر الأرض والفاكهة والنخل والحب والعصف والريحان، فهذا كله قد فصل في أول سورة «النحل» وقد ذكرناه.

روضات الجنات في بعض هذه الآيات وما أشبهها من آيات القرآن

وهي ثلاث روضات

الروضة الأولى

في حركات النبات وحفظ البذور وما أشبه ذلك من الكمال والجمال والبهاء

قال صاحبي الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير: إن هذه الآيات وإن حوت في أصل الجواهر في تفسير القرآن حكماً وكمالاً وجمالاً؛ فليس بمانع هذا من أن نتمتع هنا بروضات جنات تلك العلوم، وجمال هذه الآيات مثل:

(١) ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾[الروم: ٥٠]. وقوله:

(٢) ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾[الأعلى: ٣-٤] إلى آخره.

(٣) ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾[الروم: ٤٦].

(٤) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾[الحج: ٦٣].

(٥) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾[فاطر: ٢٧].

(٦) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[النحل: ١٠-١٤].

ولا جرم أن الآيات القرآنية مظاهر لأسماء الله الحسنى، وأسماء الله الحسنى مظاهر لصفات الله. فقلت: حباً وكرامة، في هذه الآيات من أسماء الله تعالى: الرحمن، الرحيم، واللطيف، والخبير، فهذه الأسماء الأربعة مقرونة بإحياء الأرض بعد موتها بالنبات، والنبات لا ينمو إلا بالماء النازل من السحاب، والسحاب لا بد له من الرياح الحاملات له لتبشر أهل الأرض برحمة ربهم، وما أجمل قوله تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾[الروم: ٤٦].

نعم . هذه بعض رحمته تعالى في العوالم الأرضية ، والرحمة مصدر يشتق منها الرحمن الرحيم ولن تتم الرحمة إلا بوضعها في موضعها ، ولن يتم التمتع بها إلا باللطف في وضعها .

الله أكبر ، سبحانك يا الله ، سبحانك ، أدرت الشمس في أقطار السماوات ، ثم أدرت الأرض حولها ، وسرى من الشمس الضوء إلى الأرض ومعه الحرارة ، وهذه الحرارة حركت الهواء فصار رياحاً ، والرياح حملت السحاب ، والسحاب نزلت قطراته بلطف على الأرض . فلم ينزل مرة واحدة لئلا يهلكوا ، وصرفت عنهم الصواعق ، وأثرت الكهرباء الموجبة والسالبة التي في الهواء وفي الأرض .

إن هذا يا رب منك لطف ، بهذا يا رب فهمنا معنى قولك : « لطيف » ، وهذا اللطف لا يكون إلا إذا كانت هناك خبرة وعلم ببواطن الأمور ، والطبيب الذي لا يعرف موضع الداء يجهل التلطف بالمريض فلا يتم علاجه ، والأستاذ الذي يجهل طبائع تلميذه لا يتسنى له أن يعطيه ما يناسبه من العلم حتى ينتفع به .

الله أكبر ، إنك يا رب لطيف بنا ، ولطفك مصحوب بعلمك ببواطن الأمور والأحوال الإنسانية والحيوانية حتى تستطيع الأشجار والزروع تحمل هبوب الرياح ، وسقوط قطرات المطر عليها ، وما أشبه ذلك ، بعض لطفك ، لنذوق من رحمتك ، فنشرب الماء ، وننتفع بالزروع والثمرات .

ولا جرم أن الزرع والشجر إن لم تترك لها بذوراً في الأرض لم يخلفها غيرها ، لذلك جعل الله لها نواميس ، وسن لها قوانين ، ليحفظ بها بذورها ، ويفرقها في الأرض ، فحفظ بعض البذور بطعمها المر ، وبعضها يدفن بذره في الأرض قريباً أو بعيداً ، حفظاً للنوع من الانقراض ، وبعضها للذة طعمها يرغبها الناس فيحفظون بذرها ، وبعضها تحملها الرياح إلى مسافات بعيدة ، وقد أعدت فيها الحكمة الإلهية أجنحة تساعد الرياح على نشرها ، ومن البذور ما يبتلعها الجراد فتنتشر في أراض كثيرة .

إن ذلك للطف الله وعلمه ببواطن هذه العوالم ، وهو القائل : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] ، والقائل : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] .

وإن شئت أن تعلم ما قلته تفصيلاً ، فهناك مقالين لخصتهما هنا من كتاب « فصول التاريخ الطبيعي » . خذ الخوخ والمشمش والكرز والتفاح وغيرها من الأثمار ترها قبل نضجها حامضة الطعم جداً ، وهذه الحموضة تقيها شر اعتداء معتد عليها قبل أوانها . ثم إن البزرة في بعضها مدفونة في قشرة صلبة دون الوصول إليها جهد وتعب . وبعد ذلك الجهد وذلك التعب كثيراً ما تكون البزرة مرة لا تؤكل كبزر الخوخ ، أو حاوية لمادة مرة كبزر المشمش . واللباب إما أن يكون محمياً بقشرة صلبة كاللوز والبندق والفستق ، وإما أن يكون محمياً بقشرة صلبة فوقها طبقة مرة عفصة الطعم كالجوز .

ومن النبات ما يحمي بزوره بحركات غريبة يأتيها ، إن النباتات أكثر حركة مما يظن عادة ، بل هي في حركة دائمة . ولكن انتقالها من مكانها بطيء على الغالب إلى حد أن لا يلتفت إليها ولا ينتبه لها . أما بعض أصناف النبات فليست كذلك ، فإن النبات المعروف بالسنط الحساس تنكمش أوراقه أو تتدلى إذا مس ، ومنه فصيلة ترى أوراقها في صعود ونزول طول النهار ، وأخرى أوراقها في دوران

دائم، ومن النبات ما تنام أوراقه كأكثر أنواع السنط، فإذا أقبل الليل غيرت أماكنها وانطوت من نفسها، فيقل بذلك سطحها المعرض للإشعاع وبالتالي خروج الحرارة منها فتوقى من البرد، وقد أثبت «داروين» بالامتحان أن الأوراق التي لا تتحرك تذاق عذاب البرد أكثر من الأوراق المتحركة، والأزهار تنام كذلك. فالأزهار التي يتوقف تلقيحها على الحشرات والهوام النهارية كالنحل تنام ليلاً وتستيقظ نهاراً، والتي يتوقف تلقيحها على الهوام الليلية تنام نهاراً وتستيقظ ليلاً. أما كيفية النوم في بعض النبات، فإن الساق تنثني حتى يصل رأسها إلى الأرض وتبقى كذلك أياماً، أي مدة نضج الثمر، فإذا تم نضجها ارتفعت الساق وعادت إلى وقفتها الأصلية.

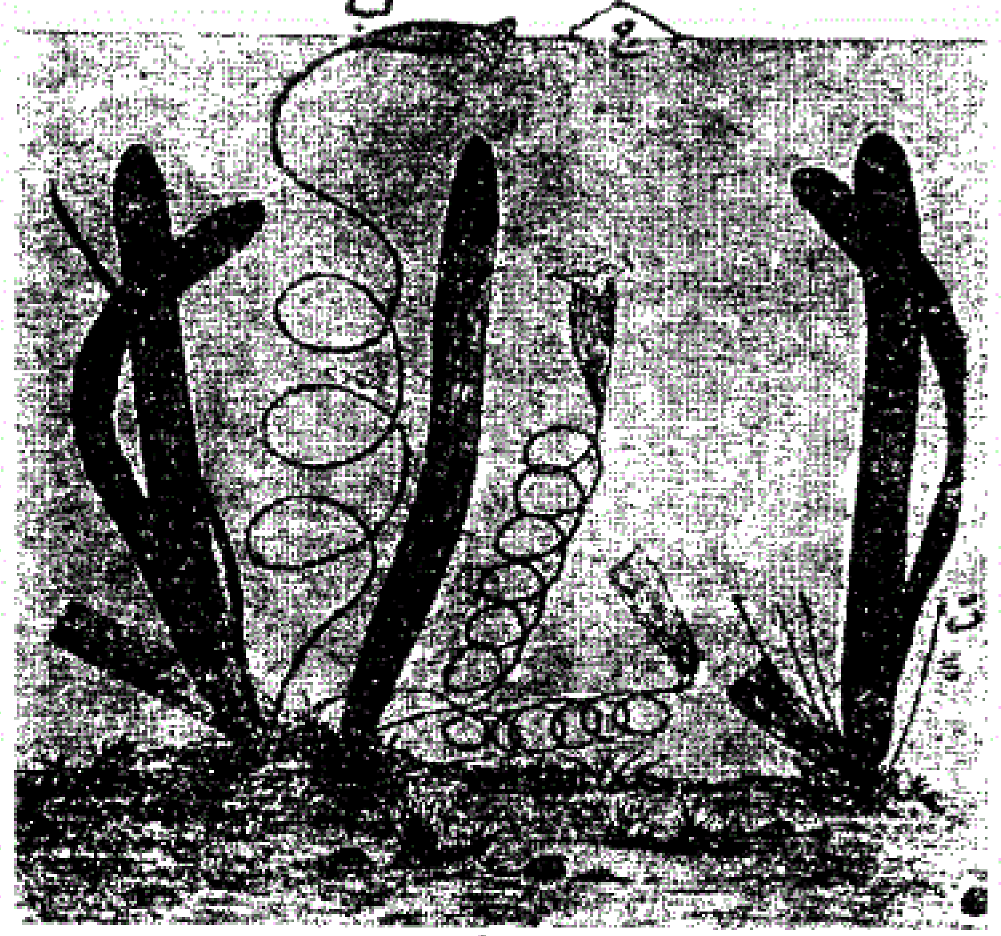
يقول مؤلف هذا الملحق: لتعلم أن هذا المقام مبسوط بسطاً تاماً في التفسير الذي هو أصل هذا الملحق في سورة «الحجر»، فاقرأه موضحاً إيضاحاً تاماً، ولنرجع إلى ما كنا بصدده فنقول:

ومن النبات الذي ينبت على الجدران ما تندفع زهرته تطلب النور وشعاع الشمس، فإذا شبعت منهما وأخذت تعقد الثمر لوت رأسها وجعلت تفتش عن ثقب تخبئه فيه إلى أن يتم نضجها.

وفي بعض الزنابق المائية، كالنيلوفر، تفتح الزهرة فوق الماء، فإذا ذبلت عادت إلى قعر الماء، ومنها فصيلة تنبت الزهرة الأنثى منها على ساق طويلة تبرز فوق الماء حرف «ب»، أما الزهرة الذكر حرف «ت» فلها ساق قصيرة، فإذا تم نضجها انفصل عنها اللقاح حرف «ج» وصعد إلى سطح الماء وعام هائماً حتى يصيب الزهرة الأنثى، وبعد التلقيح تنعطف الساق على نفسها بشكل لولبي وتنزل المبيض معها إلى قعر الماء حيث تنضج البزور آمنة كل اعتداء. وقدرة بعض أصناف النبات على توزيع بزوره مفيدة لتلك الأصناف إذ تمكنها من النمو في مواضع جديدة ملائمة لها، فمنها صنف ملأ بلاد جنوب أفريقية وكانت واسطة انتقاله من مكان إلى مكان أنه يعلق بصوف الغنم فيحمله على ظهوره أينما سار.

وهناك أصناف من النبات تزرع بزورها بنفسها كما يرى في الفول السوداني الذي يزرع في هذا القطر، فإن القرون التي فيها بزوره تنحني وتدفن نفسها في الأرض.

وقد رأى اللورد «افبري» الذي اعتمدنا عليه في أكثر هذا الفصل صنفاً من البنفسج المسمى بنفسج الكاب يدفن بزوره إلى بعد نحو عشرة أقدام، والمشهور عندنا أن الخروع إذا نضجت



(شكل ١٠ زنبق مائي: ب الزهرة الأنثى. ت الذكر. ج ذرات اللقاح)

أثمـاره أخـذت تتفلـق عـن الـبزور فتحدث فرقعـة أشبه بفرقعة البنادق وتدفـع الـبزور إلـى مسـافة بضعـة أمتار، ويقـال مثـل ذلـك في النبـات المعروف بالعصيفيرة.

ومـن ذلك نبت من فصيلـة الجرانيوم «إبرة الراعـي» إذا نضجت بزوره انتصب غلافها أو مبيضها، ثـم دفع الإبرة ومعها البزور بقـوة فزرقته إلى مسافة بعيدة.

أما النبت المعروف في سوريا باسم «قثاء الحمار» فإنه يحمل ثمراً على شكل القثاء، وعند نضجه يمتلئ عصارة حتى يكاد ينشق من نفسه، فإذا مسسته ولو بلطف انفصل عن سوقه وضغطت جوانبه على بزره إلى مسافة بعيدة.

(شكل ١١ ـ الجرانيوم إبرة الراعي)

على أن من النبات ما لا يدفع بزوره من نفسه إلى مسافة بعيدة، بل يكل ذلك إلى الرياح الهابة كالخشخاش، فإن في أعلى غلافـه فتحات صغيرة تفلت منها البزور واحدة واحدة إذا هبت الريح وتلاعبت بالغلاف وجعلت تميله إلى هنا وإلـى هنـاك، والفتحات محمية من المطر بمثل أروقة ممتدة فوقها، ويقال إنها تنغلق إذا غزرت الأمطار.

ومن النبـات مـا يعرف باسـم «ورد أريحا»، وهـو كثير في صحاري مصر وسـورية والبادية العربية، فإذا جفت أزهاره انقلع من الأرض وانطوى على نفسه فتألف منه جسم كروي تسـوقه الريح حتى يصيب تربة رطبة، وحينئذ ينشر من نفسه ويزرع بزره في التربة.

ومن دقق النظر ببزر الأرز مثلاً وجد فيه شيئاً شبيه المروحـة أو الجناح، فإذا كـانت الريـح هابة وهو يتساقط إلى الأرض حملته إلى مكان بعيد عن جزع الشجرة التي تسـاقط منها، وهـذا مـا يحـدث أيضاً في أشجار أخرى كالقيقب والدردار والشربين مثلاً.

ومن النبات ما تجهـز أثمـاره بشـوك أعقـف أو شعر علـى أشكـال مختلفـة، كمـا ترى في بـزور الحسك فتعلق في شعر الحيوانات ذوات الصوف، وتنتقل بذلك من مكان إلى مكان أو بـأهداف طويلـة كبزر شوك الجمال والقطن، وكذلك بين النبات أصناف تجهز أثمارها بأشياء كالصنـارة والكلابـة، فـإذا علقـت بشـعر حيوان أو جلـده صعـب نزعهـا منـه، ويقـال: إن بعضهـا يقتـل الأسـد في سـهول جنـوب أفريقية، وذلك أن الرياح تتقاذفها في تلك السهول، فإذا أصابت جلد أسد حاول نزعـها بفيـه فتعلق بـه وتميته شر ميتة.

ومن النبات نوع طفيلي تتصل ببزوره أذيال كالأسلاك الشائكة تعصف بها الرياح فتنقلها من مكان إلى آخر فتعلق بأغصان الأشجار وتلقي البزور عليها فتنمو فيها وتتغذى بها.

والمشهور أن جوز النارجيل أو جوز الهند تطفو على وجه الماء فيحملها إلى مسافات بعيدة تقدر بمئات الأميال مستعيناً على حملها ودفعها بما يغطيها من الألياف، ثم إن قشرتها الصلبة تحول دون تحلب الماء إليها وإفسادها، وكثيراً ما توجد على سواحل أوروبا الشمالية الغربية بزور النباتات التي تنمو في جزر الهند الغربية، ذلك بأن التيار المائي المعروف بتيار الخليج، أي: خليج مكسيكو، يحملها إلى تلك السواحل فتنمو فيها على الغالب، ويساعدها على العوم خلايا فيها ممتلئة هواء.



(شكل ١٢)

نبات طفيلي عالق بغصن شجرة

ومن أغرب أصناف النبات ما يتخذ غلاف بزوره أشكال بعض الحشرات كما ترى في بزور اللوبيا المرشقة وبزر الخروع، وبعضها يتخذ صورة الحشرة المعروفة باسم الحريش «أم أربع وأربعين» وآخر يتخذ صورة دودة.

والثمرة في عرف النبات الاقتصادي لها غايتان: الأولى: حفظ البزرة وما تحتوي عليه لأنها أداة حفظ النوع، والثانية: نشرها، لذلك ترى أن الأثمار التي تحتوي على بزرة واحدة هي في الغالب من النوع الذي لا ينشق.

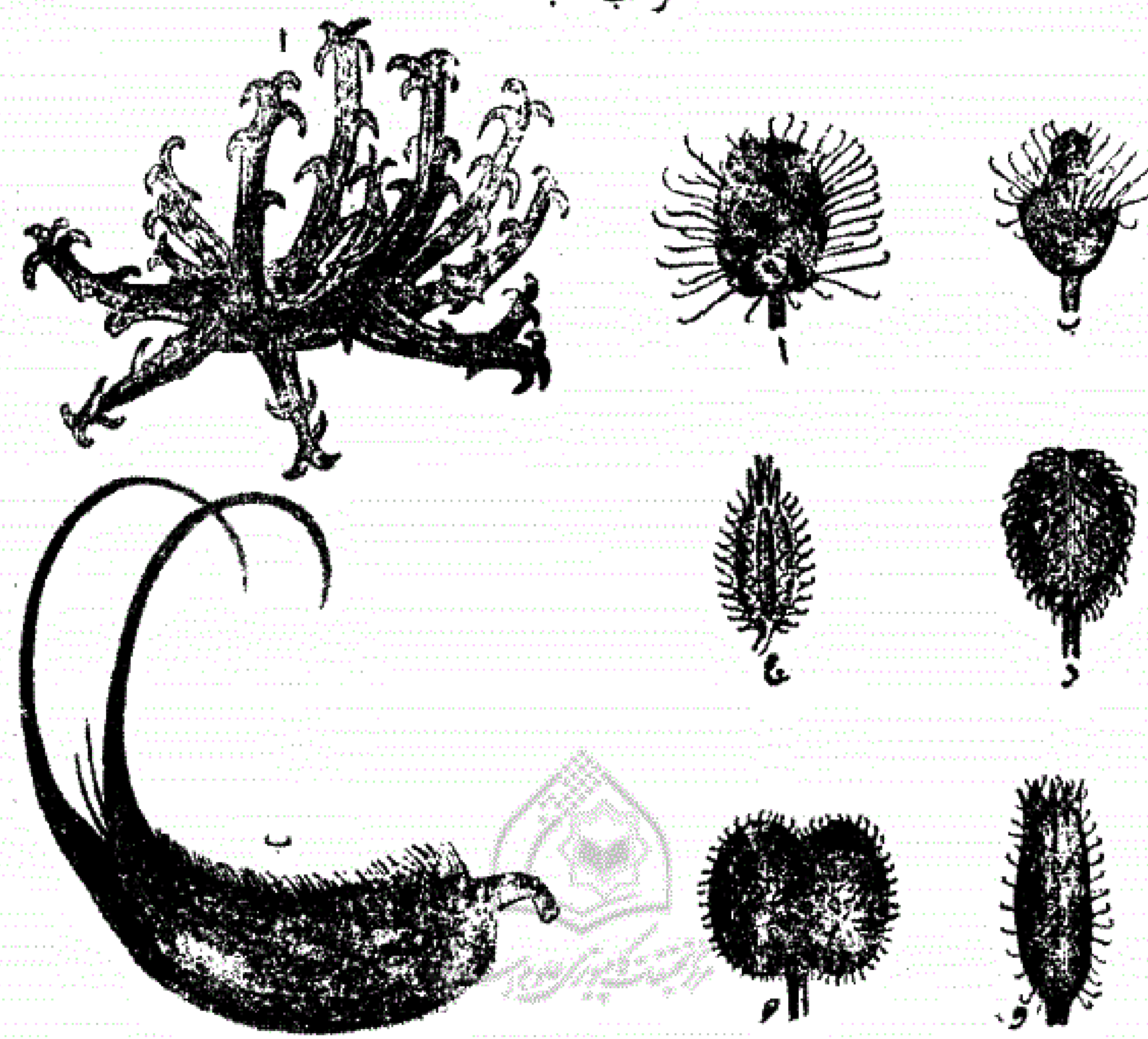
وعلى الضد من ذلك ترى أن الأثمار التي تحتوي الثمرة منها على بزور عديدة تنشق في الغالب وتنثر بزورها نثراً في أوسع مساحة مستطاعة، فلون البزور وشكلها وبناؤها وطرق انشقاق الثمرة، كل ذلك مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأساليب نثر البزور، وأشهرها:

(١) وسيلة ميكانيكية في الثمرة نفسها، كانشقاقها فجأة حينما تجف فيحصل انبرام بعض القرون وانفتالها.

(٢) بالماء كجوز النارجيل المتقدم ذكره. وبزور زنبق الماء التي يحيط بها نسيج إسفنجي يمكنها من أن تطفو مسافة غير قصيرة قبل أن تبتل وتغرق.

(٣) الريح. (٤) الحيوانات، والأمثلة عليها كثيرة فيما تقدم وفيما يلي:

غرائب النباتات



بزور من أنواع الحسك التي تعلق بصوف الغنم — بزور لغلافها أشواك وصنانير تعلق بها

(شكل ١٣)

تفرق بزور النبات أيضاً

قال كاتب المقالة : دخلنا بالأمس بيت أحد فضلاء الجرمان من نزلاء العاصمة ، فرأينا فيه منظراً تنبسط له النفوس وتبتهج به الأبصار ، وهو زير من أزيار الماء العادية ، اتخذه السرخس المعروف بكزبرة البئر وطناً له فنما على جوانبه حتى جللهكله ، وطال وأينع فصار كحرجة غبياء وهو لم يغرس هناك ولم يزرع ، بل حملت الرياح بزوره من أصيص كان بجانبه وألقتها على ظاهر الزير فأفرخت ونمت ، وقد حولنا زرع هذا النبات مراراً عديدة فلم نفلح كما أفلحت الرياح في زرعه .

ومعلوم لدى كل زارع أنه مهما اعتنى بحرث الأرض واستئصال الأعشاب منها تنمو الأعشاب فيها من تلقاء نفسها إذا تركت بوراً ، حتى زعم المتقدمون أن الأعشاب تنمو من نفسها من غير بزور ، والحقيقة أن الريح تحمل بزورها وتلقيها في كل مكان ، فإذا صادفت تربة مناسبة لها نمت فيها وأينعت ، ولكن الرياح لا تستطيع أن تحمل كل البزور ثقيلها كخفيفها ، ولذلك يستعين النبات بوسائط أخرى لإبعاد بزوره عنه لئلا تقع تحته وتخنقها جذوره ، ويستخدم لذلك من الحيل والوسائط ما يحير الألباب .

من جال في بلاد الشام في شهري يوليو وأغسطس ير في جوانب الطرق نباتاً أخضر قاتم اللون في ورقه وأغصانه وبر غليظ، وأثماره كأثمار القثاء الصغيرة، وهي كثيرة الوبر أيضاً حتى تكاد تكون شائكة، ولذلك تسمى قثاء الحمار. فما دمت بعيداً عن هذه الأثمار ترى بعينيك ولا تلمس بيدك فأنت سليم منها آمن من شرها، وإذا لمستها بيدك أو رجلك ولو عن غير قصد منك رشقتك بكل ما في جوفها من العصار والبزر واللباب، وهذا شأنها إذا لمستها المواشي أو غيرها من الحيوانات، وعصار ثمرها مر حريف إذا دخل عين حيوان علمه درساً لا ينساه مدى الحياة، إلا أن النبات لا يفعل ذلك انتقاماً ممن يلمسه أو يدوسه، بل وقاية لنفسه من عوادي الحيوان، وله فيه مآرب أخرى يتوقف عليها بقاء نوعه وتفريق بزوره بعيداً عنه لكي تجد تربة صالحة لنموها، لأن أثماره ترشق بزورها من نفسها حينما تنضج ولو لم يمسها أحد، ولولا ذلك ليبست حيث نمت وسقطت بزورها معاً تحت أمها وتعذر نموها.

معلوم أن القثاء والخيار، والبطيخ وما أشبه من النباتات لا ترشق بزورها، لأنها استعاضت عن ذلك بطيب طعمها وحلاوة عصارها، فيقطفها الإنسان والحيوان ويأكلانها ويفرقان بزورها، والحنظل وهو من هذا النوع أيضاً لا يرمي بزوره بعنف إذا نضج، ولا يأكله الإنسان ولا الحيوان لكراهة طعمه، ولكنه استعاض عن ذلك بتطويل فروعه فتمتد منبسطة على الأرض إلى مدى بعيد حتى تتفرق أثماره وبزوره بعضها عن بعض فضلاً عن أن أثماره مستديرة فيسهل على الرياح أن تدحرجها من مكان إلى آخر فتتفرق في طول الأرض وعرضها.

وللرياح المزية الكبرى في تفريق بزور النبات، فإنها تحملها على عاتقها وتعبر بها الأنهار، وتقطع من فوق البحار، ولا سيما إذا كانت البزور قد استعدت لذلك فنشرت أجنحتها للرياح.

وقد يكون النبات سنوياً لا خوف على بزوره من أن تزاحمها أمها، ومع ذلك تسعى بزوره لتبعد عنه كأنها تعلم ناموس تعاقب المزروعات، وأن الأرض التي يزرع فيها نبات ما هذه السنة لا يجود فيها ذلك النبات عينه في السنة التالية، فيجب أن يزرع فيها غيره وتزرع بزوره في أرض أخرى.

ومعلوم أن الرياح لا تستطيع حمل كل البزور، وغاية ما تحمله البزور الصغيرة الخفيفة والتي لها شعر أو زغب أو أجنحة. وأما بقية البزور فتستعين على انتقالها بوسائط أخرى، فمنها ما يسخر الحيوان لهذه الغاية فيلبس ثوباً حلو الطعم جميل المنظر فتأكله الحيوانات والطيور وتلقي بزوره بعيداً عن أماته كما تقدم، ومنها ما يلصق بطعام الحيوانات ويدخل أجوافها ويخرج مع برازها سليماً فينمو حيثما وقع، ومن قبيل ذلك أشجار الزيتون والتين التي ترى في جدران المباني القديمة ببلاد الشام، فإنها كلها من بزور الأثمار التي أكلتها الطيور ثم رمت بها مع سلحها بين حجارة تلك الجدران.

ذكر الشهير «داروِن» أنه التقط اثني عشر نوعاً من بزور النبات من زرق الطيور التي مرت في بستانه مدة شهرين، وزرع بعضها فأفرخ، والطيور آكلات الحبوب تبقي ما تأكله في حوصلتها من اثنتي عشرة إلى ثماني عشرة ساعة، فإذا اصطادتها الكواسر ومزقت أبدانها وقعت الحبوب من حواصلها ونمت حيث تقع، وإذا أكلت الكواسر هذه الحبوب مع لحم الطيور لم تهضم الحبوب في أمعائها، لأنها معدّة لهضم اللحوم لا لهضم الحبوب فتخرج منها سليمة وتنمو حيث تقع، هذا فضلاً عما تحمله

الطيور بأرجلها ومناقيرها من البزور وتنتقل به مئات من الأميال، فقد أرسل الأستاذ « نيوتن » إلى المستر « دارون » حجلاً رماه بالرصاص فجرحه حتى لم يستطع الطيران، وكان برجله كرة من الوحل لاصقة بها، فحفظت هذه الكرة ثلاث سنوات، ثم بللت بالماء ووضعت تحت إناء زجاجي فنما فيها ٨٢ فرخاً من النبات.

والجراد من أقدر أنواع الحشرات على نقل البزور، فإنه يبتلع كثيراً منها مع ما يلتهمه من النبات ويلقيه في الأراضي التي يمر فيها، فقد أرسل بعضهم قليلاً من بعر الجراد إلى « دارون » فتفحصه بالمكرسكوب فوجد فيه سبعة أنواع من النبات وزرعها فنمت كلها، ولذلك تكثر الحشائش في الأرض التي يعبر الجراد فوقها، ولكثير من البذور شوك أعقف كالكلاليب، وغاية النبات من ذلك أن تعلق بزوره بجلود الحيوانات التي تمر بجانبه وتنتقل بها من مكان إلى آخر.

وأكثر النباتات التي من هذا القبيل تنمو في الهشيم وبجانب الطرق، فإذا مر بها خروف علقت بصوفه، ثم يمر الخروف بنجم من الشوك فيعلق جانب من صوفه بالشوك وفيه البزور المشار إليها، حتى إذا هطلت الأمطار انحلت عراها فتقع على الأرض وتنمو فيها، ومن هذه البزور ما يسخر الإنسان لخدمته فيلصق بأثوابه ويسيرا معه حيثما سار حتى ينزعه ويرميه بجانب بيته فينمو هناك.

وقد يظن لأول وهلة أن تفرق بزور النبات بواسطة الرياح والحيوانات ليس مقصوداً بالذات، بل هو حادث اتفاقاً، فإذا عصفت الرياح ببذور فرقته وإلا فلا، وإذا مرت المواشي ببزور شائكة علقت بها وإلا لم تعلق، ولكن الباحث المدقق يرى أن البزور معدة بالطبع للأسلوب الذي تتفرق به، فإذا كانت مما يتفرق بواسطة الرياح كان اتصالها بأمها ضعيفاً حينما تنضج، حتى إذا عصفت بها الرياح انفصلت حالاً وطارت، وإذا كانت مما يتفرق بواسطة الطيور لبثت أثمارها متصلة بالنبات بعد ما تنضج حتى تقع عليها الطيور وتأكلها وترمي بزورها، والبزور الكبيرة قليلاً التي تفرقها الرياح لها زغب وأجنحة، وأما الكبيرة كثيراً التي لا يمكن الرياح أن تحملها لثقلها فليس لها أجنحة، ولو كانت من نوع البزور الأولى كما في بزر الأرز والصنوبر، فإن الأول صغير خفيف على الرياح فله أجنحة، والثاني ثقيل على الرياح فليس له أجنحة، ولو لم يخل من آثارها كأنه كان مجنحاً لما كانت بزوره صغيرة، واعتبر ذلك في نبات الكشوث الذي ينبت على الأشجار ويمتص غذاءه من عصارها، فإنه لا بد لبزره من أن يوضع ما بين أغصان الأشجار لكي ينمو فيها، وقد أعدت له الطبيعة مادة لزجة كالدبق فيلصق بمناقير الطيور التي تأكله وتطير الطيور به وتمسح مناقيرها بين أغصان الأشجار تخلصاً منه، فيلصق في خير الأماكن المناسبة لنموه، واعتبر ذلك في الخشخاش « أبو نوم » ونحوه من النباتات التي لا تخرج بزورها منها إلا إذا هزتها الرياح هزاً عنيفاً، وحينئذ تتفرق في مساحة واسعة.

وقد يقطع النبات أمله من الرياح والحيوانات كالخروع، فإن بزوره ثقيلة لا تحملها الرياح، وليس لها غلاف طيب الطعم إغراء للطيور والحيوانات، ولا فيها مادة لزجة حتى تلصق بمناقير الطيور، ولا شوك حتى تعلق بجلود الحيوانات، وطعمها تفه تقز النفس منه، فلم يبق لها إلا أن تتفرق في عرض الأرض بنفسها، ولذلك يتشقق غلافها حينما تنضج ويدفعها بعنف شديد كأنها رصاص البنادق،

وكثير من النبات يجري هذا المجرى ولا سيما في المنطقة الحارة حيث تندفع البزور بعنف، حتى لقد تقتل الحيوان إذا أصابته، ومن أمعن نظره فيما تقدم رأى أن النبات يسعى في طلب المعيشة كالحيوان مستخدماً الوسائط التي تمكنه من ذلك جارياً على سنن معلومة مما سنه الخالق سبحانه لجميع المخلوقات الحية.

فلما سمع هذا المقال أخذ يقول: حسن هذا. ولكني أريد أن تبين الجمال في هذا المقام بحيث تكون تلك العجائب تفصيلاً لأسماء الله الحسنى، وإنّما قلت ذلك لما رأيتك ذكرت أسماء الله الحسنى الرحمن الرحيم اللطيف الخبير، وجعلت بعض هذه العجائب شرحاً لها.

فقلت: أيها الأخ المجد العاشق للعلم والحكمة، لعل ما سمعته من عجائب النبات شرح له صدرك مثل:

(١) أن بعض بزره له شوك يعلق بصوف الغنم، والغنم تسير به إلى أرض أخرى فينتشر هناك وينبت، فيكون نعمة على الغنم وغيرها، وتكون تلك الغنم أشبه بالفلاح يحمل الحبوب من منزله ويضعها في الأرض وينزل عليها الماء لتنمو، ولكن الفرق أن الفلاح أقدر على حفظ البزور والزروع فكان طعامه في حاجة إلى الحفظ والصون، أما الغنم ونحوها فإن مدبر الكون هو الذي منح البزور شوكاً وجعل للغنم صوفاً فعلق الأول بالثاني ولا علم للغنم بشيء، فإذا حلت بأرض أخرى ووقع البزر بها نبت من تلقاء نفسه، لأن الحكمة العليا دبرت ذلك، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٤]، فالله أعلى، والمادة من صنعه، فذاته وصفاته فوق عقول المخلوقات، وهو قد خلق أمثال الغنم والشوك المحيط بالبزر، وهدى الغنم للسير، وأنزل المطر فسقى الأرض فبرز النبات واخضرت الأرض وأخذت زخرفها وازينت.

فهاهنا قد سوى النبات فظهر جماله لأعيننا، وسوى البزور بحيث ظهر جمالها لعقولنا، وسوى الغنم بأن جعل الصوف حاملاً لبزور النبات، وهو الذي قدر ذلك كله، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ٤]. هذا غيض من فيض من معنى هذه الآيات يا صاح، وإن شئت المزيد فاسمع.

إن أسماء الله الحسنى منطبقات على هذه العجائب، فالله (ملك) قد استوى على العرش وسخر الشمس والقمر وأرسل حرارة الشمس، وهو منزه عن صفات المخلوقات، فهو (قدوس)، وأعطى أمثال إبرة الراعي قوة غير قوة النيلوفر، فإبرة الراعي تقذف البزر لينمو في مكان آخر، ولكن النيلوفر وهو المسمى «البشنين» ينقبض عضو التذكير منه فيبقى جاثماً في قاع البركة، فإذا ظهرت الزهرة الأنثى وبهر جمالها فوق سطح الماء تخلص الذكر الجاثم في قاع البركة وانفصل من شجرته وسارع إلى سطح الماء، وأخذ اللقاح الذي فيه يجري إلى الأنثى فيكون الإثمار.

فالله دبر هذا كله لنعلم معنى أنه سلام ومؤمن ومهيمن وعزيز وجبار ومتكبر وخالق وبارئ ومصور وقهار ووهاب ورزاق وفتاح وعليم وقابض وباسط وخافض ورافع.

ألم تر كيف نشر السلام في الآفاق فسعد النيلوفر وتمتع بنعمة الماء وسلم الذكر وسلمت الأنثى، وقد تعانق الحبيبان فوق سطح الماء كما رأيته مصوراً فيما تقدم، أليس هذا كله ناشئاً من وفرة السلام في الماء، وإن كان الإنسان جهولاً كفوراً، يظن أن العوالم في شقاء قياساً على ما يحس به من الشقاوة والأذى.

ثم انظر كيف جعل هذه البزور آمنة من العطب بما دبر لها وعلم مستقرها ومستودعها، ثم هو لقهره للعوالم ولعزته وكبريائه تصرف في هذه العوالم تصرفاً يليق بالنظام العام لا بالعواطف الإنسانية والحيوانية لأنه عزيز وجبار ومتكبر. وبهذه العزة والكبرياء والقهر ثبت هذا النظام، ولذلك دبر نظامها وأبرزها وصورها، وهذا من معنى الخالق البارئ المصور، وهو الذي وهب الغنم وغير الغنم هذه النعم ورزقها، وفتح على كل ذي روح وعلم حقائقها، وهو الذي قبض ذكور النيلوفر في قاع البركة قبضاً لمنفعة النبات، وبسط تلك الذكور كما بسط الإناث فظهر فوق سطح الماء وخفض ورفع، وهو الحكم بين هذه العوالم، العدل فيما صنع، وهو الحفيظ لها كما تقدم، والهادي لها.

قال صاحبي: والله إن هذا لجميل، ولكن هل معنى هذا أن أسماء الله الحسنى لأجل هذا وحده؟ قلت: كلا. ثم كلا. أسماؤه الحسنى مفصلات لآثار صفاته العليا كالقدرة والعلم ونحوها، وهذه العوالم فيها بعض آثار هذه الأسماء المعبرات عن الصفات.

فإذا رأينا السنط الحساس قد نامت أوراقه وانقبضت، فإننا نتذكر اسمه القابض، وإذا أصابها نور الشمس فانبسطت تذكرنا اسمه الباسط، وإذا رأينا إبرة الراعي المتقدمة في الرسم قد رمت بزرها بعيداً عنها تذكرنا اسمه الحكيم العليم الهادي البديع، لأن ذلك إبداع عجيب بحكمة وعلم بنتائج ذلك النظام، وإذا رأينا جوز الهند طافياً على الماء ذاهباً إلى أماكن بعيدة لينبت هناك، تذكرنا اسمه مثل الرشيد والصبور والسلام والمؤمن الخ.

وإذا رأينا بزور النباتات التي تنمو في جزر الهند الغربية قد حملها تيار خليج المكسيك إلى سواحل أوروبا الشمالية الغربية فلتقرأ أكثر أسماء الله الحسنى المتقدمة، ولتقرأ الآيات كذلك، ولتفعل ما تقدم في غيرها وغيرها، إن ذلك لهو الجمال والبهاء في أسماء الله وآثار صنعه، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[القصص: ٦٨].

أسماء الله الحسنى في القرون الماضية وفي هذا الزمان

فقال صاحبي: الله أكبر. الله أكبر. ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]. فقلت له: يا صاح أي باطل تريد، وأي حق؟ فقال: لقد كنا نسمع الشيوخ الصغار والشيوخ الكبار يعلموننا أن أسماء الله الحسنى وآيات القرآن تقرأ للاستشفاء وطلب الرزق، فقد فهمنا قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[ص: ٢٩]. هذا هو التدبير وهذا هو التذكر، وهذه هي البركة، فالقرآن مبارك بإظهار هذه المعاني ودراسة هذا الجمال والبهاء وظهور النور والعرفان، ويظهر لي أن الجيل المقبل سيتمتع بالنعم والجمال مما لم يحلم به آباؤنا المخلوقون في القرون المتأخرة.

فقلت له : يا صاح ، إن الله عز وجل أراد ولا رادّ لقضائه أن يرقي هذه الأمم التي بقيت مستضعفة باسم الدين ، وهاهي ذه الآن كما هو ظاهر أخذت تعرف الحقائق ، وهذا أمر سيتم . والله هو الولي الحميد . فكن مطمئناً ، ولقد ذكرت ولعلك تذكر ذلك أن حساب الجمل في الأسماء والآيات شغل الأمة قروناً وقروناً بما نقله بعض المسلمين من علوم الصابئين وقدماء المصريين الذين جعلوا الأوفاق المشهورة لعبادة الكواكب ، كما جاء في كتاب أستاذنا المرحوم علي مبارك باشا المسمى « خواص الأعداد » ، فقد شرح هذه الأوفاق وقال : كانوا يكتبونها على صحائف الذهب تقرّباً إلى الكواكب ، وقد جعلوا المثلث لزحل ، والمربع للمشتري ، والمخمس للمريخ ، والمسدس للشمس ، والمسبع للزهرة ، والمثمن لعطارد ، والمتسع للقمر ، وأخذ المسلمون ذلك ووضعوا فيها أسماء الله الحسنى ، وظنوا ذلك بحسن نياتهم من أسرار دين الإسلام ، وما هي بأسرار دين الإسلام ، ولكنها كانت جهالة وبلاهة أغرم بها قوم ، وقوم جهلوا أن هذه علوم وثنية دخلت على دين الإسلام فمحت معالمه ، ومن عرفها وعمل بها حجاباً سموه ولياً أو صالحاً ، وما هو بولي ولا صالح ، بل هو جاهل ، وإذا شفي مريض على يديه أنزلوه منزلة سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، وأين هو من المسيح ، وأين هو من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

إن الله يا عزيزي يريد أن يطهر المسلمين من هذه الجهالات الفاشية ، فلتكن مطمئناً ، ولتكن واثقاً مما أقوله ، وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيراً . ولتعلم أن المسلم بعد نشر هذه المعارف سيكون غير المسلم في القرون المتأخرة ، وسيعلم من معاني أسماء الله الحسنى ما لم يعلمه كثير من أشهر المتقدمين ، وإذا سمع ما ورد من الأحاديث أو الآثار : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها عدداً دخل الجنة » فليس يقف عند حفظها أو فهم معناها ، بل يتوغل ويتوغل ، ويقرأ القرآن ويدرس بسبب القرآن هذه العوالم ، ويقرأ علوم الأمم حولنا ويعرف الجمال البهي في عوالم الأرض والسماء ، وإذا سمع الله يقول : ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : ٣] ؛ يدرس أنواع الهداية الربانية في النحل وفي النمل وفي العنكبوت ، وفي أنواع من الطير التي تكتفي بزوجة واحدة ، والتي تكون لها زوجات كثيرات ، ويرى الذكور تتعاون مع الإناث على المعيشة وعلى تربية الذرية عند الحاجة ، ويتقاسم الفريقان السراء والضراء ، ويرى الثعالب تربي أجراءها وتحنو على أولادها ، وكلب الماء يبني البيوت لصغاره ، وكأنه مهندس من أعظم المهندسين ، والنحل يقول لصغاره : اذهبي إلى مستعمرة أخرى لئلا يضيق القفير علينا وعليك .

والنمل يزرع ويحصد ويجمع الغلال ويخزنها . اقرأ هذا المقام موضحاً في سورة « النمل » ، فسترى هناك صورة المزرعة بالمصور الشمسي . ويربي حيوان المن كما نربي نحن المواشي ويشن الغارات ويضرم نيران الحرب ويستعبد غيره .

والحيوان يغير هندسته تبعاً للأحوال المحيطة به كما فعل السنونو ، فإن ساكن كاليفورنيا منه كان يبني عشه مفتوحاً من أعلاه ، فلما اعتدى الطيور عليه غير الهندسة فصار يسد الأعلى ويفتح باباً ضيقاً بجانب الحائط الملاصق له .

وتختار الطيور الألوان التي ليست زاهية لئلا تعرض صغارها للعطب فتكتفي باللون الرمادي.

والطائر الهندي يخيط أوراق الأشجار ويستعملها عشاً لفراخه، ويجعل خيوطه شعر الخيل وبعض الطحالب، فلما كثرت الخيوط المغزولة والخرق المنسوجة صار يستعمل خيوطها لهذه الغاية، فأما في الأماكن البعيدة عن السكان فإنه لا يزال يستعمل الطحالب وما أشبهها.

والعصافير في البلاد المصرية تستعمل القطن في بناء أعشاشها ولم تكن تستعمله قبل أن شاعت زراعته. والعصافير في بلاد سويسرة تستعمل قصاصة الفولاذ الدقيقة لكثرتها هناك بجانب معامل الساعات.

هذه بعض المعارف التي سيزاولها المسلمون عند دراسة قوله تعالى مثلاً: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ٣]، أليست هذه كلها هداية الله تعالى، أليس هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]، وقوله: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[الأنعام: ٣٨] وقوله: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود: ٥٦]، وقوله: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[هود: ٦].

نعم أقول بحق: إن المسلمين بعدنا سيفهمون معنى: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ٣] بأمثال ما ذكرناه، ويعرفون معنى الهادي من أسماء الله الحسنى على هذا المنوال، ويعرفون بذلك معنى الرحمن الرحيم، ويعرفون معنى الحديث المتقدم المفيد: «إن لله مائة رحمة وإنه ادخر منها ٩٩ رحمة لعباده في الآخرة ووضع رحمة واحدة بها يتعاطف الناس والحيوان، حتى إن الفرس لترفع حافرها عن ولدها خيفة أن تصيبه».

اقرأ نفس الحديث فيما تقدم، وقد ذكرنا هنا معناه.

هداية الجماد

بل إن الهداية قد تعدت الحيوان إلى النبات والجماد. وإن كان العقل لا يتصور للنبات ولا للجماد هداية، إذ الهداية إنّما تكون لذي إحساس ولا إحساس للنبات ولا للجماد، وربما سهل أمر النبات، لأن له إحساساً ما، وأن ذلك العالم الهندي الذي زار مصر قريباً أثبت ذلك بالتجربة، ولكن الذي يصعب فهمه جداً أن الهداية تشمل الجماد، فإذا رأى المسلم ما سأذكره في المقال المترجم عن الإنجليزي بقلم العلامة «ويلسن» في كتاب «علوم للجميع» الذي ستراه في الزبرجدة الأولى، يرى فيه أن المؤلف يقول: إن ذرات الملح، وذرات ملح البارود، وذرات الرصاص في العمليات الطبيعية الخاصة، وذرات الماء، كل هذه تشاهد جاريات مسارعات إلى أن تبني بناء هندسياً يقصر عنه البناؤون والمهندسون في منازلنا، وأقربها متناولاً وفهماً ما ستراه من صور الثلج البديعة النظام المسدسة الأشكال المتكاثرة الأنواع المحافظة على ذلك التسديس، ما هذا كله إلا أن نفس الذرات المائية الآتيات لها مما حولها نشاهدها تنضم إلى أخواتها ولا تتعدى نظام التسديس وليس معها مهندس يعلمها ولا رقيب ولا معلم يشاهده الناظرون.

حينئذ قال صاحبي: هذا والله هو العجب العجاب، فكيف يصح هذا؟.

فقلت: يا صاح، هذه حقائق ستعرفها تفصيلاً في الزبرجدة التي بعد هذه، وتشاهد بعض صورها وبعض التفصيل، وهذا ما لم يصل عقل الناس إليها، ولكن الله يقول: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[الإسراء: ٤٤]، فهذه العوالم التي نعيش فيها أثبت القرآن أنها تسبح، ولكن نحن لا نفقه تسبيحها، وهذه الهداية نشاهدها في أمثال الثلج وأمثال الأعمدة التي ستطلع عليها في الجوهرة الآتية التي تبنى في مئات القرون بواسطة قطرات الماء المحملات بذرات من الجير الطباشيري فتترك آثاراً من ذرات الجير في أسفل السقف وذرات أخرى في أرض الكهف وينمو هذان الأثران، فهذا ينزل والآخر يصعد حتى يلتقيا ويصيرا عموداً واحداً عليه استقام سقف الكهف، وهذا العمود مسدس الشكل كطبيعة الثلج ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤]. ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠].

فلما سمع صاحبي ذلك قال: الله أكبر قد استوفي هذا المقام، وعرفنا بعض عجائب النبات والهداية العامة في الحيوان والنبات والجماد. وفهمنا تفصيلاً كيف كانت أسماء الله الحسنى لا يفسرها إلا هذه العوالم ودراستها، كما أن الآيات القرآنية تنير السبيل ليعقل الناس هذا العالم الذي نعيش فيه، وفهمنا أيضاً أن الأمم الإسلامية في القرون المتأخرة كانت تظن أن أسرار القرآن وأسماء الله الحسنى كانت تتجلى بعلم الأوفاق وبأنواع الاستخارات ونحوها، فظهر اليوم أن القرآن لأمور عالية شريفة بها يرتقي الناس.

وأخيراً أدركنا أيضاً أن ما تشير إليه الأحاديث والآثار من أن أسماء الله الحسنى توصل الناس إلى الجنة؛ يرجع في الحقيقة إلى هذه العجائب وآثار رحمة الله، وهنالك تهيم القلوب وتحب ذلك الصانع العظيم ويدهشها آثار رحمته من إتقان صنعه وإحكامه وشمول رحمته، وأنه لا يذر عصفوراً أو حيواناً مكرسكوبياً لصغره كما لا يذر الفيل والجمل والأسد والإنسان، فكل هذه عنده سواء، ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود: ٥٦] يمنح كل طائفة بما يناسبها وما هي أهل له، ولا تحسد طائفة سواها مع الفارق العظيم، فليس الإنسان بحاسد أسداً ولا فيلاً ولا الغزال بحاسد للثور ولا للغزال، بل نراه فرحاً قانعاً بما خلق له، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١].

وهذه المعارف على هذا المنوال الذي جرينا عليه في هذا التفسير جنات علمية في الدنيا عجلها الله للمفكرين، وهؤلاء هم الذين يفرحون بربهم في حياتهم ويفرحون بلقائه بعد الموت، وهم هم الذين سيرونه كما يرون القمر لحبهم له وغرامهم به، فهذه الطائفة هي التي تكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

فهؤلاء عند دخول الجنة لا يقنعون بها، بل يقرؤون قوله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[ق: ٣٥]، وما هو المزيد إلا أن يروا حبيبهم الذي أحبوه وهم في الدنيا بسبب ما شاهدوا من رحمته، وما رأوا من إسباغه النعم على كل مخلوق في عوالمه، وهو ملك عدل رؤوف رحيم بهم أجمعين، ثم قال: هذا أهم ما أفهمه في هذا المقام، وفي أمثاله. انتهت الروضة الأولى.

الروضة الثانية من رياض الجنات في عجائب البحار

وأريد أن تسمعني من عجائب البحار فوق ما ذكرته في الأصل وهو «الجواهر في تفسير القرآن» وإنّما طلبت ذلك لأن آيات النحل التي ذكرناها في الروضة المتقدمة لم تشرح منها إلا ما يخص النبات الحيوان، ولكن آخر الآيات ورد فيها ذكر البحار والفلك فيها، والابتغاء من فضل الله فيها، فهذا هو الذي يعوزه تفصيل، فقلت:

يا صاح، إن عجائب البحر لا حصر لها، ولقد ورد شرحها في الأصل وهو « الجواهر في تفسير القرآن »، وهذه الشروح هناك بحمد الله ليست موجزة، فقال: نعم. ليست موجزة، ولكن ماذا تقول في المثل المشهور: « حدّث عن البحر ولا حرج ». وماذا تقول في قول ابن الفارض:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه　　　يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

فقلت: حباً وكرامة.

إن عجائب البحر لا حد لها كما قلنا، ومن أجلّها وأعجبها وأبهجها منظراً وأبعدها ما يشاهد في البحار من اجتماع الضدين: الظلمات والنور، والقبض والبسط، وهذان الضدان: القبض، والبسط كل منهما لحكمة كحفظ الحيوان بالقبض وكإضاءة طريق المعيشة بالبسط، أتدري ما هما هذان الضدان؟ هما أولاً: سمك يسمى: أخطبوط. وثانياً: حيوانات بحرية منيرة، وثالثاً: سمك منير.

فالأخطبوط كلمة يونانية معناها الثماني الأرجل، وهو حيوان بحري، وهو يقيم بين الصخور بقرب الشاطئ يترصد فرائسه من المحار والسراطين، أذرعه ثمان كما تقدم، وهي طويلة كالأفاعي منتشرة حول فيه، وله قمع يبق الماء منه فيجري إلى الجهة المخالفة برد الفعل، هذا إذا كان عائماً في الماء، وأما إذا كان على الأرض في قاع البحر فإنه يدب على قوائمه ورأسه إلى الأسفل ولا مثيل له في ذلك، حيوان يمشي وبدنه فوق رأسه ويمكنه أن يدب إلى الأمام وإلى الوراء وإلى اليمين وإلى اليسار، وسيره كذلك بطيء بخلاف جريه في الماء سباحة ببق الماء من قمعه فإنه سريع جداً، وقد يكون لأذرعه غشاء واسع فيستعين بها على السباحة.

وأنواع الأخطبوط كثيرة وكلها خال من الأصداف الظاهرة إلا النوتيلس. وللأخطبوط عينان كبيرتان جاحظتان وكيس فيه مادة سوداء كالحبر يفرزها فيسود الماء بها، ويقال: إنه يختفي بهذا الحبر عن عيون أعدائه التي تفتش عنه لتفترسه، فهو سلاح له يدافع به عن نفسه، وفي أذرعه ممصات صغيرة يلتصق بها بما يمسك به التصاقاً شديداً حتى لقد تتقطع الذراع ولا تنفصل إلا بإرادة الأخطبوط، وقد تكون هذه الممصات في صف واحد وقد تكون في صفين، ويبلغ عددها أحياناً ألفي ممص، ويعرف للأخطبوط نحو تسعين نوعاً تعرف بألوانها، وطول أذرعها، واتساع ممصاتها.

وهو يعيش منفرداً إذا كان بالغاً، وأما إذا كان صغيراً فيعيش مجتمعاً بعضه مع بعض على ما قيل إما في شقوق صغيرة أو تحت الحجارة الكبيرة مختفياً عن عيون أعدائه.

ويرى الأخطبوط حيث يباع السمك صغيراً رأسه كالبرتقالة أو أصغر، وطول الذراع من أذرعه نحو نصف متر، ولكنه قد يكون كبيراً جداً حتى يبلغ طول الذراع من أذرعه نحو مترين، وثقل

الأخطبوطة كلها ثلاثة قناطير مصرية، ويشبهه نوع له عشرة أذرع يقال له « ديكابود » يداه الزائدتان طويلتان جداً، وقد روى القدماء القصاصون روايات غريبة عن هذا الحيوان، حتى زعم بعضهم أنه يقبض على السفينة ويجذبها إلى قاع البحر، وهذا من الأوضاع الخرافية، لكن بعض أنواع هذا الحيوان يبلغ جرماً كبيراً جداً حتى لا يعجز أن يجذب القارب الكبير ويقلبه، فقد وجد واحد منه على شاطئ الأرض الجديدة سنة ١٨٧٤، طول كل ذراع من ذراعيه الطويلتين ٢٤ قدماً، أي نحو ثمانية أمتار، ورأى بعض البحارة حيواناً من هذا النوع بقرب إرلندا سنة ١٨٧٥ ظنوه مركباً مكسوراً فتبعوه مسافة خمسة أميال حتى قبضوا عليه، فوجدوا طول الذراع من أذرعه القصيرة ثماني أقدام، ومن ذراعيه الطويلتين ثلاثين قدماً، أي أكثر من تسعة أمتار، وقد بلغ وزن بعض هذه الحيوانات عشرة قناطير مصرية، فلا عجب إذا خاف النوتية شرها ولو كان طبعها الجبن.

ولم يذكر الأخطبوط صريحاً في كتاب القزويني ولا في كتاب الدميري، لكن القزويني ذكر سمكة كأنها قلنسوة بالغارية لها مرارة كمرارة البقر سوداء، إذا اصطادها تحركت فيسود الماء الذي حولها مثل الحبر، نقل ذلك عن أبي حامد الأندلسي. قال أبو حامد: وأظن ذلك الحبر من تلك المرارة، فإذا وقعت في الشبكة يبقى ما حولها أسود جداً، فيؤخذ من ذلك الماء ويكتب به أحسن من كل مداد لا يمحى وله سواد وبريق. اهـ.

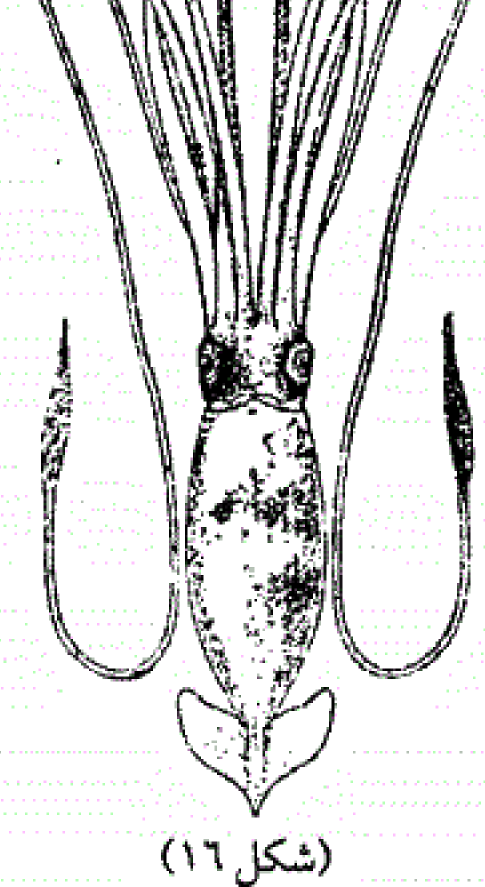
ومعلوم أن حبر الصبيدي كان يستعمل للكتابة من عهد قديم جداً، وقد ذكره بعض الكتاب الرومانيين، ومنه كلمة « سبيا » باللغات الأوروبية، ومعناها: الحبر الهندي أو الحبر الذي يظن أنه مأخوذ من الصبيدي، وهاك بعض أشكال الأخطبوط.



(شكل ١٤ ـ الأخطبوط طويل الأذرع



(شكل ١٥ ـ الأخطبوط القصير الأذرع



(شكل ١٦)

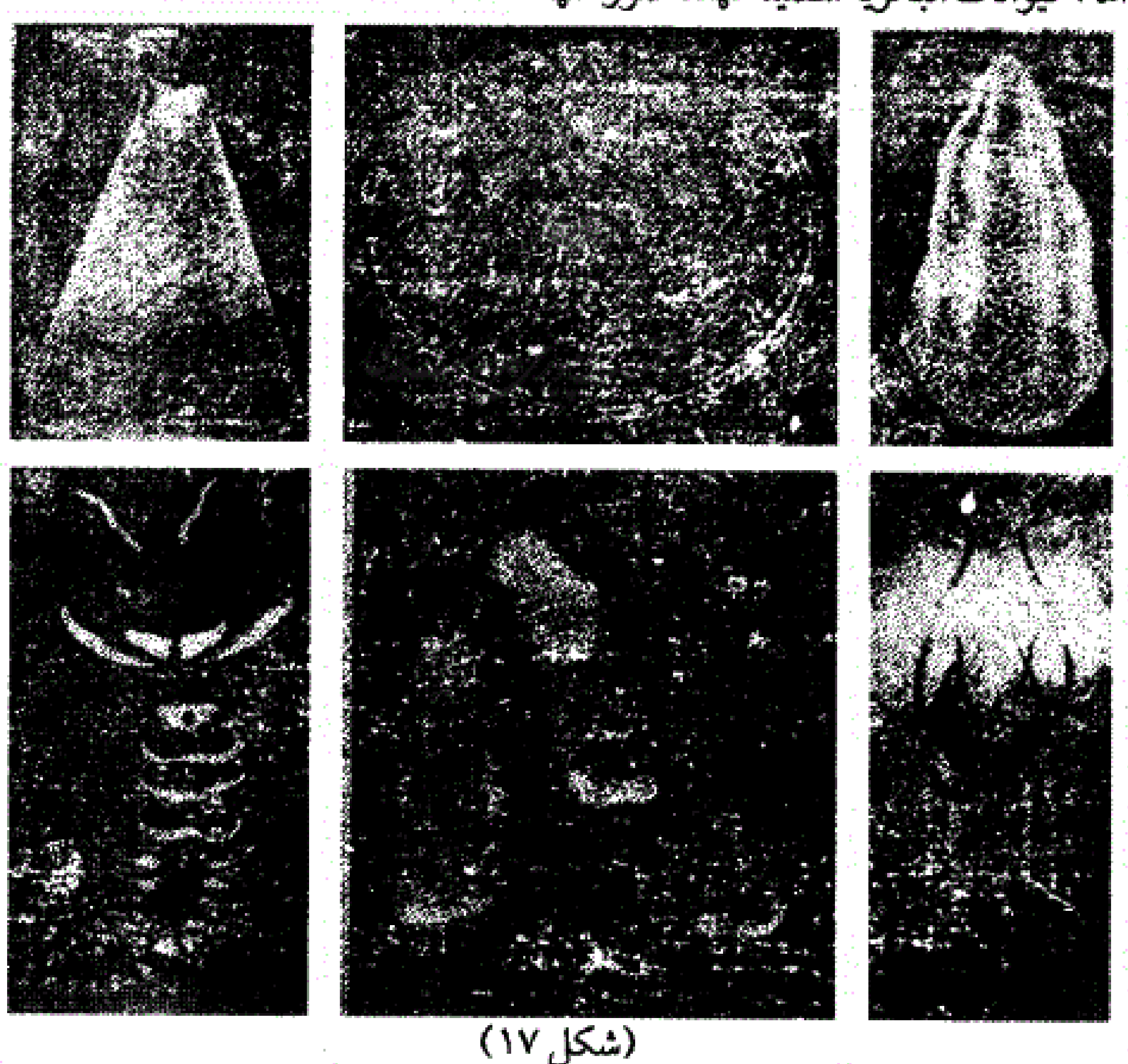
الأخطبوط الطويل الذراعين كما قرره الأستاذ فرل

فانظر رعاك الله إلى هذا الأخطبوط وكيف أعطي نعمة عظيمة له، وهي الحبر، ذلك الحبر الذي يلون الماء بلون السواد فيخفى عن أعين الحيوانات التي تقصده بسوء، سبحانك يا الله، إن هذه من رحمتك التي وسعت كل شيء، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف: ١٥٦]، ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾[هود: ٥٦]، ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام: ٣٨].

ما هذا سبحانك يا رب عجب وألف عجب! تقول لنا: إن هذه العوالم أمم أمثالنا، أي: إن لها أعمالاً كثيرة فتدرأ عن نفسها الغوائل بطرق تناسبها كما نفعل نحن بجيوشنا وأساليبنا في الحياة، فهاهو ذا الأخطبوط قد أعطي مادة كالحبر، وهذه المادة بسوادها تضل عدوها أن ينالها بسوء، سبحانك يا رب ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠]، فهذا الحبر للحيوان حصن وقلعة ومجن ودرع وصيانة، وللإنسان مداد به يكتب العلماء علومهم، فجلّ الله، جلّ الله.

الحيوانات البحرية المضيئة

أما الحيوانات البحرية المضيئة فهذه صور منها:

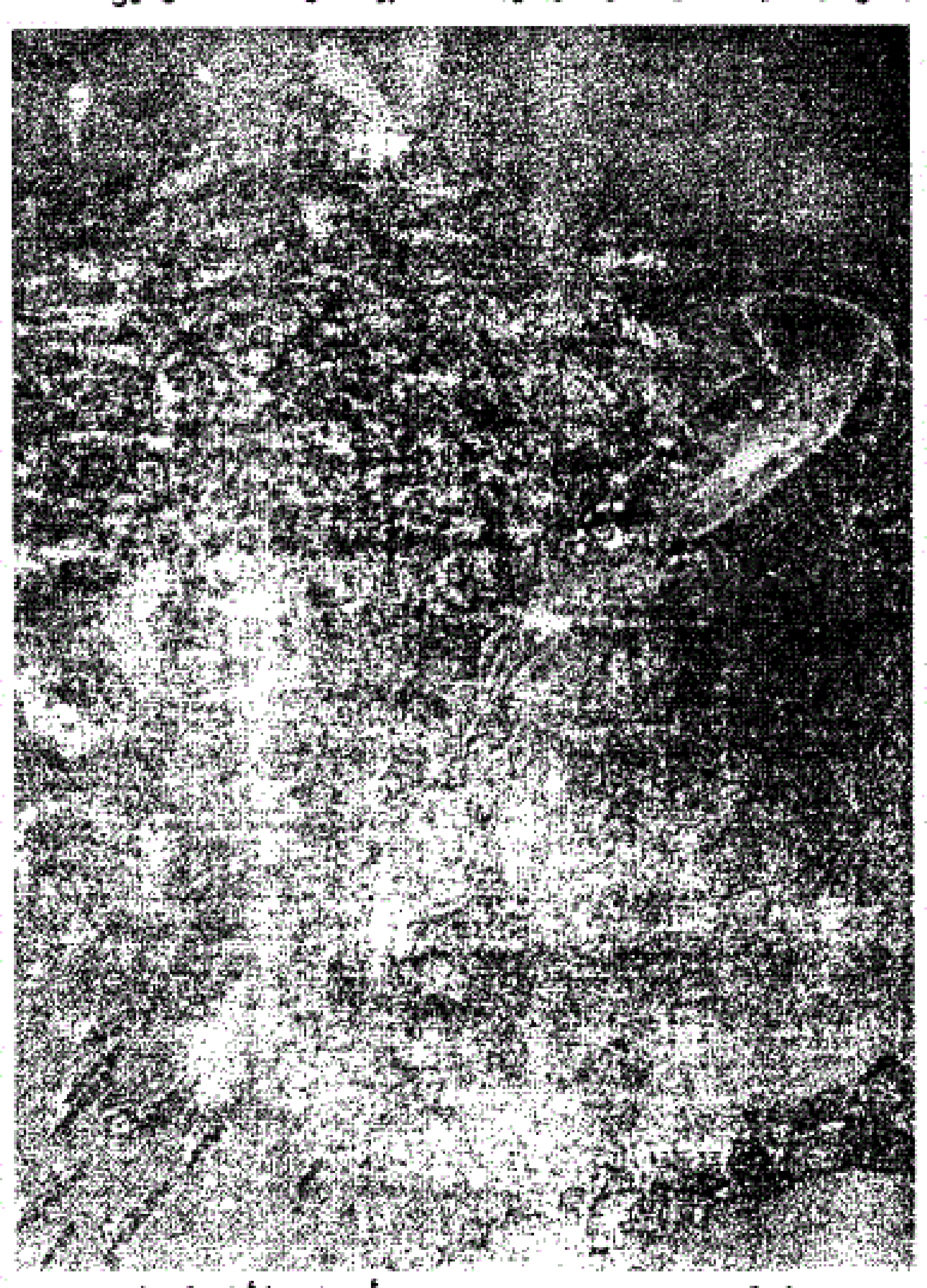


(شكل ١٧)

أحياء منيرة: (١، ٢) بكتريا. (٣) فرج البحر. (٤) دودة بحرية. (٥، ٦) نوعان من السبيذج

كل هذه الصور هنا من كتاب فصول التاريخ الطبيعي المنقول من المقتطف فلنلخص منه ما قاله العلامة «مكارتني»، فقد ذهب إلى أن تألق البحر الفسفوري ناشئ عن حيوانات تعيش فيه وهذا هو التعليل الصحيح، فكل تألق فسفوري في البحر ينشأ عن حي من الأحياء، بعضها مكرسكوبي،

وبعضها يرى بالعين المجردة، وقل من الناس من يدري كثرة الكائنات الحية المضيئة في الطبيعة، فإننا إذا تناولنا الأحياء بالبحث الدقيق من هذا القبيل وجدنا ما لا يقل عن أربعين رتبة من الحيوانات كل رتبة منها تشتمل على أكثر من شكل واحد من الأحياء المنيرة، يضاف إلى ذلك طائفتان من طوائف النبات على الأقل، والنباتات المنيرة هي: البكتيريا والفطر، فكل ألفي فسفوري في الخشب مبعثه الفطريات التي تعيش فيه، وكل ألف فسفوري في السمك الميت واللحم المحفوظ في الثلاجات وغيرهما من المواد التي كانت حية؛ منشؤه البكتيريا، وهذه الأشكال البكتيرية واسعة الانتشار وتستطيع العيش والتكاثر في كل وسط موافق لها، حقاً إن عدد الأصناف الحية المنيرة بين الحيوانات يبلغ عشرات الآلاف منها ضروب الإسفنج وفرج البحر والحيوانات الهلامية البحرية والحيوانات الصدفية والسبيذج، ونجم البحر، وديدان الأرض وديدان البحر، وفصيلة الأربعة والأربعين «الستيد» والأسماك وغيرها.



(شكل ١٨ ـ حيوانات منيرة من أعماق الأتلنتيكي)

فمن أصناف السبيذج صنف تشتمل أطراف لوامسه على أعضاء منيرة، فإذا سبح الحيوان في الماء حرك لوامسه حركة موجية فتظهر للمشاهد وكأنها شقة من النور تتماوج في الفضاء، ويكثر على مقربة من اليابان ويدعى هناك «هوتاروايكا»، أي: السبيذج الشبيه بالحباحب.

وهناك صنف آخر من السبيذج يوجد على شواطئ إيطاليا يقذف بسائل منير إلى الماء، وهو يعيش في أعماق البحر المظلمة، وسائله المنير يصنع في غدة تقابل كيس الحبر في السبيذج الذي يطلق حبره الأسود ويلتقط عند الشواطئ السورية.

ومن الغريب أن التطور الخاص قد أنشأ صنفين من نوع واحد: أحدهما يصنع سائلاً أسود حالك السواد والآخر يصنع سائلاً شفافاً منيراً، إننا نستغرب عادة مشاهدة سمكة تقذف حولها حبر أسود، ولكن دهشتنا تكون أعظم جداً إذا رأينا سمكة تقذف إلى ماء البحر سائلاً من النار، أي:

السائل المنير، الذي يظل متألقاً في البحر إلى حين، فما الفائدة من هذين الجهازين؟ لعلها من قبيل أغشية الدخان الكثيف التي تقذفها الطيارات والبوارج في الحرب، أي: لمنع أعدائها من التهامها وهي تمعن في الهرب.



(شكل ١٩ ـ سمكة منيرة عجيبة من أعماق البحر على مقربة من طرف إرلندا الجنوبي الغربي)

هـذا واعلـم رعـاك الله أن الحكمـة الإلهية أبدعت في خلق بعض هـذه الأسماك أيما إبداع. فانظر ثم انظر كيف كان بعض هذه يعيش في قاع البحار المظلمة التي لا يجد ضوء الشمس سبيلاً إلى إضاءتها لشدة بعدها عنه، فسهلت الحكمة الإلهية والرحمة الواسعة السبل للعناية بحياة تلك الحيوانات، ومهدت لها طرق المعيشة وطرق الوقاية، فجعلت لها ما يشبه البطاريات التي تخرج أشعة، وتلك الأشعة قد أعد لها في أعضاء السمكة ما يعكس نورها ويسيره في اتجاه واحد، ففي العين ترى الأنوار تشع وفي جانبها ما يوجهها إلى الأمام.

صنع الله الذي أتقن كل شيء، فإذا لم يصل ضوء الشمس لها؛ فهاهو ذا الحيوان أعطي نوراً به يستضيء في ظلمات البحار. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ٧].

يقول العلماء: إن عضو النور في هذا السمك معقد التركيب، لأنك تجد وراء العدسية طبقة من مادة لماعة تعكس النور، فإذا تولد النور في داخل العين وقع جانب منه على هذا العاكس فيرده إلى العدسة فينبعث منها، وهكذا يصبح النور والمنعكس عنه شعاعاً واحداً.

ولبعض أصناف السبيذج في أعماق الأوقيانوس ثلاثة أعضاء منيرة: أزرق، وبنفسجي، وأحمر ثم لتعلم رعاك الله أن الحكمة الإلهية دبرت البحار تدبيراً يثير الإعجاب بمنظر الجمال، فبينما نرى الأقطار القطبية بهجة المناظر بما فيها من ضوء الصباح الطويل الذي يدوم بعض شهور فيسطع نوره على أنواع الثلج فيتألق ويشع نوراً بهجاً يبهج السكان، وقد قل جمال هذا الإشراق الصباحي في جهات خط الاستواء وما نحا نحوها.

أقول: فبينما نراها كذلك إذا بنا نرى أعجب وأعجب، ذلك أن البحار الاستوائية وما قاربها تمتلئ بتلك الحيوانات اللامعة وما فيها من المواد الفسفورية، فماذا ترى؟ ترى إشراقاً وجمالاً يشاهده راكبو السفن في تلك الأقطار، ويرون تألق الأمواج بألوان جميلة براقة مختلفة الألوان ببهجة وجمالاً، بها يحاكي البحر هيئة السماء وما فيها من المشرقات الثواقب المختلفات جمالاً وبهجة. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤]، ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾[الذاريات: ٢٠].

وبينما نحن نرى ظواهر البحار على هذا المنوال ؛ إذا بنا نرى الأعماق التي لا نور فيها قد تألقت الأنوار من أعضاء حيواناتها ، لتضيء لها طرق معاشها وسبل حياتها واتقاء مضارها ، وابتغاء رزقها . والله هو الولي الحميد ، ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[البقرة : ٢١٢] ، ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[هود : ٦] .

خطاب لأمم الإسلام

في حياة الحيوان في قاع البحار ، وكيف درسه الغربيون وأظهروا قناديله وأضواءه في تلك الأصقاع كما درسوا موسيقاه ومغانيه فوق اليابسة

أيتها الأمم الإسلامية ، هاأنتم أولاء تسمعون الله يقول في كتابنا المقدس : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[ابراهيم : ٣٤] ، ومن نعمه التي لا تحصى البحار وعجائبها ، ويقول الله فيها : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل : ١٤] .

يقول : وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ، الله أكبر ! عمم الفضل ، وابتغاء الفضل بعد ذكر اللحم الطري : وهو السمك ، وبعد أن ذكر الحلية ، والابتغاء من الفضل يشمل التجارة ويشمل غيرها ، فالفلك المواخر في البحر يبتغي الناس بها غير التجارة أموراً أخرى : كالكشف عن مخبآت البحار ، الله أكبر رحماك ربنا ارفع الغضب عن أمتنا الإسلامية ، واكشف عن البصائر وأنر لهم السبيل ، حتى يعرفوا أن بحارك مسخرات لهم ، فليس تسخير البحار خاصاً بأوروبا ، فإنك قلت : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾[الجاثية : ١٢] ، فالخطاب بلفظ « لكم » لم يستثن الله منه المسلمين ، بل هم أولى به ، ألم يقل الله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[الأعراف : ٣٢] ، أليس من عجب أن تزدهر هذه العلوم في أوروبا وينطفئ مصباحها في بلاد الإسلام ! سبحانك يا رب ، وسعت كل شيء رحمة وعلماً .

ولما نامت أعين المسلمين عن هذه العلوم ، ومن أجملها علوم قاع البحار فتحت أعين أمم أخرى وأيقظتها لذلك ، لأن الملك ملكك ، والناس جميعاً عبادك ، فلم يكن جهل المسلمين بكتاب ربهم وبجمال صنعه سبباً لإبعاد الناس جميعاً عن نعم ربهم ، كلا ، فهؤلاء رجال من الأمم الغربية كانوا يقولون مثل العلامة « فوريز » الذي شجعته الحكومة الإنجليزية على اقتحام البحار في القرن التاسع عشر : إن هناك خطأ يسمونه « صفر الحياة » ، أي : إن الحياة في أعماق مخصوصة في البحار معدومة ، ولكن رأي « فوريز » المذكور قد أظهر خطأه الأستاذ « سير جون روس » ، فإنه نشر في عام ١٨٩١ ما يفيد أن عمق البحر على بعد ألف قامة به تربة مكونة من طين به ديدان كثيرة ، وقد استخرج بمسباره الذي أرسله إلى ذلك القاع حيواناً بحرياً عجيب الشكل يسميه المصريون « قنديل البحر » ، وهي حيوانات بحرية تجعل هي والمرجان في فصيلة واحدة ، وهذا الحيوان المسمى « قنديل البحر » حيوان في غاية الجمال بديع الشكل ، قال « جون روس » : وهذه أول مرة عثر الإنسان فيها على

حيوانات حية على بعد ستة آلاف قدم، وهكذا وجد عند خط عرض ٣, ٧٣ جنوباً، وخط طول ٦, ١٧٦ شرقاً كثير من الحيوانات التي لا فقرات لها، وجاهر بأنه يعتقد بأننا مهما تعمقنا في قيعان البحر فإننا نجدها مملوءة بالحيوانات الحية، وأثبت هو وغيره أن الضغط العظيم الواقع على تلك الحيوانات لم يمنع عنها هذه الحياة.

وهكذا فعل البحار «بروك» في عام ١٨٥٤، فإن مسباره الذي اخترعه قد أيد ذلك تأييداً تاماً، وأفاد أن أعماق البحار مملوءة من تلك العجائب الحيوانية، فهل هذا يعجبكم أيها المسلمون! يستيقظ علماء الغرب ويغشون المحيطات ويزيدون العلم وأنتم نائمون، كأن القرآن ليس كتابكم، وكأن نعم الله لم تكن حلالاً لكم والله خصصها لغيركم، ثوبوا أيها المسلمون إلى رشدكم واعلموا أن دراسة هذه العجائب نوع من الشكر المذكور في آية البحر المتقدمة، إذ يقول: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل: ١٤].

هذا غيض من فيض من عجائب الحيوانات البحرية وإضاءتها في ذلك الظلام التام في قاع البحار. وكما أن الحيوان يضيء في البحر تارة ويقذف الحبر أخرى؛ هكذا تراه في البر يغني بأصوات شجية، وسأحدثك عن تلك النغمات على اليابسة، فأقول: جاء في بعض المقالات العلمية في جريدة الأهرام ما نصه:

الموسيقى والحيوان

للحيوان شعور وإحساس بالموسيقى لا يقل كثيراً عن شعور الإنسان بها، فالحيوانات كلها تتأثر بالموسيقى تأثيراً كبيراً غير أن هذا التأثير يختلف باختلاف معيشتها.

فمن الحيوانات ما يتأثر بالموسيقى الصوتية، ومنها ما يتأثر بموسيقى الآلات وهكذا، وقد قام كثير من علماء الغرب بتجارب لمعرفة أي أنواع الموسيقى يؤثر على كل حيوان، ويمكن أن نقول: إن كل حيوان يتأثر بالموسيقى المشابهة لصوته، فالخيل تتأثر بالموسيقى المشابهة للصهيل، كما يتأثر الخروف بالمأمأة.

وأما الكلب مثلاً فلا ينبح إذا سمع شخصاً يقول: «هوهو» بغير النغمة التي يصدرها هو أو التي تصدرها الكلاب عادة، في حين أنه ينبح إذا كان هذا النباح بنفس نغمة الكلاب، ولكي يثبت ذلك يمكننا أن نلفظ أمام الكلب «هوهو» بنغمة غير نغمة النباح فنجد أنه لا يتأثر ولا يعيرنا أذناً صاغية، في حين أنه يتأثر إذا قلنا: «بل بل» ولكن بنفس نغمة النباح. كذلك الخروف لا يتأثر بكلمة «ماء»، إنّما يتأثر بنغمة هذه الكلمة.

ومما يثبت تأثير الحيوانات بالموسيقى ما حصل للمستر «جراس» أحد فلاحي الإنجليز، إذ لاحظ أن البقر كثيراً ما تتجمع حول سور المرعى تاركة بقية الحقل الذي ترعى فيه مرهفة آذانها تستمع إلى الموسيقى التي تنبعث من بيت بجوار المزرعة، وقد عرف المستر «جراس» تأثير هذه الموسيقى على بقرة من نظراتها وحركات آذانها وذيلها ابتهاجاً. فما كان منه إلا أن اشترى آلة للراديو ووضع بوقها في مرعى البقر، فرأى أن كمية اللبن قد تضاعفت بتأثير الموسيقى، وأن البقر يسر كثيراً كلما كانت الإذاعة موسيقية، أما إذا كانت محاضرة علمية أو اجتماعية فإن هذه الأبقار لا تكاد تسمعها حتى تنام، مفضلة

النوم على سماع المحاضرات التي لا تفهمها، فإذا ما انتهت المحاضرة استيقظ البقر من سباته واجتمع عند بوق الراديو لسماع الموسيقى!.

ومن عادات أهالي السودان أنهم يجتمعون على الشاطئ إذا أخذ التمساح أحدهم يتغنون ويقرعون الطبول، ويعرج التمساح ـ وفي فمه فريسته ـ على الشاطئ الآخر ليستمتع بسماع الموسيقى العذبة، ويعمل الأهالي ذلك لكي يشاهدوا فقيدهم.

التمساح الذي نظن أنه أقل الحيوانات البحرية تأثراً يتأثر بالموسيقى ويحس بها، ونحن نرى ما يفعله الذين يربون الحمام ويعلمون ما يسمى «غية حمام» حين يصفرون إليه ليدخل بيته أو ليتحرك حركات خاصة.

والحمار الذي هو أكثر الحيوانات غباوة يتأثر بالموسيقى ولا يشرب إلا إذا صفر له صفيراً منتظماً، وهو إذا سار على قنطرة خشبية أو طريق مرصوف كان سيره منتظماً ليحدث بخطواته موسيقى جميلة، وهذا ما يحصل لخيل عربات الركوب، إذ يحاول زوج الخيل أن يجعل من ضربات أرجله على الأرض موسيقى منتظمة.

والحشرات كذلك تتأثر بالموسيقى تأثيراً كبيراً ويثبت ذلك ما يحصل من خلية النحل، إذ قد تدخل حشرة طفيلية خليتها وتتغنى بألحان شبيهة بتلك التي تقوم بها الملكة ويتأثر بسماعها أفراد الخلية تحدث هذه الحشرة الغريبة تلك الأصوات الموسيقية الجميلة لتتركها العاملات من النحل تأكل ما تشتهي من العسل ما دامت تشجيهنّ بموسيقاها العذبة.

وأكبر دليل على أن الحيوانات تتأثر بالموسيقى هو أنها نفسها تحدث الموسيقى. فللكثير من الطيور صوت جميل تتغنى به، كما أن أصوات الحيوانات كلها تعد من الأصوات الموسيقية، غير أننا يمكن أن نتذوق بعضها ولا نتذوق الآخر، وكذلك الحشرات فإنها تترنم بالموسيقى، وليست الحنجرة هي الأداة الوحيدة لإخراج موسيقى الحشرات، فإنها قد تحدث الموسيقى بطرق مختلفة تشبه الطرق التي تحدث بها موسيقانا، فمن الحشرات ما يحدث موسيقاه من جهاز التنفس الذي يتركب من أنابيب عجيبة تخرج موسيقى تشبه ما يخرج من الأنابيب الأرغونية. فالخنفساء مثلاً تعزف موسيقى بطريقة مشابهة لعزف العود تقريباً، فهي تشد جسمها الأمامي والخلفي فينكشف بينهما غشاء رقيق مشدود فتعزف عليه بعضلة زائدة في جسمها، وهي تغير النغمة بتغيير قوة شد هذا الغشاء.

ومن الحشرات ما تفرغ جذور النباتات فتجعلها كالطبلة وتنقر عليها برأسها، أما النمل فيحدث موسيقى إجماعية، أي يعمل ما يشابه أوركستر قد يزيد عن أكبر أوركستر عالمي. فإن النملة باحتكاكها بأوراق الأشجار تحدث صوتاً لا يعد من الأصوات الموسيقية ولكنه باجتماعه بالأصوات التي تحدثها الأخريات، وقد تكون متباعدة تحدث موسيقى شجية، إذ أنها تبتدئ كلها وتنتهي في وقت واحد بأصوات متفقة اتفاقاً تاماً، ومن الحشرات ما يحدث أصواتاً موسيقية بحك عضو من جسمها بعضو آخر، ومثال ذلك ما نسمعه من النمل الطائر إذ يحدث الطنين بحك أجنحته على جسمه الحلزوني بسرعة عظيمة، وتشبه هذه الموسيقى موسيقى الكمنجة التي تحدث من حك القوس على الأوتار.

وقد يقول البعض: إن هذه الأصوات التي تحدثها الحشرات والحيوانات ليست من الموسيقى في شيء، ولكن الواقع أن الموسيقى ما هي إلا ترتيب الأصوات الموسيقية ترتيباً تألفه الأذن، إذن فصوت الضفادع مثلاً من الموسيقى، لأن الأذن تألفه وهو يحدث في الإنسان روعة عظيمة.

وخلاصة القول: إن للموسيقى تأثيراً كبيراً على الحيوان كما لها على الإنسان، وكثير من الحيوانات يعزف الموسيقى ولكنه كالإنسان في أول حياته ينتقي من الآلات التي في الطبيعة. انتهت الروضة الثانية.

الروضة الثالثة

من روضات الجنات في عجائب أنواع الحيوان من حيث راحة أجسامها بالنوم من عجائب قوله تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣]

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾[الروم: ٢٣]

وأن هذا النوم من أجل الرحمات على الحيوان

وفيه من عجائب النوم ما هو أشبه بالموت وليس بموت حتى تشابها وتشاكل الأمر

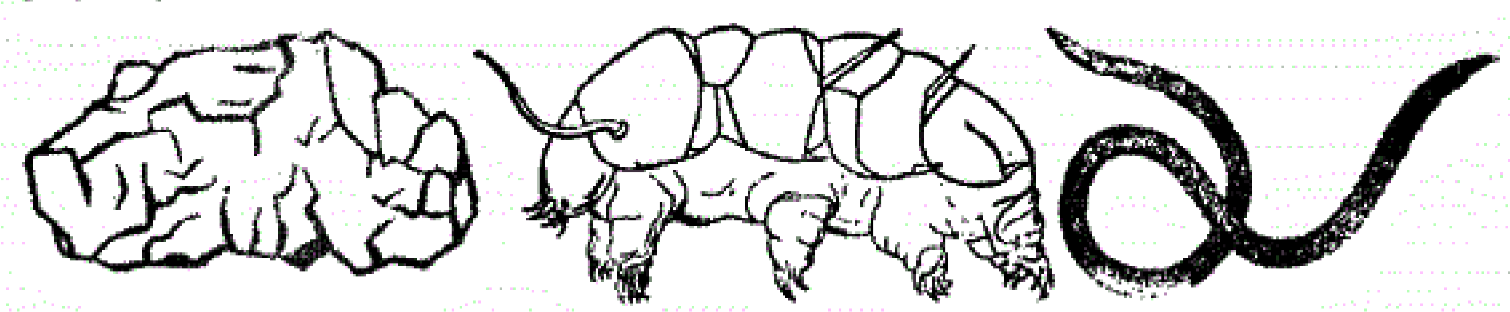
ولم يتفاوت الإنسان والحيوان والنبات فيه فهو من أجلّ الرحمات

والآية نصت عليه

قال صاحبي: لقد ازدهر هذا المجلس بعجائب البحار وجميل أنواع حيواناتها الفسفورية المضيئة البهجة وما فيها من عجائب وبدائع، وإن جمال النور كما يكون فوق أمواج البحار متلألئاً بهجاً في أقطار خط الاستواء فيكون البحر بديع المنظر جميل الأشكال؛ يكون كذلك في قاع الأوقيانوسات بهجاً بديع فيه أنواع الجمال والبهجة والنور من كل سمك أشرقت أنواره وأضاءت له السبل حين انقطعت عنه أنوار الشمس، ولما كانت الحكمة لا حد لها، وكان السمك أنواعاً وأصنافاً أعدت الحكمة العالية القدسية نوعاً آخر من المنافع وهو الحبر الأسود الذي يقذفه الأخطبوط في الماء فتعمى عيون أعدائه، ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[يوسف: ١٠٠].

فأرجو الآن أن تبين لنا حكمة أخرى لا تقل أهمية عن هذه، وذلك أن الله يقول: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣]، وقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾[الروم: ٢٣]، وهي أن تشرح مسألة تقدم ذكرها في كتاب «الجواهر» وهو أصل هذا الملحق، وذلك أن العلماء قد أثبتوا في عصرنا أن حبات البر التي أصيبت بضر قد وجدوا في الحبة الواحدة منها ما يبلغ عشرة آلاف حيوان صغير، وهذه الحيوانات حفظها العلماء مدة سنتين إلى ٢٨ سنة وهي جافة ثم أنزلوا عليها الماء فحييت، وكرروا ذلك مراراً فكانت بعد الموت تحيا، وقد قرروا أن ذلك موت لا نوم، ولكننا نراه يشبه النوم من وجه، وهو الاستيقاظ في حال ورود الماء عليه، فهل من سبيل لشرح هذا الموضوع؟ ونكتفي في هذا المقام بذلك في هذه الجوهرة.

فقلت: أما صور تلك الحيوانات التي تجمعها حبة القمح التي أصابها الضر، ونسميها في بلادنا المصرية «مهفوفة» فهاك ثلاثة أمثلة لها:



(شكل ٢٠ ـ الدود الخيطي) (شكل ٢١ ـ التراديغرادا المتحركة) (شكل ٢٢ ـ التراديغرادا الساكنة)

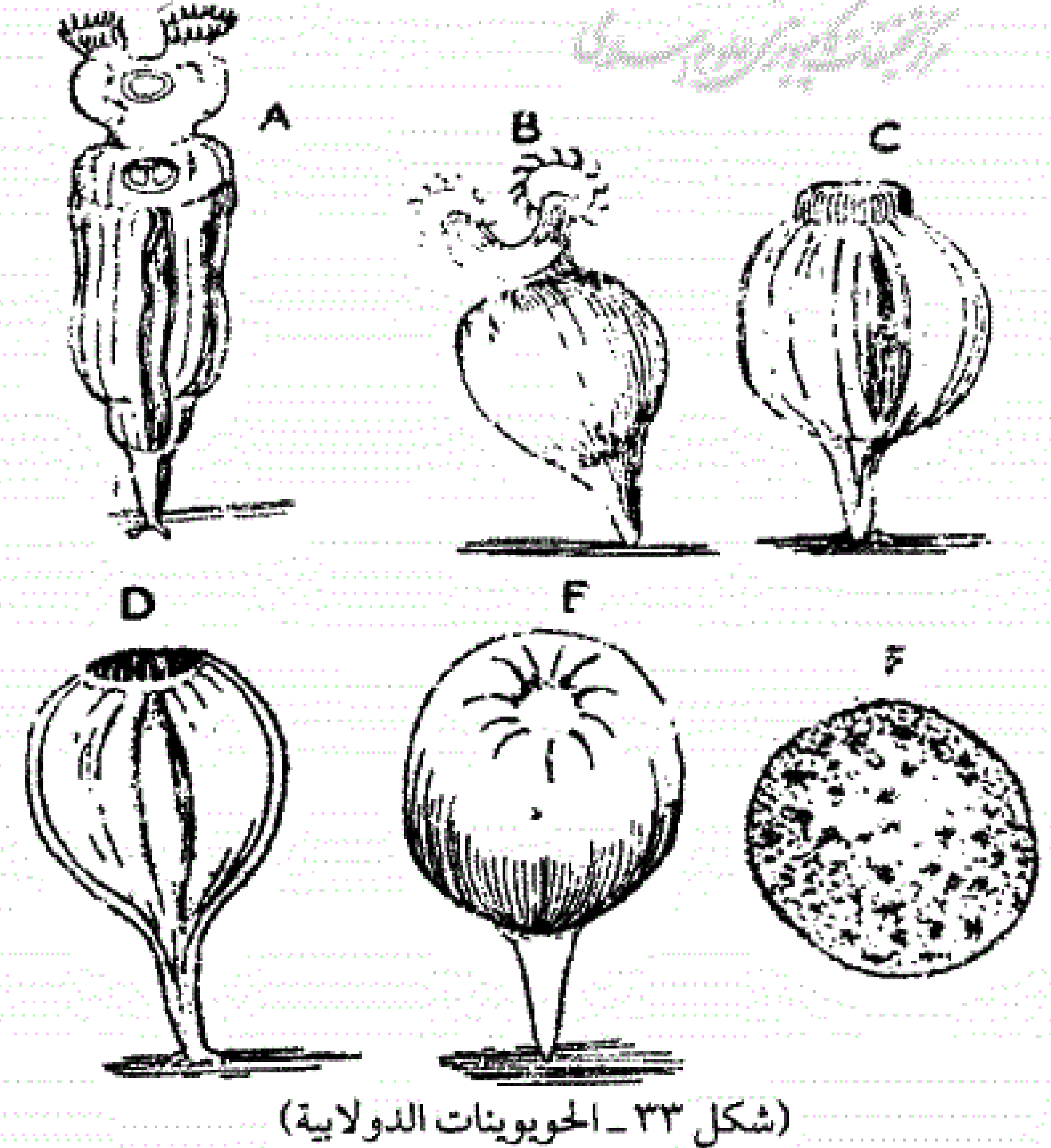
ولننقل هنا ما جاء في فصول التاريخ الطبيعي تحت عنوان السكون والتشتية والتماوت في الحيوان والإنسان، وإنّما نذكره لك أيها الأخ هنا لتطلع على العلم من وجوه شتى، فإنا نقلنا عن مجامع أوروبا في التفسير كما قلت أنت إجمالاً إنهم أثبتوا أن تلك الحيوانات ـ بعد وضعها في الشمس تارة وفي إناء قد أفرغوا الهواء منه مدداً كثيرة تارة أخرى، وبعد أن بقي كذلك سنين وسنين بلغ أقصاها ٢٨ سنة ورأوا الحيوان بعد ذلك وقد صبوا عليه الماء قد رجع حياً ـ قد ماتت ثم حييت، فأما في هذا المقال فإن القول فيه منصرف إلى أنه نائم، وفي المقال الأول المنقول عن جامعات أوروبا قلت: إن هذا عجب فهو يثبت البعث والقيامة بطريق علمي ظاهر واضح كقصة أهل الكهف، وهذا قد أوضحناه هنالك إيضاحاً تاماً.

فهاك المقال المذكور لتعرف ذلك وتعرف فوق ذلك بعض أنواع الحيوان التي تنام شتاء وتستيقظ صيفاً، والله هو اللطيف الخبير. جاء في كتاب الفصول المذكور ما نصه:

السكون والتشتية والتماوت في الحيوان والإنسان

النبات حي ولكنه ساكن، بمعنى أنه لا ينتقل من مكان إلى آخر ولا يتحرك إلا حركة النمو وقت النمو، ويظهر هذا السكون بنوع خاص في بزوره فإنها لا تتحرك ولا يظهر فيها أثر النمو إلا إذا بلت بالماء، وأما إذا لم تبل فقد تبقى حية ساكنة مئات من السنين.

وقد يظن أن الحيوان لا يجري هذا المجرى، بل هو متحرك نامياً كان أو غير نام، ولكن يظهر من البحث أن بعضه يسكن سكوناً تاماً مدة



(شكل ٣٣ ـ الحويوينات الدولابية)

طويلة أو قصيرة كأنه ميت، ثم إذا وضع الماء عاد إلى الحركة، ومن أمثلة ذلك الحلزون «البزاق»، فإنه إذا جاء الصيف انكمش في قوقعته «بوقه»، وأفرز مادة مخاطية كلسية سد بها بابها، وأقام كذلك من غير حركة إلى أن يقع المطر ويبله، فيخرج ويسرح ويأكل ويتزاوج ويعيش كما تعيش سائر الحيوانات، ويجمع في بدنه غذاء كافياً لحفظ حياته مدة القيظ والاستكنان. وقد يقع هذا الاستكنان في فصل الشتاء والبرد لا في فصل الصيف والحر، فتستكن في بيوتها الأفاعي والمناجذ والخفافيش وبعض أنواع الفيران وأنواع النمل وحشرات أخرى كثيرة، وقد تتغير أشكالها وتبني لها بيوتاً تقيم فيها ساكنة كأن لا حياة فيها.

وما يصيب الحشرات الكبيرة كالديدان والعناكب يصيب الحشرات الصغيرة التي تكاد تعد من المكروبات لصغرها، كالديدان الخيطية التي مني بها القمح في بعض الأماكن من هذا القطر. فقد كتب إلينا بعض أهل الزراعة أنهم زرعوا قمحاً فكانت الغلة زواناً، وبعثوا إلينا ببعض الحبوب التي حسبوها زواناً، فإذا هي قمح أصيب بالدود الخيطي فضمر وبقي صغيراً مثل حب الحلبة، وقد فحصنا قمحاً مثل هذا النوع بالميكروسكوب منذ ثماني سنوات ونشرنا نتيجة فحصنا له في مقتطف يوليو سنة ١٩١٥ وهذا بعض ما ورد فيه:

وضعنا أربع حبات من حبوب القمح المصاب في كأس ماء حتى تبتل، وبينما نحن نحضر الميكروسكوب لفحصها به أخذ الخادم الكأس وصب الماء منها، وبعد اللتيا والتي تمكنا من وجود حبة من تلك الحبوب الأربع، فشققناها، وإذا المادة النشوية فيها لا تزال بيضاء في فلقتيها كأنها باقية على حالها، والحقيقة أنها صارت كتلة من الديدان البيضاء كما سيجيء، فأخذنا شيئاً قليلاً منها ووضعناه على لوح الميكروسكوب الزجاجي ووضعنا عليه نقطة ماء وإذا هو ديدان خيطية مشتبكة بعضها ببعض تختبط وتتمعج ويحاول كل منها الإفلات من رفاقه، ثم أخذنا قليلاً من الفلقة الثانية ووضعناه تحت الميكروسكوب؛ وإذا هو أيضاً مؤلف من هذه الديدان ولكنها تكاد تكون عديمة الحركة، فعدنا إلى الفلقة الأولى فوجدنا أن كل ديدانها كثيرة الحركة، وأما الفلقة الثانية فبقيت ديدانها قليلة الحركة إلى أن طال نقعها في الماء، وجعلنا نخفف ما نأخذه منها بتكثير الماء، فصارت أكثر حركة مما كانت قبلاً ولكن حركتها بقيت أقل من حركة الديدان التي من الفلقة الأولى.

وقد ظهر لنا أن المادة النشوية زالت كلها ولم يبق منها إلا حبوب قليلة جداً لا تذكر، وقامت هذه الديدان مقامها، وأن طول الدودة الواحدة ثمانية أعشار مليمتر وثخنها نحو $\frac{١}{١٠٠}$ من المليمتر، وإذا حسبنا أن مساحة النشاء الذي قامت هذه الديدان مقامه ثمانية مليمترات مكعبة؛ فيكون في الحبة الواحدة من الديدان نحو مائة ألف دودة، وهذا كلام رجال المقتطف، والذي كتبناه في أصل التفسير عن المجامع الأوروبية أنه يبلغ عدد الحيوانات في حبة القمح نحو عشرة آلاف.

ثم قال: وقلما ينتظر أن تصل الحبة الواحدة أكثر من دودة أو دودتين أو بضع دودات فتبلغ الحد الفائق من التكاثر في برهة وجيزة، ولذلك خلطت حبوب قليلة من هذا القمح المضروب بتقاوى القمح السليم الذي يزرع في أفدنة كثيرة؛ فلا عجب إذا أصيب محصولها كله وتلف.

وبعد أكثر من سنة نظرنا إلى الزجاجة حيث كانت تلك الديدان فلم نر عليها إلا آثاراً صغيرة، ثم وضعنا عليها نقطة ماء حتى ابتلت جيداً، ونظرنا إليها ثانية بالميكروسكوب فإذا الديدان فيها تموج موجاً ويلتف بعضها على بعض متلوياً متمعجاً كأنها زادت عما كانت عليه في النوبة الأولى عدداً ونشاطاً، ويرى في الشكل (٢٠) صورة واحدة منها وهي مكبرة نحو مائة وخمسين ضعفاً.

ومن هذه الحشرات الصغيرة نوع يطلق عليه اسم تراديغرادا Tradigrada، أي: البطيئات السير ومنه صنف يعيش في الأماكن الرطبة، وهو يأكل ويتحرك مثل سائر أنواع الحيوان، ولو كان بطيء الحركة ومنظره حينئذ مرعب، له ثمان أرجل مسلحة بالمخالب الحادة، وعلى ظهره درع كثيرة المفاصل كدرع السلحفاة فيها أشواك بارزة تزيد مهابة كما ترى في الشكل (٢١)، فإذا جف المكان الذي هو فيه استسلم للأقدار وأقام في مكانه خاملاً إلى أن يجف فيتجعد جسمه ويصير كحبة رمل مستطيلة كما ترى في الشكل (٢٢)، وتتوقف كل الأفعال الحيوية الظاهرة، وقد يبقى كذلك سنوات عديدة ولا يظهر فيه أقل تغيير، ولكن إذا أصابه قليل من الماء حينئذ جعلت حبة الرمل هذه تنفتح رويداً رويداً، فيزول ما فيها من الغضون أولاً ثم تزيد انتفاخاً حتى تعود إلى حالها الأولى، وبعد مدة تختلف من ربع ساعة إلى بضع ساعات حسب الزمن الذي بقيته ساكنة تسير في طلب رزقها.

وفي الأماكن الرطبة والمستنقعات نوع آخر يسمى بالحويوينات الدولابية Rotifera، لها في رؤوسها أهلاب تتحرك حركة موجية فيظهر كأنها دواليب تدور على نفسها كما في الشكل (٢٣)، وهي صغيرة ميكروسكوبية تبقى ظواهر الحياة ظاهرة فيها مادامت رطبة، فإذا جفت يبست وصارت كالغبار، وإذا أعيدت إلى الماء بعد ذلك عادت ظواهر الحياة إليها وسبحت في الماء طالبة رزقها، أو رسخت في مكان بأذنابها وجعلت تحرك الأهلاب التي في رأسها، فيتحرك الماء بها ويجلب إليها دقائق الغذاء المنتشرة فيه.

وأكثر الحشرات يجري على هذا المجرى من توقف الحياة في بعض شهور السنة، أو حينما ينقطع عنه ما يحتاج إليه من الغذاء، فهو كالنبات وبزوره من هذا القبيل ونواميس الأحياء وحدة نباتات كانت أو حيوانات، والفرق بينهما في الكم لا في الكيف، ولا غرابة في ذلك لأنها خاضعة كلها لنواميس واحدة، وفي معرفة هذه الطبائع ما يرشد إلى إتلاف الضار منها في الزمن الذي يسهل إتلافه فيه.

أشرنا فيما تقدم إلى طبائع بعض الحشرات من حيث سكونها، حتى لقد تمضي عليها سنوات وهي خاملة كأنها من الجماد أو من بذور النبات، ثم تبدو فيها الحياة بكل مظاهرها إذا ابتلت بالماء، ونحن مستطردون هذا البحث إلى الحيوانات العليا حتى الإنسان.

الأسماك: نشرنا في مقتطف أغسطس سنة ١٩١٠ مقالة للمرحوم علي أبي الفتوح باشا في وصف سمكة كبيرة وجدت حية في قاع ترعة صيفية على مقربة من ناحية شندويل شمالي مدينة سوهاج على عمق ثلاثين سنتيمتراً تحت سطح الأرض، والترعة المذكورة نيلية لا تصل إليها المياه إلا في زمن الفيضان، فتبقى جافة من ديسمبر إلى أغسطس، ولما وجدت هذه السمكة كان الشهر يونيو، فوضعت في الماء وعاشت فيه نحو أربعين ساعة، ولذلك هي تسكن ثمانية أشهر منقطعة عن الحركة

وهي حية . وكل الأسماك التي من نوعها تسكن مثلها إذا غاض الماء أو جف ، فتغور في الطين وتسكن فيه إلى أن يأتيها الماء ثانية إما بالمطر أو بالفيضان .

والشبوط : أو سمك المشط يختفي في الطين في فصل الشتاء حيث يشتد البرد ، فيعمر سنين كثيرة ، حتى لقد يبلغ عمر السمكة مائة سنة وتبلغ زنتها خمسين رطلاً مصرياً .

والإنكليس : من الحيوانات التي تغور في الطين وتسكن فيه إذا غاض الماء ، ولكنه قلما يفعل ذلك في بحيرات مصر لأن الماء لا ينقطع منها .

ومن هذا القبيل مزدوجات الحياة « الأمفيبيا » ، أي : الحيوانات التي يعيش بعض عمرها في الماء وبعضه في اليابسة ، كالضفادع فإنها تستطيع أن تغور في الطين وتسكن فيه زمناً طويلاً ، ولعل ذلك أصل ما يقال من أن حجراً كسر فوجدت ضفدع فيه ، فإذا كان الطين صلباً ووجدت الضفدع فيه حية بالغ الخيال في صلابة الطين فجعله صخراً .

والزحافات : كالسلاحف ، والتماسيح ، والأفاعي ، تشتو كلها وتنقطع عن الحركة ، فتراها في جناين الحيوانات في الجيزة ساكنة نائمة أكثر الأيام ، ولا سيما في فصل الشتاء ، وأحب ما عليها أن تختفي حينئذ في الطين أو تحت الهشيم . ويقال : إن التمساح يدخل الطين ويختفي فيه سنة كاملة من غير طعام . قال « تفنت » في كتابه المشهور عن جزيرة سيلان : إنه شعر ذات ليلة بحركة تحت فراشه ، ولم يعرف سبب هذه الحركة إلا في الصباح ، إذ خرج تمساح من تحت الأرض التي عليها فراشه .

و الحيوانات اللبونة يشتو بعضها في الأقاليم الباردة والمعتدلة ، كالدب والأرنب والسنجاب والقنفذ والخلد والمرموت ، وبعضها يبطن جحره بالريش والصوف منعاً للبرد في فصل الشتاء .

في طبائع الحيوانات كلها أدوار تنقضي وتعود في مواعيدها لعلاقتها ببعض الأسباب الطبيعية ، كالنوم ليلاً ، والسكون في جوف الأرض إذا غاض الماء ، والاستكنان في جحر إذا اشتد البرد ، ومن هذا القبيل نوم الإنسان ، وهو عام يشترك فيه كل أحد ويتكرر كل يوم ، ويكون كثيراً في سن الطفولية ، يبلغ ٢٠ ساعة أو أكثر ، ثم يقل رويداً إلى سن الشيخوخة ، ولكن يحدث أحياناً أن يطول هذا النوم أو السكون فيبلغ أياماً كثيرة ، ويسمى حينئذ غيبوبة ، والغالب أن يأتي عرضاً كأنه مرض .

ذكر السر « أرثرشبلي » من أساتذة كمبردج أن فتاة دخلت غرفة فاعترتها الغيبوبة فجأة ، وبقيت كذلك ٣٨ ساعة . وفتاة أخرى دخلت غرفتها لتغير ثيابها فوجدت ملقاة على سريرها غائبة عن الصواب وبقيت كذلك ١٤ يوماً .

لكن الغيبوبة قد تكون خاضعة للإرادة فيغيب المرء قصداً وينقطع عن الطعام والشراب أياماً كثيرة ، ويقال : إن دراويش الهند المعروفين بالفقراء ؛ يمارسون ذلك حتى يتقنوه ، فينام الواحد منهم ويدفن في قبر كأنه ميت ويترك فيه أياماً كثيرة ، ثم ينبش فيستيقظ كما يستيقظ النائم .

روى السر « أرثرشبلي » أن فقيراً من فقراء الهند أوقع نفسه في الغيبوبة ، فوضع في كيس وخيط الكيس ووضع في صندوق مقفل في غرفة داخلية من قصر رنجيت سنغ ، ولهذه الغرفة باب واحد ، وليس لها كوى ، فأقفل الباب وختم بختم رنجيت سنغ نفسه ، وكان من الذين لا يصدقون ما يدعيه

هؤلاء الفقراء، فوضع حول الغرفة حراساً من حرسه الخاص، وكانوا يبدلون بغيرهم كل ساعتين، ووضع عليهم الرقباء، فأقام هذا الفقير في قبره ستة أسابيع، وكان هناك رجل إنجليزي حضر دفنه وراقب المدفن كل مدة بقائه فيه، وحضر إخراجه منه فقال: إنه لما فكت الختوم كانت سليمة ولا شيء في جدران الغرفة يدل على أن أحداً دخلها وكانت مظلمة والصندوق في أحد جوانبها وهو مقفل ومختوم، ولما فتح وجد الكيس فيه وقد علاه العفن ففتح، وإذا الفقير فيه منقبض على نفسه، وكان هناك طبيب فجس نبضه ولم يشعر بأقل ضربان فيه، ثم جاء خادم الفقير وصب ماء ساخناً على رأسه ووضع عليه كيساً سخناً ونزع الشمع الذي كان قد سد به منخراه وأذناه نزعه بسكين، وفتح فمه بكل جهد وسحب لسانه وفرك أجفانه بزبدة، وبعد قليل جعل الفقير يفتح عينيه قليلاً قليلاً ويحرك أعضاءه، وكان جلده قد تغضن وتجعد، فجعل يلين وينبسط وينتفخ، ثم فتح فاه وقال لرنجيت سنغ بصوت لا يكاد يسمع: أصدقت الآن؟.

وقال السر «أرثر» أيضاً: إن الأطباء شاهدوا حوادث كثيرة من هذا القبيل في أوروبا، من ذلك ما رواه الدكتور «تشين» من أطباء دبلن المشهورين، وهو أن ضابطاً من ضباط الجيش برتبة كولونيل كان يتماوت وقت ما يشاء، وطلب منا أن نشهد تماوته، وكنا ثلاثة فجسسنا نبضه فوجدناه خيطياً ضعيفاً، ولكن قلبه كان يخفق خفقاناً عادياً، فاستلقى على ظهره واستسكن، فأمسكت بيمينه أجس نبضه، ووضع الدكتور «بينارد» يده على قلبه، وأمسك المستر «سكرين» مرآة نظيفة أمام فيه فشعرت بنبضه يضعف رويداً رويداً حتى زال شعوري به. وانقطع شعور الدكتور «بينارد» بخفقان قلبه، والمرآة التي كانت في يد المستر «سكرين» أمام فيه قلت آثار التنفس فيها إلى الدرجة القصوى، ثم فحص كل منا نبضه وخفقان قلبه وتنفسه دواليك فلم نجد فيه أقل أثر للحياة، وجعلنا نتداول في الأمر، فأجمعنا على أنه تطرف في هذه التجربة فمات فعلاً، وعزمنا أن نذهب ونتركه، وبعد نصف ساعة خرجنا ونحن ننظر إليه، فرأينا فيه شيئاً من الحركة، فعدنا وجسسنا نبضه فوجدنا أنه جعل يتحرك، وكذلك قلبه بدأ يخفق خفقاناً ضعيفاً، وبعد قليل جعل يتنفس ويتكلم همساً، ثم استرجع قواه فدهشنا وثبت لنا أنه يتماوت فيصير كالميت فعلاً. انتهى.

ونحن نعرف شاباً من دير القمر نام مرة نوماً مرضياً وبقي في غيبوبة أسبوعين أو أكثر لا يتكلم ولا يأكل ولا يشرب ولا يفتح فاه، واستيقظ بعد ذلك، ثم عاودته النوبة، وآخر ما نتذكره من أمره أنه لم يعش طويلاً بعد ذلك.

والخلاصة أن سكون الأحياء أو انقطاع ظواهر الحياة منها أمر شائع فيها كلها على أنواعها، وهو يختلف من النوع البسيط بضع ساعات كل يوم إلى السكون الذي يدوم بضع سنوات، ومما يحدث لآفة مرضية إلى ما يقع اختياراً.

وهذا تمام الكلام على روضات الجنات الثلاث في هذه الآيات، والحمد لله رب العالمين.

فقال صاحبي: حسن وبهج وجميل هذا المقام، فإننا عرفنا أن المجامع العلمية الأوروبية أثبتت أن تلك الحيوانات ماتت ثم بعثت، وأن بعض المجامع الأوروبية ومعها رجال في مصر قالوا إنها

نائمة، وبهذا أدركنا حكمة الله عز وجل وصنعه في خليقته، فإنه عز وجل لرحمته ورأفته لا يميت السمك، ولا الضفادع، ولا الحيوانات الدقيقة إذا جف الماء، بل يقول لها: أنا ربك، أنا أرحمك، فأنا الرحمن، وأنا الذي أكلؤك برحمتي فتنامين أمداً طويلاً، ولا تستيقظين إلا عند حصول نعمتي لك بالماء أو بغيره مما انقطع عندك أمداً.

ولا جرم أن هذه الظاهرة يراها الفلاحون في بلادنا الشرقية، ذلك أن الأرض تبقى أمداً طويلاً بلا ماء، ويسمونها «الأرض الشراقي»، فإذا نزل عليها الماء أخذت الضفادع تنق طول الليل، فمن أين أتت هذه الضفادع يا ترى؟ وكذلك يرى الناس أن الترع تظل جافة أياماً وأياماً وشهوراً، ومتى جرى الماء فيها أحسوا ببعض الحيتان مدفونة في الطين وقد حييت، كل ذلك مجهول للناس، وهم لا يعلمون أن تلك الحيوانات كلأها ربها وصانها ورحمها، وقال لها: نامي، أنا الرب، أنا الرحيم، أنا الرب الذي تذكرونني، وتقولون: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، هذه يا عبادي بعض رحماتي.

فلما قال ذلك صاحبي، قلت: قد أحسنت وأجدت، وإن الله بهذا كأنه يخاطب عباده قائلاً:

أي عبادي، هاأنا ذا أفعل الخير وأرحم عبادي وأسبغ عليهم نعمي علمتم أم لم تعلموا، فقهتم أم لم تفقهوا، هكذا فليكن عبادي المخلصون منكم، عليهم أن يعلموا الخير الصالح بإلهامي، ثم لا يبالون بالناس علموا أو لم يعلموا، فإني يا عبادي قد جعلت فيكم ضمائر تبشركم وتوقع في قلوبكم الطمأنينة والسعادة عند عمل الخيرات، وهذه الضمائر والبشائر هبات مني، وليس يعقل ذلك منكم إلا العالمون العاملون الفرحون بنعمتي عليهم وهم مستبشرون.

فقال صاحبي: حسن وجميل، ولكني لا أزال أفكر في أمر ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، هل الرحمن الرحيم تحتمل هذه المعاني كلها؟ فقلت: ولماذا لا تحتملها؟ فقال: إني يخيل إلي أن الناس يقولون: إن هذا كله لا تحتمله ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

فقلت: أنسيت يا أخي ما قلته الآن لك؟ قال: وما هو؟ قلت: ألم أقل إن الله عز وجل يسبغ النعمة على عباده عرف الناس أم لم يعرفوا، وأكثر الناس يزرعون ويحصدون وهم يجهلون رحمة الله للضفادع في أرضهم وقد جفت عليهم، وللزنابير في شقوق حيطانهم زمن الشتاء، فإذا سقيت الأرض بالماء وجاء فصل الربيع للزنابير استيقظت، كل ذلك جار حولهم وهم لا يعلمون ولا يحسون ولكن الله يفعل المصالح عرف الناس أم جهلوا، فهكذا فلنفعل نحن يا أخي، ولنقم بما ألهمنا الله من العلم وما أفاض علينا من الحكمة، ولنشرح الرحمة عرف الجهال أم لم يعرفوا، وسيدرسه قوم وتنشرح أفئدتهم، وبهذا يعلمون معنى قول سيدنا علي كرم الله وجهه: إنه يكتب ما يحمله سبعون بعيراً في ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، فالناس يسمعون هذا وهم ساهون، ولكني أقول بحق وصدق: إن سيدنا علياً كرم الله وجهه نظر بنور النبوة، وكانت روحه مشرقة إشراقاً قوياً، فنطق بذلك موقناً من قلبه، وخاطب الناس بما يعرفونه من حالهم وحال أحمال بعرانهم، ولكنه رضي الله عنه يعلم بما فوق ذلك، يعلم أن رحمة الله وسعت العوالم كلها، والله يقول: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾[الكهف: ١٠٩].

ولا جرم أن هذا العالم وغير هذا العالم كلمات ربي وقد وسعته كله الرحمة ، فأحمال السبعين بعيراً قليلة جداً بالنسبة لرحمة الله ، فإذا قلنا أحمال آلاف البعران لكان ذلك حقاً ، بل لا آخر ولا عدد لهذه الأحمال ، لأن الرحمة مساوية للعلم ، فهي مصاحبة للعلم ، والعلم لا حد له ، فالرحمة لا حد لها ، ولا نهاية لأحمال البعران التي فيها صحف مكتوبة في معنى ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، أكتب هذا وأنا موقن به ، والحمد لله رب العالمين . فقال صاحبي : لقد وضح الحق واستبان السبيل . فقلت : انتهى المبحث الأول من الماسة الثانية في آيات الرحمة وروضاتها تفسيراً لقوله تعالى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ .

المبحث الثاني: في الكلام على الماسة الثانية في آيات الحمد تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

هاهنا قال سميري : لقد ذكت الآيات التي فصلت الرحمات في العوالم العلوية والسفلية ، فأرجو أن تبين بعض المحامد الربانية في القرآن تبياناً لما ينبغي أن نحمد الله عليه من العوالم المحيطة بنا ، فإن الحامد الجاهل بنعم المنعم عليه لا يعرف كيف يشكره ، كما فعلت في الرحمة ، فذكرت آياتها فقلت :

لا جرم أن الحمد إنّما يكون على نعمة ، وما النعم إلا نتائج الرحمات الإلهية . لقد قرن الله بالحمد السلام والأمان الذي تنزل منه سبحانه على الذين اصطفاهم من عباده :

(١) فقال : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾[النمل : ٥٩] .

(٢) وجعل الله الحمد من العباد إليه في الدنيا والآخرة لأنه يستحق ذلك لرحماته المتوالية عليهم . وهذا قوله : ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص : ٧٠] .

(٣) وقال : ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الصافات : ١٨١-١٨٢] وهو يقرب من الأول .

(٤) ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الروم : ١٨] فكما استحق الحمد في الدنيا والآخرة ، استحقه في العوالم العلوية والسفلية .

(٥) ولقد أجمل في آية : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل : ٩٣] الخ مقروناً بما تفضل به على عباده ؛ من أنه دائم الإفضال عليهم ، بإمدادهم بآياته الباهرات ، ولتطمئن نفوسهم إلى الحقائق ، لا سيما في هذا الزمان .

(٦) وقوله : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الزمر : ٧٥] . جاء هنا الحمد مقروناً بما اتصف الله به من العدل في حكمه كالعدل في نظام مخلوقاته .

(٧) ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[يونس : ١٠] .

ولا جرم أن أسعد السعادات للنفوس الإنسانية ؛ الوقوف على أسرار العوالم والنواميس العالية ، وهناك يكون الحب ويتبعه الحمد ، فعلى مقدار العلم يكون الحب الموجب للثناء ، وهذا أكبر سعادة لأهل الجنة ، وهذا قوله : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ ﴾[يونس : ١٠] الخ .

(٨) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾[فاطر : ٣٤] يقوله أهل الجنة بعد نجاتهم من العذاب .

(٩) والحمد في «الفاتحة» هنا على عموم تربية العالمين، وفي «الأنعام» خاص بخلق السماوات والأرض مع تفصيل الظلمات والنور اللذين هما مبدأ العبادة عند أمم، كما أن النور الصادر من الكواكب دل بعض الأمم عليها فعبدوها، فقاومهم الخليل عليه السلام، وذلك موضح في سورة «الأنعام»، إذ نظر النجوم والقمر والشمس الخ.

ثم خص الله بالعبادة، إذن الحمد في سورة «الفاتحة» مناسب للحمد في سورة «الأنعام» المذكورة فيها الخليل وقصته لمناسبة الظلمات والنور المذكورين في أولها.

(١٠) والحمد مذكور أيضاً في أول سورة «سبأ» وفي أول سورة «فاطر» مقروناً بذكر أن له ما في السماوات وما في الأرض، وأنه فاطرهما وجاعل الملائكة درجات بعضها فوق بعض.

هذه بعض الآيات التي في القرآن وفيها ذكر الحمد، وسنفصل في الزبرجدة الأولى بعض العجائب في العوالم وتربيتها، وفي الزبرجدة الثانية بعض بدائع خلق السماوات والأرض التي يشتمل عليها قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الأنعام: ١]، وسنفصل في الزبرجدة الثالثة عجائب الكواكب لمناسبة قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام: ١] بعد ذكر الحمد في سورة «الأنعام»، ونذكر في الزبرجدة الرابعة بعض نتائج العجائب المحمود عليها وهو المحبة. وهانحن أولاء نشرع أولاً في تفصيل تلك الزبرجدة الأولى فنقول:

الزبرجدة الأولى

في التربية العامة المحيطة بالإنسان في السماوات والأرض، وفي بيان أن ما يسطره العلماء في الغرب وفي الشرق تبيان لآيات القرآن حقاً وصدقاً، فهاك مصداق ذلك مقالاً قرأته في كتاب «علوم للجميع» باللغة الإنجليزية جمع فيه المعاني المذكورة في أول سورة «الرحمن» المفصلة في أول سورة «النحل» الذي شرحناه في هذا المقام.

بهجة المناظر في العوالم وحسن إبداعها

وتبيان أن الجبال التي نراها في بلاد الشرق وفي بلاد الغرب تبدأ تربيتها في البحار، وذلك بتفتت الجبال بما يطرأ عليها من حوادث الحر والبرد والمطر ونحوها، فتسير مع الأنهار جاريات إلى البحار فتصير أشبه بالأجنة في الأرحام فتضغط على قاع البحر فينزل إلى أسفل فيحصل زلزال شديد، فيصير البر بحراً والبحر جبلاً، فما هذه الجبال التي نراها إلا أجسام عظيمة تربت في أسفل الأوقيانوسات، فهذه من تربية الله للعالمين.

ولقد نرى الشب والسكر والملح المعتاد، وملح البارود والرصاص في أحوال خاصة، قد أخذت أجزاؤها تنتظم بهيئات عجيبات هندسية، ولا مهندس لديها ولا بنائين، وفوق ذلك يشاهد الناس في كهوف كبيرات في الجبال أساطين مقامة في وسطها مسدسة الأشكال تسديس البلور، بديعة بهجة، فيرى الإنسان إذا دخلها كأنه في بهو مسجد عظيم قد بني بناء محكماً، وقد ارتفع سقفه على تلك الأعمدة العظيمة الفخمة، وما هي إلا آثار قطرات نازلات من سقوف الكهوف تحمل ذرات من المواد الجيرية، فيرسب منها أجزاء تحت سقف الكهف وأخرى في مقابلتها على الأرض، فتمر قرون وراءها

قرون فيلتقي البناءان ويتحدان ويصيران عموداً واحداً هائلاً مسدس الشكل عظيم الجسم يزن كثيراً من الأطنان، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل الثلج فوق ألواح الزجاج يكون مسدس الشكل بلا عمل عامل إلا الحكمة الخفية المبدعة لنظام الكائنات. وكأن الثلج يقترب بهذا من عالم الحيوان من حيث إبداع النظام.

فأما عالم الحيوان: فهو أبدع وأتم وأحكم. ألا ترى أنه يجتذب الأجزاء المحيطة به فيدخلها إلى جسمه ويتصرف فيها فيقلبها إلى ما يشبه مزاجه، فأما الثلج والشب والسكر وما ماثلها؛ فإن ازديادها لم يكن إلا من خارجها ولا يجتذب إليها إلا ما كان من نوعها، فكيف يستوي الجماد والحيوان في حسن النظام.

ثم إن النبات ينمو بوضع أصوله في أرض يتخللها أمران: رطوبة وحرارة، وهناك يمتد جذر في الأرض، وساق في الهواء.

والحيوان أعلى مقاماً من النبات، وهو يتكاثر بطريق الانقسام كما سيأتي تفصيله في نفس هذا الذي ذكرنا ملخصه الآن.

فهاك المقال المترجم من كتاب «علوم للجميع» باللغة الإنجليزية بهجة المناظر في العوالم وحسن إبداعها، وفي هذا المقام لطائف:

اللطيفة الأولى: مناظر العوالم السماوية

مناظر عوالمنا السماوية بديعة جميلة عجيبة، ولكن ما أقل المفكرين فيها من ذوي العقول النيرة والنفوس الصافية. إن أكثر هذا النوع الإنساني يعيشون ويموتون وهم لا يحسون بما لديهم من الجمال والبهاء والحسن والإشراق والإبداع.

مناظر السماء والبحار والأمواج والرمال

يقف الإنسان على شواطئ البحار فماذا يرى؟ يرى زرقة السماء ومن تحتها زرقة الماء وبينهن أفواج من الأمواج تذهب وتجيء وتظهر وتغيب، كتائب تتبعها كتائب، وصفوف خلفها صفوف تعلو وترسب، وترينا عجائب من أشكالها كأنها أحجار الماس تتلألأ جمالاً وبهجة، وهذه الظواهر تقنع أرباب النفوس الطفلية والعقول التي لم تمارس التعليم ولم تنقشع عنها غشاوات الجهالات، فأما أرباب النفوس العالية والعقول النيرة الصافية وذوو الفكر والتحقيق؛ فإن هؤلاء يرون تحت هذه المظاهر حكمة وعلماً ونظاماً وإبداعاً وعوالم تخلق وخلقاً آخر.

فانظر رعاك الله إلى تلك الأمواج فماذا عملها؟ إنها تنظم حبات الرمل وتضعها درجات فوقها درجات وطبقات تتلوها طبقات، وكلما أكملت طبقة أتبعتها أخرى. فلا تزال تجرفها من الشواطئ إلى قاع الأوقيانوس أجيالاً وأجيالاً، حتى تتكون تلك الرمال صخوراً، وتكون الصخور جبالاً، كل ذلك في قاع البحار، وتمر عشرات القرون ومئاتها وألوفها حتى إذا تم الجبل واكتمل وحان حين ظهوره؛ أخذت الأرض تتمخض عنه بزلزال ورجفات وخسف، فيصبح البحر جبلاً ومحل الجبال بحاراً، ذلك هو الشأن في تكوين عوالمنا الأرضية. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤].

عجب كيف يتكون الصخر الذي ذكرناه أنه يتكون بهيئة نظامية، فكل صخرة كبرت أو صغرت تقبل حبات من الرمل، وهذه الحبات تسير على النظام الذي في الصخرة فتكون عليه طبقة جديدة تابعة في ذلك شكل الصخرة بلا تعديل في النظام، ومن الصخور تكون الجبال.

إذن الرمال تكون صخوراً، والصخور تكون جبالاً، والجبال تتحات من الحر والمطر وغيرها من العوارض فتفنى على ممر الزمان، وغيرها يكون قد تربى في قاع البحار، يربى فيه كما يربى الجنين في الرحم والبذر في الماء والطين، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[الأنبياء: ٣٠].

ومن العجب أن ذرات الرمال بالتصاقها بالصخور تفعل فعل ذرات الماء اللاتي تلتئم بكرات الثلج فتتبع بالتصاقها بتلك الكرة القانون الكروي الثلجي كما اتبع الرمل القانون الصخري الذي أسست عليه تلك الصخرة في تركيبها، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١].

ظهر بما قررناه أن هاهنا قاعدة واحدة مطردة في هياكل الصخور وهياكل الكرات الثلجية، ذلك أن الذرات الصخرية والذرات الثلجية الحديثة تتجمد وتلتصق على تلك الصخور وتلك الكرات الثلجية من خارجها، فتحدث طبقة جديدة تابعة في الشكل الأجزاء القديمة في الحالين، وهذه القاعدة مطردة في كل ما ليس فيه حياة من العوالم الأرضية.

نظام الشب الأبيض والسكر وملح البارود
أشبه شيء بنظام البلور في هيئته البديعة

إن ما ذكرناه من النظام في المخلوقات الأرضية قد تجلى بأحسن هيئة وأجمل نظام في الشب الأبيض وفي السكر وفي ملح البارود تلك المواد المنظمة البديعة.

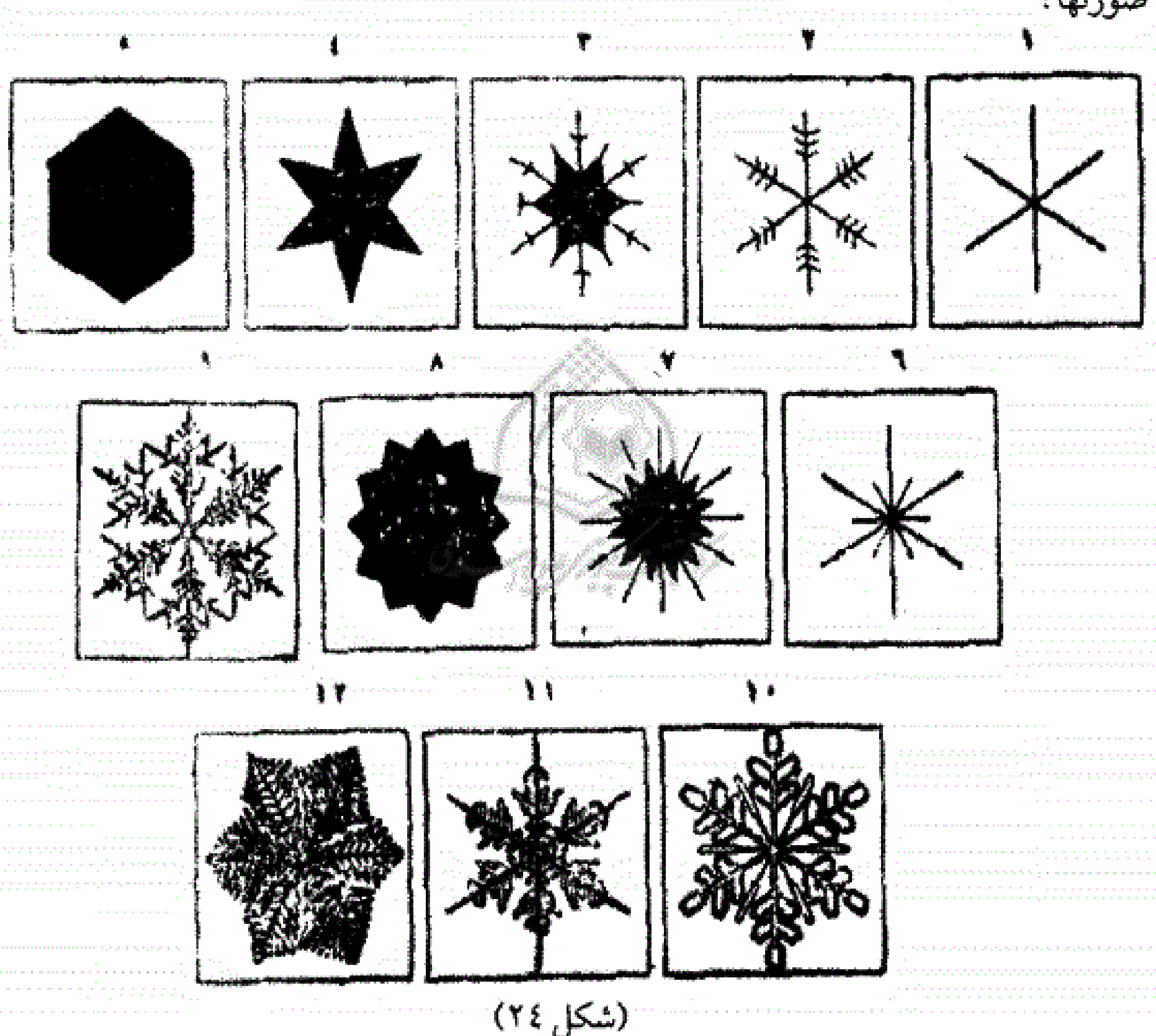
إن علماء الطبيعة في أثناء قيامهم بالعمليات التي يحدثون بها هذه الأجسام الثلاثة ونحوها بواسطة الكهرباء أو بلا واسطة؛ فماذا يرون؟ يرون أمراً مدهشاً، يرون أمراً عجباً، يرون تلك الذرات الملحية البارودية والذرات الشبية والذرات السكرية تتجه من نفسها أو بتأثير تلك العمليات وتنطلق سراعاً لتتحد مع أخواتها، ولكن بهيئة يعجب الناظر لها، فإنها تتعاون على أن تكون أشبه بنظام البلور من حيث الأشكال المنظمة، أليس هذا من العجب! أجزاء منحلة تسرع وتتألف ويكون منها بناء منظم أبدع وأروع من بناء البنائين الماهرين في دورنا وفي قناطرنا الأرضية، فأي بناء هذا؟ وأي هندسة هذه؟ نحن دهشنا من المسدسات التي بناها النحل، وقلنا: حيوان لا يعقل كيف اهتدى إلى تسديس خلاياه توضع فيها العسل، ولكنا هنا نقول: كيف صنع الأشكال السداسية الأضلاع، ذرات لا حس لها ولا عقل كيف تبني هذه الذرات بأنفسها أشكالاً سداسية، وهي لا حس لها ولا عقل ولا هندسة ولا مهندسين، إن هذه الدنيا أمرها عجب، حرنا في هذا العالم وكيف كان بناؤه هندسة نراها، ولكنا لا نرى المهندس لها، النحل لا عقل له، وذرات الملح والسكر والشب لا حس لها، فأخذنا نتلمس ذلك المنظم وأخيراً سمعنا قولاً ورد عن نفس مشرقة سمعته من المقام الأعلى من وراء حجاب الحس وهو:

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد: ٨]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[آل عمران: ١٩٩]، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[الحجر: ٢١]، ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾[المؤمنون: ١٧]

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[السجدة: ٧]، ﴿ وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾[الرحمن: ٧]، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩]، ثم سمعناه يقول أيضاً: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[يونس: ١٠١].

ويقول: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىۡءٍ ﴾[الأعراف: ١٨٥] وهكذا من آيات لا تحصى، فعلمنا أن هذه العوالم يجب علينا النظر فيها وأنها جميلة وبديعة، وأن صانعها لا يرضى عمن يغمض عينيه عن إبداعه وآثار جماله العجيب.

إذن فلنستمر في البحث فماذا نرى؟ نرى ما هو أعجب من الصخور ومن كرات الثلج ومن الشب والسكر، نرى أشكالاً من الثلج تظهر مسدسة على زجاج الشبابيك في ليالي الشتاء، وهذه صورتها:



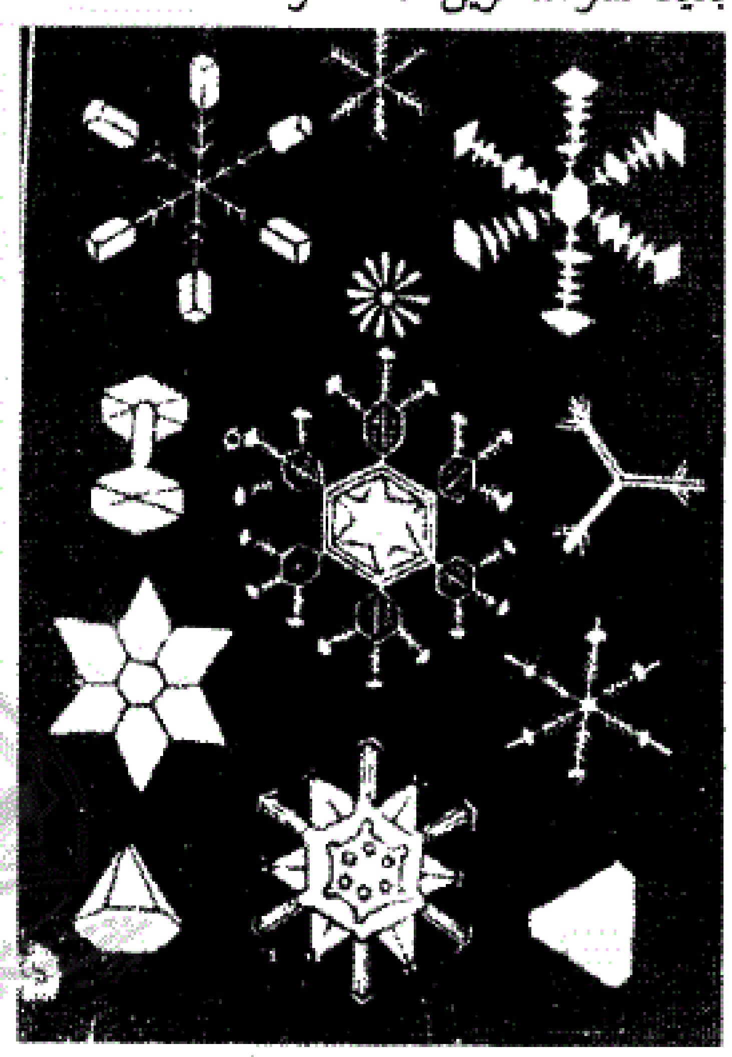
(شكل ٢٤)

إيضاح هذا الشكل بما فيه من الصور الاثني عشر مشروح في سورة «الرعد» في الجزء السابع من التفسير، وفيه أن هذه الأشكال قد اختيرت من ١٥١ شكلاً فاقرأه هناك تجد عجباً عجاباً.

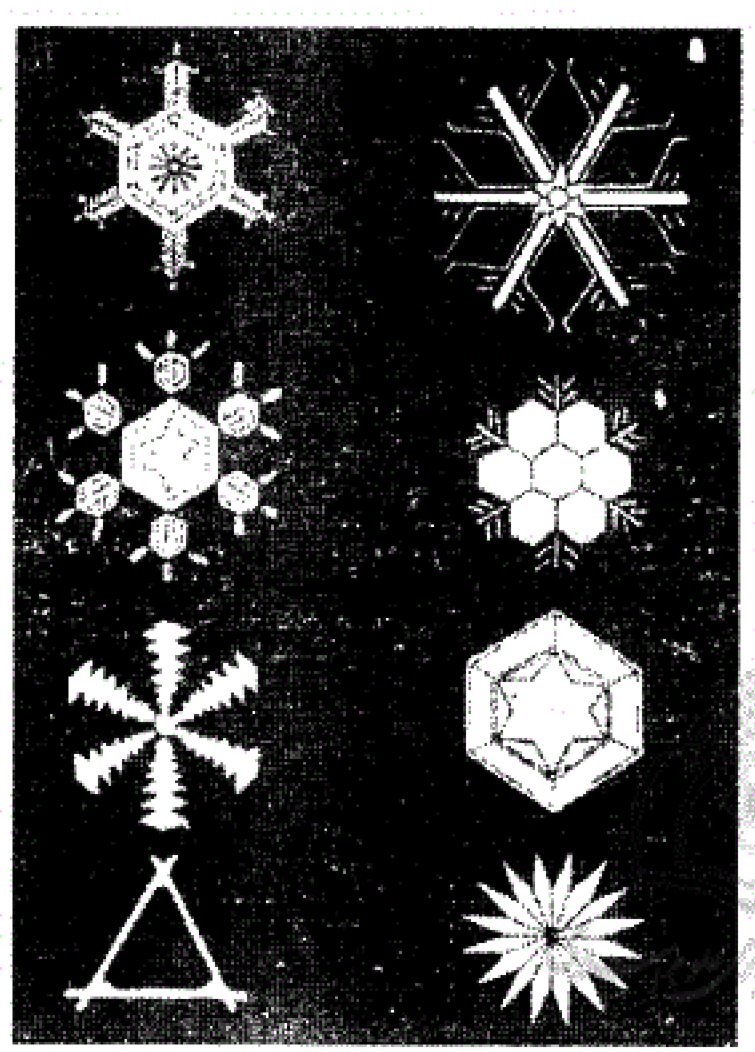
هذه الأشكال السداسية الظاهرة من الثلج لم تكن لعمليات طبيعية ولا بالتيارات الكهربائية كما يحصل في ذرات الرصاص ونحوها تحت تأثيرها، ولكن هذه الأشكال المسدسة التي تراها الآن نظمت بقوة غير منظورة لا تراها العيون فتنوعت أشكالها السداسية تنوعاً يبهج الناظرين، ويحير المفكرين، يتخيل للناظر إليها أنها تقرب من عالم الأجسام الحيوانية من حيث جمال الأشكال ومحاسن النظام وترتيب الأجزاء بقانون معلوم.

اللطيفة الثانية: في الكلام على أعمدة الكهوف وأنها تشبه في تسديس أشكالها نظام الثلج والبلور

إن أعمدة الكهوف تحصل بآثار قطرات من الماء تنزل من سقف الكهف باستمرار قروناً وقروناً وتكون نتائجها بناء عظيماً، وهي الأعمدة العظيمة الهائلة التي تمتد من سقف الكهف إلى أرضه بهيئة بديعة تسر الناظرين كما ستعرفه.



(شكل ٢٥ صورة الثلج المسدس الأشكال كالبلور)



(شكل ٢٦ صورة الثلج المسدس الأشكال كالبلور)

الله أكبر، بهذا وبأمثاله يعرف الإنسان كيف يحب هذه الصنعة وصانعها، فليس من المعقول أن يمدح الإنسان ويحمد من أحسن إليه إلا إذا عرف نعمته، ومتى عرفها أحبه، ومتى أحبه حمده بلسانه وشكره بقلبه وجوارحه، وبهذا يعرف الإنسان معنى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الفاتحة: ١-٢].

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقي الذي اعتاد محادثتي في الأصل وفي ملحقه، فقال: لقد شاقني والله ما قرأت في هذا المقام من عجائب وعجائب، وكيف أرانا العلم من الجمال ما عجزت عن إدراكه الحواس، أي نبأ هذا؟ أتبني الذرات بناء بديعاً يعجز عنه البناؤون؟ أيبني ملح البارود والملح المعتاد في أثناء تكونه، والشب الأبيض والسكر، أبنية جميلة منظمة، هذا عجب وأكثر الناس لا يفهمونه، نعم. إن أكثر الناس نيام، إنّما الذي حيرني وأقض مضجعي أمر التسديس، كيف رأينا المسدسات التي يصنعها النحل في خلايا العسل لها نظير في البلور، ونظير في الثلج، وفي الثلج وفي السكر، لمَ كان هذا التسديس، ولمَ اتفقت هذه المخلوقات في تسديسها؟ فقلت: لقد قرر علماء خواص الأعداد أن عدد (٦) أول العدد التام. فقال: وما العدد التام؟ فقلت: إن من الأعداد الناقص

والزائد، وهما أكثر أنواع العدد، فالزائد ما زادت أجزاؤه في مجموعها عنه، والناقص ما نقصت عنه، والتام ما ساوته أجزاؤه في مجموعها، فعدد (١٢) أجزاؤه في مجموعها أكثر منه، لأن أجزاءه هي: ١ و٢ و٣ و٤ و٦ لأنه يقسم على (١) و(٢) و(٣) و(٤) و(٦)، لكن (٨) يقسم على (١) وعلى (٢) وعلى (٤) فهو إذن ناقص، لأن هذه (٧) وهي أقل منه، كما أن ١٦ أكثر من ١٢. أما (٦) فهي تقسم على (١) و(٢) و(٣) فهذه (٦)، وليس في هذه المائة ما يشبه (٦) إلا عدد (٢٨)، وليس في الألف إلا عدد واحد، وهذا العدد نادر جداً. فعدد (٦) له هذه الميزة، وأيضاً الشكل ذو الأضلاع الست يساوي كل ضلع منه نصف قطره، وهذه خاصية فيه، فهذا العدد فيه مزايا اختص بها، فلذلك استحق في الطبيعة أن يكون له انتشار أي انتشار. فقال: هذا حسن ولكن لا يشفي الغليل، فإن العقل الإنساني يعتبر هذا القول أشبه بالأدلة الشعرية التي يقولها علماء الشعر وعلماء البديع تعليل أدبي، ولكنه يكفينا الآن لأننا في عالمنا لا نقدر أن نحيط به علماً.

وهاهنا سؤال آخر، فهل تأذن لي أن أبديه؟ فقلت: ذلك لك. فقال: قد ذكرت في آخر المقال الأعمدة الجيرية التي في الكهوف في الجبال، فما نبأ هذه الأعمدة؟ ومن أي كتاب نقلت هذا القول؟ وهل ما ذكرته ـ من أن ذرات السكر، وذرات الشب، وذرات الرصاص، وذرات ملح البارود، والملح المعتاد، تصنع صنعاً أحكم وأبدع من صنع البنائين ـ من مقالك أنت، أم من مقال الكتاب الذي نقلت عنه؟ فقلت: لأجيبك عن السؤال الثاني أولاً لاختصاره، وأثني بالإجابة عن السؤال الأول.

إن المقال المتقدم، وهذا المقال والذي بعده ترجمتها من كتاب بالإنجليزية اسمه «علوم للجميع» وهذه المقالة بقلم الفيلسوف «أندرو ولسن» في المجلد الثاني من الكتاب، والعبارة التي سألت عنها هي معنى عبارته تحقيقاً. فقال: عجباً إذن القوم يدركون جمال العالم إدراكاً تاماً. فقلت: يا صاح، الخواص في جميع الأمم متفقون، والخلاف إنّما جاء بين العامة وفريق الجهلاء، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[الأنعام: ١١٦] وهذا هو الجواب عن السؤال الثاني.

جواب السؤال الأول من نفس ذلك الكتاب، أقول:

اعلم رعاك الله أن في الجبال كهوفاً مكونة من الأحجار الجيرية، يقول الفيلسوف المذكور: ولو أنك رأيتها لرأيت بناء فخماً يشبه «الْكَتِدْرَلَ» أي: كنيسة الأسقف العظيم، ونقول نحن: إنها أشبه بالمساجد العظيمة في أمم الإسلام، مشيدة من الأحجار الجيرية، وقد أقيم سقفها على أعمدة حجرية منظمة سداسية الأشكال أشبهت في ذلك البلور، هائلة المنظر، تبلغ في وزنها عدة أطنان، جمع طن، ولكن كيف كونت هذه الأعمدة، انظر واعجب.

إذا وقف الإنسان عند سقف أحد تلك الكهوف فماذا يرى؟ يرى قطرات من الماء تنزل من ذلك السقف على أرض ساحته، فما هذه القطرات المائية؟ إن هي إلا حاصلة من ماء تخلل في أجزاء من الطباشير «كربونات الجير» التي كونت باتحاد غاز يسمى «الحامض الكربوني»، الذي يكون في الماء مع الجير المتخذ من الصخور، وهذه القطرات النازلات من سقف هذا الكهف العظيم إلى أرضه

تتوالى نزولاً قروناً وقروناً، وفي أثناء نزولها تترك في أسفل السقف بضع جزئيات، فلنقف وقفة لنشاهد ذلك السقف والقطرات النازلات منه، فماذا نرى؟ نرى أن كل قطرة من تلك القطرات الحاملات أجزاء من حجر الطباشير قد عجزت عن أن تحمله كله، لأن البخار دائماً يحلل ماءها ويرفعه إلى الجو فينقص حجمها فتعجز عن حمل جميع هذه الأجزاء الطباشيرية، فتترك بعض تلك الأجزاء ملصقة بالسقف وتتبعها أخرى وأخرى، حتى إذا انقضت القرون تتلوها القرون رأينا هناك أسطوانة سداسية الشكل قد نمت من أعلى إلى أسفل كما ينمو النبات من أسفل إلى أعلى، وليس الأمر يقف عند هذا الحد، كلا فإن هذه القطرات عند وقوعها على أرض ذلك الكهف الحجرية تترك ما بقي من أجزاء الطباشير وتصنع ما صنعته أخواتها من أعلى الكهف، فنرى عموداً ينمو على طول القرون من أسفل إلى أعلى، وهنالك يتلاقى العمودان الأعلى والأسفل ويكونان أسطوانة واحدة منقطعة النظير قوة ومتانة وعظمة، وشكلاً مسدساً كالبلور انتظاماً.

وهاهنا العجب العجاب! كيف ينمو ما لا حس له ولا عقل؟ كيف يكون نظامه عجباً، كيف يكون مسدس الشكل، وكيف نرى أن الأعلى أشبه بجذور الأشجار من حيث تدنيه إلى أسفل، وأن الأسفل أشبه بسوق الأشجار وفروعها في ارتفاعها إلى أعلى، هذا عجب وأي عجب.

وإذا رأينا في الكهف الواحد أعمدة كثيرة اعترانا الدهش من أن ما افتخرنا به من الأبنية العظيمة المشيدة على أعمدة حجرية قد سبقتنا عناية عالية وقوة قدسية لتشييدها، مشيرة بذلك إلى أن هناك تدبيراً شمل أعظم الأمور وأدقها وأجلها وأصغرها. ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾[لقمان: ١٨]، ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[الإسراء: ٣٧].

لنتبع الكلام على عجائب النبات وخلقه وأن نمو تكاثر المواد التي لا حياة فيها من خارج أجسامها، أما تكاثر الأحياء فإنه آت من داخلها بالنمو المعروف في النبات والحيوان.

اللطيفة الثالثة

في نمو النبات والحيوان وأن تكاثرهما يخالف تكاثر المواد التي ليست عضوية

فتلك تكاثرها من الخارج وهذه تكاثرها من الداخل

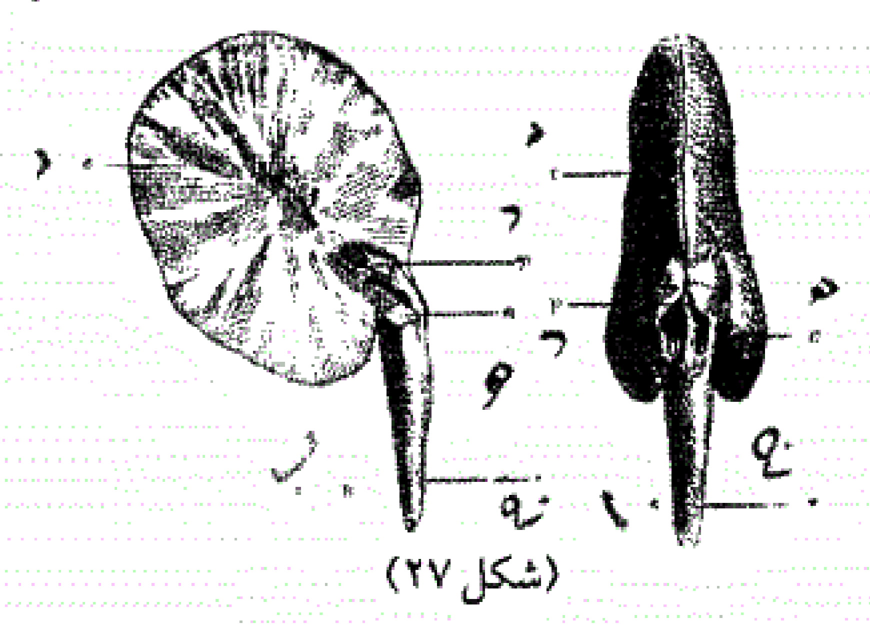
وذلك لنفهم قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

لنبحث الآن في هيئة نمو النبات، كيف يصل إلى غاية نموها؟ فنقول: لنتخذ حبة الفول مثلاً في درسنا هذا لتكون نموذجاً لنمو كل نبات.

إننا نرى أن هيئة تكاثرها بالنمو تخالف كل المخالفة تكاثر ذرات الثلج والملح والأعمدة الجيرية، وأن هاهنا قوة أخرى داخل هذه البذرة، وهناك لا قوة تشبهها، وإنّما هي الأعمال آلية خالية من قوة فعالة في داخلها.

فلنشق حبة الفول. فما نرى إذا نحن شققنا هذا النبات الصغير نصفين طولاً؟ فإننا نرى في شكل (٢٧ ـ ب) أن كل نصف منهما يشبه الورقة وليس بورقة، بل هو أشبه بفص من الحبة يحمل المواد الغذائية المعدة لنمو النبات كما تحمل البيضة غذاء لذلك الفرخ الصغير الذي يخرج من البيضة.

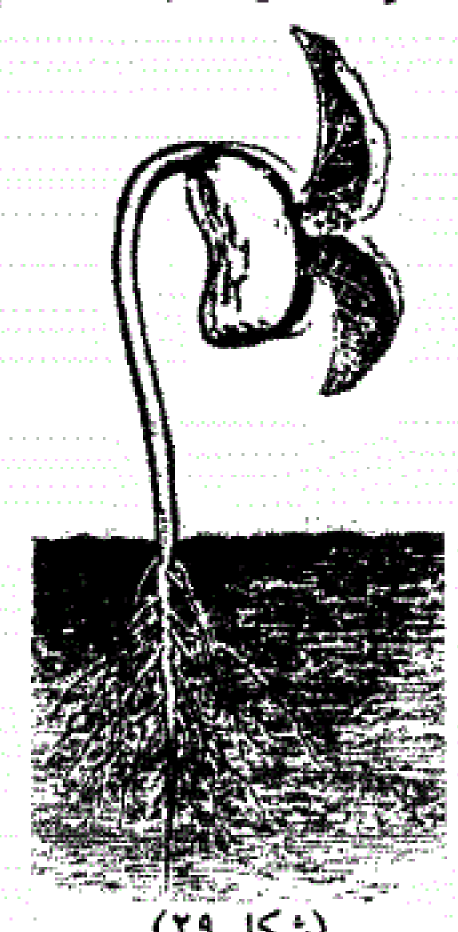
(أ) نبات الفول الصغير ينمو من حبته.
(ب) أحد شقي ذلك النبات خارجاً من أحد فصي الحبة.
(جـ) الجذر الممتدة في الأرض من الحبة.
(د) مبدأ الساق الذي سيرتفع ويحمل الأوراق.

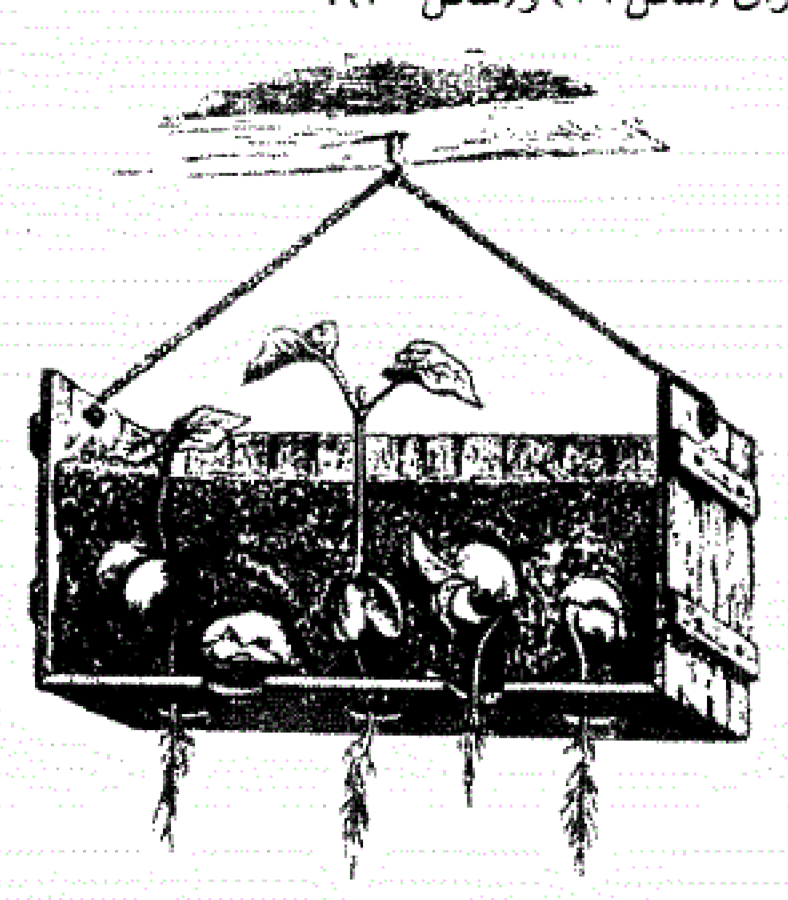

(شكل ٢٧)

إن هذا النبات الصغير يبرز مائلاً إلى الموضع المجوف من الحبة، ولا جرم أننا نميز ما بين مبدأ الجذر (جـ) وهو الجذير وما بين مبدأ الساق (د)، وهذا تراه واضحاً في (شكل ٢٨).


حبة الفول — مبدأ نموها
(شكل ٢٨)

لا جرم أن حبة الفول التي ضربناها مثلاً لسائر النبات وبزوره وبروزه ليس فيها أدنى ميل لأن تتخذ من المواد التي حولها غذاء تتمتع به لتخرج نباتاً يعلو في الهواء ولكنا نرى هذا الميل يظهر في حال خاصة، ما هي تلك الحال؟ تلك هي أن نضعها في الأرض، بشرط أن تكون هناك رطوبة وحرارة معاً. فإذا وضعناه على هذه الحال رأينا أمراً عجباً، رأيناها تنمو نمواً مطرداً، وأبرزت في الهواء ساقاً صغيراً، وفي الأرض جذيراً، وبعد أيام تظهر الأوراق (شكل ٢٩) و(شكل ٣٠).


(شكل ٢٩)
جذر نبات الفول وفوقه الساق يحمل ورقاً


(شكل ٣٠) حبة الفول قد نجم منها ساق يحمل ورقه وامتد منها جذر يجتذب الغذاء من الأرض

هانحن أولاء نرى النبات قد ابتدأ ينمو وقد أخذ زخرفه وازين وبدت تظهر فيه درجات النمو بهيئة بديعة تدهش المفكرين، وتبهر العالمين، ولا يعبأ بها الغافلون، براعيم، وأوراق، وأزهار ذات بهاء وجلال يتحلى بها النبات زينة وبهجة للناظرين، وثمار وبذور ترجع فتأخذ دورها الذي شرحناه، وهكذا دواليك أمداً وأبداً، جنات للعارفين، وغذاء للحيوان ونوع الإنسان.

هنالك حضر صاحبي الذي اعتاد أن يحاجني في تفسير آيات الله تعالى فقال: يا سبحان الله، كلامك حسن وجميل، لقد شرحت حبة الفول وظهور جذورها وظهور أوراقها، ولكننا لم نر شيئاً يزيد عما يعرفه العامة وسائر الناس، غاية الأمر أنك فصلته من الكتاب الإنجليزي الذي تترجم عنه تفصيلاً، فأما قولك: إن ذلك جنة العارفين، فهو من الأقوال المألوفة عند متأخري الصوفية الذين يقول أكثرهم أمثال هذه الأقوال، فهل عندك من علم تبينه لنا حتى نفهم كيف تكون هذه المزارع جنة العلماء؟ فقلت: اسمع أيها الأخ رعاك الله، إن هذا المقام يعوزه أمران اثنان:

أما أولهما: فهو المقام العلمي الذي ظهر في المقام الذي نترجم عنه.

وأما المقام الثاني: فهو مقام الحكمة والجمال والبهاء الذي تسأل عنه.

المقام العلمي

اعلم أننا نحن الآن في مقام البحث في الفرق بين نمو الأحجار والبلور والشب والسكر وأمثالها وبين نمو النبات، وهذا أمر علمي يدرسه علماء الأمم الآن فيقولون: إن هذه الأوراق والأزهار والأثمار والبذور نجمت من حبة الفول التي جعلناها مثلاً يستبين به سائر النبات، وحبة الفول لا دلالة فيها ولا ميل ولا علامة تدل على أنها تتخذ مما حولها غذاء لها، ولكن لما وضعت في الأرض واعترتها الحرارة والرطوبة كما قدمنا أخذت تمد جذراً في الأرض وساقاً في الهواء وصارت لها أنواع من المواد العضوية كثيرة العدد، وأخذ النمو يبدو من باطنها لا من ظاهرها. فهاهنا نرى

أولاً: أنها تستمد مما حولها في الهواء، وفي الأرض مواد ليست من جنسها بخلاف السكر والشب والأعمدة الحجرية الجيرية الهائلة، فإن هذه لا تنمو إلا إذا كان معها السكر والشب والمواد الجيرية.

ثانياً: أن حبة الفول في داخلها قوة هائلة، قوة النمو والحياة، وبهذه القوة تجتذب المواد المخالفة لمواد النبات كما قدمناه، وتحيلها إلى مواد عضوية تصبح أركاناً لنمو النبات، وهذه القوة لا وجود لها في البلور وأمثال الشب والأعمدة الحجرية العظيمة في الكهوف المتقدم ذكرها.

ثالثاً: أن هذه المخلوقات التي ليست عضوية إنّما يكون العمل فيها آلياً، أي لا قوة له من داخله كما تقدم في النبات، وهذا يستنتج مما قبله.

رابعاً: أن المثل القائل: إن الطيور على أشكالها تقع؛ والقائل: شبيه الشيء منجذب إليه؛ إنّما يصدق على المواد التي ليست عضوية كالبلور والشب الخ. أما النبات فلا، لأنه يجذب مواد من غير هيئته وتحال بقوته الداخلية إلى مواد عضوية يتركب منها هيكله.

خامساً: إذا نحن حللنا النبات، فإن علماء الكيمياء عند تحليله يخبروننا بأمر عجب فماذا يقولون لنا؟ يقولون: إنهم رأوا في النبات (١) نشاء. (٢) ومواد سكرية. (٣) ومواد دهنية وغيرها، ما

هذا؟ وكيف يكون هذا؟ ولم نر حول حبة الفول المبذورة في الأرض إلا ماء ومواد معدنية اجتذبها نبات الفول بجذوره من الأرض، وغاز الحامض الكربوني «غاز حمض الكربونيك» اجتذبه النبات بأوراقه من الهواء واجتذب مادة النوشادر «أموني» من الأرض ومن الهواء معاً.

ثم إن نبات الفول المذكور المحوط بهذه المواد قد منح الحرارة والضوء المرسلين من الشمس إليه وبهما وبالقوة المودعة فيه تتحول تلك المواد إلى سكر، وإلى نشاء، وإلى مواد دهنية وأجسام عضوية أخرى، هذه هي المسائل العلمية التي يدرسها العلماء في الأمم، ونحن أصبحنا نشاركهم في هذه الدراسة وقرأنا آراءهم وترجمناها الآن واضحة بينة للدارسين، وبه انتهى المقام الأول وهو العلمي.

المقام الثاني:وهو مقام الحكمة والجمال

فأنا أحدثك عنه فأقول: رباه لك الحمد حمداً كثيراً يوافي نعمك ويكافئ مزيدك، رباه أريتنا عجباً، فقال صاحبي: ما هو هذا العجب؟ شنشنة أعرفها من أخزم، رجعنا إلى ما كنا فيه من الكلام المزوّق والمزركش. فقلت له: أخي لا تعجل.

اعلم أن الله لما بث الحيوان والإنسان في أرضنا أراد أن يمد الجميع من عطائه، وجعل هذا العطاء جزلاً بحيث أنه مدّ لهم مائدة واحدة، وتلك المائدة جعلها عامة للنفوس الكبيرة والنفوس الصغيرة، خلق النبات للحيوان وللإنسان وقال لهم جميعاً: كلوا من رزقي، فأكل منها الحيوان والجاهل والعالم على حدّ سواء. وهنا سؤال يقال: لماذا حرم الله على الأحياء أن يأكلوا الطين والحجارة والمواد الكثيرة في الأرض، وجعلهم جميعاً لا يطلبون غالباً إلا ما هو نام من النبات مثلاً، مع أن القدرة لا حدّ لمداها، فهو قادر أن يجعل كل حيوان مكتفياً بما يكتفي به الدود فيأكل مما حوله، نعم. الله قادر على ذلك، ولكنه يرى أن الحكمة تقضي غير ذلك، وهو أن الحيوان يغتذي مما ينمو ويغتذي مما حوله.

فقال صاحبي: حقاً هذا السؤال أحب أن أعرف جوابه منك على شريطة أن يكون ذلك نافعاً في موضوعنا الذي نحن بصدده، فقلت: نعم هو ذلك.

إن الإنسان مركب من جسم وروح، وللجسم غذاء وللروح غذاء، أما الجسم فقد أخذ حظه من الغذاء النباتي مثلاً، فالنبات مائدة نصبت لكل حي من إنسان وحيوان، قال الله لهم: ﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾[المائدة:٨٨]، إن أرواح الحيوان وأرواح الجهلاء من نوع الإنسان لا مطلب لها فوق أجسامها، فهي تأكل وتحمد ربها على نعمة الجسد، وهذا نهاية علمها وتفكيرها.

أما ذوو النفوس العالية والقلوب الواعية فإنهم لا يقفون عند هذا الحد، ويقولون: لماذا خلقنا في الأرض؟ ولماذا كان هذا الوجود؟ أوّاه أوّاه، أيكفينا هذا؟ أنكتفي نحن بالحياة الحيوانية؟ ما هذا الوجود؟ ما هذه الأدوات المنظمات في الأرض؟ وفي السماء شمس تضيء وترسل ضوءاً وحرارة، وبهاتين ينقلب الماء والمواد الأرضية، وغاز الحامض الكربوني المأخوذ من الهواء في باطن النبات إلى سكر، وإلى مواد دهنية، وإلى مواد نشوية، ما هذا العجب! شمس مشرقة تبعد عنا (٩١) مليون ميل فترسل لنا ضوءاً وحرارة، هما من أهم الأسباب في التفاعل الكيميائي في داخل النبات، به ينقلب الماء والمواد المعدنية والحامض الكربوني والنوشادر إلى سكر وإلى نشاء وإلى مواد دهنية ونحوها، كيف

هذا؟ ولماذا ساعد على ذلك التحول العجيب ضوء الشمس وحرارتها المسافران من تلك الأقطار الشاسعة، ومعنى هذا أن أرضنا غير مستقلة استقلالاً تاماً، فأين الاستقلال؟ وإذن أنها تستمد من الشمس ضوءاً به يكون تحول المواد التي لا تصلح غذاء إلى مواد تصلح للغذاء، هذا والله عجب، هل كانت الشمس تعلم أن النبات لا يتمكن من الحياة إلا بحرارتها وضوئها، وأن تحول المواد فيه إلى أغذية له وإلى مواد عضوية فيه متوقف على هاتين القوتين، كلا فلا الشمس تعلم، ولا الأرض تعقل.

هاهنا تشرق شموس المعارف والسعادات في هذه النفوس الصافية، والعقول النيرة في الأرض تلك العقول التي خلقها الله لتنير السبيل لنوع الإنسان، فكما أن الشمس بإشراقها وبحرارتها تكون سبباً في تحول المواد المعدنية والماء وغاز الحامض الكربوني، أي: المواد الجامدة والمواد السائلة والمواد الغازية، إلى أغذية توافق النبات والحيوان، هكذا هذه العقول الكبيرة في الأرض أرسلت إليها لتكون سبب رقي نفوس نافعة بها ترتقي الأمم جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

فقال صاحبي: إني سمعت الناس يقولون: إنك لغرامك بهذه العلوم تلصقها بالقرآن إلصاقاً، فهل في القرآن ما تقول من أن هذه المائدة النباتية جعلها الله للحيوانات وللجهلاء عامة، وجعلها نفسها للخواص بحيث تكون غذاء للجميع ونوراً مشرقاً بالدراسة للخواص؟ فقلت: يقول الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، فقدم دراسة هذه العوالم على دراسة أنفسنا، لأن دراستها أسهل من دراسة أنفسنا، ويقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق: ٧-١١]، فذكر التبصرة والذكرى أولاً، وهو الذي قررناه هنا، وذكر الرزق بعد ذلك. والأول للخاصة والثاني للعامة، فقال: الحمد لله، والله إن هذا البيان لعجب عجاب.

فقلت: يا صاح، إن هؤلاء الخاصة هم الذين يفهمون قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]، فهؤلاء يشاهدون اللطف الإلهي، وأنه خبير بنفس هذه العلوم، ويرون ببصائرهم كيف ظهر لطفه ورأفته ورحمته لكل حيوان ولكل إنسان بإرسال ضوء الشمس وحرارتها إلى كل نبات مسافة (٩١) مليون ميل، وبهذه تنقلب الجوامد والغازات والسوائل في النبات إلى سكر وإلى نشاء وإلى دهن، فلولا الرحمة العجيبة ولولا اللطف، ولولا الرأفة الحقة، ولولا العلم الواسع، لم يكن نبات ولا حيوان. فهؤلاء هم الذين يفهمون معنى قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ويفهمون قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، فإن الرحمة بلا علم لا تفيد، بل قد تضر، كرحمة الأم فإنها قاصرة على تغذية الطفل لا تتعداها غالباً، فالرحمة هنا لولا العلم لم تتم، وكيف تتم رحمة النبات والحيوان إلا بضوء الشمس وحرارتها اللتين بهما تنقلب المواد الثلاث إلى أغذية، من ذا يفقه هذا إلا من يحيط علماً بالشموس وبالأرضين وبالأقمار، فالعلم شرط في حصول الرحمة العالية، وبهذا يفهمون معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وهؤلاء الذين ينطبق

عليهم قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾[الزخرف:٨٦]، فهؤلاء كأنهم يشاهدون النور الإلهي المنبعث من المقام الأقدس، لأنهم يرون ذلك مكشوفاً لهم في نفس أغذيتهم، فهم يشاركون الناس والحيوان في التغذية، ولكنهم هم يشهدون آثار الصانع في صنعته، وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: «اعبد الله كأنك تراه».

إذن هؤلاء كأنهم يشاهدون ربهم عندما يرون أي نبات. وأي شجر، وأي حجر، وهؤلاء هم الذين يكونون نوراً مشرقاً لأممهم.

وقد حكى علماء النفس في أوروبا وأمريكا أن الذين يدرسون هذه العوالم التي حولهم يعطون خصلتين اثنتين: حب أوطانهم، وحب الإنسانية، وأقول أنا: هم الذين قال الله فيهم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[آل عمران:١٨]، فالله شهد أنه واحد وقائم بالعدل وحسن النظام في مخلوقاته، وكذلك الملائكة يشهدون ذلك، وأولو العلم يشهدون ذلك.

إذن دارس هذه العلوم على هذه الشريطة هو الذي يشهد ذلك شهادة على مقتضى قوته الإنسانية الخاصة به.

وبهذا تم الكلام في اللطيفة الثالثة، وفي عجائب خلق النبات. وسنذكر في اللطيفة الرابعة إن شاء الله تعالى كيف يتكون الحيوان وأنه مخالف في تكوينه لتكوين البلور وما معه ولتكوين النبات، وأنه يكون بانقسام الخلية إلى اثنتين، ويستمر الانقسام ٢ ٤ ٨ ١٦ وهكذا على سبيل المتوالية الهندسية إلى ما لا نهاية له، وفي أثناء ذلك تكون عظام وعروق وأوردة وشرايين وعين وسمع وبصر، وهكذا تذكر ذلك الحيوان الذي يقطع قطعاً، وكل قطعة منه تصير حيواناً تام الخلقة، ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[يوسف:١٠٠].

اللطيفة الرابعة: في الحيوان وتكوينه

هنا حضر صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال: قد وعدت أن تفيض الكلام على الحيوان وتكوينه، والذي أراه أن هذا الأسلوب ربما يجعل في النفوس سآمة، وفي المجالس عدم التئام في الآراء، لأنه يكون على وتيرة واحدة، فهل لك أن أحادثك فيه وتجيبني على أسئلتي من نفس ذلك الكتاب الإنجليزي، ليحصل الجمع بين حقائق العلم ولذة النفوس بالحديث والسمر والجمال؟ فقلت: ذلك لك، وأسأل الله أن يوفقنا إلى ذلك.

موازنة تكوين الحيوان بتكوين النبات وتكوين البلور

وما عطف عليه فيما مضى تبياناً لقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[الفاتحة:١-٢]، وتبياناً للتربية التي اقتضتها الرحمة العامة والرحمة الخاصة، ولقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[الملك:٣] الخ.

فقال: لعلك ستقول إن نظام الحيوان في تكوينه لا يقل شأناً عن نظام النبات، فإن الحيوان يجتذب المواد مما حوله أولاً، ويحولها في داخله إلى مادة تصلح لتكوين جسمه مخالفة في ذلك المواد المجلوبة من الخارج كما حصل في النبات سواء بسواء، وهكذا يخالف الحيوان في ذلك كما يخالف

النبات طرائق حدوث البلور والشب وأمثالها مما لا تتكاثر إلا إذا وضعت في مواد من جنسها، فإذا يخالف الحيوان والنبات أمثال الملح والشب وملح البارود في هذه الأحوال الثلاثة.

وهاهنا يكون العجب العجاب المدهش، كيف لا؟ ألم تر إلى الأوراق والأزهار وجميع أجزاء النبات، كيف حولت القوة الكائنة فيها تلك المواد الجامدة المحيطة بها في الماء والطين والهواء والضياء، إلى ورق وزهر وثمر وجذور وأغصان وسوق، وكيف كانت البذور في النبات والبيض في الحيوان مبدأ لفيض تلك العجائب التي تدهش العقلاء دهشة فوق ما يدهش عقول الجهلاء من القوى السحرية التي ترهبهم وتغشى على عقولهم وهم لا يعلمون، فأي هندسة، وأي حساب، وأي إبداع نراها في الأوراق والأزهار والأثمار كما نراها في الأعين والأسماع والأبصار والقلوب والأكباد والأيدي والأرجل والأدمغة في الحيوان وفي الإنسان.

فأي عجب هذا! تراب وطين وماء تحول إلى هذه الأعضاء، إلى هذه العيون، إلى هذه الجذور إلى هذه الأثمار، إلى هذه الأدمغة، إلى هذا الجمال، أليست هذه مدهشات، فما هذه الموازين؟ وما هذه الأعاجيب؟ وما هذا الحساب؟ وما هذه الهندسة؟ وما هذه العقول؟ وما هذه المواهب؟ هذه كلها تخالف الضياء والهواء والماء والطين والرمال التي كونت منها على خط مستقيم، فأجبت عن ذلك قائلاً:

لقد أصبت المحز ووافقت ما جاء في نفس المقال الفرنجي الذي أترجمه الآن، وأزيد على هذه الثلاثة التي استنتجتها فأقول:

إن عالم النبات وعالم الحيوان ـ فضلاً عما ذكرت أيها الصديق من الأحوال الثلاثة التي تخالف فيها الشب والبلور والأعمدة الحجرية الجيرية في الكهوف الواسعات المنتظمات الأشكال المسدسات الحادثات من قطرات مائية جيرية واقعات على أرض الكهف منزلات من سقفه ـ يحصل فيهما النمو من داخلهما كما قلنا بهيئة بديعة جميلة عجيبة، وأي عجب أدهش لنا من أن نرى مصانع ومصانع تعد بالآلاف وآلاف الآلاف في أجسام الحيوان والنبات، وهل تلك المصانع إلا الخلايا الدقيقة المكونة من عناصر وجزئيات لا ترى إلا بالمناظير المعظمة جداً، وهذه قد وصلت إلينا من الأحاديث التي رواها لنا علم التشريح وعلم التاريخ الطبيعي.

وكما أن كل خلية مركبة من عناصر دقيقة لا تراها العيون، هكذا يتكون من هذه الخلايا ألياف ومن الألياف تتكون الأنسجة المختلفة بقوانين منظمة موسيقية، على مقتضى الصور والهيئات التي كونت بها الأجسام والأعضاء والأوراق والأزهار والأسماع والأبصار.

عصير النبات ودم الحيوان المستمدان من الأغذية يمدان الأنسجة بالعناصر المغذية لها

إن الغذاء الداخل في كل نبات وكل حيوان بعد هضمه يتحول إلى عصارات في النبات، وإلى دم في الحيوان، وهذه العصارة وهذا الدم منهما يستمد كل نسيج ما يلائمه، وتصبح تلك العناصر المستمدة من الدم ومن العصارات على هيئة النسيج الذي اجتذبها إليه.

الداء والعصارات أسواق بيع وشراء

إن الخلايا والأنسجة دائماً في تركيب وتحليل صباح مساء ليلاً ونهاراً إلى انتهاء حياتنا، فهي كما تشتري من العصارات ومن أنواع الدم ما يعوزها مما يلائم طباعها ويتشكل بصورها؛ هكذا تبيع مما لديها مما استغنت عنه غير صالح للتغذية نيئاً فيحول في الدم وفي العصارة إلى مادة صالحة للتغذية فتشتريها الأنسجة والخلايا، وهكذا دواليك حوادث متتابعات متشابهات وبيع وشراء:

(١) وعلى ذلك في المصانع العجيبة التي في الخلايا الحديثة في أوراق النبات تصنع خلايا جديدة أخرى لتنمو بها الأوراق.

(٢) وهكذا تصور الأنسجة الحديثة في الأزهار من تلك العصارات النباتية صوراً مختلفة الأشكال في داخلها، وبها تكمل أشكال تلك الأزهار وينتظم سمكها وتحس صورها بما أوتيت من الثروة الغذائية المناسبة لها، وبالأشكال المختلفات والعناصر والأجزاء المكونات لها.

(٣) وهكذا يحصل النمو بالمصانع البديعة المختلفة التي تحول العناصر الميكروسكوبية الدقيقة في الأنسجة إلى أجزاء تشابه صورها وتربيتها في سوق النبات وجذوره، وفي كل جزء آخر من أجزائه، وهكذا المعمل في عالم الحيوان.

عالم الحيوان

فمن دم الحيوان تصور خلايا الأعصاب وخلايا الألياف أنسجة عصبية حديثة. ومن الدم تستمد العظام عناصر وتحولها المصانع الكامنة فيها إلى عظام، وهكذا النسيج الخلوي يضم إلى نفسه من الدم عناصر ويحولها إلى صورة تشاكله.

وعلى ذلك نقول: إن العوالم الحية من النبات والحيوان ليست مزيتها قاصرة على نموها الداخلي فحسب، كلا، بل لها مزية جليلة عجيبة، وهي أنها تحول المواد التي اجتذبتها إلى هيئتها وصورتها.

الدهشة من عجائب النظام في النبات والحيوان

قال المؤلف: لا مسألة أدعى إلى الدهشة، ولا أمر أدعى إلى الحيرة في عوالم الحياة الحيوانية والنباتية وأقرب إلى الغرابة والحيرة من هذا السؤال، وهي كيف ولماذا نرى هذه الأعمال الجارية في أجسام الحيوان والنبات والقوانين التي على مقتضاها تجري هذه الأعمال، فيحدث بسببها أن تنمو صورتها داخلاً وخارجاً طولاً وعرضاً وعمقاً بلا خلل في النظام، وهي تستمد تلك الأبنية والأشكال من العناصر الدقيقة الميكروسكوبية على أسلوب منظم موسيقي محكم عجيب.

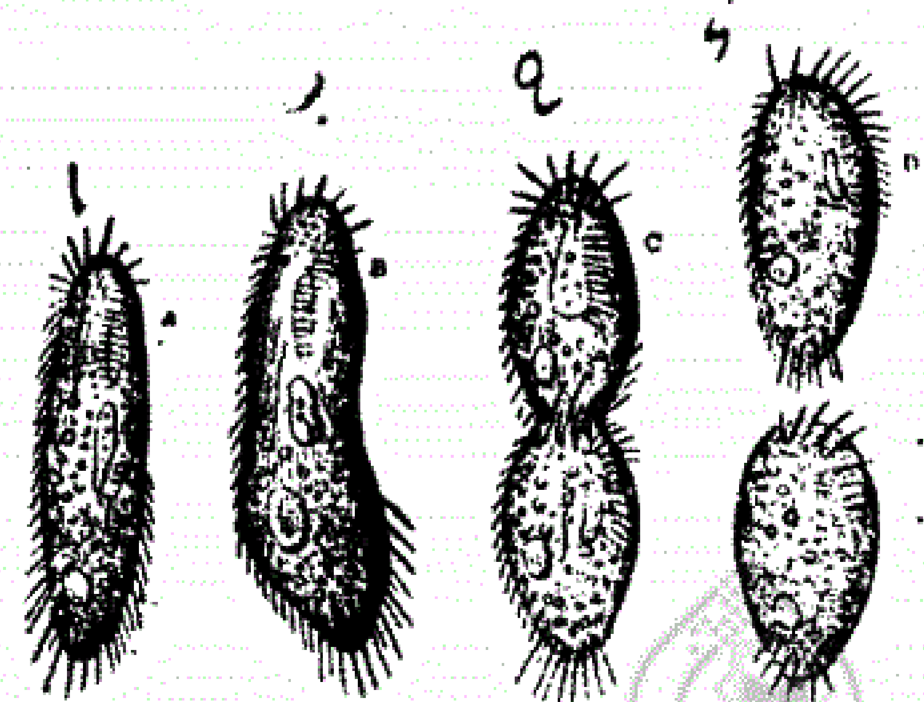
إن موضوع النمو الذي نحن بصدده لن يكون مستوفياً تاماً إذا أغمضت الطرف عن الإشارة إلى حال النمو الغريبة في عالم الحيوان بعد أن شرحناها في عالم النبات.

إن في كل من عالمي الحيوان والنبات تحيل الخلايا ما تتغذى به إلى صور تشاكل تلك الخلايا من كل وجه، وعلى أي حال من نبات أو حيوان، ولكن دراسة الطبقات الدنيا من عالم الحيوان وبحث تلك الحيوانات الدنيئة منه أوحت إلى علماء الحيوان أن يخصوها بنوع من العناية والتحقيق لما يرون في ظواهر نموها من العجائب التي لم يروها في سواها من عوالم الحياة.

تكاثر الحيوان بالانقسام

ألم تر كيف رأينا تلك الحيوانات الدنيئة التي تعيش في المستنقعات والبرك ينقسم كل حيوان منها إلى قسمين كل قسم منهما يصبح حيواناً آخر كالحيوان الكلي سواء بسواء.

انظر إلى (شكل ٣١) فإنك ترى حادثاً معتاداً حقيقياً، ذلك الحادث هو أن الحيوان النقيعي قد انقسم إلى قسمين، وهذا الانقسام تارة يكون طولياً، وتارة يكون عرضياً، وهذان القسمان حيوانان مستقلان ينموان نمواً معتاداً حتى يصلا إلى حيوان تام كما كان الحيوان الأول سواء بسواء.



(شكل ٣١)

تبيان الانقسام في الحيوانات النقيعية

(أ، ب) حيوان نقيعي تام.

(جـ) الحيوان النقيعي في طريق الانقسام.

(د) الحيوان النقيعي بعد الانقسام إلى اثنين.

انقسام الحيوان كما حصل طبيعياً يحصل صناعياً وذلك في الحيوانات

(١) ذوات الأرجل (٢) وشقائق البحر

إن انقسام الحيوانات الدنيئة كما يحصل طبيعياً، هكذا يحصل صناعياً، ألا ترى أن الحيوانات ذوات الأرجل الكثيرة، وشقائق البحر يمكن أن يحصل فيها الانقسام صناعياً.

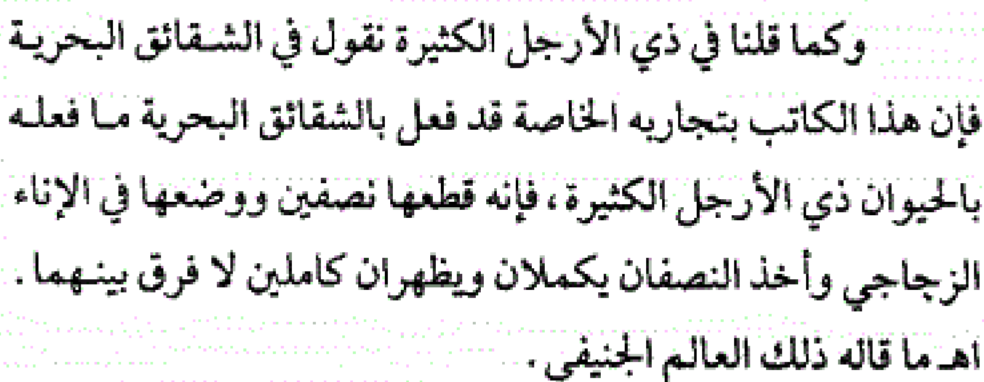
إن ذوات الأرجل الكثيرة التي تعيش على الأعشاب المائية أجسامها عبارة عن أنابيب ذات أفواه، وتلك الأجسام منتهية بأعضاء حساسة تشبه الشعرات، وطول كل حيوان منها يبلغ نحو ربع بوصة، أي: عقدة، ولقد أبان العالم ترمبلي Trembly من «جنيفا» في وسط القرن السابق أنه قطع الحيوان ذا الأرجل الكثيرة المذكورة نصفين طولاً أوعرضاً، وكل واحد من النصفين نما وتم نموه وصار كل من النصفين حيواناً تاماً.

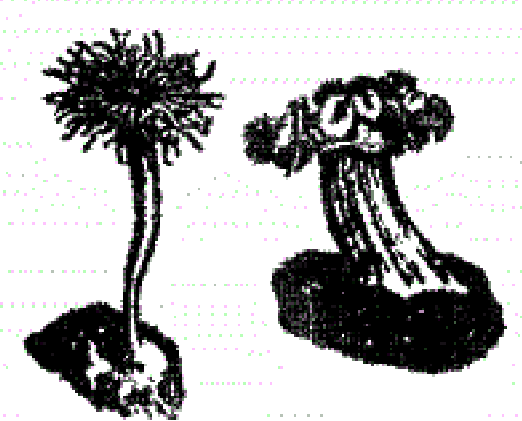
قال المؤلف: وهذا نفس ما قاله «ترمبلي» مشيراً إلى العملية الصناعية المذكورة قال: إنني وضعت نصفي الحيوان ذي الأرجل الكثيرة اللذين قطعتهما في إناء من الزجاج مسطح يحتوي على ماء بمقدار ١٤ و ٥ خطوط في قاعه، وبمثل هذه الطريقة أمكن ملاحظة كل واحد من نصفي الحيوان بسهولة بواسطة المنظار المعظم، ولقد قطعت ذلك الحيوان قطعاً عرضياً ولكنه أقرب إلى مقدمه، وفي صباح اليوم الثاني بعد يوم قطع ذي الأرجل الكثيرة نصفين تبين لي أن هناك على طرف النصف الثاني الذي لا رأس له ولا أيدي ثلاث نقط صغيرة قد ظهرت على ذلك الطرف.

وفي اليوم الثاني أخذت هذه النقط الصغيرة تنمو وتظهر ظهوراً واضحاً لا شك فيه أنها أيدٍ حقيقية. وفي اليوم الثالث ظهرت يدان جديدتان، وبعد ذلك بأيام ظهرت يد ثالثة، قال: وهنالك لم أكن لأقدر أن أميز ما بين نصفي ذي الأرجل الكثيرة بحيث يلتبس أولهما بثانيهما بلا فرق بينهما وكلاهما حيوان تام.

وبناء عليه نقول: إن النمو الصناعي في الحيوان لا نهاية لحصوله ولا حد له ولا لما يتولد بسببه من الحيوان الجديد.

الشقائق البحرية





(شكل ٣٢ ـ شقيق بحري)

وكما قلنا في ذي الأرجل الكثيرة نقول في الشقائق البحرية فإن هذا الكاتب بتجاريه الخاصة قد فعل بالشقائق البحرية ما فعله بالحيوان ذي الأرجل الكثيرة، فإنه قطعها نصفين ووضعها في الإناء الزجاجي وأخذ النصفان يكملان ويظهران كاملين لا فرق بينهما. اهـ ما قاله ذلك العالم الجنيفي.

قال المؤلف بعد ذلك: ولكن هذه العملية ليست خاصة بهذين الحيوانين ذي الأرجل الكثيرة والشقيق البحري كلا.

تكاثر الحيوان بطريق طبيعي

فإن بعض الحيوانات الأخرى تتكاثر بالانقسام الطبيعي، ألم تر إلى المرجان فإنها قد تنقسم قسمين، بل أكثر، ويحدث بهذا الانقسام حيوانات مرجانية جديدة من مرجان واحد.

نموّ البراعيم النباتية وحدوث نبات جديد بها

وليس الانقسام في الحيوان بالبراعيم بأبهج من الانقسام في النبات بما فيه من البراعيم التي بها يحدث نبات جديد، كلا. بل الانقسام في النبات أبهج منظراً، وأبدع الانقسام في الحيوان حيوان الزوفييت يتكاثر بالانقسام، ومن الحيوان الذي يحدث فيه تكاثر طبيعي بالبراعيم الزوفييت.

فإذا رأينا المرجان المتقدم ذكره آنفاً تحدث البراعيم في أجزائه فيكون مرجان جديد، فالقول إن ذلك في الزوفييت أعجب وأبهج منظراً وأحسن شكلاً وأنضر جمالاً.

فانظر رعاك الله، ثم انظر رعاك الله وتعجب من نظام جلّ عن الوصف وفاق كل ما يروق الإنسان من الجمال.

ما هو الزوفييت

الزوفييت حيوان له جذر كجذور النبات وسوق وأغصان، بل وله أوراق، وما هي تلك الأوراق؟ إن هي إلا حيوانات صغيرة محمولة على تلك الأغصان نابتات منها، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤].

أدهشنا صنعك يا رباه، عجباً وألف عجب يا رباه، تناهى إبداعك، تناهى جمالك، وبهرنا آثاره، عرفنا يا رب أن للنبات ورقاً، ولكن ما هذا الورق الحيواني؟ أيكون الورق حيواناً؟ ما هذا

الحيوان؟ وما هذا الجمال؟ رباه، أغصان رصع فيها حيوان بصورة أوراق، ما هذا الجمال، ما هذا الإبداع، رباه عجب وألف عجب! فؤادي يا رب أدهشه صنعك، عجبت يا رب وعجبت، ما هذه المملكة، ما هذه الدولة، ما هذه المستعمرة، وما هذا العدل؟ عدل في النظام، وعدل في الحياة، وينطبق على هذه المملكة: ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾[غافر: ١٧].

حقاً يا رب إن عندك داراً أخرى تقول لنا فيها: ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾[غافر: ١٧]، وتقول فيها: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[الحجر: ٤٧-٤٨].

لقد رمزت لنزع الأغلال من الصدور بحدوث هذه الحيوانات الزوفيتية الأرضية، أحدثتها متجاورات فلا غل ولا حسد ولا حقد، فكل حيوان منها جاثم على غصنه يهضم ما يأكله ويلقيه في المجرى العام في الغصن، ثم يكون هناك إصلاح لذلك في نفس المجرى، وهكذا دواليك، فكل حيوان ورقي زوفيتي يعطي ويأخذ بطريق العدل، ويعطي فضلاته للسائل العام، ويستمد منه قوته غذاء صالحاً، فالسائل العام فيه يكون إصلاح ما نقصت قوته من المواد ويرد صالحاً لكل حيوان منها.

والإنسان في الأرض عاجز عن هذه السعادة، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤]، ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢٠-٢١]. إن هذا الحيوان يشبه في فعله النباتات البحرية المجاورة له سواء بسواء.

حكاية رجل كان يحتطب الزوفييت

اتفق أن رجلاً في يوم عيد كان يحتطب على شاطئ البحر، فجمع كثيراً من حيوان الزوفييت، فماذا رأى؟ رأى أن هذا ليس نباتاً، بل هو حيوان حي ذو منظر بهيج بديع، وترى أغصانه مرصعة بتلك الحيوانات الصغيرة، وكل منها له فم وأنابيب دقيقة ذات إحساس بها يحس الحيوان، وكل حيوان متصل بما يجاوره من نظائره في الحياة، وهذه الحيوانات ظهرت بها مملكة متحدة ذات مستعمرة عجيبة لأدنى مراتب الحيوان. وفي السوق وفي الأغصان يجري السائل الغذائي الذي يستمد منه كل حيوان ما يغذيه كاملاً، ويجد هو ويعمل بقوته الخاصة به في تغذية نفسه كما يفعل ورق النبات، ويدع فضلاته في الغصن مع غذاء المستعمرة ويأخذ منها حظه من الغذاء غير منقوص.

قال المؤلف: إن هذه جمهورية قد اشتركت اشتراكاً عاماً، وساعد كل واحد منها أخاه بعدل وإنصاف، وهذا من أعجب العجب أن يحدثنا تاريخ الزوفييت عن جمهورية كاملة ذات عدل وإنصاف.

إنه من أمتع اللذات لنا وأبهجها لعقولنا أن ندرس تاريخ حياة الزوفييت ونبتهج بما له من مدهشات في نموه وذبوله وبديع أطواره الجميلات واستمرار أجياله في التناسل جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة في مستقبل الزمان، إن تلك الحيوانات المشبهات الأوراق تأخذ في الذبول كما تفعل الأوراق ثم تتناثر كما تتناثر الأوراق، ولكن العجب كل العجب أن هذه الحيوانات التي عفت آثارها واعتراها الردى وحملت إلى أجداثها تحل محلها بعد هلاكها حيوانات أخرى من براعيم تنمو في ديار أولئك الهالكين

وتنتظم الجمهورية الثانية انتظام الجمهورية الأولى كأن لم يكن موت، وستبقى تلك المستعمرات زاهرة ثم يحل بها البلاء ويخلفها غيرها جيلاً بعد جيل، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾[القصص: ٦٨]، ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الزخرف: ٨٤]. وهذا الفعل مشابه لما يحصل في الأشجار المجاورات لها في البحار سواء بسواء. فهاهنا تشابه النبات والحيوان.

قال المؤلف: إن الزوفييت أرانا مستعمرة عجيبة ظاهرة حادثة من الأجسام العضوية بطريق البراعيم المجاهدة لحفظ كيانها في الحياة.

ثم أخذ المؤلف يعلل تكاثر الزوفييت على هذه الطريقة، فقال: إن الحيوان إنّما ينمو بطريق البيض، ولقد حدث منذ زمان أن زوفيتاً خرج من بيضته فاستقل بنفسه وأخذ يعوم في ماء البحر ورسا في قاعه فنبتت له جذور في الأرض وصار ينمو، ثم صار له برعوم فحدث حيوان آخر فاتحدا معاً وأخذا يتناسلان، وهكذا حتى ظهرت مستعمرة حيوانية تشبه النبات، هذا كلام المؤلف.

أقول: أنا «طنطاوي»، وأنا أعجب من هذا التعليل الذي لا قيمة له في العلم، فما هذه المصادفات اللاتي تحدث عوالم وعوالم، إن هذه الآراء ترجع لآراء علماء القرن التاسع عشر. أما القرن العشرون فعقولهم أنضج من سابقيهم. والله هو الولي الحميد.

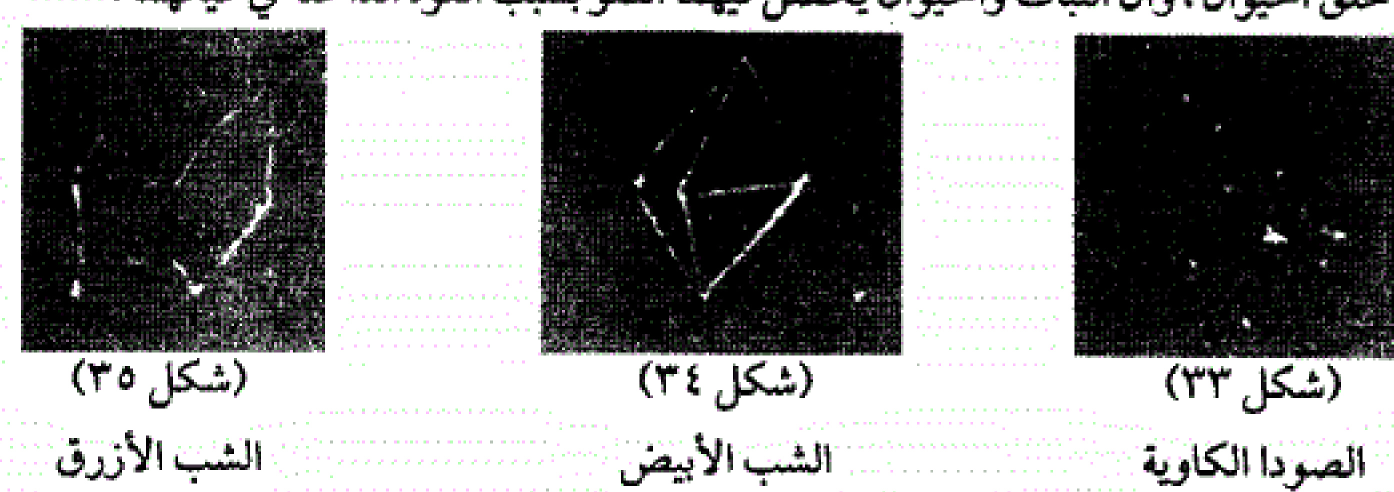
قال المؤلف: وهانحن أولاء رأينا الحيوان يفعل ما يفعله النبات من إصلاح ما فسد منه وظهور الجديد في مواضع البالي وظهور صور حادثة محل أخرى أبادتها صروف الدهر وكرور الأيام.

إن للنمو لعلاقة بالذبول بحيث لا يكون الأول إلا بعد حصول الثاني في عالم الأحياء.

إن الكون والفساد والموت والحياة وحدوث خلق جديد إثر خلق قديم ناموس عام في النبات وفي الحيوان ونحوهما، فذلك صادر من نواميس قائمة بداخل هياكلهما بخلاف الأحجار والأعمدة الجيرية في الكهوف والبلور وأمثالها، فإن النمو حاصل من إضافة بالخارج إليها بنواميس لا دخل لهياكلها فيها والنواميس التي يجري عليها تتابع الكون والفساد سارية في كل نوع من أنواع الحيوان، والنبات لا يتعدى حديثها قديمها ولا آخرها أولها.

ألا وإن كل ناموس يصدق على أجزاء الجسم وأنسجته يصدق على مجموع الجسم، فكما كان لهذه الأجزاء والأنسجة فساد يتبعه كون؛ هكذا لهذه الأجسام فساد يتبعه كون، فإذا رأينا الأسنان تخلفها أمثالها في الأطفال، هكذا الأحياء إذا فنيت تتلوها أخرى على وتيرتها حذو القذة بالقذة، فإذا نحن أعملنا الفكر في أمر الموت والحياة في الإنسان وتدبرناه وصلنا إلى نتيجة صادقة كاملة، وهي أن ذلك الموت ـ الذي منه يهلع الإنسان ويجزع ويفر كأنه من الأمور التي لا يعلمها الإنسان ولا يمكنه أن يعلمها في الطبيعة ـ جار على ناموس صادق ونظام معقول من تلك النواميس الحقة والوجوه المعتبرة المكتوبة في سجل سفر الحياة العامة التي لا تتم حياتنا ولا تنتظم إلا بها، فليس إذاً أمراً خارجاً عن القانون ولا هو أمر مجهول، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الملك: ٢]، من ترجمة العلامة «ويلسن» تحت عنوان النمو.

وهاهنا حضر صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال : إن هذا الكلام حسن ، وكيف لا ؟ لقد ذكرت الجمال والبهجة والحسن في نظام الثلج وصوره البديعة وما يتبعه من الحسن في صور الشب والملح وملح البارود حين تبلورها ومباهج البذور حين ظهور أوراقها وامتداد جذورها ، وكيف ابتدأ خلق الحيوان ، وأن النبات والحيوان يحصل فيهما النمو بسبب القوة الداخلة في كيانهما .



(شكل ٣٣) الصودا الكاوية — (شكل ٣٤) الشب الأبيض — (شكل ٣٥) الشب الأزرق

فأما أمثال الشب والصودا والملح والصخور والأحجار والجبال ، فإن تكونها يكون بحدوث زيادة لها من خارجها ، ونمو النبات بامتداد الجذر من أسفل والساق من أعلى ، بخلاف الحيوان فإنه ينمو بطريق الانقسام ٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦ وهكذا ، وفي أثناء انقسام البيضة المنوية على هذه الحال يحصل سمع وبصر وشم وذوق وعين وأذن وقلب ورئة ومعدة وأمعاء وكبد وصفراء وحلقوم ومريء وحالبان وحجاب حاجز وطحال ويدان ورجلان وقدمان وعشر أصابع في اليدين ونظيرهما في الرجلين ، وهناك نرى اتزاناً واعتدالاً في شكل العينين والمنخرين والأذنين واليدين والثديين والجنبين والفخذين ، فإن هذه المتناظرات موضوعات على هيئة يقال لها في علم الهندسة « المحل الهندسي » ، بحيث نرى المسافة ما بين كل عين إلى الخط الوهمي ـ الذي يفصل الجسم من أعلى الرأس إلى طرف القدم ـ قسمين متساويين ، وهذا غاية الإبداع .

سبحان ربي والحمد له ، هو الرب الذي كان من صنعه هذا الجمال ، يا سيدي ، إن أهل الأرض عموماً يدرسون ويعملون ويموتون وأكثرهم نائمون عن هذا الجمال ، وإن أمثال ما نقوله الآن يبهج النفوس ، فلكم يدهشني أن أرى هذا الشكل الهندسي في جسم الإنسان ، فإذا برزت إلى الحقول رأيت ما سميناه المحل الهندسي واضحاً بهجاً جميلاً في الأشجار وأغصانها وأوراقها وأزهارها ، فكل هذا جميل وعجيب ، وقارئه يخرج من حال الغفلة إلى حال اليقظة ، بل يدرك جمال هذه الدنيا يدركها في كل حال ، ففي السحاب جمال وفي المطر جمال ، وفي الثلج جمال ، وفي الحيوان جمال ، وفي الجماد جمال ، وفي النبات جمال ، ومتى كانت الحياة مملوءة بالجمال كانت حياة سعادة وبهجة وحبور ، ولكن لقائل أن يقول اعتراضاً على أمثال هذا الأسلوب .

اعتراض على المؤلف

لقد ابتدأت هذا الملحق بتفسير ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، ويظهر من مقالك أنك كنت تريد أن تزيد ما في الآيات من التفسير وهو « الجواهر في تفسير القرآن » أيضاً تفصيلاً ، ولما ابتدأت تفعل ذلك في البسملة وآية : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] حصلت لك حال غريبة ، فلم تقدر

أن تتجاوز البسملة والحمد، وأخذت تعرض صورة الرحمات في الحيوان وصور الرحمات في الجو وعجائب الراديو، وكيف كان صانع العالم لرحمته يحافظ على أصوات الإنسان من الضياع في الجو فيجعل لها حواجز وموانع وأغلفة وحوافظ يضعها فيه محيطة بالكرة الأرضية وينوعها، وقد ذكرت أربعة منها في أبعاد مختلفة ما بين ٢٥ ميلاً في الجو، وثلاثة ملايين ميل فيه، وما بين ذلك اثنين: أحدهما في بعد ٦٥ ميلاً، والثاني في بعد ٢٥٠ ميلاً، وهذه بعضها لمنع الأمواج اللاتي تؤذينا، وقد جرت من أقطار السماوات العلى، وبعضها لحفظ أصواتنا أن تضيع في الجو فتنفعنا نفعاً عظيماً، الله أكبر.

ثم إنك بعد ذلك لم تقدر أن تبرح آيات الرحمة، وآيات الحمد، فسردت آيات الرحمة المذكورة في «الشعراء» وفي سورة «الرحمن»، وفي سورة «النحل». فهذه كلها إما أن تكون مذكورة مع الرحمة، وإما أن تكون مبينة لنظام العوالم، وهذا يرجع للحمد عليها.

ثم طفقت تشرح مقالاً إنجليزياً أعجبك حسنه وراقك جماله من حيث إنك شرحت فيه كيف كان خلق الجبال والمعادن والصخور وهكذا، ولكن لي أن أقول اعتراضاً على هذا الأسلوب: إنه يظهر أنك كلما نظرت شيئاً بهيجاً ومقالاً حسناً طفقت تكتبه باعتباره منطبقاً على القرآن إجمالاً، فآية البسملة، وآية الحمد لله ينطبق عليهما جميع العلوم، ولكن هذا لا يسمى تفسيراً البتة، أهذا تفسير؟ إن هذه إلا علوم، نعم إنك في الآيات القرآنية المتقدمة المسميات «روضات الجنات» ظهر فيها معنى كونها تفسيراً. أما في هذا المقال الإنجليزي، فإنه مجرد علم، أما إنه تفسير فلا.

الجواب على هذا الاعتراض

قلت: أيها الأخ لعلك تريد أن هذه العجائب يعوزها الآيات المناسبة لها. فقال: أنا لا أدري ما تريد أن تذكر منها فاعرضها علي، فإن وافقت أقررت أن هذا يصح أن يكون ملحقاً بالتفسير، وإلا لم أقر على ذلك. فقلت: الله هو الهادي، وهو المعلم، وهو الملهم، اسمع يا صاح، يقول الله تعالى:

(١) ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[الغاشية: ١٧-٢١]. فهاهو ذا سبحانه يوبخنا على أننا لم ننظر كيف خلقت الجبال، وكيف نصبت الأرض، وكيف رفعت السماء، وكيف خلقت الإبل، وهانحن أولاء ذكرنا في هذا المقال بعض ما وصل إليه العلم من خلق الحيوان ومنه الإبل، وبعض ما وصل إليه من خلق الجبال وهكذا.

(٢) ويقول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨]، ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[آل عمران: ١٩٩]، ويقول: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[السجدة: ٧]. ولا جرم أن الحساب والحسن والمقدار والنظام تراه واضحاً في أشكال الثلج والشب والأعمدة الجيرية التي كشفوها في كهوف الجبال وهي مسدسة الأشكال.

(٣) ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[الحج: ٦٣]. ألا ترى أيها الأخ أن الإنسان حينما ينظر حبة وضعت في الطين فكانت رطوبة وكانت حرارة، فامتد جذر في الأرض وارتفع ورق فساق في الهواء، يجد هناك لطفاً ورأفة لا حصر

لهما، ويجد أن هذا الجذر تكون قوته على مقدار الورق والساق، ويعجب الإنسان من كون هذه النباتات موضوعة بهيئة بحيث لا تقتلها الرياح الهابة عليها، ولا الأعاصير، ويرى الإنسان أن الأوراق موضوعة بترتيب وحساب. انظر هذا المقام موضحاً بالصور والحساب في تفسير آية: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾[الآية: ١٩] في سورة «الحجر» في الجزء الثامن من الجواهر.

وكلما ازداد الساق ازداد امتداد الجذور، ثم تكون النتيجة أمراً عجيباً، تكون النتيجة أن تكون مآكل وملابس وروائح وأدوية الإنسان والحيوان، هذا ما يفهم الإنسان من آية: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾[الحج: ٦٣] الخ. ومن آية:

(٤) ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾[عبس: ٢٤-٣٢].

فهاهنا جاء ذكر الأنعام والإنسان مع النبات، وذلك هو الذي في هذه المقالة، ولكن القرآن شيء والعلوم التي تقرأ أمر آخر، فالقرآن يبهج النفس بهذه العلوم، ومعنى هذا أن هذا الكاتب الإنجليزي يصف لنا كيف كونت الجبال، وكيف نما النبات والحيوان، وكيف صور الثلج مسدساً، وكيف كان الزوفييت في البحر قد عاش ولم يبرح مكانه، وقد كون جمهورية منظمة لا خلل فيها وعاش سعيداً ثم مات كما تذبل الأوراق وخلفه غيره، هذا كلامه، ولكن أين الروعة، أين البهجة؟.

إنّما البهجة والجمال في أن يفكر الإنسان كيف كان هذا النبات موافقاً لغذاء الحيوان وغذاء الإنسان، ولماذا نرى أن ذوق كل حيوان ومعداتها وأمعائها وأكبادها وطحلها وعروقها وجميع أجهزتها جعلت موافقة لذلك النبات، وكيف نرى الحيوان يفرح بذلك، بل كيف نرى في نفوسنا غراماً بهذا ونحن نكتب هذا التفسير، ما هذا العلم؟ وما هذه الرحمة؟ وكيف نرى أنواع النبات التي تعد بمئات الألوف موافقة لهذه الآلاف المؤلفة من الحيوان، وكيف نرى جذور النبات حينما تجتذب المواد من الأرض موفقة أن تأخذ ما يبني أجسام الزرع وما يبني أجسام الحيوان في آن واحد، ولمَ لا تمتص الجذور من الأرض إلا العناصر العشرة التي بها نمو صلاح النبات وصلاح الحيوان، وبها الروائح وأنواع الحلو والمز والحريف وهكذا مع أن العناصر فوق ثمانين، فكيف تركتها كلها فلم تجتذب إلا الأكسوجين والأودرجين والآزوت والكربون والمغنيسيا والكبريت والكلور والصوديوم والبوتاسيوم وقليل من الحديد واليود ونحوها، وتركت كل ما عدا ذلك مثل: عنصر الليثيوم والفاناديوم.

إن هذه الدنيا عجيبة فما هذا الإبداع في الخلق والرأفة والرحمة، وكيف كان لهذه قوة تتقبلها في أجسام الحيوان فيفرح بالحلو ويعوزه الملح والحريف والمز وهكذا.

ما هذا كله؟ إن نظرات القرآن موجهات إلى إسعاد العقل بهذا الفكر، فتراه يقول: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾[عبس: ٢٤-٢٥] الخ.

فهاهنا نراه يفتح باب الفكر في أن يبتهج بما يرى من حبة امتد جذرها في الأرض وساقها في الهواء بما نزل عليها من المطر الذي جرى به سحاب حمله الهواء، أثارته حرارة الشمس التي تدور

بحسب الظاهر بحساب متقن، وبهذا الحساب المتقن أتقن حساب الزرع في الفصول الأربعة فلم يكن خلط في العوالم. ثم من جهة أخرى تكون النتائج موافقة لذوق الإنسان والحيوان طعماً وغذاء وتفكهاً وحياة وهضماً وتمثلاً بخلايا الجسم، هاهو ذا علم الأمة المحيطة بنا، هانحن أولاء ندرسه ونبينه للمسلمين ونوازنه بالقرآن، فنجد أن القرآن ينظر للعلوم نظرة واحدة فيجعل للفكر الإنساني جولة واسعة، الله أكبر.

إذن المسلمون الذين بعدنا سيكونون أسعد الأمم، لأن العلوم الجزئية تصبح عندهم مقدمات، ونتائج تلك المقدمات غذاء الفكر بالجمال الذي يبهجه بالنظر العام بالعوالم كلها، فيكون الضياء والهواء والحرارة والعناصر والأوراق والأزهار، ومعدات الحيوان وأعضاؤه الداخلة والخارجة وما يعوزها من حب وفاكهة، كل هذا علم واحد يكون في نفس الإنسان صورة جميلة بهجة، فالجسم بها غذاؤه، والعقل بها جنته ومتاعه.

فهاهنا يفهم المسلم معنى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (١) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢) ﴾ أي: لا رب النبات وحده، ولا الحيوان وحده، ولا الفواكه وحدها، ولا استكمال العواطف وحدها، بل الحمد على الهيئة العامة من هذه العوالم.

إذن تأليف أهل إنكلترا وأهل فرنسا وألمانيا وأمم الشرق والغرب مقدمات لتعريفنا بمعنى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (١) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢) ﴾.

فقال: أما الآن فقد اتضح معنى كون هذا ملحقاً بتفسير القرآن، وأرجو أن تسير على هذا الأسلوب في بقية هذا الملحق، فقلت: إن شاء الله تعالى. وبهذا تمت الزبرجدة الأولى، والحمد لله رب العالمين. كتبت هذا المقال الآتي في تاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٣، ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٥٢.

الزبرجدة الثانية: في خلق الإنسان من طين
وعجائب تشريحه الداخل في قوله تعالى:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١-٢]

تفصيلاً للكلام على الحمد في الفاتحة، وتبياناً لعجائب الإنسان

جمالك يا الله باهر، ونورك ظاهر، ملأت العوالم بالنور: نور الشموس، ونور القلوب، وحكمة الحكماء وعلم العلماء. خلقت السماوات والأرض، وجعلت الظلمات والنور، ذكرت الظلمات قبل النور، يا رب ما هذه الظلمات، وما هذا الجمال الرائع في تلك الظلمات، عيوننا يا رباه صنعتها وأبدعتها، عيوننا التي ركبتها تركيباً كتركيب أجمل المخلوقات، كتركيب الشموس والكواكب والأقمار ونفس الأرواح، ففيها يرسم النور صور العوالم الخارجية، وهذه الصور كثيرة جداً، وهذه أشبه بهيئة أرواحنا من حيث إن خيالنا يسع من الصور ما لا حد له، عيوننا أحكمتها، جعلتها من طبقات سبع ورطوبات ثلاث، جعلت شبكيتها وهي آخر الطبقات منتظمة مبدعة، مهندسة مكورة جميلة، جعلتها هي وحدها تسع طبقات مع أن غلظها لا يزيد عن غلظ ورق الكتابة، وآخر طبقة من

هذه الطبقات التسع فيها ملايين من الأشكال الأسطوانية وملايين أخرى من الأشكال المخروطية، ما هذه الأشكال؟ ما هذه العجائب؟ ما هذا الإبداع؟ كل ذلك لا بد منه ليمكن نقل صور العوالم إلى عقولنا ومخيلاتنا في المخ اللطيف الذي في دماغنا. هذا كله موضحاً بالتصوير الشمسي في آية: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾[ق:٦] الخ. في مجلد ٢٣ من أصل التفسير.

سبحان الله وبحمده! سبحانك اللهم وبحمدك. أنت الذي أودعت في قلوبنا حبك، فلذلك نراها تستخدم أجسامنا في تتبع آثارك، لم تذر جيلاً من الأجيال، ولا أمة من الأمم إلا اصطفيت من أبنائها من جعلتهم مثلاً أعلى على حسب زمانهم، ومقتضى أحوالهم، لأنك لم تذر النمل ولا النحل ولا العنكبوت ولا الأرضة ولا الوحوش البرية، ولا الطيور الجارحة ولا غير الجارحة بلا إلهام يرشدها، وإنعام ينعشها وسعادة تحيط بها، وطرق معبدة لحياتها، أنت ربنا منعم رحيم.

ومن أجل هذه الإلهامات ما كان يقوله بعض الفلاسفة اليونانيين قبل أزمان سقراط ــ تقدم ذلك في أصل التفسير في بعض المواضيع ــ إن الله خلق عيوننا لنرى فيها الظلمات والنور، وندرس الليل والنهار، ونعرف حركات الفلك، ليفتح لنا بذلك باب الفلسفة.

الله أكبر، إذن عيوننا والأنوار المحيطة بنا مخلوقات للدرس والحكمة، سبحانك الله، ما أوسع قدرة الله وعلمه، يخلق في أرضنا المتناقضات، حكماء يرون في النور وفي العين حب الله وحب العلم، وجهلاء وهم أكثر نوع الإنسان لا يرون في النور ولا في العين نعمة ولا حكمة، وإنّما النعمة كل النعمة في لذة الحواس والشهوات، يعيشون ويأكلون كما تأكل الأنعام.

حديثي مع فلاح من أقاربي بكفر عوض الله حجازي بالشرقية

وهي قريتنا، كنت أرجع وأنا طالب بالجامع الأزهر إليها لأقضي فيها زمن المسامحة. فقابلني يوماً على ترعة قريتنا المسماة «ترعة عوض الله»، فقال: يا ابن أختي هل لهذا العالم آخر؟.

هذه هي السماء وراءها سماء ووراءها سماء، ثم إذا انتهت السماوات ما الذي بعدها؟ هذه حيرة هل العلم يفيدها شيئاً من ذلك، أنتم لا تعلمون، هذا كلامه، فكان هذا السؤال من أحد الأسباب التي جعلتني مغرماً بدرس الفلسفة، وقد درست الفلسفة القديمة في الكتب العتيقة التي وصلت إلينا، وقد رأيت فيها أن العالم كله ثلاث عشرة طبقة، طبقة الأرض، الماء، الهواء، الأثير، فلك القمر، فلك عطارد فلك الزهرة، فلك الشمس، فلك المريخ، فلك المشتري، فلك زحل، فلك الثوابت، فلك المحيط.

هذا هو العالم كله في الفلسفة القديمة، فالعالم كله على مقتضاها خادم لأرضنا وحدها، فهذه الأرض الصغيرة هي محور العالم كله، فالماء لشرابنا، والهواء لتنفسنا، والأثير وهو عبارة عن عالم أخف من الهواء تخلق فيه الشهب والنيازك، فهو عالم ناري، والقمر يضيء لنا وهو يسبح في فلك، وذلك الفلك متصل اتصالاً تاماً بفلك عطارد، وما عطارد، ولا الزهرة، ولا الشمس، ولا المشتري، ولا زحل، إلا قناديل دائرات في أفلاكها لنظام أرضنا.

ولما كانت هناك كواكب لا تحصى يراها الناس في السماء لم يجدوا لهم محيصاً من أن يجعلوا لها فلكاً خاصاً، وهو الفلك الذي فوق فلك زحل، فكل نجم ثابت فإنه ثابت فيه ويسمونه فلك الثوابت.

ولما كانت هذه كلها متحركات لم يجدوا لهم بداً من أن يقولوا: أن هناك فلكاً محيطاً بجميع هذه العوالم، وذلك الفلك هو الذي يدور الدورة اليومية التي نشاهدها وتدور معه هذه الأفلاك كلها من المشرق إلى المغرب.

ولكن الشمس وما معها من القمر، وعطارد، والزهرة، والمشتري، والمريخ، وزحل، لها نظام خاص لأنها وإن جرت مع هذه الأفلاك ومع هذه الثوابت بحركة مستمرة من المشرق إلى المغرب فإنها ترى لها حركة أخرى من المغرب إلى المشرق.

فهي أشبه بالنمل يعيش فوق عجلة تدور من الشرق إلى الغرب، ولكن هذا النمل مع دورانه مع العجلة من الشرق إلى الغرب وهو مأسور مقهور بحكم المكان الذي يدور به له حركة أخرى اختيارية استقلالية، وتلك الحركة على ضد الحركة الأولى مخالفة لها لا تتفق معها، فالحركة القسرية من الشرق إلى الغرب، أما الحركة الإرادية فإنها من الغرب إلى الشرق، وإيضاحه أننا نرى الهلال يبدو أول الشهر في السماء من جهة غروب الشمس، فإذا لاحظنا كوكباً ثابتاً من كواكب السماء معه في نقطة واحدة في تلك الليلة؛ فإننا في الليلة الثانية نرى القمر قد تأخر إلى الشرق، وذلك الكوكب ثابت في مكانه لا يبرحه، ذلك لأن القمر يسبق في الطلوع كل ليلة بنحو (٥٠) دقيقة.

فلا جرم يرى شرقي ذلك الكوكب الذي كان مقارناً له في الليلة التي قبلها بهذه النسبة، والقمر بهذه الطريقة يتم نحو سبع وعشرين يوماً دورة كاملة، ولكنه إذا أتم الدورة لا يجد الشمس في مكانها، لأنها أيضاً تتحرك حركة إلى الشرق مثل القمر، ولكن حركتها هي بطيئة لا تتم إلا في نحو سنة، إذا رجع القمر ولم يجدها في مكانها فإنه يعوزه نحو يومين أيضاً ليلحق الشمس، وهذا هو الزمن الذي يسميه الناس شهراً، كما أن دورة الشمس تسمى سنة، والذي قلناه في الشمس والقمر نقوله في بقية الكواكب السابقة المسميات سيارات، فالشمس على هذا المبدأ القديم من السيارات، هذا ملخص علم الفلك القديم. فلما قرأت ذلك العلم رجعت إلى سؤال الفلاح في قريتنا وقلت: هاأنا ذا قرأت العلم المشهور بين أمم الإسلام وأمم اليونان والرومان، هذا عالمنا.

هاأنا ذا أقف ليلاً فأنظر الكواكب تدور حول النجمة القطبية الثابتة في أفق السماء، أرى ذات الكرسي والدب الأكبر والدب الأصغر، تدور حول تلك النجمة التي لا تنتقل، وكلما ابتعدت النجوم عن النجمة القطبية المرتفعة فوق الأفق ٣٠ درجة نراها تغيب عن أعيننا كالشعرى اليمانية والجوزاء وذات الكرسي والفرس الأعظم والمرأة المسلسلة والسماك الرامح والسماك الأعزل والنسر الواقع والنسر الطائر والتوءمين والجبار ومنكب الجوزاء وممسك الأعنة والدبران والكلب الأكبر الذي فيه الشعرى اليمانية والكلب الأصغر الذي فيه الشعرى الشامية والعيوق وغيرها، كل هذه تدور من الشرق إلى الغرب، وتختفي وتظهر لأنها بعيدة عن النجمة القطبية. انظر هذه كلها في خريطة السماء الآتية في الزبرجدة الثالثة.

كنت أرى هذه فأقول: حقاً إن هذه الدورة حق، وهذه الثوابت لا شك في ثباتها، وهذه السيارات نظامها صادق، وهذا القول معقول، وكل فلك في مكانه، ودليلهم على ذلك أن السيار الذي

هو أسفل يكسف السيار الذي فوقه، فبهذا عرفوا أماكنها ولكنهم لم يجدوا لمركز فلك الشمس دليلاً، فقالوا: إن الشمس في الوسط كشمس القلادة، فكما نرى قلادة الحسناء في وسطها الجوهرة الثمينة، هكذا الشمس قد جعلت في الوسط، ففوقها ثلاث سيارات هي: زحل والمشتري والمريخ. وتحتها ثلاث سيارات هي: القمر وعطارد والزهرة، حسن هذا كله، هاأنا ذا عرفت الدنيا كلها. هذا خلق الله، وهذه ظلماته، وهذا نوره، وهذه كواكبه.

فماذا بعد الفلك المحيط؟ يجيب العلماء فيقولون: لا خلاء ولا ملاء، الله أكبر، ما معنى هذا؟ يقولون عدم صرف، واحسرتاه على العقل الإنساني استخبر كتب القدماء فلا تقول غير هذا.

يا قوم أنا لا أفهم، أنا لا أعرف، أفيدوني، الفلاح في كفر عوض الله ألقى علي هذا السؤال فأين جوابه؟ قرأت العلم وعرفت الفلسفة، هذه هي التي يعرفها أمثالي في «الأزهر القديم» لا «الجديد الآن»، فقد أزهر العلم فيه، وهل بعده فلسفة، وهل بعدها علم، هذا آخر العلم في هذه الدنيا. فإلى أين أذهب؟ ما معنى لا خلاء ولا ملاء، يقولون الخلاء: ما كان بين جسمين، ولما كان ما وراء الفلك المحيط ليس فيه أجسام إذن لا ينطبق اسم الخلاء عليه، لأنه وإن كان بجانبه جسم وهو عالمنا، فهناك لا جسم غيره من ناحية أخرى حتى يقال له خلاء، وأما الملاء فمعناه عالم الأجسام، إذن هو عدم صرف، واحسرتاه، ما معنى عدم صرف؟ فهكذا حرت في أمري وأصبحت في ليل من الشك مظلم.

هذه الآراء هي التي ملأت عقلي والحيرة والحسرة معها، هاأنا ذا قرأت علوم الدنيا كلها فلم أجد جواباً لفلاح قريتنا، ولا غذاء لروحي المسكينة التي تريد أن تعرف هذه الدنيا، كل ذلك والعالم الشرقي والغربي حولي يعرفون من العلم ما لا يخطر على بالي، وقد غيروا أوضاع الثوابت والأفلاك وأدركوا في ذلك علماً غزيراً، وفي نفس مصر في مدارسها هذه العلوم زاخرة، ولكن لا علم لي بها. إن عقل الإنسان لا يعرف إلا ما وصل إليه، وما عداه مجهول له، فهذا آخر العلم عندي.

دخلت دار العلوم واطلعت على ما رآه المحدثون، وعرف الناس من العلم ما لم يحلم به الأولون، وملك الله عند القدماء بالنسبة لما ظهر عند المحدثين خردلة من جبل وقطرة ماء من بحر لجي، بل هي هباء في الهواء بالنسبة للكرة الأرضية.

انفتح لي باب العلم وأخذت أقرأ كتباً وكتباً، فماذا أرى؟ أرى أن علم القدماء الذي قرأته ليس نهاية ما كتبوه، وأنا الذي ظننت أنه نهاية علمهم، وإنّما كان على مقدار ما وصل إلي وإن كان هم تجاوزوا حد ما وصل إلي. فوقع في يدي كتاب إخوان الصفاء وهو مؤلف منذ ألف سنة، فماذا يقول في الفضاء؟ يقول: إن الفضاء إما ظلمة وإما نور، والظلمة والنور إما عرضان، وإما جوهران، وإما أحدهما عرض والآخر جوهر، فإن كانا عرضين فالعرض لا بد له من جوهر، وإن كانا جوهرين فهو المطلوب، وإن كان أحدهما عرضاً والآخر جوهراً فحكمهما مقرر، وهذه من بدائع القرآن إذ يذكر الظلمات والنور اللذين بهما برهن على أن لا خلاء في الوجود.

عجباً إذن الفضاء لا فضاء، إذن كل ما اعتبرناه خالياً من الأجسام إنّما هو جسم، إذن المجموعة الشمسية ـ على الطريقة الحديثة ـ لا تجري في فضاء بل في موجود لا ندري ما هو؟ والمجرة تحوي

عشرات الملايين من المجموعات الشمسية، ومعلوم أن مجموعتنا الشمسية عبارة عن شمسنا المعتبرة مركزاً ثابتاً يجري حولها عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون وسيار جديد كشف حديثاً منذ نحو سنتين، فهذه هي السيارات التسع، وكل سيار له قمر أو أقمار قد تبلغ ٩ أو أكثر أو أقل، وقمرنا ليس سياراً، بل هو تابع لأرضنا يجري حولها كالأقمار الأخرى.

وهناك ذوات الأذناب والنيازك، وهذه لا عدد لها فهذه كلها مجموعتنا الشمسية، وهذه المجموعة الشمسية واحدة من عشرات الملايين، وهذه كلها تسمى مجرة واحدة، وفي العوالم مجرات كثيرة تعد بعشرات الملايين، ومثل المجرات السدم، جمع سديم، وهي كالمجرات أيضاً، وهذه وتلك تعد بمئات الملايين.

بعد هذا أو ذاك أقول أيضاً: أنا لم أعرف جواب سؤال الفلاح في قريتنا، وأنا لا أزال إنساناً جاهلاً لم أوفق للإجابة عليه، إن هذا السائل قد مات، ولكن سؤاله لم يمت، وهو في نفسي وفي نفس كل امرئ في الأرض.

عجب لهذه النفوس المتطابقة، نفوس عالية رفيعة لها بربها علاقة، وتلك العلاقة أنه هو الذي صنعها صنعاً خاصاً ميزها عن المادة وجعلها سيدة عليها نفوس لا ترى للعوالم آخراً، نفوس كونت تكويناً بحيث يسع خيالها هذه العوالم وأجواءها ويقطع مسافات وراءها، ويقف مكتوف اليدين قائلاً: أنا في حيرة، أنا في حيرة، نعم تذكرت لماذا لا أرجع إلى قول إخوان الصفاء المتقدم، وأن الخلاء جوهر، ولكن هذا قول مجمل غير معلوم، لأن الجوهر قسمان: جوهر مفارق للمادة، وجوهر ملازم لها، والثاني هي هذه الأجسام، والأول هي الأرواح والنفوس، فهل يزيد أصحاب إخوان الصفاء أن يقولوا: إن الجو روح أو نفس، أو يقولوا هو جسم، فإذا كان الثاني كانت الأجسام حالة في أجسام، وهذا مستحيل لأن تدخل والتدخل مستحيل، وإذا قالوا: إن الجو روح، فأي روح هذه؟ وهل الروح يقوم بها الظلمات والأنوار، كلا هذه عوارض جسمية، إذن كلام إخوان الصفاء غير مفهوم يعوزه الإيضاح، فماذا نقول إذن.

السؤال باق، والمسألة يعوزها الحل، فماذا نقول؟ نعم. نعم هذه مجلة السياسة الأسبوعية يوم السبت ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٠ تكتب تحت عنوان:

آراء العلامة اينشتين الحديثة في الفضاء

فلنقرأها، وإذا لم يحل المسألة اينشتين فمن ذا الذي يحلها؟ هو أعلم علماء الأمم في الأرض الآن في هذه العلوم، فماذا في هذه المقالة؟ يقول الكاتب:

يعتبر العلامة اينشتين من أعظم مفكري العصر الحاضر، وقد شغل الدوائر العلمية وأوساطها بمباحثه الجديدة وآرائه التي تقصى بها كثيراً من النظريات.

يقول اينشتين: إن الفضاء يبتلع المادة، وبهذا القول أصبحت اليوم دراسة الفضاء ذات أهمية أكبر من دراستها في الماضي. قال الكاتب: ونحن نلمس من حديث اينشتين أن الفضاء عامل أصلي جوهري، فلا بد من دراسته، إن الفضاء من هذا القول أصبح أمراً أصلياً وأصبحت المادة فرعاً عنه

فهي أمر ثانوي، كانت المادة أصلاً والفضاء فرعاً، فهاهي ذه القضية أصبحت معكوسة، وقد قوبل هذا القول بين العلماء في أوساطهم العلمية قبولاً حسناً بنيويورك كما قوبل قول اينشتين أيضاً بتلك المقابلة الحسنة، وهو أن الفضاء جسم صلب حقيقي، والمادة مأخوذة متولدة من نفس الفضاء.

ولما سمع هذا القول العلامة « وليم مونتاج » الأستاذ بجامعة كولومبيا قال: إن هذا المبدأ يدلنا على أن اينشتين قد غض النظر عن مذهبه الأصلي عن الفضاء حينما أعلن لأول مرة نظريته عن النسبية، ففي ذلك الحين كان يعتبر المادة أصلاً وأنها تخلق الفضاء الخاص بها، ولكن نظريته الجديدة قد اقتلعت هذا المذهب، والظاهر أن بحوثه دلته الآن على اعتبار المادة ثانوية بالنسبة للفضاء.

هذه آراء أعظم عالم في أرضنا اليوم، ماذا يقول؟ يقول: إن الفضاء جسم صلب، الله أكبر، إذن الفضاء لا فضاء، إذن لا عدم في هذه الدنيا، وليس يوضح هذا لأصدقائنا قراء هذا الكتاب إلا ما تقدم في الأصل « أصل التفسير » في سورة « الصافات » من شرح هذه النظرية، وآراء علماء آخرين، وتبيان معنى كون الفضاء مادة صلبة، وأنه لو كان مادة محسوسة لكان أصلب من الحديد والرصاص آلاف المرات، وهناك أوضحناه بما هو معروف.

إن هذا الفضاء هو الذي يوصل الجاذبية بين النجوم والشموس والسيارات والأقمار، فإذا تحمل ثقل السيارات حول الشمس وذوات الأذناب والنيازك، وتحمل المجرة وشموسها وسياراتها، فما هذه القوة التي فيه، فلو فرضناه حديد أو نحاساً أو ذهباً أو بلاتين أو أي مادة مما نعرفه في الأرض فلم يقدر أن يحمل جذب تلك العوالم جذباً متوالياً دائماً بلا كلل أو ملل، إذن صلابته فوق كل صلابة في الأرض آلافاً وآلافاً.

إذن عرفنا جواب سؤال الفلاح في قريتنا، جوابه اتضح بقدر الطاقة الإنسانية اليوم بكلام اينشتين، فإذا قال ذلك الفلاح: ماذا بعد السماوات؟ نقول له: إن هناك شموساً وشموساً، ومجرات ومجرات وسدماً، فيقول: وما بعد المجرات والمجرات والسدم؟ فنقول له: ظلام حالك، وذلك الظلام الحالك لون جسم صلب قوي متين، فيقول: جسم صلب أي صلابة هذه؟ فنقول له: صلابته بمعنى آخر غير المعهودة، مع أن ظاهره يقتضي أنه معدوم، وهذا آخر العلم في زماننا، فيقول لنا الفلاح لو كان حياً الآن: يظهر لي من كلام علمائكم أن العالم المعروف الآن الذي كشفه علماؤكم؛ عبارة عن كرة واحدة كما قاله اينشتين، فقد أثبت أنه كله كرة واحدة، فماذا وراء هذه الكرة؟ فهل العلماء يقولون: لا عوالم وراءها، اغتراراً بعلمهم، فإذا قال ذلك أجبناه بما جاء في السياسة الأسبوعية يوم السبت ١٧ مايو سنة ١٩٣٠ تحت عنوان:

الكائنات العلوية

مقاييس الكائنات وأبعادها

العثور على عنصر الأوكسوجين في جو المريخ

ألقى الأستاذ « سيليرمان » أحد كبار علماء الفلك الأمريكيين خطبة في جمعية العلوم الطبيعية الأمريكية بمدينة « واشنطن » أثبت فيها أن فضاء الكون الذي تسبح فيه الكائنات هو كروي الشكل،

وأن قطر هذه الكرة هو اثنان وثلاثون ألفاً وخمسمائة ألف ألف ألف مليون ميل، أي أنه خمسة وثلاثون ألف مليون ضعف المسافة بين الأرض والشمس، وهذا القياس هو أقل مما كان العلماء يعتقدون حتى عهد قريب، بل هو لا يتعدى جزءاً من عشرين من القياس الذي أسفرت عنه أرصاد سنة ١٩٢٤.

وقد ذكر الأستاذ «سيلبرمان» أن التقدير الجديد وإن يكن أقل من التقديرات السابقة هو مؤيد بعدة أدلة مبنية على نظرية اينشتين في النسبية بعد تطبيقها على سرعة بعض النجوم المتناهية في البعد. ومع ما لقياس حجم الكون وأبعاد الكائنات من الشأن العظيم في علم الفلك لا يمكننا إلا الاعتراف بأن تلك المقاييس هي تقريبية ككثير من الأرصاد الفلكية، وفي الواقع أن قياس الكائنات المتناهية في البعد لا يمكن أن يكون مضبوطاً، ولا ينتظر أن يكون كذلك ما دامت وسائل الرصد لدينا ذات قوة محدودة.

ولكي تعلم أن الأرصاد الفلكية فيما يتعلق بالكائنات المتناهية في البعد هي تقريبية ما عليك إلا أن تقابل بين أرصاد تلك الكائنات منذ خمسين سنة وأرصادها الآن فتجد الفرق شاسعاً جداً. وهذا الفرق راجع كما لا يخفى إلى تقدم وسائل الرصد وآلاته في خلال الخمسين سنة الماضية، فإن صنع المراقب «التلسكوبات» الكبيرة قد مكننا من رؤية أجرام فلكية، وعوالم متناهية في البعد ما كنا نرجو أن نراها لو بقيت آلات الرصد على ما كانت عليه منذ خمسين سنة.

ففضاء الكون قد اتسع في السنين الأخيرة اتساعاً تدريجياً، ومعرفتنا بطرق رصد ذلك الفضاء لا تزال في ازدياد مستمر، حتى صرنا نتساءل اليوم: هل وصلنا إلى أقصى حدود الكائنات؟ وهل المراقب وآلات الرصد التي لدينا اليوم هي أعظم ما يمكن صنعه؟ ولنفرض أن تلك الآلات هي أعظم ما يستطيع العلم صنعه؛ فهل معنى ذلك أنه ليس وراء الفضاء الذي تستطيع تلك الآلات أن تجوبه فضاء آخر؟.

وبعبارة أخرى: إن مذهب النسبية يقول: إن الكائنات محدودة والفضاء الذي تسبح فيه كروي. ولكن أليس وراء ذلك الفضاء الكروي فضاء آخر؟ وهل من المحال أن توجد فيه عوالم أخرى هي من البعد عنا بحيث لا تصل إليها أقوى التلسكوبات الحديثة؟.

فأما أن الكائنات العلوية محدودة فليس بالأمر المستحيل، وأما وجود فضاء آخر وراء الفضاء الذي تسبح فيه الكائنات فحقيقة لا يستطيع العقل أن يتصور ما يخالفها، لأن من مقتضيات الفضاء أن لا ينتهي عند حد. وإنّما من المحتمل أن يكون ثمة حد فاصل بين الفضاء الذي تسبح فيه الكائنات والفضاء الذي يحيط به من ورائه، وإذا ثبت أن الفضاء الأخير هو خال من الأجرام العلوية فلا بد أن يكون عبارة عن ظلمات حالكة لا نهاية لها على الإطلاق. والأرجح أن حقيقة ذلك الفضاء المجهول ستظل سراً مستغلقاً قروناً كثيرة، إلا إذا تمكن العلم من إماطة اللثام عنها.

أما الآن فإن أبعد الأجرام الفلكية التي تمكن رؤيتها بمساعدة المراقب «التلسكوبات» القوية هي السدم اللولبية المتناهية في البعد، ولا سيما ما يعرف منها بالسدم السيارة، وهي على ما يقول العلماء: نظم فلكية مستقلة بذاتها كنظام المجرة الذي منه نظامنا الشمسي وما فيه من أجرام فلكية

مختلفة . وقد أثبت الدكتور « هيل » أحد علماء الفلك بمرصد مونت ويلسون بأمريكا هذه النظرية ، إذ رصد هو ورفيقه الدكتور « هيوماسون » تلك السدم عدة سنوات وقاسا أبعادها عن الأرض وسرعة دورانها واتجاه حركتها . وقد كانت النتيجة التي انتهيا منها ، بعد مقابلة أرصادهما مدهشة جداً ، إذ أثبت الدكتور « هيوماسون » أن سرعة السديم اللولبي رقم ٧٦١٩ هي ٢٢٤٨ ميلاً في الثانية ، وأنه يسير مبتعداً عن الأرض التي تبعد عنه الآن نحو ٢٥ مليون سنة نورية .

وهذه هي النتيجة التي انتهى إليها الدكتور « هيل » بعينها . وقد اضطر كلا العالمين إلى رصد ذلك السديم أو تلك المجموعة من العوالم بتلسكوب مرصد « مونت ويلسون » الذي يبلغ قطر عدسته مائة بوصة ، وهو أكبر تلسكوب في العوالم في الوقت الحاضر ، وصوراه صوراً فوتوغرافية متعددة في حالاته المختلفة ، وإذا تذكرنا أن ذلك السديم يبعد عنا خمسة وعشرين مليون سنة نورية ؛ علمنا أن النور الذي وقع على الزجاجة الفوتوغرافية هو النور الذي فارق ذلك السديم منذ خمسة وعشرين سنة . ولا شك أن تغييرات كثيرة طرأت على ذلك السديم منذ ذلك الحين ، ولكن أثرها لم يصل إلينا بعد ، إذ لا بد له من مسيرة ٢٥ مليون سنة في الفضاء حتى يصل إلينا . ومعنى هذا أنه لو كان في ذلك السديم بشر يرون عالمنا كما نراهم لكانت صورة الكرة الأرضية التي تنشر بينهم الآن بهيئة هذه الكرة كما كانت منذ خمسة وعشرين مليون سنة .

أما الطرق التي يعتمد عليها العلماء لمعرفة سرعة الأفلاك ومن جملتها السدم ، ومعرفة وجهة سيرها ، فيصعب شرحها بمثل هذه العجالة ، وإنّما نقول : إنها تتوقف على فحص الطيف الشمسي ومراقبة حركة الخطوط السوداء التي تقاطع حركة ذلك الطيف ، فإذا كان الجرم العلوي يسير مقترباً من الأرض ، فإن الخطوط السوداء المذكورة تكون أقرب إلى الشعاع البنفسجي ، وإلا فإنها تكون أقرب إلى الشعاع الأحمر في الطرف الأقصى من الطيف .

ويظهر أن السديم اللولبي رقم ٧٦١٩ يسير مبتعداً عن الأرض وهو هائل الحجم جداً ، ويفوق مجموعة السدم الأخرى التي قد قيست سرعتها . ويظهر أن جميع تلك السدم تسير مبتعدة عن الأرض ولكن سرعتها هي دون سرعة السديم رقم٧٦١٩ ، أما السديم الذي يليه في السرعة فهو المعروف برقم ٥٨٤ وتبلغ سرعته ١١١٨ ميلاً في الثانية . وفي أثناء رصد هذه السدم تمكن العلماء من رصد النجم المسمى « نوفابكتوريس » ، ومن دواعي الأسف أن هذا النجم لا تمكن رؤيته في نصف الكرة الشمالي ، ولكن مرصد « بلومفنتين » بجنوبي أفريقيا ومرصد « لابلاتا » بالجمهورية الفضية واصلا رصده منذ عدة سنوات ولا يزالان يرصدانه ، لأن حوادث فلكية مهمة وتغييرات عظيمة قد طرأت عليه .

كان هذا النجم عند أول رصد من القدر الثاني عشر كما يؤخذ من الصور الفوتوغرافية الكثيرة التي طبعت له ، ولم يكن في أول الأمر يرى بالعين المجردة ، ولكنه منذ أربع سنوات أخذ يتألق تألقاً عظيماً مدهشاً حتى صارت قوة إشعاعه تزيد عشرة آلاف مرة على قوة إشعاعه سابقاً ، والتعليل الوحيد لهذه الزيادة الفجائية ـ وهو تعليل قد أيدته الأرصاد الحديثة ـ هو أن انفجاراً عظيماً وقع في النجم فتطايرت قشرته الخارجية التي كانت على الأرجح نصف صلبة .

وقد علل علماء الفلك الانفجار الذي وقع في هذا النجم تعليلات شتى، ولكن ليس بينهما تعليل مقنع. وهنالك رأي يقول بأن هذا النجم سيرجع بعد مرور سنوات إلى حالته الأولى ويصبح نجماً من القدر الثاني عشر كما كان.

ونختم هذه العجالة بخبر هو أعظم ما يكون من الشأن في نظر علماء الفلك، ومؤداه أن الأستاذ «رسل» الفلكي الأمريكي الشهير قد أثبت حديثاً أن جو المريخ يحتوي على كمية من الأوكسوجين لا تزيد على سدس كمية الأوكسوجين الموجود في جو كرتنا الأرضية، ووجود هذا الأوكسوجين في جو المريخ على قلة نسبته دليل على وجود الحياة النباتية، بل لعله يجعل وجود الحياة الحيوانية في ذلك السيار كثير الاحتمال، وعلى كل فإن الأنواع الحية التي يحتمل وجودها في المريخ تختلف عن الأنواع الحية في هذا العالم كل الاختلاف، سواء أكان بتركيب أجسامها أو حواسها أو بأي سبب آخر.

فلما أتممت هذا المقال حضر صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال: ما أجمل هذا المقال نعمة وأي نعمة، عرضت لك شبهة في الفلاحين فدرست الفلك القديم ولخصته هنا ثم درست الحديث ولخصته أيضاً، وأنت حائر في فهم لغز الكون أله آخر أم هو محدود، وانتهى الأمر بفوز العلم إذ يقول اينشتين: إن الفضاء جسم، ولقد أوضحت أنت هذا المقام في سورة «الصافات»، وفي سورة «النبأ» عند آية: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾[الآية: ١٢]، وأبنت أنت هناك أن شدتها في الآية هي نفس صلابتها عند العلامة اينشتين، ولكن أخاف أن يكون تطبيقك هذه العوالم على الرأي الحديث كتطبيق علماء الإسلام المتقدمين على الفلك القديم، إذ كانوا يقولون: إن العرش هو الفلك المحيط، أي: الذي به تكون الحركة الدورية للأفلاك كلها. وأن الكرسي هو فلك الثوابت تحته، فأنا إذن أخاف أن يكون ما تقوله في معنى: ﴿ سَبْعًا شِدَادًا ﴾[النبأ: ١٢] وعد ذلك راجعاً للصلابة التي ذكرها اينشتين قد يصبح هباء منثوراً إذا قام في العالم رأي آخر وأنه لا صلابة في الفضاء، فربما يأتي قوم فيقولون: هاهو ذا الهواء والماء لا صلابة فيهما وهما في الفضاء، فهل الفضاء صلب وهما غير صلبين، أنا على كل حال أرجو أن لا تعول على أمثال هذه الأقوال ودع القرآن من ذلك.

فقلت: أيها الأخ إن هذا القول مناسب للآية التي نحن بصددها، يقول الله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[الأنعام: ١]، فهاهو ذا قدم الظلمات وأخر النور، أليس هذا مناسباً لقول اينشتين: إن الفضاء أصل والمادة فرع عنه، ولكن مسألة العرش والكرسي لا مناسبة بينها وبين الفلك المحيط والفلك الأطلس اللذين قال بهما القدماء، وانظر للمسلم في صلاته ماذا يقول؟ يقول المسلم في الرفع والاعتدال: «ربنا لك الحمد ملء السماوات»، وهذا يشمل جميع المجرات والسدم والشموس والتوابع والنيازك، «وملء الأرض»، وهذا يشمل كل أرض تجري حول شمس، «وملء ما بينهما»، وهذا يشمل عنصر الماء وعنصر الهواء وما فيهما من سمك وطير وحر وبرد وتيارات وعواصف وسحب وكهرباء وعجائب لا حصر لها، «وملء ما شئت من شيء بعد»، فما هذا الذي بعد هذا كله؟ يا ترى هي الظلمات المتراكمات حتى تكون عوالم أخرى وعوالم أخرى لا ندريها كما تقدم في المقال السابق.

فنحن لا ندري ما وراء هذا العالم، أهو فضاء مظلم؟ فنقول: إن هذا الفضاء ليس فضاء، بل هو جسم صلب، أم نقول: إن هناك عوالم أخرى كعوالمنا هذه، وهذا القول لا يزيدنا شيئاً، لأن المادة أصبحت فرعاً لا أصلاً.

إذن «وما شئت من شيء بعد» يعوزه شرح وتفصيل، وتفصيله أن يقال: إن الفضاء شيء موجود والله بعلمه سبحانه وتعالى، والنفس الإنسانية مخلوقة لدراسة المادة وما وراء المادة، فالمصلي إذ يقول: «ملء السماوات وملء الأرض»؛ يكون هذا القول محرضاً له على البحث عن السماوات وعن الأرض، وحين يقول: «وملء ما شئت من شيء بعد»؛ يكون هذا القول محرضاً له أن يكشف الغطاء عما بعد هذه الأجسام، كسؤال الفلاح لي سواء بسواء.

الكلام على خلق الإنسان بعد الكلام على العوالم المحيطة به

واعلم أيها الأخ أن الإنسان لما كان مخلوقاً يراد به استيعاب هذه العوالم ودراستها والتحقق منها والبحث فيها، وأن ذلك سعادته وراحته وإيناسه وغذاؤه الروحي؛ أعقبه بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[الأنعام: ٢-٣].

ولا جرم أن ذكر خلق الإنسان بعد ما تقدم مما يقوي ما قلناه، وهو أن الإنسان مخلوق لاستيعاب هذه العوالم، وإلا فلماذا يذكر خلق الإنسان من طين بعد ذكر هذه العوالم، ثم كيف يقول المصلي: «وملء ما شئت من شيء بعد»، فالإنسان لا يقف عند حد في المباحث العلمية، وأواخر مباحثه الظلمات التي وراء هذه العوالم.

بهجة العلم ونور الحكمة في العصفور المغني

في هذا اليوم وقت الظهيرة وأنا في حديقة بقرب المنيل وتحت دوحة غنى عصفور، فخيل إلي أن روحي التي تعشق هذه العوالم لا تقنع بعلم ولا تقف عند حد كهذا العالم الذي هي فيه، فهي والعالم سواء، كلاهما لا يتناهى فهما يشبهان الكسر $\frac{1}{3}$ الذي يساوي ٠,٣٣٣٣.

فهل هذا الكسر الإعشاري الذي حولناه عن كسر اعتيادي له نهاية؟ كلا. ثم كلا. وبعبارة أخرى: أثلث العشرة على هيئة كسر إعشاري تمكن نهايته؟ كلا. إذن الحساب فيه ما لا نهاية له، بل هذا ظاهر في أبسط مسائل، وما الحساب؟ أليس فرعاً من نفوسنا؟ أوليس الحساب من علم الله تعالى سواء أكان بسيطاً أو عالياً جداً؟.

إذن الله يعلم ما لا نهاية له، وروحي مستمدة من آثار أنواره، فهي كذلك تشعر بما لا نهاية له ولكنها لا تحيط به علماً والله يحيط به، وهذا الفضاء مما لا نهاية له فهي تشعر به ولا تدركه، فبعض الكسر لا نهاية له في الحساب، أي: إن تجزئة المادة بحسب دقة الحساب لا تنتهي، وهذا من نتائج معارفنا ومعارفنا مطابقة للمادة، إذن تجزئة المادة لا تدرك لها نهاية كالكسر سواء بسواء، والكسر فرع من أنفسنا، فأنفسنا لا نهاية لها لأن الكسر المذكور مثلاً فرع من أصل هي نفوسنا، وإذا كان الفرع الصغير لا نهاية له فكيف يكون الأصل؟ فإذا لم نجد للفضاء في نفوسنا نهاية فهو كذلك في الخارج، وهذا هو

السبب الذي من أجله جاء في مقال الأستاذ «سيلبرمان»: إن وراء هذه الأجرام السماوية ظلمة ولا ندري أفيها عوالم أم لا. وإنّما قال ذلك لأن أرواحنا طبع فيها ذلك، إذن الآية تشير إلى ذلك لأنه يقول: خلقت المادة وخلقت الظلمة سواء أكانت داخلة فيها أم خارجة عنها، ولا ريب أن الظلمة التي في المادة نعرف أسبابها، فأما الظلمات التي وراءها فلا علم لنا بها، ثم ذكر النور.

ثم أعقب ذلك بذكر خلقنا من الطين، ولما خلقنا من الطين وجدنا نفوسنا مصوغة على هذا المنوال، فهي تدرك العالم وتشعر بالظلمات وراءه.

هذه المقدمة ذكرتها هنا لأني شعرت وأنا تحت الدوحة في المنيل قرب نهر النيل في ذلك الوقت حين سمعت العصفور يغني كأني خرجت من هذا الجسم وطارت روحي في هذا الفضاء الذي لا نهاية له، وأخذت تدرس الوجود كله، وكأن تلك الظلمة وما فيها من المادة والنور مصوغة بحكمة كصوغ جسمي، لأن جسمي المخلوق من الطين مملوء علماً وحكمة وجمالاً وبهاء وكمالاً، فهو إذا درسته فكأنه جنتي، وإذا جهلته فكأنه ناري، فبهذا الجسم الجميل البديع الآن عند دراسته أحس ببهجة وجمال وسعادة روحية، إذن روحي تسعد بدراسة جسمي، فإذا مت فبم تسعد إذن؟ نعم تسعد بالجمال المحيط بها، وما هو ذاك؟ نعم هو الجسم العام، وما هو ذا الجسم العام؟ هو الفضاء وما تفرع منه، وهذا الفضاء الذي استخرجت منه هذه المادة وأنوارها وحكمها يجب أن يكون أجمل من المادة نفسها كما أن نفوسنا التي تبتدع العجائب في المادة أرقى منها.

هذا هو الذي خطر لي، أي: إني اليوم في جسمي وهو عذابي إذا غفلت عن دراسته ودراسة ما حوله، وهو جنتي عند دراستي له والغرام بعلمه، فإذا كان هو مملوء حكمة فهو لي سعادة، فإذا انسلخت منه ورجعت إلى الجسم العام الذي يقول عنه اينشتين: إنه صلب قوي متين ومنه اشتقت العوالم التي حولي وخلق منها جسمي؛ فإني إذ ذاك أسعد بهذا الفضاء الصلب القوي وأسعد بالمادة التي اشتقت منه كما سعدت اليوم بدراسة هذا الجسم، الله أكبر.

إذن هذا كله معنى غناء العصفور في الدوحة التي أنا جالس تحتها اليوم، أي: إن معناها أن السعادة عند مفارقة الأرواح للأجسام تكون بالإنتاج بهذه العوالم كلها ظلماتها وأنوارها، وتكون اللذات لا نهاية لها كما أن العوالم لا نهاية لها. أما اللذات الآن فلها نهاية لأن روحي محبوسة في جسمي، وسعادتها الحقيقية تكون في أوقات محدودة، أي: حين أعتبر نفسي قد انسلخت عن جسمي لأني حين أدرسه أعتبر نفسي كأني خارج عنه، إذن هذا الجسم هو الذي حدد لذاتي الحقيقية لأنه سجن لي، وهذا السجن بدراسته أعرف جمال هذا العالم كله، لأن الغصن وهو جسمي يدل على الشجرة وهو العالم، وهذه الحقيقة لا أعرفها إلا إذا خرجت منه، وذلك بالموت الذي يشوق إليه ازدياد العلم.

إن في هذه الأرض قوماً طهرت نفوسهم وكملت، فهم أبداً يحنون إلى الموت بل يرونه هو السعادة، فأما بقاؤهم في الحياة فإنه ازدياد لإسعادهم وتكميلهم ولا يطلبون من الله الموت، لأن ذلك نقص، والكمال أن يسلموا له الأمر ويرضوا بهذا الفراق والبعد ذلك الجمال حتى يبلغ الكتاب أجله.

فهذه اللحظة التي غنى فيها العصفور خطرت لي هذه الخواطر بسرعة، وكأني في سعادة لا حد لها بهذه العوالم التي لا حد لها باعتبار أني خرجت من هذا الجسم الجميل إلى ما هو أرفع جمالاً.

رباه هذا هو عالمنا، وهذا هو جسمي، وبكثرة التفكر في جسمي أزداد علماً بالفضاء وما فيه من ظلمات ونور، وأقترب من مبدع هذا الجمال.

هاهنا قال صاحبي: كفى، كفى، حسن وجميل. إذن غناء العصفور في تلك الدوحة هو الذي أخرجك من جسمك في ثانية من الزمن وأحسست بأنك سعيد بالعالم كله، ونفس الدوحة أشبه بالعالم كله، وغناء العصفور كأنه الجمال العام في شجرة الموجودات. فقلت: أيها الأخ، لقد أوضحت ما في نفسي ولخصته، مع أن ما قلته أنا لم يف بالمقام ولكنه على كل حال مقدمة لما قلته أنت.

فقال: إذن خطرات الإنسان الصادقة على هذا المنوال لها تأويل وشرح وتفسير كما تفسر بعض الرؤى الصادقة. فقلت: نعم، ولكن أكثر الناس غافلون، أليست الأحلام خطرات النفس؟ غاية الأمر أن خطرات النوم أكثرها غير منظم، فلذلك أهملها نوع الإنسان.

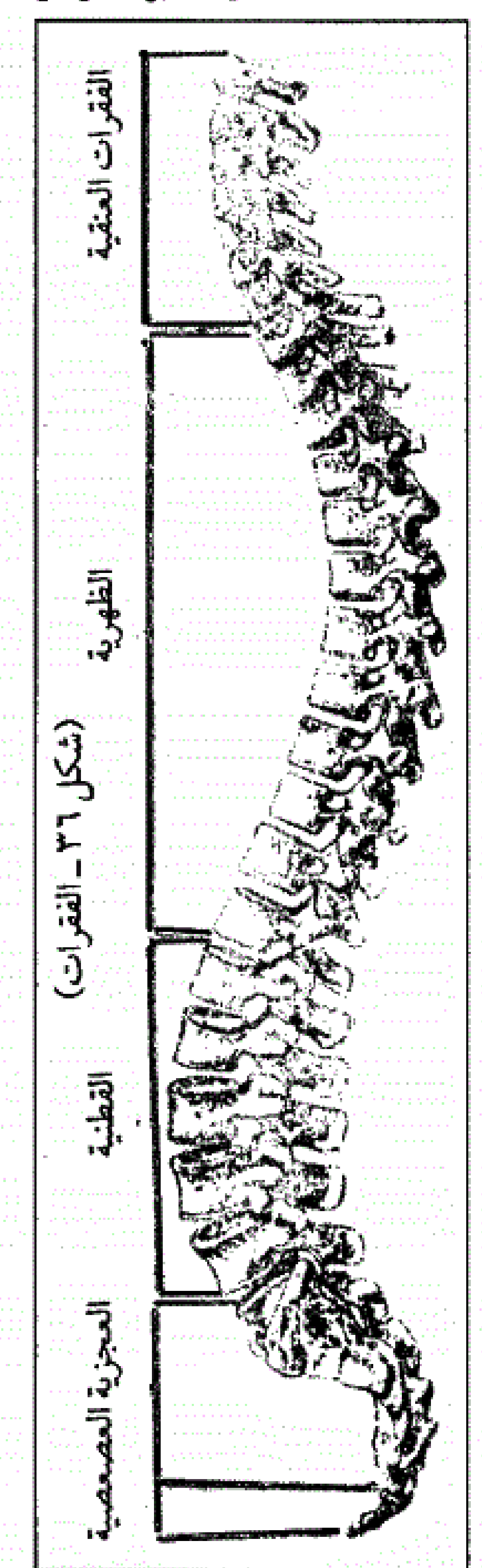
فقال: إذا كانت السعادة في الجسم بشرحه وفهمه فهل لك أن تذكرنا ببعضه في هذا المجلس؟

فقلت: حياك الله أيها الأخ، أصل التفسير مشحون بذلك، ففي سورة «عبس» ترى بعض شرح أجسامنا عند قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾[الآيات: ١٧-٢٠]. وفي سورة «فاطر» تجد صور الأعضاء وشرحها وتفصيلها والدورة الدموية الخ. وهكذا في سور كثيرة. فقال: ولكن هنا نفوسنا استعدت اليوم للشرح الإجمالي الذي يذكرنا بما تقدم كله، وذلك في الحقيقة تثبيت له، أليس هذا يعد ذكرى والذكرى تنفع، بل الكلام هنا أشبه بثمرة ما تقدم فهو ابتهاج للنفس، فهناك تعليم وهنا تذكير ومسرة بالمعارف، فليكن اليوم سرورنا بشرح أجسامنا ليكون ذلك مقدمة لسرورنا بنظام جميع العوالم التي خلقنا فيها بعد مغادرة أجسامنا.

فقلت: ماذا أقول لك أيها الأخ في الجسم؟ أأقول: إنه رأس وبدن وأطراف، وفي الرأس المخ، وبين الرأس والجسم الرقبة، وفي الجسم الثديان، وفي الجسم جميع الأعضاء الباطنة، وأنت تعرف هذا وأعظم منه، ألست تعرف أن هناك الصدر الذي تحيط به الضلوع؟ فقال: أعرفه. فقلت: وفيه أعضاء الدورة والتنفس، وهي القلب والرئتان، وفي البطن أسفل منه أعضاء الهضم والبول والتناسل.

ومثل المعدة والأمعاء والكبد والكليتين والمبيضين اللذين يختصان بالأنثى، وبين الصدر والبطن الحجاب الحاجز، وهناك أطراف هما: اليدان والرجلان، وللجسم فم وقبل ودبر، وهذه فتحات مفردة وله أنف وأذن وعين، وهذه فتحات زوجية.

لهذا الجسم طبقة تحميه، وهي الجلد، وهذه الطبقة يمتد منها غشاء مخاطي لونه قرنفلي إلى نحو الشفتين والأنف وباطن جفون العينين، وهذا الجلد أشبه بالشبكة، ولكن فتحاته لا ترى إلا بالعدسة المكبرة، وهذه الفتحات الخفية هي التي بها يظهر العرق على جلودنا، وهناك في نفس الطبقة بصيلات خاصة بها ينبت منها الشعر، وهذا الشعر يكثر في الرأس والحاجبين، وحول الجفنين وتحت



(شكل ٣٦ ـ الفقرات)

الإبطين، وحول الفتحات البولية والشرجية، وفي الذكور يظهر الشعر عند سن البلوغ في الشارب واللحية وبالصدر والبطن.

ومن الجلد تنمو الأظافر والأسنان، لأن ما تحت الأسنان فرع من الجلد كما تقدم.

ولا جرم أن العمود الفقري يتركب من ٣٣ فقرة، ٢٤ منها تسمى بالفقرات المتحركة، لأن بعضها متصل ببعض اتصالاً مفصلياً يسهل لها الحركة، وهذه هي الفقرات العنقية والظهرية والقطنية، أما الفقرات التسع الباقية الملتحمة وهي الفقرات العجزية والعصعصية.

الفقرات العنقية ٧. الفقرات الظهرية ١٢. الفقرات القطنية ٥. الفقرات العجزية ٥. الفقرات العصعصية ٤. وهذه الأخيرة غير واضحة الأجزاء وهي في مقابلة الذيل عند الحيوان، وهذه صورتها:

فلما سمع صاحبي ذلك واطلع على هذه الصورة سر سروراً عظيماً، وقال: الحمد لله على نعمة العلم.

ثم قال: ولكن هذه الدروس لا تكفي العقلاء فأين الحكمة في الوضع وشرح العجائب؟ فقلت: شرح عجائب تركيب الفقرات في الظهر ملخصاً من كتاب القزويني في عجائب المخلوقات.

عجائب المخلوقات للقزويني

لما كان الظهر غائباً عن الحاسة اقتضى التدبير والعناية الإلهية أن يكون محكماً بعظام صلبة، أليس من العجب العجاب أن يجعل لكل فقرة من الفقرات المرسومة هنا شوكة نابتة في الناحية الوحشية وجناحان من يمينها ويسارها، وقد غشيت بغشاء غضروفي، فهذه أربع حوافظ للفقرة الواحدة، الفقرة حوافظها أربع:

فأما أولاها: وهي الشوكة النابتة إلى الجهة الوحشية، وتسمى «الشوكات السناسن»، فإنها جعلت جنة بارزة تلقاها الآفات الهاجمة من خارج فيصيبها النكاية دون الفقار. وأما الجناحان، فإنهما جعلا أولاً لوقاية الفقرة من جانبيها كما جعلت الشوكة وقاية لها من الخلف.

وثانياً: ليكونا مدخل الأضلاع، وأما الغشاء الغضروفي فذلك لئلا تتكسر بسهولة عند مصادمتها للأشياء الصلبة. وهذه الشوكات، أي: السناسن، قد ربط بعضها ببعض برباطات عصبية عراض متينة فتصير كأنها قطعة واحدة، هذه حكمة خامسة.

الحكمة السادسة : أن يقال لماذا لا تكون تلك الفقرات كلها عظماً واحداً؟ وجوابه أنها لو كانت عظماً واحداً لكانت إذا أصابها أي آفة تعطل الظهر كله، بخلاف هذه الفقرات لتي لا تتعدى إصابة واحد منها مكانها.

(٧) إن العناية بهذه الأعضاء تامة لأنها حفاظ لما وراءها كآلات التنفس والقلب وآلات الغذاء. ولا جرم أن الفقرات كالقاعدة لباقي العظام.

(٨) فقياسها إلى سائر العظام قياس الخشبة التي تهيأ في نجر السفينة أولاً، ويربط بها سائر الخشب ثانياً، فإن الأضلاع وعظام القص والرأس واليدين والرجلين كلها مركبة عليها، ويقوى بها البدن على الانتصاب.

(٩) وهي لو كانت أصغر من حجمها المعروف لكان البدن أطوع للانثناء، ولكن كان النخاع الذي في وسطها غير مصون، والحاجة إلى حفظ النخاع أمس من الحاجة إلى زيادة الانثناء، إذن هذه الفقرات أصل قوام البدن.

(١٠) إن أكثر الانحناء إلى الأمام لذلك جعلت المفاصل والرباطات من خلف ليكون من جانبها الآخر السلس للحركة.

(١١) وقد خص بأفضل الأشكال وهو المستدير، لأنه أبعد الأشكال عن قبول الآفات. ولقد تعقفت رؤوس الخرزات العالية إلى أسفل والسافلة إلى أعلى واجتمعت في الوسط إحداها، وهي واسطة الخرزات في العدد.

(١٢) ولما كان من الواجب أن يعم الحس ظاهر البدن كله وجب أن يصل إليه شعب العصب، ومعلوم أن الإحساس منشؤه في الدماغ، والدماغ لطيف والأعضاء غليظة فما يكون العمل، اقتضت الحكمة أن تخرج شعبة غليظة من مؤخر الدماغ في طول البدن وهو النخاع، وأحيط ذلك النخاع بعظام الفقرات لتحفظه بصلابتها وتواتي الحركة بمفاصلها.

(١٣) ويخرج من النخاع في كل موضع يحتاج إلى التحريك والإحساس عصب يتصل به، وعند كل خرزة زوجان يأخذ أحدهما يمنة والآخر يسرة.

إذن هذه الفقرات فيها ١٣ حكمة، وهذه الحكم كلها لفقرات ظهري. إن جسمي نموذج للعالم كله، إن الله يقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]، ثم يذكر بعد ذلك أني خلقت من طين، نعم. خلقت من طين ولكن تكويني عجيب جداً، وهذه خرزات ظهري مشحونة حكمة ورأفة وعطفاً وعلماً وإبداعاً، ما هذه السنسنة، ما هذان الجناحان الواقيان للفقرة، ما هذا الغضروف، ما هذا التكوير، ما هذا الحجم الذي لو كان أكبر لتعدت الآفة موضعها، ولو كان أصغر لم يحفظ الدماغ، وما هذا الإبداع في الإحساس؟ وما هذا اللطف بالمخ الذي هو منبع الإحساس، قد حفه اللطف وساعدته العناية فامتدت منه شعبة، وهذه الشعبة حفظت في تلك الفقرات القوية المتينة، فهي بقوتها قامت عليها الأضلاع والقص واليدان والرجلان والرأس وحفظ في داخلها النخاع، ذلك الجسم اللطيف الذي يحمل الإحساس فيوصله إلى ظواهر الجسم ليكون

الإحساس ثم الحركات، وقد اخترقت الأعصاب النواقل للحس والنواقل للحركات الواصلات إلى ظواهر الأجسام الفقار فلم يمنعها، وذلك من أبدع الحكم والعجب، أهذا كله عجائب فقرات ظهري؟ وهذا معنى: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[يوسف: ١٠٠]، هذا معنى اللطف، ومعنى العلم، ومعنى الحكمة، هذه هي الفقرات التي عليها قامت أجسامنا، هاهي ذه موضوعات وضعاً متقناً حارسات لما في داخلها منتظمات وحافظات لما خلفها بداخل الجسم.

ومن أعجب العجب أن الفقرة كلما كانت أسفل كانت أكثر سمكاً، وكلما كانت أعلى كانت أخف سمكاً، وذلك أن السفلى تحمل ما هو أعلى منها، وفي البناء جرت القاعدة أن يكون الدور الأسفل أعظم سمكاً من الدور الذي هو أعلى منه.

الضلوع والقص

لكل إنسان ١٢ زوجاً من الضلوع تتصل مع الفقرات الظهرية وهي ١٢ فقرة، وكل فقرة من الفقرات الظهرية تقترن بضلعين على جانبها، وهذه الضلوع تميل وتتصل بالقص الذي يمتد في وسط الصدر، وهذا الاتصال: إما اتصال مباشر، وإما بواسطة جزء غضروفي، وهو الغضروف الضلعي، وذلك فيما عدا الزوجين الأخيرين من الأضلاع، فهذان لا يتصلان بالقص، والقص من الأمام يقابل العمود الفقري من الخلف، والطرف السفلي للقص غضروفي.

العمود الفقري والقص والضلوع هذه كلها متصلات اتصالاً مفصلياً ببعضها فكونت ما يسمى بالعلبة الصدرية وفي داخلها القلب والرئتان، وتساعد على التنفس لقبولها للحركة.

الجمجمة

ومعلوم أن النخاع الشوكي المتقدم ذكره متصل بالمخ الذي في الجمجمة.

تعلو الجمجمة العمود الفقري، وترتبط به ارتباطاً متيناً، وتتركب الجمجمة من منطقتين هما:

(أ) المنطقة المخية: وتشمل العظام التي تحيط بالمخ وتكون بشكل علبة عظيمة مجوفة تشغل الجزء العلوي والخلفي من الجمجمة.

(ب) المنطقة الوجهية: وتشغل الجزء الأمامي والسفلي من الجمجمة، ومنها العظام الأنفية، وعظام الفك العلوي.

تتصل بأسفل الجزء الوجهي من الجمجمة عظمة منحنية تشبه حرف (د) تسمى بالفك السفلي، ويقابلها من أعلى الفك العلوي، ويحمل الفكان العلوي والسفلي الأسنان، وسيأتي الكلام عليها بعد.


(شكل ٣٧ ـ الجمجمة)

وتكون الجمجمة من عظام كثيرة ملتحمة بعضها ببعض بواسطة بروزات معشقة في بعضها كأسنان المنشار، ولا يسمح مثل هذا الالتحام بالحركة، وتكون هذه البروزات واضحة أثناء الطفولة، ويتم التحام بعضها تماماً عند الكبر، وتسمى العظام المحيطة بالمخ عظاماً منبسطة.

فلما اطلع على هذا صاحبي قال: إن هذا الوصف يدرسه الشبان في المدارس، ولكن أين الحكم والعجائب؟ فقلت: هاكها أيها الأخ ملخصة من كتاب القزويني:

الدماغ جسم لدن مخيّ محويّ في غشاءين مبلغ للروح النفساني، ومنه ينبعث في الأعصاب إلى سائر البدن، ولما كان جوهر الدماغ شديد اللين حتى إنه قريب من السيلان اقتضى التدبير الإلهي أن يكون في غشاء، فجعله في الأم الرفيقة لتحصره وتضبطه وتكون حرزاً ووقاية له، ثم خلق بين الدماغ والقحف غشاء غليظ يلائم القحف من داخل ويكون كالبطانة، حتى إذا انتهى الدماغ في انبساطه إلى عظم القحف صادم هذا الغشاء ولم يصادم القحف، فيكون هذا الغشاء وقاية للدماغ من الأشياء القريبة، ويسمى «الأم الجافية».

ثم لما كان جوهر الدماغ على ما هو عليه من اللين وسرعة الانفعال عن أدنى سبب؛ خلق له حصن صلب من العظم وهو القحف، وجعل بعيداً عنه ليدفع الآفات عنه ولا يضره بنفسه، لأنه لو كان ملاقياً له وهو صلب يصادمه دائماً فيضغط عنه وكان دائم النكاية منه، فجعل الأم الرفيقة الحاوية للدماغ معلقة في القحف.

فلما سمع صاحبي ذلك فرح أشد الفرح وقال: هذا والله حسن. فقلت: إذن ندرس هنا أثراً هاماً وهو الأسنان.

الأسنان

للإنسان الكامل ٣٢ سناً: نصفها في الفك العلوي، والنصف الآخر في الفك السفلي.

٤ قواطع في كل فك من الفكين والمجموع ٨ قواطع.

٢ أنياب في كل فك من الفكين والمجموع ٤ أنياب.

١٠ أضراس في كل فك من الفكين والمجموع ٢٠ ضرساً.

أما القواطع فذات طرف حاد تشبه القدوم، ووظيفتها: العض والقضم، والأنياب في حجم القواطع تقريباً، ولكن تاجها مدبب، وهي مستعملة لتمزيق الطعام، والضروس ذات تيجان عريضة، وسطحها غير مستو، وهي تستعمل لطحن الغذاء.

وللطفل الذي يبلغ ست سنين ٢٠ سناً، والمفقود من أسنانه ١٢ ضرساً، في كل فك ستة ضروس، في كل ناحية ثلاثة، والعشرون سناً المذكورة هي الأسنان اللبنية، وتسقط هذه في السنة السابعة تقريباً، وتنمو أخرى في موضعها وهي الأسنان البدلية.

فأما الاثنا عشر ضرساً المتقدمة فهذه لا تخرج بدل غيرها، بل تنمو مباشرة كأسنان مستديمة، ويتأخر نمو الضرس الأخير المسمى «ضرس العقل» مدة طويلة تتراوح بين سن ١٧ و٢٥ سنة.

مم تتركب الأسنان

تتركب السن من مادة معدنية صلبة تسمى العاج، وبوسطها فراغ يعرف باللب، تمتد فيه الأعصاب المنبهة للسن والأوعية الدموية المغذية لها، حيث تدخله من ثقب صغير في طرف الجذر، ويغطى العاج في تاج السنة بطبقة أشد صلابة منه لامعة، تعرف بـ« المينا »، ويغطى جذر السن بطبقة معدنية أقل صلابة تسمى بـ« الأسمنت ».

الميناء
التاج
العاج
اللب
العنق
اللثة
الأسمنت
الجذر
العظم الفكي
سنخ
وعاء دموي
العصب

(شكل ٣٨)

إيضاح لا بد منه

إن وظيفة الأسنان الأصلية القبض على الطعام وقضمه وتمزيقه ومضغه، وهي أيضاً تساعد في إخراج بعض الحروف، ولكل سنة تاج وجذر وعنق، فالتاج هو الجزء الظاهر فوق اللثة، والجذر هو الجزء المغطى باللثة وهو مغروس في عظام الفك داخل حفر مناسبة له تسمى بـ« الأسناخ »، وللجذر فرع أو أكثر، وأما العنق فهو الجزء المختنق قليلاً من السن وهو الحد الفاصل بين التاج والجذر.

واعلم أن هذا الوعاء الدموي الذي رأيته في الرسم لم يتضح فيه الفرق بين الوعاءين: وعاء الدم الوريدي، ووعاء الدم الشرياني، ولكن الشكل الآتي قد اتضح فيه ذلك:

(أ) تاج السن الذي يغطى بالمينا.
(ب) جذر السن المغروس في سنخ الفك.
(جـ) هو الوريد.
(د) هو الشريان.
(هـ) الأعصاب.
« جـ» و« د» هما الاثنان وعاء الدم.

(أ)
(ب)
(أ)
(ب)
(د)
(جـ)
(هـ)

(شكل ٣٩)

عجائب الإتقان في هذه الأسنان

هاهنا استبان أن الأسنان تختلف اختلافاً بيناً تابعاً للثمرات والمنافع، فبينما الطفل لا ينال منها إلا عشرين وهي أسنان اللبن إذ لا يعوزه سواها، فليس في حاجة إلى الاثني عشر ضرساً طواحن للطعام، لأنها لا فائدة لها فما الذي يطحنه عليها، ألبن الأم أم الأطعمة اللطيفة التي يتعاطاها بعد الفطام، الله أكبر.

عجب يا ربنا، إن نفس هذا الوضع يدهشنا بل يذكرنا بأنك لا تعطي ولا تمنح إلا لحكمة، تقول لنا: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١]. هانحن أولاء أبصرنا وسمعنا فماذا رأينا؟ رأينا

إبداعاً، رأينا جمالاً، رأينا حكمة، نحن نحزن لفقد حبيب، أو ضياع مال، أو مرض أجسام، أو فراق هذه الدنيا جهالة منا، فهاهو ذا صنعك، منعت الطفل ١٢ ضرساً، لماذا؟ لأنها طواحن ولا طحين لها فلا وجود لها.

ولما كانت أسنان اللبن لا تجدي نفعاً أخذتها منه وأعطيته غيرها، الطفل يألم عند ظهور أسنانه ويألم عند انتزاعها، هذا حاصل، هكذا نحن نألم لما يصيبنا من المكاره في تحصيل المال، ونألم عند ذهابه منا، كل ذلك تذكرة لنا، أما ألمنا فذكرى لنا، وألم الأطفال بأنواع الأمراض، ومنها أمراض الأسنان تعويد لهم على تحمل الآلام في الحياة، كأنه يقال لهم: أيها الأطفال، أنتم ستكونون كباراً وستقاسون نعيم الحياة وبؤسها، وخيرها وشرها، ولا بد من تحمل المشاق، فهانحن أولاء نمرنكم على البأساء والضراء في حال صغركم لتتعودوا ذلك من الآن، وأنتم لا تعلمون كما يتعلم التلاميذ المسائل الحسابية في المدارس التي لا نتائج لها في عقولهم، ولا ثمرة لها إلا تدريبهم، وذلك ليستعدوا لنفس هذه العمليات إذا كبروا في معاملتهم مع الناس، فتكون هذه هي الثمرة المقصودة.

إذن ليست آلام الأطفال رمية من غير رام، بل هي تدريب على تحمل المكاره من الصغر، لأن نظام الحياة أوجب أن يكون ألم وأن تكون لذة، وعلى مقدار تحمل الآلام يكون الهناء وتكون السعادة وعلى مقدار الاضطراب وعدم التحمل يكون الشقاء، هذا كله فهمته الآن من نظام الأسنان.

اللهم إن أسناننا مثلاً كتاب مفتوح، وهكذا جميع أحوالنا. اللهم وفق العلماء في أقطار الإسلام في هذه السنين وبعد مبارحتنا هذه الدنيا أن يجعلوا دراسة التشريح مقرونة بالحكم، لأن هذا هو المفيد النافع، أما إعطاؤها لهم على طريق الحفظ بالأوصاف الساذجة، فذلك ممل فلا يفيد الفائدة المطلوبة.

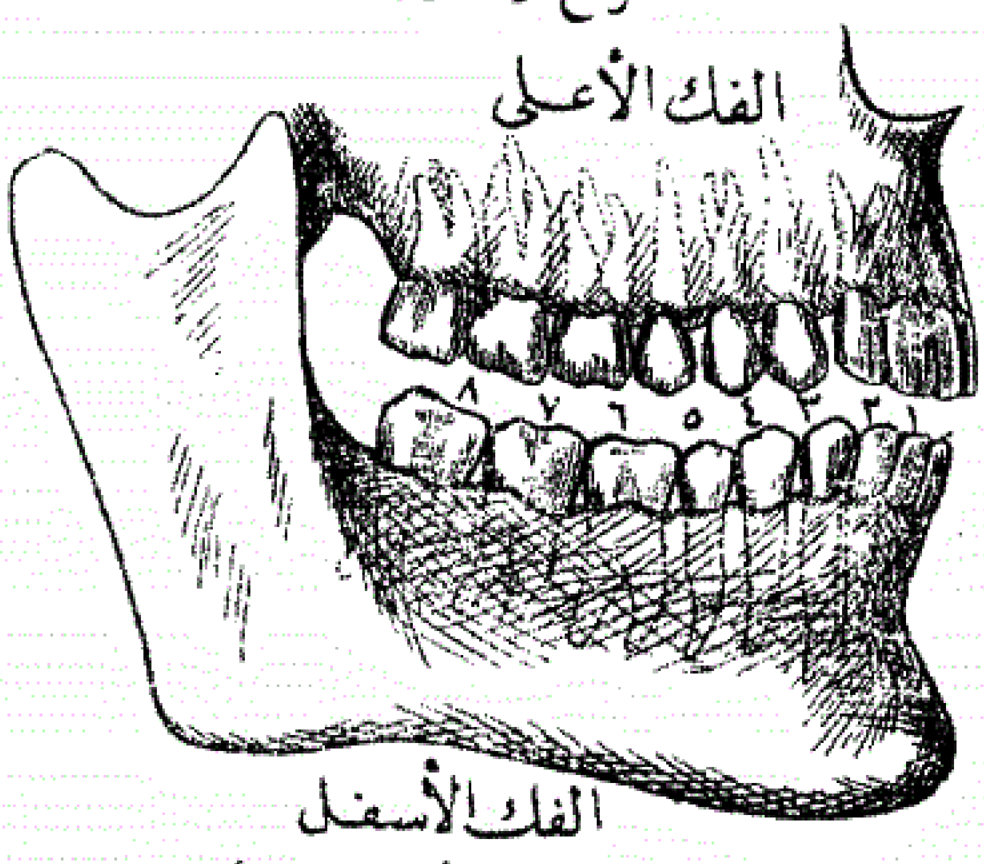
من عجائب الحكم في وضع الأسنان

إن الأنياب تكون حادة وكبيرة في الحيوانات آكلة اللحوم حتى يسهل عليها تمزيق فرائسها كما نشاهده في الكلب مثلاً.

أما في الحيوانات التي تأكل الخضر كالأرانب والخيل فإنها تكون ضعيفة أو معدومة، كل ذلك على هذه القاعدة، فالطفل لما لم يتح له طعام يستحق الطحن لم يعط الطواحن، ولما كبر وأعوزه الطحن أعطي الطواحن وأخذت منه أسنان اللبن وأعطي غيرها أقوى منها، فهكذا نجد الحيوان الذي يأكل اللحم قد أعطي ناباً قوياً حاداً لأنه في حاجة إليه يمزق به اللحم كما أعطي الطفل لما كبر طواحن ليطحن بها ما يأكله.

أما آكلات الخضر فقد أعطيت أنياباً ضعيفة أو منعتها لأنها لتمزيق اللحم، وأين اللحم هنا؟ فهي كالطفل في أول حياته لما لم يعط إلا أسنان اللبن، وعلى هذه القاعدة قد تكون الأنياب في ذكور بعض الحيوانات آكلة الخضر كبيرة ومدببة، لأنه يستعملها كعضو للدفاع والهجوم في المقاتلة، فهذه الذكور لم تعط ذلك جزافاً، فهي لها سلاح.

أنواع الأسنان



(شكل ٤٠ الفكان) الفك الأسفل الفك الأعلى



(شكل ٤١ أسنان الأرنب)



(شكل ٤٢ أسنان الغنم)



(شكل ٤٣ أسنان الهرة)

إن أسنان الحيوان تختلف اختلافاً بيناً كما اختلفت أسنان الصبي وأسنان الكبير، فإننا نرى أسنان الهرة شكل (٤٣) تختلف عن أسنان الغنم في شكل (٤٢) وعن أسنان الأرانب في شكل (٤١).

فائدة طبية في الأسنان

قد تقدم في هذا المقال أن التاج وهو الجزء الظاهر فوق عظم الفك مغطى بالمينا، وهذه المينا شفافة وأكثر صلابة من العاج تحتها، وفي وسط السن كما هو مشاهد في الرسم موضحاً خلاء، وذلك فيه تمتد الشرايين والأوردة لتغذية السن كما أوضحناه، وتمتد الأعصاب ليكون الحس وليكون العمل بنتائج ذلك الحس.

فإذا فسدت المينا المغطية للعاج فما أسرع أن يحصل في العاج الذي تحتها ثقب، وهذا الثقب مفسد للسن، ويشتد الفساد إذا وصل ذلك الثقب إلى ذلك الخلاء الذي فيه الشرايين والأوردة والأعصاب، فهنالك يحصل الألم وربما يزداد زيادة لا تطاق.

بهجة الحكمة ونظام الجمال والعلم في الأسنان

اللهم إنا نحمدك على إنعامك، ونشكرك على إحسانك، إن الإحسان خاص عند الجهلاء بالطعام والشراب والزينة والعظمة والصيت والملك، كلا ثم كلا. إن الإحسان أحسنه وأشرفه ما كان زينة وكمالاً وجمالاً للنفوس، ما أجهل أكثر نوع الإنسان.

منذ نحو سنة ونصف كنت في ناحية «المطرية» من ضواحي القاهرة، وكان معي هذا الكتاب الإنجليزي، وعثرت بالمصادفة على هذه الصور التي صورت فيها الأسنان، فأدهشني ما تقدم من أن في وسط السن الأوردة والشرايين والأعصاب ممتدة في وسط السن، فما كدت وأنا تحت الأشجار الوارفات الظلال أرى هذه المظاهر حتى طويت الكتاب وأخذت أفكر وأقول: من ذا يظن أن في السن شرايين وأوردة، أفي السن دم؟ أفيها إحساس؟.

عجباً! إذن هي كالجسم الذي نعيش فيه، فيها الدم الشرياني والوريدي. هاهي ذه الدورة الدموية العجيبة، هاهو ذا القلب العجيب المنظم، القلب الذي يقول عنه القدماء: إن مثله مثل الدماغ فكل منهما قد وضع في حصن حصين لحفظه، وهاك وصفه من القزويني أيضاً:

(١) القلب لحمه قوي لئلا ينفعل بالمؤذيات.

(٢) أعلاه غليظ لأنه منبت الشرايين.

(٣) أسفله مستدق ليبعد عن عظام الصدر من جهاته، وله غلاف يقيه ويسمى الشغاف.

(٤) قد وضع في وسط البدن ليكون أبعد المواضع من الخارج، قد وضع في حرزين: الأول: الرئة. الثاني: القفص الذي هو كالتنور، وقد بني حواليه وحوالي الرئة، وهذا التنور مبني من عظام الصدر والأضلاع وفقار الظهر، وجعل هذا الحصن متجافياً عنه، بينه وبين القلب فضاء ليفيد الوقاية من غير مماسة وملاقاة، فإن الحصن صلب، والقلب والرئة لينان متحركان حركة انقباض وانبساط، فحفظهما الحصن من الآفات والحر والبرد والمصادمات، وبقيت الحرارة الغريزية محفوظة وسيأتي قريباً.

هذا وضع القلب، حفظ القلب أبعد عن المصادمات، أحيط بهذا الصندوق العجيب المكون من عظام متينة. لمَ هذه المحافظة؟ ليقوم بعمله بعيداً عن المؤثرات، وما هذا العمل؟ هو أنه يغذي الجسم كله حتى يصل إلى الأسنان، تلك الأسنان التي كلامنا فيها، تلك الأسنان التي وصل إليها الدم من هذا القلب المحفوظ المكنون، هنا قلب قد حفظ في الصندوق، وهنا مخ قد حفظ في الجمجمة، كلاهما أحيط بعظام، وكلاهما ابتعد عنها لئلا تؤذيه، فالدماغ أحيط بغشاءين: أحدهما يليه وهو لطيف، وثانيهما حفاظ يلي الجمجمة.

إذن المخ والقلب أعطيا عناية خاصة لحفظهما، لماذا؟ لتبقى القوى الناقلة محفوظة في المخ، فإن رسوم المسموعات والمبصرات والمشمومات والمذوقات وجميع العواطف من فرح وحزن وغضب وجوع وعطش لها مواضع في المخ، فإن الأعصاب المنتشرة في الجلد وفي الحواس الخمس ممتدة إلى المخ وموضوعة في مواضعها المنظمة العجيبة، اقرأ هذا في آية: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١] فهناك تراها مشروحة مرسومة فلا نعيدها هنا.

فهناك ترى مراكز السمع والبصر والشم وراء موضع اللمس، وهذا الأخير أمامها عند شق «رولندو» في نحو وسط الرأس، وعلى الجانب الآخر من الشق مراكز أعصاب الحركة، بحيث نرى عصب الحس لأي عضو من أعضاء الجسم من قدم وساق وفخذ وحقو وبطن وصدر ورقبة ووجه في

مقابلة عصبه المحرك، فهاهنا مراكز لحاسة اللمس قد غرست فيها تلك الأعصاب، وأمامها مراكز نظائرها للتحريك على نظام متين وصراط مستقيم.

وفي الدماغ ثلاثة مراكز قد جعلت بهيئة مجالس نظامية تحكم بين هذه المحسوسات المختلفة، فهي منظمات لأنواع الصور الحاصلة من الإحساس بالمحسوسات المختلفة، والتفصيل واضح هناك.

من هذا المخ يمتد النخاع الشوكي، ذلك النخاع الذي تقيه وتحفظه الفقرات الظهرية التي تعد كأنها نهر امتدت منه خلجان من جانبيه، فهذا لسقي الأرض، وهذا لإظهار الإحساس كما شرحناه سابقاً، وأصل ذلك كله المخ، فمنه تنتشر الأعصاب وتصل إلى ظواهر البشرة ليتقي الحي الخطر إذا أصابه. ومن ذلك هذه الأسنان التي كلامنا فيها، فإليها تمتد أعصاب، لماذا؟ لأننا ذكرنا أن «المينا» التي غشي بها تاج السن إذا فسدت فإنه يحصل فيه ثقب، وهذا الثقب إذا امتد إلى الخلاء الذي فيه الأعصاب حصل ألم لا يطاق. ولماذا هذا الألم؟ ليحافظ الإنسان على أسنانه ويداويها، ولمن هذا الفضل؟ إن الفضل كل الفضل للمخ، ذلك الذي أرسل رسولاً من لدنه إلى السن فأعطاها الخبر، وكيف يكون الخبر؟ لا يكون بكلام ولا بكتابة، وإنّما يكون بآلام، تلك الآلام التي هي الكلام الحقيقي فالألم في السن هنا كلمات من كلمات الله التي قال فيها: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وهذه أعجب كلمات الله، وهي كلمات ليست بحرف ولا صوت، ولكن ليست كلامه القديم كلا بل هذه مخلوقات، وكلامه غير مخلوق، فالكلام هنا وضع إلهي به أنقذنا من هلاك أسناننا ومرض أجسامنا، فهو في أجسامنا أشبه بالقبض والبسط وتأنيب الضمير ووخزه في نفوسنا، إن الفجرة والظلمة والمجرمين من النوع الإنساني، كل هؤلاء يحسون بآلام لا تطاق في نفوسهم روحية أشد فتكا من الآلام الجسمية التي نحس بها في أضراسنا إذا فسدت لإهمالنا في ميناها التي إذا فسدت تفسد ما وراءها من العاج الذي صور منه التاج، فوصل الفساد إلى العصب الممتد إلى المخ فأحس الإنسان به، فلولا أن المخ محفوظ ولولا وصول العصب إلى السن ما أدركناه ولا اجتهدنا في مداواته، هكذا لولا القلب وشرايينه وأوردته ما عاشت هذه الأجسام.

والشرايين والأوردة تقدم الكلام في مواضع كثيرة من التفسير عليهما في الدورة الدموية، فبعضها في سورة «فاطر» وبعضها في سورة أخرى.

الدورة الدموية

ولكن لا بد من قول وجيز هنا في الدورة الدموية، كما قلنا في أنواع الحس في المخ، لتعرف أصل النعمة التي بها غذيت الأسنان، وكيف كانت هذه الفكرة وأنا تحت الأشجار أتفيأ ظلالها في جهة المطرية، وقد كانت سببا في انتقال المفكرة إلى العوالم الخارجية، وأنها ذات ارتباط بمبدأ الوجود كارتباط السن بالقلب بواسطة الدورة الدموية.

إن من ينظر إلى هيئة الدورة الدموية في الصور الشمسية يدهشه أن اللون الأحمر الممثل للدم الشرياني واللون الأسود الممثل للدم الوريدي قد اقتسما الدم كله، فكان نصفه للأحمر، ونصفه

للأسود، وبعبارة أخرى: إنهما كالليل والنهار بالنسبة للكرة الأرضية، والأرض نصفها مضيء، ونصفها مظلم دائماً، هكذا الدم دائماً نصفه دم وريدي ونصفه دم شرياني، وكما أن الوريدي ينقلب شريانياً وبالعكس، هكذا بالتدريج جهات الأرض يتناوبها الظلمات والأنوار تباعاً.

يأتي الدم الوريدي من جميع الجسم ويجتمع في وريدين أجوفين، وهذان الوريدان الأجوفان يصبان في الأذين الأيمن للقلب، لأن القلب فيه أربع حجرات: حجرتان صغيرتان فوق حجرتين كبيرتين وكل حجرة عليا تسمى «أذيناً» تصغير أذن، وكل حجرة كبرى تسمى «بطيناً» تصغير بطن، فهذا الدم الوريدي الذي وصل إلى الوريدين الأجوفين قد صب منهما معاً في الأذين الأيمن للقلب، وهذا الأذين الأيمن متى امتلأ بالدم ينذفع منه الدم إلى البطين الأيمن الذي هو تحته، وهذا البطين يندفع منه الدم في الشريان الرئوي ويصبه في الرئة، وذلك أن له فرعين شريانين كل فرع منهما يصب في الرئة المقابلة له، وفيه الدم الذي ليس نقياً ليصلح فيهما، ومتى أخذ الدم قسطه من الأكسوجين الداخل من الحنجرة وحمل الهواء الجوي المادة الفحمية وأعطى الدم بدلها الأكسوجين، فإن الدم إذ ذاك يخرج في أربعة أوردة رئوية صغيرة تعيد الدم الذي تم إصلاحه إلى الأذين الأيسر، وهذه سميت أوردة وإن كانت تحمل دماً شريانياً، كما أن ما قبلها يسمى شريانياً وإن كان يحمل دماً وريدياً. ومن الأذين الأيمن ينزل الدم إلى البطين الأيمن بواسطة فتحة بينهما، وهذه الفتحة التي في البطين الأيمن ونظيرتها في البطين الأيسر يحرسهما صمامان مكونان من شرافات غشائية وترية متينة تسمح للدم بالمرور بسهولة من الأذين إلى البطين الذي تحته، ومتى امتلأ البطين بالدم تطفو الشرافات على سطح الدم فتسد الفتحة التي بين الأذين والبطين، وعندما يزداد الضغط على الشرافات من أسفل تسد الفتحة سداً محكماً، وبذلك لا يمكن الدم الرجوع إلى الأذين ولا يجد أمامه منفذاً يخرج منه إلا عن طريق الشريان الخارج من البطين، وبين البطين الأيمن والأذين الأيمن ثلاث شرافات، ولكنهما بين الأذين والبطين الأيسرين اثنان فقط.

أقول: لعل السبب في ذلك أن دم الأيمن وريدي فيه مادة فحمية، ودم الأيسر شرياني فهو أخف ويخرج الدم من البطين الأيسر إلى الأورطة ويسمى «الأبهر»، فهذا شريان يحمل الدم النقي من القلب ليوزعه في الجسم أعلاه وأسفله متفرعاً فيهما.

ومن أبدع الحكم أن هناك في فوهة كل شريان من الشرايين الآخذين الدم من البطينين، وهما الشريان الرئوي والأورطة أو الأبهر، صماماً غشائياً مركباً من ثلاث شرافات هلالية الشكل.

ما هذه الشرافات؟ إنها جيوب، وتلك الجيوب يسهل مرور الدم منها إلى الشريان، فإذا حاول الرجوع تكون تلك الجيوب قد امتلأت وتقاربت حوافها، فتسد فوهة الشريان وتمنع بذلك رجوع الدم إلى البطين، وتسمى هذه الصمامات بالصمامات الهلالية.

هاهنا جرى الدم في الجسم أعلاه وأسفله، هنالك تتفرع الشرايين إلى فروع أصغر وأصغر، هذه هي الشعيرات الدموية، وقطر الشعيرات يماثل قطر الكرة الحمراء تقريباً، وهذا هو المقصود من الدم، فهناك يأخذ كل عضو حظه من الغذاء الذي يحمله الدم ويعطيه بدله ما لديه من المواد التي فسدت،

فيرجع الدم وهو وريدي لا يصلح للتغذية وتتلقاه أوعية شعرية وريدية دقيقة جداً، ثم تعظم شيئاً فشيئاً حتى تجتمع كلها في وريدين اثنين أجوفين يرجعان الدم الوريدي إلى الأذين الأيمن كما تقدم، فكل وريد منهما يحمل الدم الآتي من ناحية الجسم، هذا من أعلاه، وهذا من أسفله، فأحدهما يسمى الوريد الأجوف العلوي، وثانيهما يسمى الوريد الأجوف السفلي.

ومن أعجب العجب أن الأوردة لا سيما تلك التي في الأطراف تكون لها صمامات هلالية كالتي تقدم وصفها في البطينين المتقدمين، فهذه الصمامات تفعل مع الدم الوريدي السائر إلى القلب ما فعلته الصمامات المتقدمة، فهي تمنع رجوع الدم الوريدي إلى الشعيرات الرئوية.

ولتعلم أيها الذكي أن دقات القلب نوعان اثنان: نوع خافت، ونوع عال، فالدقة الخافتة هي التي تحصل عند انقباض الأذينين ونزول الدم إلى البطينين، والدقة العالية تكون عند انقباض البطينين وخروج الدم إلى الشريانين.

هذه هي الدورة الدموية موضحة مفصلة تفصيلاً منضماً إلى ما كتبناه في مواضع أخرى من أصل التفسير، ولماذا هذا التفصيل هنا؟ لنفهم أمراً واحداً، وهي الدورة الدموية في الأسنان التي كلامنا فيها، فهذه الأسنان يدخلها دم شرياني ويخرج منها دم وريدي. هذا هو المقصود من شرح الدورة الدموية كلها. الله أكبر. الله أكبر.

أطلنا الكلام، فصلنا المقام، لماذا فصلناه مع أنه تكرار وتكرار، كلا ليس تكراراً، كلا ليس تكراراً. إن أصاغر الأمور لا تعرف إلا بقياسها على أعاظمها، أليست السماوات والأرض والظلمات والأنوار أسهل من درس جسم الإنسان المذكور بعدها كسهولة دراسة الدورة الدموية، وأنها أسهل من دراسة نفس الدورة في الأسنان، هذه من حكم ذكر خلق الإنسان بعد خلق السماوات والأرض، أتعرف أخلاق الإنسان إلا بعد دراسة أخلاق الأمة كما فعله «سقراط» وبنى عليه جمهوريته كلها، أيعرف جسم الإنسان بهيئة أتم إلا بعد دراسة العوالم كلها.

الله أكبر، هكذا هنا لا نقدر أن نفهم الأوردة والشرايين في الأسنان ونظامها إلا بعد دراسة الدورة الدموية كلها في الإنسان، دورة دموية صغيرة، أتعقل هذه إلا بعد معرفة الدورة الكبيرة.

دهشتي من هذا النظام والإبداع

(١) انتقال خيالي تحت أشجار المطرية وأنا أنظر في نظام السن إلى نظام العالم كله.

(٢) انتقال خيالي من غناء العصفور تحت الشجرة إلى تجرد الروح بعد الموت وهي في الظلمات والنور.

(٣) التعجب من وضع القلب في الصدر.

(٤) ازدياد الدهشة من الصمامات الهلالية التي في الشريانين عند خروجهما من البطينين والتي في الأوردة.

رباه، جمال بارع نراه في هذه الحياة، إبداع وسعادة وجمال وكمال. رباه، إن في عبادك في أرضنا هذه وأمثالها من العوالم المتأخرة من اصطفيتهم للاطلاع على آثارك والابتهاج بأنوارك، أما

أكثر نوع الإنسان في أمثال أرضنا فإنهم غافلون جد غافلين يسخرون من أولئك المفكرين، وهؤلاء المفكرون ينظرون إليهم نظر رحمة وإشفاق كما ينظرون إلى أطفالهم.

رباه، هذه الصمامات الهلالية التي نراها في الشرايين وفي الأوردة يقرؤها علماء التشريح، ويدرسها الأطباء وغير الأطباء، ولكن أكثرهم عن السعادة بهذا النظام محجوبون، فأكثرهم كالفلاحين يعملون في الزرع، يسقونه وهم لا يدرون شيئاً من أسراره، مع أنهم يشاهدون نموه وأوراقه ويقدرون على وصفها، ولكنهم محجوبون عن الاستلذاذ بجمال تركيبها، بل علماء الزراعة أكثرهم مع علمهم بتشريح النبات لا تبتهج نفوسهم بجمال تركيبه، ذلك لأن أكثر نوع الإنسان أقرب إلى نقص الأنفس التي هي نور فائض من المقام الأقدس، فهي لا تزال في دور الطفولة، والأطفال لا يعقلون لذة النساء والبنين والممالك، إنّما يعقلون ما تطلبه نفوسهم من لذة الأطعمة واللعب.

هكذا أكثر نوع المتعلمين يشاهدون تركيب المركبات من نبات وحيوان، ونفوسهم لا تبتهج بذلك ابتهاج الخاصة من عبادك المفكرين، فهذه الطائفة المصطفاة إذا رأت الدورة الدموية ترى أن في الصمامات الهلالية أمراً عجباً، وهكذا في الصمامات التي بين كل أذين وبطين في القلب، فهم يشهدون ذلك حالاً فتنتقل نفوسهم إلى الابتهاج والاستلذاذ الروحي، وتقول: ما هذا الإبداع؟ جيوب يسهل مرور الدم فيها، وهذه الجيوب حين مرور الدم وانتقاله من البطين إلى الشريان أو من الأوردة إلى الشرايين تملأ دماً، وهذا الامتلاء يمنع رجوع الدم ثانياً، فلا يرجع الدم من الشريان إلى البطين، ولا من الوريد إلى الشريان، ولا من البطين إلى الأذين الذي هو أعلى منه.

إن هذا العمل يشبه ما نشاهد نحن في النواعير والسواقي التي في أرضنا، فإن هناك خشبة موضوعة وضعاً محكماً، فهي تبيح للساقية أن تجري، وتمر ضروس العلبة الصغيرة، ولكن إذا وقفت الدابة وأرادت الساقية أن ترتد إلى الخلف بحسب طبعها منعتها تلك الخشبة، ولكن هذه الخشبة التي يصنعها النجار غليظة، فأما هذه التي جعلت موانع للدم عن الرجوع فهي لطيفة جداً مرنة.

إن هذه الصمامات الهلالية التي في الأوردة حتماً تكون في الأسنان التي كلامنا فيها، فهناك دم شرياني، وهناك دم وريدي، وهناك صمامات تمنع الدم الوريدي أن يرجع إلى الدم الشرياني، وهذه الصمامات في الأسنان تعطينا أولاً الإبداع في النظام من حيث استخدام القوى الطبيعية في المنافع الإنسانية والحيوانية. جلّ الله، جلّ الله، وما أبدع العلم في طبائع الجيوب الهلالية أن يسهل جري الدم منها وألا يرجع إليها بعد خروجه.

فهذه الخاصة اختيرت هنا لتحصيل منافعها، إن تنوع المادة لا حد له، وأشكالها لا يمكن حصرها، فاختيار هذا النوع من الأشكال، وهي هذه الجيوب أمر مدهش، وكيف لا يكون مدهشاً وهو الشكل الوحيد الذي به تعيش أبداننا وتحفظ من الهلاك، ومثل هذا يقال في هيئة المخ ووضعه في الجمجمة، إذ اختير ذلك الوضع الخاص الذي يجعله محفوظاً من المؤذيات بما حوله من عظام الجمجمة التي وجب أن تكون قوية متينة لأجل ذلك، ولكنها هي أنفسها يخاف على الدماغ منها فأبعد المخ عنها، وجعل بينهما الأم الجافية والأم الرقيقة فيبتعد الضرر عنه.

ومثل ما قلنا في وضع المخ نقول في وضع القلب المتقدم، فهو في صندوق متين يعطيه الدفء ولا يعرضه للأذى، ولكنه هو والرئة موضوعان في مكان يبتعد عن الصندوق فلا يمسه بضرر.

فهذا معنى كون صانع الكون حكيماً، فنقول: الله حكيم، وهذه الحكمة من نتائجها بقاء حياتنا فهو بهذا رحيم بنا فالحكمة صاحبتها الرحمة والرأفة، وهذا معنى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، إن الرحمة من غير العالم قد تضر، ولكنها من العليم نافعة، لأن العليم لا يفعل إلا للمصلحة، وأكثر رحمات الناس لا سيما الأمهات قد تورث الضرر، وهذا معنى آية: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر: ٧]، فالرحمة المصحوبة بالعلم رحمة تامة، وما لا علم معها رحمة ناقصة، فالرحمة بالدورة الدموية ببقاء حياتنا لولا الحكمة والعلم لم تتم، فبالعلم اصطفى الشكل الهلالي وتلك الجيوب التي تقبل الدم ومتى مر فيها لا ترجعه ثانياً، ولو رجع لامتنعت الحياة ولم تكن هناك رحمة ولا رأفة.

إذن بأمثال هذا نفهم معنى الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار فإنه لولا إخضاع المادة وطاعتها وقهرها وجبرها لم تتم هذه النعمة. «المتكبر» فهو متكبر يفعل أفعالاً في أجسامنا وفيما حولنا ولا يخبرنا بأسراره، وتحصل لنا الآلام من الأضراس ولا نعلم لمَ ذلك؟ فهو متكبر يتعالى أن يفهمنا السر لأننا لسنا أهلاً له، ولكنه يفعل بالحكمة لا غير، ونتيجة الحكمة والسعادة العامة الخالق البارئ المصور القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع إلى آخر الأسماء، فهذه كلها تنطبق على أمثال هذه الدورة الدموية، فكل اسم من الأسماء ناحية من نواحي المعنى، مثلاً هو بهذه الصمامات الهلالية حكيم من جهة اختيارها، رحيم من جهة انتفاع العباد بها، حكم عدل من حيث وضع الأشياء في مواضعها، لطيف من حيث إنه تلطف في صنعه، وجعل الهيئة موافقة للنتائج النافعة كما يتلطف الإنسان في زمن التعليم والتربية الخ. خبير لأن هذه دقائق الأشياء، حفيظ فهذا العمل به حفظ المخلوق، مقيت وهذا ظاهر، محصٍ فهو الذي أحصى كل شيء عدداً، ومن ذلك أنه يعلم الأشكال، واصطفى منها الشكل الذي لا ينفع سواه هنا في الدورة الدموية إلى آخره.

بهجة العلم في نفس الأسنان

ظواهر الأسنان أنها لا شيء في داخلها من الدم الوريدي والدم الشرياني والصمامات الهلالية التي تنطبق عليها أسماء الله المتقدمة وغيرها، ولا من الأعصاب الواردة في المخ للإحساس بما يؤذي الأسنان، مثل ما ذكرنا من أن المينا إذا فسدت يحصل فساد في التاج، ومتى وصل إلى الأعصاب أخذت تخبر المخ، وهذا الإخبار لا سبيل إليه إلا بحصول الآلام التي جعلها الله لنا واسطة بها نعرف أمراضنا فنداويها، ولولا هذه النعمة وهي الآلام لم نستيقظ لفساد أسناننا، فتفسد ونحن لا نشعر بشيء.

ربي يكاد قلبي يطير من بين جنبي، رب احفظ علي قلبي، ربي إنك رحيم رحيم، ربي قلبي يكاد يفارقني من الدهشة والبهجة والتعجب، أنت من أسمائك الضار، ومن أسمائك النافع. يا رب حار فكري في العلم وفي الأسماء، أهذه الآلام في أضراسنا ضر؟ أنسميك ضاراً لأنك تؤلم أسناننا؟

كلا والله لست ضاراً، كلا والله لست ضاراً، كلا بل أنت نافع، أي أنك نافع لنا بهذا الضر، أأنت يا رب خافض لنا بهذه الآلام، أهذا انخفاض يا رب، كيف وأنت لم تجعل هذه الآلام إلا لرفعتنا، فأنت إذن بالخفض والرفع ترفعنا، يا عجبي، يا حيرتي، آلام الأضراس جعلت لمنفعتنا، ولو لم تكن تلك الآلام لكانت حياتنا ضائعة. وما هي الآلام؟ إن هي إلا وصول خبر حال النقص الذي يكون في أجسامنا إلى مركز إحساسنا فنحس بذلك النقص، ولولا الأعصاب الممتدة في السن لم يعرف المخ شيئاً، وبعبارة أخرى: متى تعطلت الأعصاب ولم تبلغ أخبار ما يحصل في أجسامنا كان ذلك حالاً تشبه الموت: وهو الشلل، فالناس إذا لم يحسوا بألم، فإن حياتهم تكون أقرب إلى الموت، فإذا جاء امرؤ وكسر أسناننا وقطع أرجلنا، فإننا إذ ذاك لا نألم، وهل هذه حياة؟.

رباه هذه بعض حكمك في صنع الأسنان في كل حيوان.

انتقال خاطري من الأسنان وأجسامنا إلى هذه العوالم كلها وصانعها

رباه تبارك اسمك وتعالى جدك، إنني وأنا تحت أشجار المطرية بضواحي القاهرة لما نظرت صورة الأسنان وعجائبها بهيئة إجمالية انطلق الفكر حالاً إلى العوالم كلها، وأخذت أقول: إذا كان مخي وقلبي قد عمما جسمي بالإحساس وبالأغذية، وبعبارة أخرى بالحياة العقلية بالأول، والحياة الجسمية بالثاني، لم يأنفا أن يرسلا من لدنهما رسلاً للأسنان التي لا يظن أن فيها خبراً عن القلب ولا عن المخ، فكل ذرة في الأرض وفي السماء لا بقاء لها إلا بوصول آثار حكمة عليا، وإبداع إلهي.

وبعبارة أخرى: إن وصول علم مخنا إلى الأسنان يذكرنا بوصول الحكمة الإلهية، والإتقان في الصنع إلى كل صغير وكبير في مشارق الأرض ومغاربها، وفي كل كوكب سيار وثابت، بحيث لا يكون بقاء لذرة ما، ما لم يكن لها نصيب من علم وحكمة.

أليس هذا هو قوله تعالى في تفسير هذه الآيات ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

بيان أن ما قلناه هنا مبني على نظام الآيات في أول «الأنعام»

الله يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، ولهذا شرحت فيما تقدم سيري في دراسة السماوات، واطلاعي على علوم القدماء والمحدثين في علم الفلك، ثم الانتقال إلى ما وراء ذلك من عوالم الظلمات، وكيف كان ذلك لأجل أن أعرف جواب سؤال الفلاح في قريتنا، وكيف انتهى الأمر بقول اينشتين: إن الفضاء لا بد من دراسته وإنه يجب الاهتمام به، وإنه أي الفضاء جسم صلب، أي لا كالأجسام الصلبة، بل ذلك أمر مجازي.

ثم انتقلت إلى نظام الأجسام تبعا للآية لأن الله يقول بعد آية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢]. بسطت الكلام على المخ فوق ما كتبته فيه في أصل التفسير، وعلى الفقرات وعلى الأسنان وعلى القلب وعلى دورته الدموية، وهذه الدورة جعلت مقدمة لفهم نفس الأسنان وتغذيتها وإحساسها.

ثم انتقلنا من ذلك إلى أن جميع العوالم وذراتها يعلم الله مستقرها ومستودعها، وقد ضرب لنا مثلا بما نعرف من أنفسنا، وهي أضراسنا مثلا، وبيان أن الضر لم يقصد بل هو مقدمة للنفع وإن لم

يعرف الناس، فمعنى كون الله ضاراً ليس لقصد الضر، بل لقصد النفع بحسب النتيجة، فالضر ليس ضراً، بل هو نفع، وعلى ذلك يقاس موتنا وكل ما به نؤذى.

بيان أن ذلك ليس خارجاً عن تفسير الآية بل هو متمم له

فقال صاحبي: هل المسلمون مكلفون أن يعرفوا ما وراء العالم؟ وهل هذا من دين الإسلام؟ إن هذا مغالاة في الدين، وهل نحن واجب علينا أن نقرأ كلام اينشتين حتى نعرف إن حقاً وإن باطلاً: إن الفضاء جسم صلب، وهذه أشياء خارجة عن العقول. فقلت: أيها الأخ:

أولاً: إن الله يقول في المسلمين: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[البقرة: ١٤٣]، ويقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠].

ثانياً: إن أول السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الأنعام: ١].

فيا عجباً أي أمة هذه التي يصفها رب العزة بأنها خير أمة أخرجت للناس، وهي أجهل الأمم بما عند الناس، فهل هؤلاء الجهلاء من أمم الإسلام، هم الذين يقول الله فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، ما هذه الخيرية، أي خير في الجهل، أفهؤلاء الذين هم خير أمة أخرجت للناس هم الذين يحمدون الله على نعم السماوات والأرض وعلى خلق أنفسهم، وهم يجهلون خلق السماوات والأرض وخلق أنفسهم؟ لا حمد إلا على نعمة، والنعمة التي لا يعلمها المنعم عليه لا يفرح بالمنعم ولا يحبه لأجل تلك النعمة، والفرح بالمنعم وحبه لا بد منهما لانطلاق اللسان بالحمد والجوارح للطاعة.

والحمد لله الذي لم يتقدمه علم بالمحمود عليه الذي يترتب عليه حب المنعم يكون حمداً لفظياً لا غير، والحمد اللفظي لا قيمة له، نعم للعبادة شأنها في كل دين، ولكن نحن الآن في مقام العلم، ومتى انتفى العلم بدقائق النعمة لم يكن حب للحامد، فلم يكن حمد، كيف ونحن كما في الآثار نسمى الحمادين، ويقول الله فينا: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[يونس: ١٠].

إن هذه الأمة التي وصفها الله بأن آخر دعواهم الحمد لله رب العالمين هي الأمة الإسلامية الآتية بعدنا، التي ستكون عقولهم كعقول العصور الأولى، وهي خير العصور، أيام النبوة وبعدها، وهم الذين يحمدون الله على تربيته للعالمين، ومثل هذا الذي نذكره هو باب فتح لهم، هذا هو الحمد، وهذا وقته وقد آن أوانه، وهذه أعلى مرتبة، وهي مرتبة انكشاف الحقائق، وعشق الجمال الباهر، ثم حب الله وخدمة عباده حباً فيه وفيهم.

فأمة شأنها أن تكون شهيدة على الناس؛ عليها أن تزن جميع أقوال علماء الأمم، وتحكم فيها بعد درسها، وهي التي تقوم الأخلاق وتقوم العقول، وإذا كانت تحمد الله على الظلمات وعلى النور وهي لم تدرس ظلمات ولا نوراً، فأين الحمد إذن؟ أعلى أمور لفظية؟ نحن الآن في مقام الكلام على العلماء، أما العامة فندعهم لأنهم تكفيهم العبادة، فهي لهم كافية، فقال: هذا حسن، ولكن إلى الآن لم أسمع منك مقالاً شافياً في أمرين:

الأول: لمَ كانت آية: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ ﴾[الأنعام: ٣] مرتبة بعد الآيتين السابقتين، أنت أشرت لهذا، ولكن لم أفهم هذا السر فهماً جيداً.

الأمر الثاني: أنك قلت إنك وأنت في الحديقة المصرية عند نهر الميل بجوار القاهرة؛ سمعت العصفور المغني، فتخيلت أن روحك خرجت من جسمك، وأن العالم كله ظلمات، وأنواره كرة واحدة ذات جمال وبهجة، وقد شملته كله، أهذا قول تذكره في تفسير القرآن، وهل هذا الخيال يصح أن يكتب في التفسير، وهو خيال فيما أظن ليس من العلم في شيء.

إيضاح الكلام على وضع آية:

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾[الأنعام: ٣] الخ

وعلى خيالي في بهجة العالم عند سماع العصفور المغني

فقلت أيها الأخ: يسرني والله أن تذكرني ببعض ما أقوله، فإن مثل هذه الكلمات قد يمر بها الإنسان وقت الكتابة وهو لا يعبأ بها، ولكن العقلاء في الكرة الأرضية يرون مثل هذا نقصاً في العلم، فأما آية: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ ﴾[الأنعام: ٣] وجعلها تابعة لما قبلها؛ فأمرها واضح فيما تقدم، وبيانه أننا قدمنا أن فهم الدورة الدموية مقدمة لفهم دورتها في الأسنان، وأن فهم السماوات والأرض مقدمة لفهم جسم الإنسان. فلذلك ذكر الثاني بعد الأول، لأننا نقدر أن نفهم وصول الضوء من الشمس بسهولة إلى الأرض.

ولكننا قط لا نفهم وصول الأعصاب من المخ إلى الأضراس إلا بعد دراسة طويلة، ثم إن وصول الغذاء من القلب والإحساس في المخ إلى الأسنان أشبه بضرب مثل لنا، فنقول: إذا كان مخنا وقلبنا يظهر آثارهما في الأسنان، فما أسهل أن نفهم كيف يعلم الله ما في السماوات وما في الأرض، وهذا من معنى آية: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١] بعد آية: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾[الذاريات: ٢٠].

وأما قصة العصفور المغني ودهشتي حين سماعها؛ فاسمع أيها الأخ.

غناء العصفور وآثاره في خيالي

سبحانك اللهم وبحمدك أنت الحكيم، أنت العليم، رباه أنت خلقت في الأرض أناساً لا يعرفون إلا الجمال، شغلتهم الحكمة ففرحوا بها وتاهوا في بيدائها، هم المصطفون الأخيار، يقرؤون ويدرسون، وماذا يدرسون؟ يدرسون الجمال ويصحب الجمال الحب، ولا جمال إلا حيث تكون الحكمة، لولا الحكمة والإبداع في خلق الوجوه ما عشقها العشاق، هكذا لولا الجمال الأعلى في هذا العالم ما ظهر في هذه الأرض أنبياء ولا حكماء، اعترفت بهذا الجمال على مقدار طاقتي، رأيته في وضع الصدور ونظام المخ وإبداع الصمامات الهلالية في الدورة الدموية، جمال وجمال، بهجة وأنس، وعلم وحكمة.

إن دقات القلب عند الحكيم قد تكون أشبه بنغمات الموسيقار، لأنه يسمع منها الحكمة والإبداع في الصمامات وغير الصمامات، فيسعد، والناس حوله لا يعلمون.

رياه بك يأنس العلماء، بجمال صنعك يفرح الحكماء، فإذا سمعوا أمثال العصفور المغني تختلس أرواحهم من أجسامهم غفلتها، وترجع إلى عالمها الذي جاءت منه، وما هي أرواحهم؟ هي من أمرك، أي: إنها من عوالم الأمر، فتنسى الدنيا وما فيها وترجع إلى عالمها، فماذا ترى؟ ترى ظلمات وأنواراً وسماوات وأرضين، وتراها كلها كهيئة جسم واحد من حيث النظام، ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[لقمان: ٢٨]، وتكون سعادتها على مقدار اتساع علمها، وإذا كانت سعادة الحكماء اليوم بجمال الإبداع في الدورة الدموية ونظام القلب ووضع المخ؛ فكم تكون السعادة والبهجة حين تكون كل ذرة في السماوات والأرض عند النفس كهيئة نظام القلب والمخ ونظام الصمامات الهلالية في الدورة الدموية، إذن تكون سعادة الروح في ذلك العالم بعد خروجها من الجسم فوق سعادتها الآن بآلاف الملايين، بل بما لا يتناهى، وهذه السعادة سعادة روحية، وهي أوسع من السعادة الجسمية بالجنة الحسية، ولعل هذه السعادة متوسطة بين سعادة الجنة الحسية، وسعادة النظر إلى وجه الله الكريم التي قيل فيها: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[ق: ٣٥].

فهؤلاء إذا طربوا بأي مطرب مهما كان ضئيلاً قد تنسل أرواحهم مؤقتاً من أجسامهم بحسب الخيال، وتطير إلى عالم السماوات والأرضين، وتقول: إن السعادة هناك فوق سعادة الحكمة الآن بما لا حد له، وليس هذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»؛ بل كلام النبوة محمول على شيء أرقى مما تخيلناه.

ومما نتخيله أن العلماء في عصرنا يقولون كما شرحنا في آية: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥] الخ: إن هذه العوالم كلها ما هي إلا حركات في الأثير، وهذه الحركات أنتجت أنواراً كهربائية سالبة وأخرى كهربائية موجبة، والسالبة تدور حول الموجبة في الثانية الواحدة ستة آلاف مليون مليون مرة، وبتنوع تلك الحركات تكون الأجسام، فلا أجسام في العالم، وإنما هي أنوار تكاثفت فرأيناها أجساماً، واختلافها باختلاف أنوارها كماً وكيفاً.

فهذه النفوس حينما يخطر لها ذلك عند سماع نغمات كنغمات العصفور المغني، أو أقل منها، أو أحسن منها، ترجع إلى هذه العوالم فتقول: إذن روحي سترى هذه الأنوار، وتسمع نغمات حركاتها، ونغماتها وحركاتها مختلفات كماً وكيفاً، وهكذا ألوان الأنوار لا حصر لها ولا لتنوعها، فماذا تكون حال أرواح المحبين للجمال في هذه الأرض إذا تركوها، ورأوا بأعين أخرى غير هذه الأعين أنواراً ونغمات لحركات المادة لا حصر لها، وفيها نظام أدق من نظام القلب والدماغ والدورة الدموية وصماماتها، هذا النظام الذي يطب حكماء أهل هذه الأرض، وبهذا الجمال يرتقون عن الجمال الذي لا يتعداه الشبان والشابات من نوع الإنسان، وهو جمال الوجوه والعيون.

فهذه الأرواح الحكيمة إذا فارقت الأرض وأدركت تلك الحكم في نفس الأنوار العالية وبدائع تنوعها ونغماتها؛ لا جرم ترى نظاماً أبدع من نظام الأجسام التي نراها بأعيننا الآن، لأن النظام الذي نراه هنا يستحيل أن يتم إلا إذا كانت الأنوار التي منها ركبت هذه الأجسام منتظمة تنظيماً أتم من نظام هذه الأجسام، ويتذكرون إذ ذاك نظام العناصر التي ركبت منها العوالم هذه، في سورة «العنكبوت»

مشروحة في جدول ابتدعه « منديليف » العالم الروسي، فإن العناصر هناك فيها نظام حسابي مدهش، ومعلوم أن العناصر ما هي إلا كيفية من كيفيات الأنوار التي كانت السبب في ظهورها.

فلا جرم تكون السعادة إذ ذاك لا حد لها، وليس هذا خارجاً عن التفسير أيها الأخ، ألم يقل الله: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١]، وهذا النظر في نفوسنا وفي خيالها، فإن كان الخيال له حظ من العلم قبلناه، وإن لم يكن له حظ من العلم فإننا نكون من المجاهدين إذا برهنا على بطلانه ونبذناه، وإذا كانت نفسي ترى العالم مشبهاً بالشجرة، والجمال بالعوالم يذكر به غناء العصفور، فليس في ذلك ضرر إذا لم يكن للعلم حظ فيه، والعلم أثبت بقدر الإمكان في زمننا جمال العوالم وبهجتها. فقال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

إن هذا الموضوع هو المناسب لآية: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[الأنعام: ١] إلى قوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾[الأنعام: ٣]. فقلت: الحمد لله رب العالمين.

اهـ ليلة السبت ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣٣م، ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٣٥٢هـ، الساعة ١١ ليلاً.

بهجة العلم في قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[الأنعام: ١]

سأل صاحبي أيضاً، فقال: بقي في النفس شيء من الكلام على الظلمات والنور، فأريد أن أقف على حقيقته، وذلك أنك نقلت عن اينشتين أنه يقول: إن الفضاء أصل والمادة فرع، فهذا قول غامض لست أفهمه، وغاية الأمر أني أتذكر أنك قلت في أصل التفسير في سورة « الصافات » عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الصافات: ٤-٥] الخ ما ملخصه أن معنى قول اينشتين: إن المادة جسم صلب، إن العلماء يقولون: إنه يريد بذلك أنها لو كانت مادة لكانت صلبة جداً فوق كل مادة في الوجود، وأنت أوضحت ذلك بأنهم مضطرون لذلك بما نشاهد نحن من أن الكواكب والمجرات والشموس والسدم والأرضين والأقمار متجاذبات متواصلات متسقات، وهذا التجاذب يستحيل أن يكون ما لم يكن الوسط الذي تتجاذب فيه تلك الأجرام العظيمة قادراً أن يتحمل ذلك الجذب.

وكيف تجذب الشمس الأرض إلا إذا كان ذلك الجذب قائماً بموجود بينهما، فالموجود الذي بينهما كأنه حبال، وهذه الحبال متانتها يجب أن تكون من القوة بحيث تحتمل كل جذب يمر بها، فهي مجذوبة للشمس جاذبة للقمر ولما حولها، والشمس مجذوبة لعوالم أخرى وهكذا، بل المجرة كلها متجاذبة، فلولا أن هذا الجو قوي متين ما تحمل تلك القوى المبينة فيه، هذا ملخص ما حللت به أنت كلام العلماء في عصرنا الحاضر، ولكن أنا الآن أريد منك أن تبين لي معنى قول اينشتين: إن الفضاء أصل والمادة فرع عنها، كيف يكون ذلك؟ وبعبارة أخرى: كيف يتصور ذلك العلماء في زمننا؟ إن عقولنا لا تقبل القضايا ما لم تتصور هيئة حصولها، أما البراهين فأمر آخر، فأرجو تبيان إمكان تصور هذه القضية الآن.

فقلت: نعم. معنى قولهم: إن الفضاء أصل والمادة فرع؛ ما يأتي: ذلك أن النجوم في هذا الفضاء والمجرات وشموسها بالنسبة له قليلة جداً.

ومن المدهش إجماع العلماء على أمر واحد، وهو أن نفس مادة أجسامنا ومادة السماوات والأرضين والأقمار ليس فيها من المادة إلا جزء واحد من مائة مليون مليون جزء من ذلك الحجم المشاهد له، فالبرتقالة التي نأكلها ليس فيها من المادة إلا جزء واحد من مائة مليون مليون جزء من ذلك الحجم المشاهد. والباقي كله فضاء، فأجسامنا ليست شيئاً سوى الفضاء المنبث فيه ذرات من المادة، نسبتها إلى حجمه المشاهد كنسبة واحد إلى مائة مليون مليون كما أثبته «هنشو» في مجلة «هارير» الأمريكية، اقرأ هذا المقام في سورة «النور» آية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[الآية: ٣٥] تحت عنوان: قطرة ماء الخ.

ويقول علماء الفلك في مقادير أحجام الشموس بالنسبة للفضاء مثل هذا تقريباً، فالمجرات والشموس قليلة جداً بالنسبة لهذا الفضاء، ويقول علماء الطبيعة: إن الفضاء بين ذرة وذرة في أجسامنا لو أن هناك سكاناً على نسبة الذرات لم يتمكنوا من رؤية الذرات التي فوقهم إلا بالمجهر.

إذن الكون كله فضاء والمادة التي نحللها ونعتبرها كبيرة جداً ما هي إلا جزء من مائة مليون مليون جزء من الفضاء الذي تشغله، إذن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾[الأنعام: ١] يعوزه شرح وتفصيل، ليعرف الناس حقائق هذه الظلمات وهذه الأنوار بقدر طاقتهم، فهاهم أولاء إخوان الصفاء يثبتون بالبرهان المتقدم لهم أن الفضاء كله لا يخلو من ضوء وظلمة، واستنتجوا من ذلك أنه جوهر عظيم، وهذا الجوهر لا نهاية له، وهذا اينشتين يقول: إنه جسم صلب وهو أصل، والمادة فرع، هذا ما فهمته من كلام الأوائل والأواخر في هذا المقام أيها الأخ.

وفي آيتنا التي نحن بصددها ذكر أولاً الظلمات وثانياً النور، وذكر السماوات والأرض، وذكر خلقنا من الطين، ولقد خطر لي ما يأتي:

إن أجسامنا ودقة نظامها نموذج لنظام العالم كله ودقته، فتركيب أضلاعنا وقلوبنا والدورة الدموية المنظمة فينا، هذه كلها مكبر نظامها في الشموس والمجرات وهكذا، وهذه الشموس والأرضون الخ نظامها نموذج لنظام الفضاء، لأنه إذا قلنا: إن جميع أجسامنا ليست سوى جزء من مائة مليون مليون جزء من الفضاء الذي هي فيه؛ فحينئذ نقول: المادة أشبه بالعدم، والنظام الذي نراه في المادة كلها في الحقيقة إنّما هو للفضاء، لأن المادة أشبه بالعدم، بل هي أقل من نسبة عدد الخفراء للقرية بالنسبة للقرية، إن البلدة الواحدة التي فيها (٤٠٠) نفس لا يقل خفراؤها عن ثلاثة أو أربعة، ولكن هذا الفضاء والذي فيه ما نسميه مادة ليس فيه من المادة هذا المقدار، بل أقل وأقل آلاف المرات كما هو الظاهر فيما قدمناه.

إذن هذا النظام الذي نراه نظام للفضاء الذي سميناه مادة، إذن الظلمات والنور، أي: الفضاء الذي يعبر عنه بهما في داخل العالم وخارجه نظامه مدهش كنظام السماوات والأرضين، ونظام السماوات والأرضين مدهش كنظام أجسامنا الذي هو نموذج له، وهذا كله معلوم لله ظاهراً وباطناً معبر عنه بالآية الأخيرة: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾[الأنعام: ٣].

فذكر السماوات والأرض وذكر سرنا وجهرنا نموذج للفضاء الذي هو أوسع من مادة أجسامنا ومادة السماوات والأرض وما بينهما وما وراءهما.

إذن هذا الفضاء هو كل شيء، والمادة فيها أشبه بالمعدوم ونحن الآن كأننا في بحر لجي جميل بديع هو الفضاء، إذن الفضاء هو عالمنا الجميل، وهذا العالم هو الذي يعبر عنه المسلم في صلاته، فيقول: «ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد» «فملء السماوات وملء الأرض» وهو الفضاء، و«ملء ما يشاء من شيء بعدهما» هو الفضاء، فهذا الملء هو كل شيء، وهو الذي يحوي كل جمال وكمال.

فالجمال والكمال إذن لا حد لهما، هو جمال متصل لا أول له ولا آخر، ونظامه فوق ما نشاهد من نظام أجسامنا وكواكبنا.

إذن لا شيء في الوجود سوى جمال وبهاء وحسن، لا يحس به إلا أرواح هو مسكنها، وغاية الأمر أن هناك أرواحاً لا تعقل هذا الجمال فتوضع في أجسام حيوانية وإنسانية لتحس بالوجود، فإذا رجعت كرة أخرى أخذت تفهم من ذلك الفضاء وجماله على مقدار طاقتها، وهذا هو عالم البرزخ بعد خروج الأرواح، فلعل حياة النفوس الشريفة إذ ذاك أنها تشاهد جمالاً ونظاماً علمياً في نفس هذا الفضاء فوق نظام الأجسام والكواكب وتصبح في سعادة لا تشعر بها الآن، فإن سماع أصوات الأنوار الجارية المسرعة التي تدور في الثانية الواحدة ستة آلاف مليون مليون مرة في الأجسام، وأربعمائة مليون مليون مرة في الضوء إلى سبعمائة مليون مليون مرة فيه، ومشاهدة العين لذلك كله مع التنوع المدهش الذي لا حد له، وشعور النفس بتلك الصور وتلك النغمات التي لا يمكن أن تدركها إلا عيون وأسماع أخرى تخلق للأرواح هناك، ذلك كله يحدث للنفوس سكرة وبهجة تفوق وصف الواصفين، وهذا في البرزخ، أما الجنة فهي أمر وراء هذا كله لأنها وراء هذه العوالم كلها، فلعلها في عالم إلهي وراء هذه العوالم، وهاهنا يقف العقل عن تصورها، لأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ولا جرم أن ما ذكرناه الآن خطر على قلبي أنا، وتصورته وتخيلته وهو مبني على آراء اينشتين وأمثاله، فقد خطر على قلبي، والجنة فوق ذلك، إذن هنا يناسب عالم البرزخ لا عالم الجنة، ولكن ليس معنى قولي: إن هذا يوافق كلام اينشتين أنه قال قولاً من ذلك، كلا، وإنّما أنا ذكرت تعليل قوله: إن الفضاء أصل والمادة فرع، بذلك، أي قلت: إن علماء عصرنا يجعلون المادة جزءاً ضئيلاً من الفضاء، فهو بهذا استنتج أنها تبع للفضاء وهو أصلها، وما أقوله أنا يعرفه هو أكثر مني، فأما مسألة الأنوار وسرعتها وأنها أصل المادة، فهي أمور معلومة عندهم، إذن كل هذا علم عام للناس، وغاية الأمر أني أنا لم أزد إلا نغماتها وصورها التي تراها الأرواح، وكذلك نظامها الذي تعلمه الأمم رأيته منطبقاً على نظام الآية، والحمد لله رب العالمين.

هنالك قال صديقي: هذا حسن جداً، ولكن أريد أن أعرف أمراً آخر، لماذا اختصت سورة «الأنعام» بذكر الظلمات والنور؟ فقلت:

دين المجوس مبني على الظلمة والنور
ودين الصابئة مبني على الكواكب وأنوارها

إن ذكر الظلمات والنور في أول الأنعام براعة استهلال لما سيأتي من ذكر قصة إبراهيم، ومن ذكر آية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾[الأنعام: ٩٧] الخ.

اعلم أيها الأخ أن الظلمات والنور ذكرت في أول سورة «الأنعام» براعة استهلال لذكر ما سيأتي في السورة من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام.

وبيانه أن أكثر ديانات الأمم القديمة ترجع في أصلها إلى الأنوار الكوكبية، فمن شأن النفوس البشرية أن تحب النور وأن ترى فيه سراً مكنوناً، فهامت نفوس الأمم بجمال النور، فترى المصريين القدماء مغرمين بكوكب الشعرى اليمانية الذي نراه في هذا الشهر، أي: شهر سبتمبر من كل سنة، متألقاً جهة المشرق قبيل الفجر، وهو يجري حثيثاً وراء كوكبه الجبار والجوزاء والدبران وأمثالهما من هذه المجموعات الجميلة، ويسميها الفلاحون في مصر فريحة.

فهذه الشعرى التي هي أضوأ كوكب في السماء كانت رمز العلوم والصناعات واللغات، وجميع سعادات الحياة العلمية والعملية، ويعبرون عنها بلفظ «توت» وهو أول السنة القبطية، وإدريس وهرمس وأخنوخ ويقولون هو إله الحكمة.

وملخص ما يقال في هذا المقام كما سيأتي عند الكلام على آية: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾[النجم: ١] وآية: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾[النجم: ٤٩]؛ أن الشعرى رمز لكل ما عند الإنسانية من سعادة وعلوم ومعارف وذهاب أمم وحلول أخرى محلها، ثم ارتقاء الأجيال الحديثة من حال تشبه حال الحيوان من عدم الإفصاح إلى اختراع الحروف والألفاظ والكتابة والعلوم والصناعات والموسيقى إلى آخره. وهكذا فسيأتي أن الشعرى رمز لذلك، كل هذا حسن جداً.

إذن قدماء المصريين الذين هم متصلون بسائر الأمم إذ ذاك دينهم راجع للنور، هكذا جميع الصابئين في الأمم القديمة كلهم كانوا يعبدون الكواكب، ودين الصابئين المذكور يرجع لفكرة واحدة، وهي أن هذه الكواكب مسيرة بعوالم أرقى منها وأجمل، وهي الملائكة، والملائكة خاضعون لله، فالله هو الذي يشرق بنوره عليهم وهم يديرون الكواكب.

فأما عبادة الله فلا تجوز، ذلك لأنه عظيم يتعالى عنا، فلا ينبغي لنا أن نذكر اسمه على ألسنتنا، كما يقول بعض العاشقين:

أغار إذا ذكر اسمها وإخالني أغار عليها من فم المتكلم

فهؤلاء لا يبيحون ذكر الله لعظمته الفائقة، إذن تعبد الملائكة، فعبدوها أزماناً متطاولة، ولما تقادم العهد رأى الخلف أن الملائكة أجسام نورانية أنوارها أبرع من الكواكب، فيجب تطهيرها من أن تذكر على ألسنتهم، فماذا يفعلون؟ عبدوا الكواكب.

ثم من بعدهم قالوا: كلا الكواكب عظيمة وبعيدة، فلنجعل لها هياكل لنعبدها فعبدوها، وهذا هو أصل الأصنام، وهذا شأن الناس في الأرض، إذا أخذ جيل يرتقي تبعه الذي بعده، وهكذا في

الانحطاط والتدلي، فانظر في المذاهب الإسلامية: الحنفية، والشافعية، والمالكية، والحنبلية، والزيدية الشيعية وهكذا، مثال ذلك مذهب الإمام الشافعي أتباعه لا يرجعون إلا إليه، أما القرآن وأما الحديث فلا، اللهم إلا تقليداً في الاستدلال، ثم إن الأم للشافعي اعتبرت أنها أرقى من عقول الناس، ويليها كتاب المزني وأمثاله، والبسيط للغزالي، ثم المنهاج، واكتفى الناس بالمنهج، ويعتقد الناس أن ما فوق ذلك فوق طاقة البشر، وهذا كله تدل وسقوط وجهل، فالأمم يشبه آخرها أولها حذو النعل بالنعل.

فقصة الخليل عليه السلام جاءت لهذا، الخليل عليه السلام جاء في الأمم التي كانت تسكن بين النهرين في بابل، وكانوا يعبدون الكواكب والأصنام، فابتدأ بكسر الأصنام، ثم أخذ يدرس النجوم أدناها وأعلاها حتى وصل إلى الشمس، وهناك قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الأنعام: ٧٩] الخ. فاخترق تلك الحجب حجاب الأصنام والسيارات والشمس ثم الملائكة، ووجه وجهه لله.

وهناك دين المجوس يرجع إلى عبادة النار، والنار جميلة فبينها وبين دين الصابئين مشابهة، ولكن هذا الدين يرجع إلى إلهين اثنين: هما النور والظلمة.

الظلمات والنور عند المجوس

فالنور رمز لكل خير، والظلمات رمز لكل شر. وبيانه أننا في هذه الحياة نحس بخير وشر وضر ونفع وموت وحياة، ولا جرم أن الضر والموت والفقر والجهل والحرمان والمعاصي كلها شر، والحياة والعلم والطاعات كلها خيرات، ونحن نشاهد ظلمات ونشاهد أنواراً، فالأنوار خير والظلمات شر، والليل عنوان الشر، ففيه اللصوص والمجرمون الذين يعثون في الأرض فساداً، وقطاع الطرق وتزداد الأمراض، فالظلمة شر، والنور خير.

كل ذلك تضمنه ذكر الظلمات وذكر النور في أول السورة، فالله ابتدأ سورة «الأنعام» بالظلمات والنور:

أولاً: براعة استهلال لما يأتي فيها من ذكر قصة الخليل في بابل، وذلك توطئة للرقي الحالي في الأمم الإنسانية، لأنه لولا أن الخليل عليه السلام كسر أصنام الصابئين؛ وقلل من أهمية الشمس وسياراتها؛ لبقيت معبودة، ولو بقيت معبودة لوقفت عقول الأمم فلم تعرف أن هناك كواكب أعظم من هذا الإله، وهي الشمس عندهم، فمن ذا الذي يجسر أن يقول إن هناك كوكباً واحداً مثلها أو أكبر منها، لا يخطر ببال أحد هذا الكفر، وعليه كانت الإنسانية تبقى أجيالاً طويلة وهي لا تعرف شيئاً من هذا الجمال.

فالخليل عليه السلام كسر الأصنام، وجاءت النبوة المحمدية ففعلت ذلك، وأخذت الأمم تدرس النجوم كما تدرس الحيوان والنبات، فذكر الظلمات والنور توطئة لذلك.

ثانياً: يشير إلى دين المجوس المبني على أن في العالم إلهين مبنيين على الخير والشر، فللشر إله، وللخير إله، وإله الشر يحدث الظلمات والشرور، وإله الخير يحدث الخيرات والأنوار، وكلاهما عدو للآخر، والعبادة موجهة لإله الخير الذي ينتصر على إله الشر.

فالله هنا يقول: الله محمود على أنه جعل الظلمات والنور، وإنّما جعلها لأن كل شر وكل ظلمة أمران ضروريان لكمال السعادة الإنسانية، بل الله يحمد على الظلمات كما يحمد على النور، وإذا كان الإحساس بآلام الضرس أمراً لا بد منه، بل لله علينا منة عظيمة فيه، وفي الإبداع في خلق الأعصاب الممتدة من المخ إلى الفضاء الذي في وسط الضرس، وهكذا في جميع الأمراض كما تقدم شرحه في سورة «الفتح» في أصل التفسير عند آية: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الفتح: ٧]، فهناك اتضح بالشرح والتصوير الشمسي أن الحمى والدماميل ونحوهما نعمة لا نقمة، لأنها إنّما خلقت فينا لأجل صحة أبداننا، فارجع إليها إن شئت أيها الأخ.

إذن كل الظلمات والنور والشرور والخيرات كلها متعاونات على إسعادنا، فآلامنا لإسعادنا لا لإشقائنا.

إذن آراء المجوس في دينهم كانت حينما كان الإنسان طفلاً، أما الإنسان الآن فإنه أخذ يعقل نعمة الآلام والشرور والظلمات كما يعقل اللذات والخيرات والأنوار. فلما سمع صاحبي ذلك قال: حبذا هذا المقال، ما أجمل العلم وأبهج الحكمة! وما أسعد العلماء وأبهجهم في هذه الحياة، فقلت: الحمد لله رب العالمين. انتهى حوالي الساعة الثانية بعد نصف الليل.

عجائب النفس

إن هذا المقال قد حدثتني به نفسي منذ يومين وأنا أسير في المنيل غربي القاهرة لمجرد الرياضة وهذه المقالة رتبت كما كتبتها الآن، ولكن لم أكتبها إذ ذاك فبقيت تتردد في نفسي، وفي ليلة البارحة خرجت أنا وبعض الإخوان من الساعة السابعة والنصف إلى الساعة (١١) لننظر أحوال القاهرة، وما مقدار الخمور التي يشربها أهل بلادنا بالتقريب، وما مقدار ما يستهلكون من مأكول ومشروب، ويذهب الماء من جيوبهم إلى جيوب الأمم التي لها امتياز في البلاد، وذلك ليذكر في الكلام على «ألم» في سورة «البقرة»، لأن هذه الحروف الثلاثة بينهما وبين «ألم» في آيات: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾[البقرة: ٢٤٦] الخ صلة، وفيها قصة الشرب من النهر، وأن الذين لم يشربوا الماء وشربوا غرفة وحاربوا فنصروا، وغيرهم كر راجعاً، وأن ذلك إيذان بأن العفة مفتاح الغلبة، والإكباب على الشهوات باب ضياع الأمم، ومفتاح ذلك في «ألم»، والأمة المصرية التي أنا واحد منها وقع جهالها في هذه المعايب، وبمقدار توغلهم فيها كان توغل الأعداء في البلاد، والاحصاء سنذكره إن شاء الله في ذلك المقام، فهذا هو الذي منعني من كتابة هذا الموضوع ليلة أمس، فبقيت معاني هذه المقالة لا تفارقني كل وقت، ولما غلبني النوم الليلة قبل العشاء رأيت ما يأتي:

رؤية منامية

رأيت أنني لا أزال مدرساً مع أنه مضى على ذلك (١١) سنة، وأني أدرس للتلاميذ الدروس بلا تطبيق، فأخذت في المنام أقول: هاهو ذا امتحان التلاميذ قرب، وهاهم أولاء لم يأخذوا تمارين على الدروس. أنا مقصر أنا مقصر، لا بد من تمارين كثيرة أقلها ستّ، لأن الامتحان قريب جداً، فاستيقظت وكتبت هذا المقال وفرغت منه في نحو ثلاث ساعات.

ويظهر لي أن النفس الداخلة بعقلها الباطن تحب أن تخرج هذا المقال بالكتابة فلم تدعني في النوم حتى صورت ذلك بهيئة المدرسة والتلاميذ، وصورت لي حال كتابة هذا الموضوع بكتابة التمرين على القواعد، وحال كثير من المسلمين كحال التلاميذ الذين تعلموا القواعد ولا تمرين عندهم، فهاأنا ذا أحمد الله أحسست في نفسي براحة ضميري، وأتممت هذا المقال في تاريخه، وقلت: الحمد لله رب العالمين. انتهى في تاريخه في يوم الأربعاء ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٣م.

حضر صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذه العلوم وفي التفسير، فقال: لقد مضى في حديثنا السابق ما يوجب علي أن أبحث معك فيه، وهما أمران: الأمر الأول: الكلام على تشريح جسم الإنسان عند وصف الأسنان، واختلافها باختلاف نتائجها:

(١) من حدة الأنياب في نحو الآساد والنمور والفهود، لأنها تكون سبباً في تمزيق اللحوم لحفظ الأجسام وبقاء الحيوان.

(٢) ومن عدم تلك الأنياب في آكلات الحشائش، إذ لا داعي لها، وقد وجدت تلك الأنياب في بعض ذكور آكلات الحشائش إذا وجد سبب لها وهو محاربة المهاجمات من العجماوات، فوالله إن هذا لعجب عجاب! وإنه بديع يا سيدي.

ما هذه العجائب! لقد كنت أسمع وأنا طفل في بلاد الريف يقولون: صيد السمك أحب إلينا من أكله، يريدون بهذا المثل أن اللذة في صيده أعظم من اللذة في أكله، لأن الصيد إنّما جاء لنا من القوة الغضبية، وهي القوة التي بها تحكم على غيرنا، وهي أرقى من القوة الشهوية، والقوة الشهوية لذة انفعالية، والقوة الغضبية قوة فعلية، والقوة العقلية أرقى من الأخريين، فاللذة بالغلبة، وحوز النعم والملك والسلطان أقوى من اللذة بالمآكل والمشارب وجميع أنواع اللذات المتبادلة بين النساء والرجال.

فهاهنا الآن ارتقينا إلى درجة في اللذات أقوى من لذة الغضب والقهر والحكم، فهذه سيدة اللذتين السابقتين: هي لذة العقل، إذ ينظر الإنسان في نفسه فيجدها كملت وعظمت وحكمت وملكت ماذا ملكت؟ ملكت السعادة والهناء والعز والشرف والسؤدد، وأصبحت أشبه بمن هم عند مليك مقتدر، أولئك الذين ارتقت نفوسهم عن جميع العامة وجميع العلماء، كيف لا وهذه الحكم والبدائع والجمال الرائع يمر عليها نفس علماء التشريح وكثير منهم عن ذلك الجمال والبهاء والسعادة غافلون.

اقرأ كتب كثير منهم تجد اللهجة والأسلوب لا يعدو أن يصف المؤلف الأعضاء والعضلات والأوتار والأعصاب والأمعاء والمعدة والكبد والطحال والحالبين والكليتين والفقرات والدماغ والأسنان وهكذا، ولا يدهشه التفصيل، ولا يفرحه اختصاص كل عضو بعمل، فأما أولئك الحكماء والخواص من نوع الإنسان فإنهم هم الذين يعيشون، وكأنهم في عرس، وعلى الأرائك متكئون، يرون العالم كأنه جنة عرضها السماوات والأرض زينة نصبت لهم، وسعادة أعدت لهم، وقد أوتوا في هذه الحياة حظهم، أولئك هم السعداء المقربون، فهل لك أن تذكر لي هنا نظير عجائب خلق الأسنان واختلاف الأحوال باختلاف نتائجها، فإن ذلك بهجة وبهاء وحكمة وسعادة وجمال، هذا هو الأمر الأول.

أما الأمر الثاني: فإنك في أثناء الكلام على الظلمات والنور أتيت بأمر عجيب، فأشرت إلى أن المادة التي في هذا الفضاء بالنسبة له ليست شيئاً مذكوراً، إذ هي واحد من مائة مليون مليون، فما هذا القول وما شرحه؟ وكيف يقول ذلك العلامة «هنشو» وينشره في الجرائد في أمريكا والعالم كله يقرؤه.

هذا دليل على أنه قول معقول عند جميع العلماء، نعم نحن نعلم أن الحائط والمنزل والأرض والحجر والشجر وكل ما هو مادي له مسام، فالحجر والشجر والجبل والحديد والذهب كل هذه لها مسام، أي: فراغ موجود بين الذرات، ولكن كون هذا الفراغ عظيماً بالنسبة للذرات بحيث يصل هذا المقدار الذي ليس له معنى إلا أن المادة عدم صرف، فهذا يعوزه شرح وتفصيل.

الكلام على عجائب الألوان

وكيف جعلت في الحيوان لبقائه وإسعاده مختلفة باختلاف أطواره كما تقدم في الأسنان

وعلى ضرب مثلين لفراغ المادة: أحدهما بمساحة البلاد المصرية

ثانيهما بملايين الأرادب من القمح التي لا مادة فيها إلا مقدار حبة واحدة

فقلت: لأجعل الكلام في فصلين:

الفصل الأول

في عجائب الألوان واختلافها باختلاف أطوار الحيوان

أذكرك أيها الأخ بما تقدم في المجلد الخامس عشر في سورة «الروم» عند آية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[الروم: ٢٢] وإن كسر اللام في «العالمين» جمع عالم لسر لم يظهر إلا في زماننا هذا، ذلك أن هناك علماً وهو علم الألوان لم يعرفه الناس إلا حديثاً وهم لا يزالون في مبدئه لم يعرفوا منه إلا مبادئه، ومن المدهش أن هذه المبادئ أصبحت معجزة قرآنية، كيف لا؟ ألم تر إلى ألوان بعض الحشرات أبي دقيق تلك اللاتي تظهر في جنوب أمريكا وفي أفريقيا وآسيا وأستراليا. فهذه كلها أعطيت سلاحاً بديعاً حاداً، ما هو ذلك السلاح؟ هو مادة سائلة صفراء قذرة ذات ريح كريهة حادة، فتلوث ثياب من يمد يده إليها. إذن هي محفوظة ممن يصيدها ويؤذيها، فجلّ الله، جلّ الله: أنياب خلقت إما لتمزيق اللحم ليعيش الحيوان به، وإما لفتك الذكور بالحيوانات المهاجمة، وأسنان للقضم، وأضراس للطحن، كل ذلك موضوع لهذه الحكم، فهكذا هنا سائل كريه يلقيه الحيوان على صائده فيتركه، فهذا سلاح عجيب قد وهبه الله لحشرة أبي دقيق التي تعيش على نهر «تباجوس»، وقد خلقت حشرة أخرى تشابه هذه الحشرة في الشكل، ولكن لا سلاح لها وهي تعيش معها على ذلك النهر فهي في حماها، سلاح الأولى أصبح يحمي الثانية بطريق الوهم، وهذا من عجائب الصنع.

وهناك في أعلى وادي «الأمزون» تجد حشرتين من هذا النوع: إحداهما لها سلاح، والأخرى لا سلاح لها، واللون والشكل والهيئة كلها واحدة، فهاهنا مزايا عجيبة، وترى هذه الصور في التفسير هناك واضحة، وترى حشرة أبي دقيق التي في شرق أفريقيا بديعة الشكل بهجة الوضع سواء في ذلك التابع المتبوع، أي: الذي له سلاح والذي لا سلاح له.

وهكذا ترى صور هذا النوع في «ملقا» و«بورنيو»، ومثل حشرة أبي دقيق في ذلك أنواع من الحيات، فترى هناك ثعابين أمريكا، السام منها والذي لا سم لها تشابها خلقاً، وأحدهما له سم، والثاني حمي بهذه المشابهة لا غير، وهكذا هناك طيور تعيش جماعات كثيرة جداً فهي محميات بجماعاتها، وهناك طيور لا عزوة لها ولا جموع تحميها، ولكن الله حماها بمشابهة ألوانها للأولى، كل ذلك مفصل هناك تفصيلاً ورسماً وتبياناً.

فقال صاحبي: نعم. أنا أتذكر ذلك، فهناك صور بديعة جميلة بهجة، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤]. انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني: في أبحاث المادة وما فيها من الفراغ

ثم قلت أيها الأخ البار حفظك الله وأبقاك وألهمك الحكم والعلوم. أريد الساعة أن أذكرك بما تقدم في سورة «طه» عند آية: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[الآية: ٥٠].

فترى هناك هيئة خلق الجنين موصوفة بدقة وتجدها على هيئة المتوالية الهندسية ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ وهكذا إلى ما لا يتناهى.

ومعنى ذلك أنك إذا اطلعت على ما رسم هناك من صور نمو الجنين في الرحم بالمصور الشمسي وأن البيضة انقسمت قسمين ثم أربعاً ثم ٨ وهكذا؛ أدركت السر المصون والجوهر المكنون، وذلك أمران:

الأول: أن الانقسام هنا على هيئة متوالية هندسية، وهذه المتوالية تتصاعد إلى ما لا حد له، وفي أثناء ذلك الحساب والانقسام تجد أمراً عجباً، ماذا تجد؟ تجد أعضاء وحواس وأعصاباً وبدائع تحار فيها العقول، فلا الحساب يخطئ ولا تفصيل الأعضاء بمنقطع.

ومن العجب العجاب أن صصة بن داهر الحكيم الهندي لما ابتدع الشطرنج كما يقال: وقال له ملك الهند اطلب ما تشاء، لم يطلب إلا أن توضع حبة قمح في أول بيت من بيوت الشطرنج وأخذ يضاعف الحب ٢ و٤ و٨ و١٦ الخ. فلم يصل إلى البيت الأخير من الشطرنج إلا بعد أن صار القمح الذي في الكرة الأرضية كلها عشرات السنين لا يكفي، وهل ذلك كله إلا الحساب المضاعف البالغ ٦٤ عيناً، وهي عيون الشطرنج، فهذه المضاعفات هي بعينها مضاعفات نمو الجنين، إذن نمو الجنين أكثر مضاعفات من مسألة الشطرنج وعجائبها أغزر وأبهى.

فقال صاحبي: أظن أننا خرجنا من الموضوع، نحن الآن لسنا في حساب نمو الجنين ولا في حساب حب القمح المضاعف بالمتوالية الهندسية بحسب بيوت الشطرنج. فقلت: يا صاحبي نحن جعلنا هذا المقال تمهيداً لما نريده الآن وهو حساب الفراغ في المادة.

وذلك أن مسألة القمح في بيوت الشطرنج هي التي نعول عليها الآن، وذلك أننا قلنا: إن المادة ليست شيئاً مذكوراً، اللهم إلا أنها جزء من مائة مليون مليون من الفضاء الذي تحل فيه، وأقرب مثال لذلك أن نقول: إن صصة بن داهر الحكيم الهندي لما طلب القمح المذكور استحقر الملك طلبه، لأنه ظن أنه قليل جداً مثل قدح أو كيلة، ولكن الحكيم صمم أن يحسب الحب حساباً دقيقاً فحسبوه، فلما بلغت المضاعفة ١٦ بيتاً وجدوا الحب يبلغ قدحاً مصرياً وعدد حباته ٣٢٧٦٨ فيكون الأردب إذن

٧٢٨, ١٤٥, ٣ حبة، فإذا وصلت الأرادب نيفاً وثلاثين مليون أردب صار عدد الحب مائة مليون مليون حبة، وهذا عجب عجاب، وصلت الآن إلى أمر عجب، أمر يفوق التصديق، فعجب ملك الهند من أن حساب بيوت الشطرنج لما وصل في المضاعفة ٦٤ لم يكفه القمح على وجه الأرض عشرات السنين، ولكن نحن هنا يزداد عجبنا أن نرى المادة التي نحن منها ونعيش بين طياتها ليست إلا أمراً معدوماً ومعدوماً جداً.

يا سبحان الله نيف وثلاثون مليون أردب قمح لا مادة فيها إلا بمقدار قمحة واحدة، عجب وألف عجب، هكذا مقال علماء عصرنا. إذن الأرض والهواء والماء والحجر والذهب والحديد كلها فراغ فقط، ولكن هذا الفراغ فيه ذرات حقيرات، وتلك الذرات ما هي إلا حركات في الأثير تنتج أنواراً، وتلك الأنوار تجري سوالبها حول موجباتها ستة آلاف مليون مليون في الثانية الواحدة، وهذه الأنوار باختلاف تركيبها وكمياتها تكون ذرات، وهذه الذرات منها تتركب أجسامنا وأجسام عالمنا، وهذه الذرات المركبة منها أجسامنا فيها فضاء عظيم جداً، فنسبة المادة فيه إلى الفراغ كنسبة حبة قمح واحدة إلى مائة مليون مليون حبة قمح، أو إلى نيف وثلاثين مليون أردب قمح.

ضرب مثل بمساحة الأراضي المصرية

إيضاح هذا المقام على سبيل السهولة في التعبير، وذلك بهيئة التنظير أن نقول: إن مساحة القطر المصري تبلغ مائة وخمسين مليون فدان، ولكن المزروع منها لا يبلغ أكثر من ستة ملايين فدان.

فالقطر المصري من حدود فلسطين إلى بلاد طرابلس ومن أسوان إلى البحر الأبيض المتوسط، ويدخل فيه الجبال والصحراء الشرقية والغربية والبحرية، كل ذلك هذه مساحته. فإذا أخذنا من هذه المساحة مائة مليون مليون لم نجد بعد دقة الحساب إلا نحو (٦٤) أربع وستين سنتيمتر مربع، وهذه يكفي لتغطيتها أن يطير عصفور واحد في جو مصر ويقع على الأرض ناشراً جناحيه، فالمسافة التي يغطيها لا تكفي لأن تكون جزءاً من مائة مليون مليون جزء من الأراضي المصرية.

وبعبارة أخرى: إننا إذا جعلنا الحساب الذي اعتبرناه في المادة معتبراً في مساحة البلاد المصرية من حيث الأجزاء المذكورة لم يزد ذلك عن راحة اليد التي تحيط بها الأصابع، وهذه يغطيها عصفور مد جناحيه. إذن المادة على هذا الحساب كالعدم من حيث كميتها، فأمرها أغرب، إذ ظهر أنها كما قدمنا أنوار، والأنوار جاءت من حركات، إذن هذا الجزء المادي أيضاً مع أنه قريب من العدم ليس إلا حركات.

إذن عالمنا كله معدوم، ووجوده راجع إلى حركات سريعة نسبتها إلى الفضاء الذي تحل فيه نسبة ٦٤ سنتيمتر مربع إلى (١٥٠) مليون فدان، أو كنسبة قمحة واحدة إلى نيف وثلاثين مليون أردب قمح، هذا معنى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[القصص: ٨٨]. انتهى، والحمد لله رب العالمين.

فلما سمع صاحبي ذلك انشرح صدره وقال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. انتهى ليلة الخميس ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٣م قبيل نصف الليل.

ملخص هذا المقال في تفسير آيات أول سورة الأنعام

وهي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام: ١] إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[الأنعام: ٣].

حضر صاحبي عصر يوم الجمعة ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٣ فقال: إن موضوع تفسير هذه الآيات في أول سورة «الأنعام» قد طال جداً، وليس في مقدرة الإنسان أن يجمع هذه الأفكار الكثيرة معاً، فأرجو تلخيصها لتحفظها الأذهان. فقلت:

(١) الآيات: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الآية: ١] في أول الأنعام، إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[الأنعام: ٣].

(٢) البحث في الظلمات والنور، وكيف كانت هذه الظلمات والأنوار تشمل الفضاء الذي لا نهاية له.

(٣) وكيف حيرني سؤال فلاح من قريتنا كفر عوض الله حجازي بالشرقية قائلاً: يا ابن أختي هل للعالم آخر، هل تعرفون ذلك؟ ماذا بعد السماوات العلى، أنتم لا تعرفون ذلك في الأزهر.

(٤) اطلاعي على الفلسفة القديمة وأنها حصرت الموجودات في ١٣ طبقة مركزها الأرض يليها الماء فالهواء فالأثير فالأفلاك السبعة للسيارات باعتبار زمانهم ففلك الثوابت ففلك المحيط.

(٥) ويقولون: ليس ما وراء الفلك بخلاء ولا ملاء، أي: إنه عدم صرف.

(٦) حيرتي في هذا القول وعدم اعتدادي به، وكيف أعتد به والنفس تتصور خلاء لا نهاية له، ولا يكفيها قولهم: إن الخلاء يكون بين جسمين، أما ما وراء الفلك المحيط من الفضاء فليس محصوراً بين جسمين فليس خلاء، وهذا كله سفسطة.

(٧) اطلاعي على كلام إخوان الصفاء، وهو أن النور والظلمة إما جسمان وإما عرضان لأجسام، إذن الفضاء جسم لا نهاية له وفيه أيضاً حيرة.

(٨) تعجبنا من أن اينشتين يقول: إن الفضاء جسم، كما قال إخوان الصفاء، ويزيد على ذلك بأنه صلب أصلب من كل جسم، وقد أوضحت ذلك في سورة «الصافات» وسورة «سبأ»، أي: أنه لو كان جسماً لكان أصلب منها جميعها، فهو جسم صلب لا كالأجسام، وأوجب البحث في الفضاء بقوة.

(٩) يقول هو أيضاً: إن الفضاء أصل والمادة فرع.

(١٠) وعللنا ذلك بأن العلماء في زماننا يقولون: إن المادة في هذه الأجسام جزء من مائة مليون مليون جزء من الفضاء الذي تشغله، فنضرب لها مثلاً بحبة قمح من نحو ٣٣ مليون أردب قمح، أو ٦٤ سنتيمتر مربع في مساحة الأراضي المصرية البالغة (١٥٠) مليون فدان، وهذا الأخير تنظير لأنه راجع للسطوح لا للأجسام.

(١١) إذن المادة فرع عن الخلاء وهي قليل بالنسبة، فهي إذن نموذج له. ولا جرم أنها عبارة عن حركات في الأثير توجب أضواء يجري سالبها حول موجبها نحو ستة آلاف مليون مليون مرة في

الثانية، وبالاختلاف تكون هذه الذرات، فالعناصر، فالأجسام، والأرضون، والشموس والأقمار الخ. فهذه ذات نظام هندسي تنظره عيون الأرواح، ونظام صوتي تسمعه آذانها، وهو جمال وبهجة تعبر عن جمال نفس الفضاء وبهجته.

(١٢) وأشرف ما في أنواع المادة جسم الإنسان الذي هو نموذج المادة، وهذا هو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾[الأنعام: ٢] بعد العوالم، إذن خلقنا نموذج خلق السماوات والأرض، وهي نموذج الفضاء الذي يعبر عنه بالظلمات والنور، وجسم الإنسان مركب عجيب، فالدماغ مثلاً في الجمجمة القوية الحافظة له وقد غطي بالأم الرقيقة والأم الجافية ليحفظ من أن يصطدم بتلك الجمجمة الحافظة له، وهكذا القلب تحيط به الرئة، وهما في حرز حصين وهو الصندوق المركب من الفقرات والأضلاع والقص. وللقلب دورة دموية تجذب الدم الوريدي من أعلى الجسم وأسفله ليصل إلى الأذين الأيمن ويتصل بالبطين الأيمن، ويخرج في شريان ينقسم إلى شريانين يتصلان بالرئة، ويرجع إلى الأذين الأيسر فالبطين الأيسر، وهناك شرافات في وسط القلب، وأخرى عند البطينين، وأخرى عند الأنابيب الشعرية، فهذه كلها تبيح للدم أن يجري منها، ولكنها تمنع رجوعه رحمة بالحيوان والإنسان.

(١٣) ولما كانت فقرات الظهر من أهم أجزاء صندوق القلب ذكرت أوصافها من حيث حكمة خلقها، مفصلة متوسطة محوطة بما يحفظها، حافظة لما في داخلها من النخاع ولما تحتها من الرئتين والقلب.

(١٤) ولما كانت الرأس تحيط بها أعضاء نافعة وكان من أهمها الأسنان؛ فصل الكلام فيها من حيث أعدادها وترتيبها من القواطع والأنياب والطواحن، وكيف كانت مفصلة بحسب الحاجة إليها للأطفال والشبان، وأنواع الحيوان من آكلات اللحوم وآكلات النبات، وكيف كان لها تاج ومينا أصلب منه، ورقبة وسنخ وأعصاب حساسة وأوردة وشرايين تبع الدورة الدموية.

(١٥) ولما كان هذا الاختلاف منتظماً على مقتضى الحاجة؛ ناسب أن يؤتى بتفصيل في نحو حشرة أبي دقيق من الحشرات والحيات ومن الهوام، وكيف اختلفت الألوان لاختلاف الحاجة إليها في حفظ الحيوان.

(١٦) ومن بدائع هذه الآيات وغرائبها أن النور والظلمة في هذا المقام براعة استهلال تجعل القارئ مستعد لدرس مسألة الخليل عليه السلام من حيث إنه قام ينادي الصابئين الذين يعبدون الكواكب، ويقرب من هذا الدين دين المجوس الذين يرون للعالم إلهين: إله الخير وإله الشر. وذلك أن الإنسان كان إذ ذاك في حال لا تمكنه من أن يعقل للعالم إلهاً واحداً، فذكر الظلمة والنور مذكر بدين الصابئين وبدين المجوس كل من وجه مخصوص. هذه خلاصة هذه المقالة، وفي الاختصار تقديم وتأخير في قليل من هذه المواضيع. اهـ قبيل المغرب يوم الأحد ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٣٣.

سورة الأنعام

تذكرة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[الأنعام: ١-٢]. قد جاء في الفصل الأول ذكر أنواع الفحم، وأن منه قطع الماس العجيبة، فهي إذن نور من الظلمات.

ومن عجب أن العالم كله نور من الظلمات، كيف لا، أليس العدم كالظلمة، والوجود كالنور والعالم كله مخلوق من العدم، وهل الوجود إلا حركات في الأثير، وهذه الحركات بتفننها ظهرت أنوار كهربائية سالبة وأخرى موجبة، فدارت السالبة حول الموجبة نحو ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية الواحدة، فكانت العناصر التي بلغت الآن نحو ٩٠، وبامتزاجها كانت المعادن والنبات والحيوان والسماوات والأرضون، العالم نور والعدم ظلمات، الإنسان عالم نوري مشتق من العالم المظلم وهو الطين، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾[الأنعام: ٢].

رباه جمالك سحر العقول، وحسن صنعك بهر العيون، رباه خلقت من الفحم جواهر ودراً كما خلقت من الطين إنساناً عاقلاً وعالماً وحكيماً ونبياً.

ما هذا الجمال؟ ما هذا الإبداع؟ ما هذه الدنيا التي أبدعتها؟ كم من النفوس تمر على هذا الجمال ولا تعيه، ألم تملأ الأصقاع بالأنوار، ألم تجعل في البحار جهة خط الاستواء توهجاً وتلألؤاً يسحر عقول العقلاء، فإذا سارت السفن في تلك البحار أثارت من الماء أنواراً تشبه في مناظرها النجوم الثوابت والسيارات تارة والبرق تارة أخرى، ويحدث إذ ذاك تنوع في المناظر بديع، تروق الناظرين، وتدهش المسافرين، ألم تملأ الأصقاع الباردة بما يفوق الوصف من الجمال، كيف لا؟ ألم يكن في اختفاء نور الشمس عن القوم أسابيع وشهوراً بهجة للناظرين، وجمالاً ساحراً للعقلاء، فإن لضوء الشمس تحت الأفق انعكاساً على ما فوقه، فتزدان الأرض بزخارف من اللألاء وبمباهج وتموجات الأنوار: خضر وصفر وحمر وزرقاء ونيلية وبنفسجية وبرتقالية، فيحدث ذلك التفنن ما لا يحصيه العد من الأفانين والصور والأشكال والجمال.

كل ذلك حاصل على بساط من الثلج أبيض ناصع كأنما هو قطع من الألماس على البر جاثمات، وفوق سطح ماء البحر سابحات، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ولما عزت تلك المناظر في البلاد التي لا هي في خط الاستواء ولا في القطبين عوضهم عن ذلك مناظر بارعة جميلة. ومنها قطع الماس البهجة الشكل، الجميلة المناظر، البديعة الإتقان. اشتقها من الظلمات كما اشتق نور الخليقة من ظلمات العدم، ونور الإنسان من ظلم الطين، والماس من الفحم.

ومن أعجب أنواع الماس التي بهرت نوع الإنسان خمس قطع شهيرة سنذكرها قريباً، وهي أعظم الفرائد الجوهرية في عالمنا الأرضي فترقب شرحها، وهاك أيضاً الكلام على الماس:

إن الماس: (١) يكون من الفحم النقي.

(٢) متقوم.

(٣) ذو لمعان.

(٤) وصلابة انفرد بها.

(٥) ذو قوة على كسر الأضواء لا يشاركه فيها سواه من المعادن.

(٦) سلطان الجواهر وأثمنها، ولا يفوقه إلا الياقوت نادر المثال.

(٧) هو أقدر الجواهر على البقاء وعدم الانحلال.

(٨) سهل الكسر.

(٩) يحترق على درجة (٨٥٠) وهو في الهواء، فإن لم يكن فيه فلا يحترق.

(١٠) لم تكمل صناعته إلا منذ ١٤٧٦ ميلادية.

(١١) عثر في أستراليا على حجارة من ألماس شديد البياض عجزت وسائل القطع أن تؤثر فيه، فلم يمكن اتخاذه حلياً.

(١٢) الماس لا يقطع ولا يصقل ولا يسطح إلا بالماس.

(١٣) وهو يقطع الأحجار الكريمة كلها ويسطحها ويصقل الزجاج ويثقبه.

(١٤) وهو يثقب الصخور، ففي ألمانيا بلغت المسافة التي ثقبوها (٦٢٦٥) قدماً عند leipzig « ليبزج » من مدن ألمانيا، ذلك ليعرفوا طبقات الأرض، فيجعلون على المثاقب الفولاذية نحو ثمانية أحجار من الماس، زنة كل منها قيراطان.

(١٥) وإن الناس يحتاجون إلى أسلاك فولاذية قد يبلغ قطرها ١٦ متراً من البوصة، فالأسلاك المعتادة توضع في قوالب من حديد، والمتوسطة في قوالب من فولاذ، والتي هي أدق في قوالب من الماس أو الياقوت، والياقوت أفضل.

(١٦) أهم مناجم الألماس بالهند والبرازيل وأفريقية الجنوبية، ولم يعرف الناس قديماً الماس إلا من الهند، وظهر وعرف الماس في بلاد البرازيل سنة ١٧٢٧ ميلادية، فازدحمت المناجم في بلدة « ديمنتينا »، فزاحمت مناجم « غلقندة » بمدارس بالهند، ثم ظهرت وبرعت مناجم أفريقية الجنوبية، فحازت قصب سبق في المضمار.

ذلك أنه رأى بعضهم حصاة مع طفل يلعب بها في مزرعة على شاطئ نهر « أورانج » فعرف أنها من الماس، فأرسلها إلى إنكلترا، فبيعت بخمسمائة جنيه.

وفي سنة ١٨٦٩ عثر على حجر بقرب ذلك النهر، بيع بخمسة وعشرين ألف جنيه، وسمي باسم نجم أفريقية الجنوبية، ولم توافِ سنة ١٨٧٠ حتى كان بجهات نهري « أورانج » المذكور وفال عشرة آلاف رجل من المعدنيين.

وأعجب الفرائد الجوهرية هي الخمس التي وعدناك بذكرها سابقاً، وهي هذه: من أشهر فرائد الماس الفريدة المسماة بجبل النور « قوهي نور » وكانت زينة عين الطاووس الذي كان على عرش ملوك المغول ببلاد الهند، ولما دان ملك دلهي لكسرى نادر شاه وحول ذلك العرش إلى بلاد فارس، افتقد نادر شاه الماسة فأخبر أن سلطان دلهي خبأها في عمامته، فقال له لما أقرّه على سرير الملك: أعطني عمامتك وخذ عمامتي آية ميثاق الصلح بيننا، فأسقط في يده، ولكنه لم يجد بداً من هذه المقايضة ولو عاد منها بصفقة المغبون، ولما حلّ نادر شاه العمامة ووقعت عينه على الماسة رأى لمعانها فقال: « قوهي نور » فصار ذلك اسماً لها، وما زال يتوارثها الملوك حتى عادت إلى ملوك الهند وحفظت في خزانة لاهور، ولما استولى الإنجليز على بنجاب دخلت هذه الجوهرة في حوزة جمعية الهند الشرقية، فأهدتها إلى الملكة فكتوريا سنة ١٨٥٠ وزنتها ١٠٦,٥ من القراريط.

ومنها نجم الجنوب، وهو جوهرة وجدت في مناجم البرازيل سنة ١٨٥٣، وجدتها زنجية في مثيل بعض الأنهار، وكانت تزن ٥ , ٢٥٤ من القراريط، فقطعت وصقلت فصارت زنتها ١٢٥ قيراطاً، وبيعت بثمانين ألف جنيه.

ومنها جوهرة أرلف، وقد زعموا أنها كانت حلية عين صنم بمعبد للبراهمة ببلاد الهند، فاختلسها جندي فرنسي ليسرقها منه ربان بعض السفن، وعرضت للبيع في مدينة أمستردام سنة ١٧٧٦ فاشتراها برنس أرلف للملكة كاترينا الثانية ملكة الروس، فرصعت بها صولجان ملكها. قيل إنه اشتراها بتسعين ألف جنيه نقداً وثمانمائة جنيه تدفع سنوياً مدى الحياة.

ومنها المغول العظيم، وهو فريدة عظيمة وجدت في مناجم غلقندة وكانت تزن ٧٨٧ قيراطاً، فدفعها ملك المغول إلى جوهري من أهل البندقية ليقطعها ويصقلها، فردها إليه وقد انحط وزنها بعد القطع والصقل إلى ٢٨٠ قيراطاً.

ومنها جوهرة بت وجدت إما بالهند وإما ببرنيو، فاشتراها حاكم مدراس سنة ١٧٠٢ بنحو ٤٠٠ , ٢٠ ألف جنيه، ولما قطعها وصقلها باعها من دوق أورليان وكان وصياً على الملك لويس الخامس عشر، بنحو ٠٠٠ , ١٣٥ جنيه، ويقال: إنها أجمل جواهر العالم، وكانت ٤١٠ قراريط، فصارت بعد القطع والصقل ١٣٧ قيراطاً. وكانت قد سرقت من بين جواهر التاج الفرنسي في أثناء الثورة ثم ردت وبقيت في فرنسا حتى اليوم.

وأكبر فرائد الماس جوهرة عدنت من مناجم أفريقية الجنوبية سنة ١٩٠٥ فطولها ١١ سنتيمتراً وعرضها ٥ سنتيمترات وزنتها ٢٠٣٢ قيراطاً (٦٧٦) غراماً، وهي تامة الشفيف ناصعة البياض، حتى ليخيل إلى الناظر إليها أنها قطعة من الجليد النقي. وقد اشتراها حاكم الترنسفال سنة ١٩٠٧ وأهداها إلى إدورك السابع ملك إنجلترا.

رجوم الماس

ينزل الماس من السماء كما يصعد من الأرض، فقد انقض على أرض روسية وغيرها من الجهات رجوم وجدوا بها حجارة صغيرة لها خواص الماس ومزاياه، وغلا بعضهم فزعم أن كل الماس الذي في الأرض أصابها من السماء.

وأن آبار الماس حفرتها في الأرض الرجوم حين وقعت عليها. لكن وقوع بعض الماس من السماء لا يثبت أن أكثره بلغ الأرض منها، فإن الأرض من الكواكب ومادتها من مادتها، فما يمكن أن يتكون هناك يمكن أن يتكون هنا.

الماس الصناعي

يصنع الماس الصناعي من الفحم، تغمر قطعة من الحديد النقي في الفحم الناشئ من احتراق السكر وتسلط عليها حرارة في درجة ٠٠٠ , ٤ فسرعان ما يذوب الحديد ويذيب الفحم ويمتصه، ثم يبرد الذوب بسرعة فيجمد الحديد ويضغط بعضه بعضاً ضغطاً شديداً، فيصير الفحم الذي فيه بلوراً ماسياً ثم يذاب الحديد بماء الذهب فينشق عن مواد بينها بلورات بيضاء من الماس الحقيقي.

بيد أن حجارة الماس المصنوعة كذلك صغيرة جداً لا تصلح لترصيع الجواهر ولو أنها ماس حقيقي لها خواص الماس الطبيعي ومزاياه كلها. انتهى ملخصاً من كتاب «المطالعة» للمدارس الثانوية.

أليس من العجب أن من الفحم يكون الماس الذي لم يكن إلا من مادة الفحم، والفحم من الشجر، والشجر من الأرض ومائها وهوائها. وهذا الماس أصلب المعادن التي أدناها درجة في الخدش والتأثير في غيره حجر الطلق الذي يخدشه كل معدن ولا يخدش هو واحداً منها، ويعلو على الطلق درجة واحدة الجص. فهو يخدش الطلق، وجميع المعادن ماعدا الطلق تخدشه، ودرجات المعادن في الخدش والتأثير عشرة أعلاها الماس، فهو يؤثر ويخدش كل معدن منها، ولا يخدشه واحد منها.

رباه، جمل صنعك، وبهر جمالك، وأبدعت حكمتك سبحانك، دعتنا الحاجة أن نكسر الأضواء الواصلة من الشمس مثلاً، فجعلت الماس وأمثال الماس كاسراً لها. احتجنا أن نعرف طبقات الأرض الصخرية فجعلته ثاقباً لها.

ولما كانت هذه الحاجة قليلة جعلت الماس قليلاً. هذا من آثار قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾[الأنعام: ٢]. وبهذا تم الكلام على الزبرجدة الثانية في آية: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ في «الفاتحة» وما يناسبها من آية الحمد في أول سورة «الأنعام» على خلق السماوات والأرض، وتخصيص الكلام على خلق الإنسان من طين، وإظهار بدائع تشريحه العجيب.

مصاعد الحمد في آيات العلوم المفرقة في القرآن وهي حول ٧٥٠ آية

اعلم أيها الأخ المخلص لربك ولدينك ولأمتك أن الأحاديث الواردة في الحمد وثوابه كثيرة جداً، ولقد ورد في الكتاب آيات كثيرة في الحمد وفي فضائله، وكفاك أن الحمد آخر دعوى أهل الجنة: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[يونس: ١٠]، وترانا نحمد عقب الصلوات وفي كل حال.

وكثيراً ما تسمع أيها الأخ في الحكم الإسلامية أن «الحمد لله» تملأ الميزان، ولا جرم أن الميزان مقرون بعالم السماوات إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[الرحمن: ٧]، فالميزان إذن عام في السماوات والأرض، فتراه يقول في عوالم الأرض: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[الحجر: ١٩]، ويقول في عالم الآخرة: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[الأعراف: ٨].

ولا جرم أن العوالم كلها مقدرة، والتقدير لا يكون إلا بميزان، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: ٤٩]. إذن نحن الآن في مقام إظهار مصاعد الحمد، وإنما عبرنا بمصاعد لأن الله يقول: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[فاطر: ١٠].

فجميع الآيات الواردة في عوالم السماوات والأرض وما بينهما دالة على الجمال الإلهي، وهاأنا ذا أحدثك عنها لتعجب من جمال وبهاء مخبوءين في القرآن، والناس نائمون ساهون لاهون، فرحون بالحمد اللفظي عقب الصلوات وفي الصلوات، وفي المآكل والمشرب، فأما حقائق الحمد وجمال الحمد والسعادة بالحمد والابتهاج بالحمد فالناس عنها ساهون مبعدون.

وهذا الحمد الذي سنذكره في هذه الآيات مفصل الحمد الذي تغلغل في نفوس الصحابة والتابعين، فطاروا في الأرض شرقاً وغرباً إرضاء لربهم ولدينه، فأما نحن فإننا لسنا مثلهم من حيث اقتراب أعمال النبوة منهم وإمدادها وإشرافها، فلا يسعنا إلا أن نستمد المعونة من بارئ النسمات أن يلهمنا حمداً كما حمدوا، ويرشدنا كما رشدوا، وإن كان الآخرون ليسوا كالأولين.

** وأنى يستوي الفتئان أنى **

ولكن ما يدرك كله لا يترك كله، إذن ليس لنا أن ندرس هذه المحامد في السماوات والأرض على ضوء الآيات التي سنسردها في هذا المقام، ليشرق مجد أفل، ونبزغ نجم غرب، وتطلع شمس توارت بالحجاب، فيصبح المسلم في غدوه ورواحه سعيداً بما في نفسه من حكمة، مشرقاً بنور الحكمة الربانية، مشاركاً للأمم في علومها ومعارفها، مرتقياً حكيماً، مرقياً للإنسانية كلها، خليفة الله في أرضه هذا هو الذي أريده في هذا الملحق، هذا هو الذي ساقني الله لأجله، هذا هو الذي أنا به موقن مغرم، بل سعيد، لأني أحس في نفسي اليوم بسعادة الأمم الإسلامية المستقبلة، تلك الأمم المشرقة، تلك الأمم التي بسعادتها أسعد أنا الآن، إذ يخيل إلي أن ما أكتبه الآن كأنهم قرؤوه، وكأن أناساً منهم نبغوا، فارتقى العلم وعمّ بلاد الإسلام، وأشرقت الأرض بنور ربها، وأخذ المسلمون مظهرهم الحقيقي: مظهر العلم والحكمة والإصلاح والعدل بين الناس، وإصلاح الكرة الأرضية.

هذا هو الذي أتخيله كأنه واقع، وبهذا الخيال أحس بسعادة في نفسي مستمدة من سعادتهم هم، إذ تبهج الناظرين، وتسر الغادين والرائحين، وتكون إسعاد لنوع الناس أجمعين. فلأبدأ الآن في شرح هذه المصاعد حامداً الله رب العالمين. فأقول:

خطاب عام لأمم الإسلام

أيها الأمم الإسلامية، أريد أن أتحدث إليكم الآن في نبأ عظيم، أتدرون ما هو هذا النبأ؟ هو نبأ عوالم السماوات وعوالم الأرض، فلتكونوا أيها الإخوان كما تشاؤون، فلتكونوا حنفية أو شافعية أو مالكية أو حنبلية: وهابية أو زيدية أو أمامية أو أباضية واحشروا في علم الفقه ما تشاؤون، وحققوا في علم الأصول ما تحسنون، اقرؤوا، ادرسوا، ليقل الحنبلي الوهابي ما شاء في زوار القبور، ليخالفه الأمامي في ذلك، وليختلف الزيدية والأمامية ما شاؤوا أن يختلفوا، وليخالف الطائفتان أهل السنة، ليكن كل ذلك، وليقم آخرون فيقولون: نحن مسلمون ولكننا بهائيون، وآخرون فيقولون: نحن قديانيون، وليقم أتباع الأشياخ من الصالحين الرفاعية والأحمدية والدسوقية والكيلانية، وليقم غيرهم وغيرهم فيقرأ كل فريق أوراد شيخه ويعرض عن أوراد الشيوخ الآخرين، ولتقم في الإسلام طوائف وطوائف، كالميرغنية في السودان، والتيجانية والكتانية وأتباع ماء العينين والسنوسية في الغرب وطرق كثيرة غيرها.

أيها المسلمون، أنا لا أتعرض لتفصيل تلك المذاهب ولا أقف في سبيل أحدها، لأن ذلك يطول شرحه، ولا يأتي بالغرض المقصود من تأليف القلوب، ولكن أقول: يا أيها الإخوان المسلمون، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن نعبد الله ونحمده ونشكره، وليس فيكم من لا يعظم القرآن، أليس

القرآن كلام الله؟ هاأنا ذا أعرض عليكم بعض آياته أمامكم وندرسها معاً فأقول: ماذا تقولون أيها الأحباب فيما في سورة «البقرة» من الآيات التي تشوق وتحض على علم الفلك وعلم الطبيعة، وبعبارة أخرى: العلوم الرياضية والطبيعية.

هاهنا حضر صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال: هذا أسلوب آخر في تفسير القرآن، وماذا تريد به؟ فقلت: أريد أن أعرض الآيات القرآنية التي فيها هذه العلوم، ولما كانت العلوم قد تدخل بعضها في بعض أوردنا الآيات وفيها تدخل هذه العلوم، ألا ترى أن الأرض المشحونة بالعلوم الطبيعية هي نفسها دائرة حول الشمس ولها حساب فلكي، وهكذا الشمس وهي محور علم الفلك أصبحت اليوم داخلة في علم الكيمياء من حيث عناصرها وتحليلها، وفي علم الطبيعة من حيث حرارتها وضوؤها وهكذا، فالعلوم الرياضية والطبيعية متدخلة وإن تباينت، متناصرة وإن تباعدت، فانظر إلى ما قلناه عشرات المرات من أن في القرآن مئات الآيات الدالة على العلوم الرياضية والطبيعية فلنذكر بعضها هنا، ولنقدم قبلها سر الأسرار وعجائب الأنوار، وهو السر المصون المخبوء في ﴿الٓمٓ﴾ في أول «البقرة» الذي جعل مفتاحاً لجميع العلوم التي تركها المسلمون قروناً، فهاهو ذا المفتاح.

أسرار ﴿الٓمٓ﴾

فهاك ما جاء في مجلة «هدى الإسلام» تحت عنوان:

حديث في أسرار القرآن

قد أعلنا في الأعداد الخالية بأننا سننشر رحلة حجازية لفضيلة الأستاذ الفيلسوف العلامة الشيخ طنطاوي جوهري، وقد رأينا أن ننشر من محتوياتها هذا الموضوع العلمي الجليل مما دار بينه وبين علماء الإسلام بجدة من نقاش علمي في أسرار الكون والطبيعة، ليعلم القارئ أن هذه الرحلة جديرة بالتنويه والنشر، ويكون ذلك داعية له إلى انتظارها حتى لا تمضي هذه الخلسة السانحة والفرصة السعيدة من غير أن يقتنصها.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أنا أحمد الله عز وجل على نعمة العلم وبهجة الحكمة، العلم نور وبهجة، العلم سعادة، ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥]، ونور ذاته محتجب عنا لا نراه في هذه الدنيا، كلا، ولكننا نرى النور المخلوق في عوالمنا، فتدهشنا بدائعه وعجائبه من شموس وأقمار وكواكب وأزهار بديعات في الأرض، وبدائع أهل الجمال وفي الأحجار الكريمة، كل ذلك عجب يدهش العلماء ولا يأبه له الجهلاء، سبحان الله، إن هناك نوراً أبدع وبهجة أوسع، وذلك في حوز العلوم والتقرب لله بها، فهانحن أولاء نرى أن الإنسان مهما حل بأي أرض رأى إخواناً على نهجه جادين في طريقه، يأنس بهم أنساً ينسيه نور المشرقات المنيرات في دياجي الظلمات، إذن العلم أجلّ نور في عوالمنا، أليس من آثاره أنني لما حللت بجدة من أرض الحجاز صادفني رجال من أهل العلم من أقطار مختلفة، وما كادوا يعلمون بحضوري حتى رغبوا أن يكون بيننا حديث في عجائب صنع الله وعجائب القرآن، وكانوا أربعة من خير أهل العلم، لقد أدهشني أنهم كانوا يحاسبونني على النقير والقطمير على ما نشر بالتفسير، فقال أحدهم: لقد جاء في الجزء الأول

من التفسير « الطبعة الثانية » ما يفيد أن ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول سورة « البقرة » مفتاح العلوم في مستقبل الزمان، ومفتاح السياسة لأمم الشرق، وقد أخذت تشرح ذلك في التفسير وبينت ذلك، ولكن هذا البيان لا يكفينا فنرجو الإيضاح وإن كنت على سفر، وقد قلت: إنك ستبينه في ملحق التفسير، وهاأنت ذا جئت للحج ولم تكتب ملحق التفسير، وإنا نخاف أن تعوق العوائق عن ذلك، لا سمح الله، فهل تذكر لنا شذرة مما ستكتبه في الملحق الذي وعدت به ووعد بطبعه الشيخ مصطفى البابي الحلبي؟.

وقال آخر: إننا نرجو أن تشرح لنا هذا السر على حسب الطاقة ونكتبه لنقرأه على إخواننا الذين قرؤوا ما كتبته عن الآراء الثلاثة في هذه الحروف في أول السور، وهي ملخص ما ذكره الأقدمون، وقد سر به الإخوان، وكان تلخيصه في أول سورة « آل عمران » بحيث جمع آراء:

(١) أمثال ابن عباس رضي الله عنهما من حيث إن الحروف ترجع إلى أنها رموز الأسماء الله الحسنى.

(٢) وإلى آراء العلماء الذين بحثوا في صفات الحروف ككونها مهموسة أو مجهورة أو مزلقة أو نحوها، فوجدوا نظاماً مدهشاً وحساباً بديعاً وقسمة عادلة بين التي ذكرت في أول السور، وهي أربعة عشر حرفاً، والتي لم تذكر وهي (١٤) حرفاً، وهو أمر لا يقدر عليه أحد في الأرض.

(٣) والرأي الثالث هو الإبداع في تعداد تلك الحروف بالنسبة لعلم الفلك من حيث المنازل، ولأصابع الإنسان في اليدين الخ، فالمنازل فوق الأفق (١٤) وتحته (١٤) مثلها، وكذا مفاصل الأصابع فهي (١٤) في كل يد.

هنالك قال الثالث: أنا أريد الإيضاح لأني لم أطلع على هذا التفصيل، فقالوا له: ليس المقام مقام ذلك، فاقرأه في التفسير لأننا نريد سر ﴿ الٓمٓ ﴾ نسمعه الآن،

فقال الرابع: إن البحث في سر ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول سورة « البقرة » أمر مهم جداً، بعد أن قرأنا في الجزء الأول من التفسير في الطبعة الثانية هذه القصة: أن السلطان محمود الغزنوي الشهير بعث إلى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه معه في الخطبة ببغداد وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة « العملة »، فامتنع الخليفة من ذلك، فبعث إليه بكتاب فيه تهديد ووعيد قال في جملته: لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت، فبعث إليه الخليفة كتاباً مختوماً، فلما فتحه لم يجد فيه إلا ألفاً (ا) ممدودة وفي وسطه (ل) وفي آخره (م) والصلاة والحمد لله. فحار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليه أبو بكر القاهستاني، ففكر في ذلك وقال: عندي شرحه، فقال: اذكر ولك ما تريد، فقال: بعث إليهم السلطان يهددهم بالفيلة، فبعثوا له هذا الكتاب وبه (ا) (ل) (م) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾[الفيل: ١] الخ السورة، فارتاع السلطان لذلك، ووقع في قلبه الخوف والندم وعاد إلى أحسن الأحوال من الرضى والأدب. انتهى.

ثم قال: ولقد جاء في أول سورة « آل عمران » ما يفيد أن الرموز كانت مستعملة عند أهل الكتاب « النصارى واليهود »، وفيه ما يفيد: أن القرآن كتاب سماوي، والكتب السماوية تصرح تارة

وترمز أخرى، والرمز والإشارة من المقاصد السامية المعاني العالية والمغازي الشريفة، وقديماً كان ذلك في أهل الديانات.

ألم تر إلى اليهود الذين هم كانوا منتشرين في المدينة وفي بلاد الشرق أيام النبوة كيف يصطلحون فيما بينهم على أعداد الجمل المعروفة اليوم في الحروف العربية، فيجعلون الألف بواحد، والباء باثنين، والجيم بثلاثة، والدال بأربعة، وهكذا مارين على الحروف الأبجدية إلى الياء بعشرة، والكاف بعشرين وهكذا إلى القاف بمائة، والراء بمائتين، وهكذا إلى الغين بألف.

كذلك ترى أن النصارى في الإسكندرية ومصر وبلاد الروم وفي سوريا قد اتخذوا الحروف رموزاً دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن، وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في مصر، وكانوا يرمزون بلفظ «أكسيس» لهذه الجملة: يسوع المسيح ابن الله المخلص، فالألف من «أكسيس» هي الحرف الأول من لفظ «أيسوس»، والكاف منها هي الحرف الأول من «كرستوس» المسيح، والسين منها هي حرف الثاء التي تبدل منها في النطق في لفظ «ثيو» الله، والباء منها تدل على «ايوث» ابن، والسين الثانية منها تشير إلى «ثوتير» المخلص، ومجموع هذه الكلمات: يسوع المسيح ابن الله المخلص، ولفظ «أكسيس» اتفق أنه يدل على معنى سمكة، فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمزاً لآلهتهم، فانظر كيف انتقلوا من الأسماء إلى الرمز بالحروف، ومن الرمز بالحروف إلى الرمز بحيوان دلت عليه الحروف، قال الحبر الإنجليزي «صموئيل مونج»: إنه كان يوجد في قبور رومة صور أسماك كثيرة مصنوعة من الخشب والعظم، وكان كل مسيحي يحمل سمكة إشارة للتعارف بينهم.

فإذا كان ذلك من طبائع الأمم التي أحاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها، ونزل القرآن لجميع الناس من عرب وعجم كان لا بد أن يكون على منهج يلذ الأمم، ويكون فيه ما يألفون، وستجد أنه لا نسبة بين الرموز التي في أوائل السور وبين الجمل عند اليهود ورموز النصارى إلا كالنسبة بين علم الرجل العاقل والصبي أو بين العلماء وعلم العامة، فبهذا تبين لك أن اليهود والنصارى كان لهم رموز وكانت رموز اليهود هي حروف الجمل.

ثم خاطبني قائلاً: أنت قلت في تفسير هذا المقام: إن القرون الماضية كانت ممهدة لما كتبناه اليوم من هذا السر، فلم تذهب تلك القرون سدى، بل هم ممهدون لنا، وعلينا نحن أن نعمل لمن بعدنا، وبسبب هذه الأسرار ونحوها استحق القرآن أن يقال فيه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[الإسراء: ٨٨].

ثم قلت أنت بعد ذلك: وأنا أقول: من ذا يقدر من البلغاء أن يأتي بكلام فيه سر كسر ﴿الٓمٓ﴾ في أول «البقرة» مثلاً؟ ثم أخذت تشرح ذلك: نحن نظن أنك الآن موقن أننا مطلعون على ما كتبت في هذا الموضوع، فنطلب المزيد، ألم تبين في سورة آل عمران أن ﴿الٓمٓ﴾ في أولها تشير إلى آية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾[آل عمران: ٢٣] الخ. وأن هؤلاء اليهود لما اغتروا بمجد آبائهم وشفاعتهم فعصوا ربهم؛ زال ملكهم وأخذه العرب. وأنك قلت: إن هذا يفيدنا نحن، لأن كل أمة تنام كسلاً عن الأعمال العامة يعتورها الانحلال ويؤخذ ملكها، وإن أمم العرب لما فتحوا بلاد الله قام أبناؤهم، وهم

نحن وأمثالنا فاغتررنا بمجد الآباء، فهذا يوقظنا، وقد لخصت ما قاله الغزالي في غرور كثير من العباد والعلماء والأغنياء والصوفية فتفرقت الأمم شيعاً، كل هذا بمناسبة قوله تعالى: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[آل عمران: ٢٤].

أليس هذا يبعث فيك حماسة أن تسمعنا ما يخطر لك مما ستكتبه في الملحق الذي وعدت به؟

فقلت: بلى وسأتكلم في العدد القادم إن شاء الله على الجواب عن هذا السؤال تحت عنوان ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول سورة من القرآن بعد فاتحته مفتاح العلوم التي جهل أكثرها الآباء فزال ملكهم، وسنعلمها الأبناء فيرجع ملكهم، وبالله التوفيق. فهاك الآيات التي بدأت بحروف (ا ل م) وقد تضمنت أكثر العلوم المطلوبة في زماننا وهي:

(١) ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: ١٠٦].

(٢) ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٠٧]. هاتان الآيتان تفيدان أن التوحيد لا يتم إلا بدراسة علوم السماوات والأرض، وهي العلوم الطبيعية ونظام السماوات والفلك.

(٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾[البقرة: ٢٤٣] الخ. في هذه الآية الحجر الصحي المعروف، وتفصيل هذا المقام في كتاب «الجواهر في تفسير القرآن»، الجزء الأول.

(٤) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[البقرة: ٢٤٦] الخ. وفيها: (أ) قوله تعالى: ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ ﴾[البقرة: ٢٤٧]. وهي تشير إلى أهم أركان الدولة، وهي القوة كقوة الجيش والعلم. (ب) فيها مسألة أن من شرب من النهر جبن، ومن ترك الشرب قهر العدو. ويؤخذ منه أن نصر الأمم يتوقف على العفة، وترك الشهوات لحفظ القوى.

(٥) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾[البقرة: ٢٥٨]. وفيها: (أ) علم الكيمياء في مسألة الطير ويتبعه سائر العلوم الطبيعية، فهذا يعلم الناس أن الله على كل شيء قدير. (ب) وفيها علم التشريح المأخوذ من مسألة الحمار، إذ يقال لعزير: ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: ٢٥٩].

(٦) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ ﴾[آل عمران: ٢٣] الخ. وفي هذا المقام عدم الاتكال على المجد القديم، ونبذ كل غرور بنسب أو علم، وذلك كله يوجب تصدع الملك وذهابه، ومن أراد هذا المقام فليقرأه في سورة «آل عمران»، إذ يرى أن اليهود في زمن النبوة زال ملكهم بسبب اتكالهم على آبائهم وشفاعتهم، أو تحديد زمن العذاب يوم القيامة، أو نحو ذلك، فكان هذا الغرور سبباً لزوال ملكهم، وهذا قوله تعالى في هذا المقام: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[آل عمران: ٢٤]، ونظير هذا الغرور ما اغتر به ضعاف المسلمين من عباد وصوفية وعلماء وغيرهم، وهم الذين أوضحهم الغزالي في «الإحياء»، وذكرناهم هناك وبينا كيف يكون اتحاد هذه الطوائف كلها، وأن هذه القصة يراد بها تهذيبنا نحن في زماننا.

(٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]. في هذا علم النبات، فبه يعلم الإنسان معنى أن الله لطيف ومعنى أنه خبير.

(٨) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [لقمان: ٣١]. وفي هذا علم السفن والطرق البحرية وأنواع السفن التجارية والشراعية والكهربائية، وبهذا يعرف الإنسان نعمة الله ويحبه بشرط أن يكون صبوراً على المشاق دارساً ذلك دراسة تامة حتى يعرف هذه النعمة، وهذا معنى قوله في آخر الآية: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١].

(٩) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ [الحديد: ١٦] الخ. في هذا الحث على دوام التذكير للأمة بدينها وبأحوالها العامة والخاصة، وبالمواعظ المؤثرة.

(١٠) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]. وهذه تدل على أن الأمة الظالمة لا بد من أن تذل وتزول كما حلّ ببعض أممنا القديمة، كما في آية أخرى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢].

(١١) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦] الخ. ويؤخذ من هذه أن آلام الناس لارتقائهم وهي دروس تعلمهم أن ينقذوا غيرهم مما أصابهم هم ونجوا منه.

(١٢) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩] الخ. وفي هذا الحث على قبول العلم والهداية وعدم العناد.

(١٣) ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٧-٣٨]. وفي هذه الآية علم الأجنة، وهو علم البيولوجيا.

(١٤) ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]. فيه عظة للناس بأنهم لا يتركون حياتهم سبهللاً.

(١٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]. في هذا علم النبات وعلم طبقات الأرض وعلم الحيوان وعلم حديث، وهو علم الألوان الذي لم يظهر في الأمم الغربية إلا منذ نحو ثلاثين سنة.

(١٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥] الخ. وفي هذا الحث على مناظر الظلال، وقد بسطنا الكلام فيها في كتابنا «الجواهر»، وأبنا هناك حسابها ونظام مثلثاتها وبدائعها، وفي كتاب «نظام العالم والأمم» ترى كيف كانت الظلال في امتدادها مبنية على الأعداد من حيث جمعها وترتيبها وطرقها، فينتج هناك مثلثات متناسبات بديعات، وهي يعوزها إيضاح لا يتسع له هذا المقام. وسنتكلم في العدد القادم إن شاء الله على آيات أخرى مبدوءة بهذه الحروف الثلاثة (ا ل م) التي تشير لها ﴿الٓمٓ﴾ في أول «البقرة» ونحوها، تذكيراً

لنا نحن في زماننا أن ندرس ما جهلناه وعرفته أوروبا فذهب مجدنا، فليرجعه الشبان الآن بحب العلوم والمعارف وكل آت قريب.

(١٧) قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝٤٤ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[إبراهيم: ٤٤-٤٥] الخ.

(١٨) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾[السجدة: ٢٦] الخ. وهاتان الآيتان (١٧و١٨) تبعثان في نفوس المسلمين بعدنا أن يقرؤوا تاريخ الأمم، لا سيما أولئك الذين سكنوا ديارهم بعد فناء تلك الأمم التي خلت، وإلا فكيف يقال لهم: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾[إبراهيم: ٤٥]، وكيف يكون التبيّن إلا بقراءة تاريخهم ودراسة أحوالهم ليتنزهوا عن الخبائث التي أورثت من قبلهم الدمار والهلاك، فإن للجو والأحوال العامة في الأقاليم تأثيراً على النفوس، والعلم والمعرفة يحملان الناس على الرقي في الفضائل والتنحي عن تلك الرذائل.

(١٩) ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[البلد: ٨-١٠]

النجدان: طريقا الخير والشر. في هذه الآية علمان:

أولهما: علم التشريح، فإن دراسة العين مثلاً تبهر العقول وتدهش أولي الألباب، يقول الله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١]، ويقول في آية «البقرة» كما تقدم: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: ٢٥٩] ننشزها: نرفعها.

وأقول: إن هذا العلم لن يؤتي ثمرته الناضجة بغير التعمق فيه، ومن أراد أن يبتهج بنعمة العلم والحكمة في علم التشريح فلينظر أمثال ما تجلى في قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١]، وفي أمثال قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾[ق: ٦]، إذ تتجلى له صورة العين مصورة بالتصوير الشمسي، وقد تبدت في هيئة بديعة بحيث ترى تسع طبقات، وآخر طبقة منها وهي الشبكية لا يزيد سمكها على سمك هذه الورقة، ومع ذلك تراها مقسمة عشرة أقسام، وآخر قسم منها وهو الذي يلي الدماغ فيه ثلاثون مليون مخروطاً وثلاثة ملايين شكلاً أسطوانياً كل ذلك لطف وحكمة ودقة في الصنع لكي تنقل الصور الخارجية المرسومة في العين إلى محل الإحساس في الدماغ، وهذا هو العجب الذي به نعرف معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾[البلد: ٨] الخ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١]. ومن اطلع على ما كتبناه في تفسير سورة «فاطر» وفي سور أخرى غيرها أدرك بالمعاينة سر قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ﴾[البقرة: ٢٥٩]، وإذ ذاك يفهم فهماً يقيناً لا تقليداً كيف يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: ٢٥٩].

** وما راءٍ كمن سمعا **

هذا هو العلم أيها المسلمون، وهذا هو اليقين، أما الدراسة اللفظية فإنها أضاعت أمماً وأمماً، وقتلت نفوساً ونفوساً.

اللهم إني أبرأ إليك من الكتمان، فقد أفرغت جهدي في التحذير من الجهل والغفلة والنوم العميق الذي أضر بأمتنا الإسلامية قروناً وقروناً، وأكثر القوم في غيهم يعمهون.

وثانيهما: علم النفس الحديث فادرسوه أيها المفكرون في الأمم الإسلامية، فإن قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[البلد: ١٠] أي: طريقي الخير والشر، يرجع إلى جميع الغرائز التي يتصف بها الطفل في أول حياته، وهل هي خارجة عن الخير والشر؟ كلا، فالغريزة إما للخير، وإما للشر. وهما النجدان المذكوران في الآية، ومن أراد استيفاء هذا المقام ومعرفة سر هذه الآية، فليقرأه في تفسير «الجواهر» في سورة «العلق» عند قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [الآيتان: ٤-٥]، فقد أبنا هناك آراء علماء العصر الحاضر في الغرائز المخلوقة مع الصبيان وآثارها في الخير والشر، وهما النجدان المذكوران في هذه الآية، وهناك يتجلى لك آراء «كانت» الفيلسوف الألماني، وترى هناك ملخصه المعنون «كانت في التربية»، وترى التربية للطفل في جميع درجاتها وللفتى والشاب وهناك تتجلى لك الغرائز ويتضح لك هناك قوله تعالى هنا: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[البلد: ١٠].

(٢٠) ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[الشعراء: ١٩٧]. في هذا ما يشير إلى أننا علينا أن ندرس صحف الأمم كلها لاستخلاص ما يذكر فيها تشجيعاً للعلماء أو الملوك أو غيرهم، ليكون ذلك داعياً إلى الاستزادة من الخيرات والتنحي من الشرور.

(٢١) ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[القصص: ٥٧]. إن أهل مكة في زمن النبوة كانت تجبى إليهم الثمرات. وكان الحرم آمناً، ومع ذلك وصفهم الله بأنهم لا علم لهم بذلك، وهذا أمر عجب! يأمنون في حرمهم وتجبى الثمرات إليهم وهم يلمسونها ويأكلونها، ومع ذلك وصفوا بعدم العلم، وحقيقة الأمر أن الناس أكثرهم يعيشون ويموتون وهم مغمورون في النعم، ولقلة الفطنة والانغماس في الترف والنعيم لا يعلمون أن هذه نعم، بل يحسون في نفوسهم بحزن على ما فات وتوقع لما يشتهون، ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾[الحشر: ١٩] وليس يخرج الناس من ذلك إلا الدراسة والتعمق في الحكمة والعلم، حادث من تشاء وسامر من تحب من الجلساء، وذكرهم بالسماوات والأرض والنبات والحيوان والماء والهواء والحكومات المنظمة الحافظة للأمن في البلاد، فلا تجد أحداً منهم شاكراً لأنه مغمور في شهواته مغموس في هواجسه، فأين العلم إذن بالنعم؟ لا إحساس بالنعمة إلا حيث تكون الدراسة، لا يعرف نعمة الله في النبات إلا من درسه دراسة تفصيلية خاصة، وكذا الماء والهواء والشمس والقمر والأرض، إن الغفلة مستحكمة والنفوس نائمة، فلتستيقظ النفوس ولتحيى القلوب، هذا ما يشير إليه قوله سبحانه هنا: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأنعام: ٣٧]. ونكتفي بهذه العجالة السريعة والخاطرة السانحة، وللمقام عود إن شاء الله تعالى. ونسأل الله أن يبصر المسلمين بحقائق ما يبصرون من جمال الخليقة ومحسنات الكون، وبالله التوفيق.

(٢٢) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾[الشعراء: ٧]. هذه الآية تحث على دراسة علم النبات وفيها نكتة بديعة، وهي الإشارة إلى ذكور الزهر وإناثه التي تلقح بطريق

الهواء أو الماء أو الحشرات، وهناك بحر واسع من العلم وجمال وبهجة وإشراق تجده مشروحاً بالصور الشمسية في سورة «الحجر» من كتابنا، والعجب كل العجب من أمتنا الإسلامية التي يخاطبها الله بقوله، ثم نحن لا نرى الأشياء على وجهها الحقيقي وكنهها الطبيعي، فلا نصل إلى الغاية المنشودة من العلم وهي الابتهاج بالحقائق والوقوف على الدقائق وإدراك السر المصون الذي كشفه الله الآن للناس فعرفه قوم وغفل عنه آخرون.

انظر إلى الجمال الإلهي البديع الذي تجلى في الأشجار والأزهار والأوراق وحسابها البديع المدهش، الذي تجلى في قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾[الحجر: ١٩]، إذ ترى هناك دوائر هندسية منظمة ترسمها الأوراق على الجذوع وعلى الفروع دوائر فوق دوائر، وبين كل ورقتين ٧٢ درجة من الدوائر البالغة ٣٦٠ درجة، وذلك في شجرة التفاح، وأكثر الناس يأكلون التفاح ولا يعقلون ما في أوراقه من النظام البديع والنور الإلهي الذي يتجلى هناك في تلك الأشكال الحلزونية ذات الحساب العجيب، وتلك النسب البديعة بين أوراق الأشجار جميعها. سبحان الله

** وما راءٍ كمن سمعا **

يقصر العلم ويعجز البيان عن إيفاء هذا المقام حقه، فمن أراده فليقرأه في تفسيرنا عند تلك الآية المتقدمة، فهناك يدرك هذا السر المصون.

وهنا حكمة أخرى عجيبة بل سر مصون، وهي ما تجلى في قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ ﴾[الأنعام: ٩٩]، فإن الثمر إنّما يكون من الزهر، والزهر ذكر وأنثى، وتقسيم النبات لم تقم قائمته إلا على الذكور والإناث من الزهر، وبه بطل التقسيم القديم، وهذا سر قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾[ق: ٧]. ومن أراد أن يبتهج بذلك الجمال فليقرأ ما كتبناه في سورة «عم»، وفي قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴾[عبس: ٢٤-٢٦] الخ، فإنه يرى هناك صور أكثر النبات بالتصوير الشمسي، ويدهش من الجمال البديع والصنع الجميل والحكمة البالغة في الأزهار وتعداد أوراقها وأعضاء تناسلها حتى يدرك أنه في مملكة عجيبة، وهناك فقط يفهم قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً ﴾[الحج: ٦٣] الخ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، وهناك يدرك كنه اللطف الإلهي والحكمة في نظام النبات.

(٢٣) ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴾[ق: ٦].

(٢٤) ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾[ق: ٧-٨].

(٢٥) ﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴾[ق: ٩].

(٢٦) ﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴿١٠﴾ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾[ق: ١٠-١١] الخ الآية.

تطلب آية (٢٣) علم الفلك بحذافيره، وليعلم المسلمون أن الله يقول: ﴿ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا ﴾[ق: ٦] فلمَ عبر بـ«كيف»؟ أليس هذا هو الذي يبحث عنه الناس في الكرة الأرضية، ويفكرون في تجاذب

الشموس والسيارات، ويطلعون على كيفية دوران بعضها حول بعض كما يدور السالب حول الموجب في الذرة الصغيرة التي تشبه الشمس وسياراتها جاريات حولها! إن التعبير بـ« كيف » أمره عجب في زماننا، وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧-١٨] الخ الآيات، أليس هذا كله هو المنهج الذي توجه إليه نوع الإنسان الآن، فهاهم أولاء يبحثون في العناصر التي تركبت منها الكواكب والشموس وذلك بتحليل ضوئها، وبهذا الضوء يعرفون نفس العناصر التي تركبت منها الكواكب كما يعرفون عناصر الأرض، هذا في عالم السماء، أما في عالم الحيوان فإنهم يشرحونه ويبحثون عن تفاصيل أجزائه وعظامه وأعصابه وشرايينه وأوردته وجميع التفاصيل التي في الجسم، هذا هو التعبير بـ« كيف ». وليست مباحث العالم إلا بأمرين اثنين: الكيفية والكمية. أما الكمية فهي المقادير، وهي العلوم الرياضية لأنها جميعها ترجع إلى مقاييس الأشياء وحسابها. وأما الكيفية فهي جميع أوصاف المادة وهي العلوم الطبيعية.

فإذا قال الله لنا: « كيف »، فما ذلك إلا أوصافها وأحوالها وتفاصيل أجزائها ونسبة بعضها إلى بعض، وهذا هو الذي ظهر في آية: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾[البقرة: ٢٥٩]، وهنا يقول تعالى: ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾[ق: ٦].

إن على المسلمين عملاً عظيماً ومستقبلاً لا بد من تأسيسه والقيام بحقه. يا أيتها الأجيال القادمة، هذا هو دين الإسلام، الله يقول لكم في السماء: ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾[ق: ٦]، ويقول في حمار العزير: ﴿ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾[البقرة: ٢٥٩] كما تقدم، ويقول في الجبال: ﴿ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾[الغاشية: ١٩]، ويقول في الأرض: ﴿ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[الغاشية: ٢٠]. فعليكم أن تجدوا في البحث والتنقيب في علوم الأمم شرقاً وغرباً، وتفكروا لتزدادوا حباً في ربكم، وعلى أهل الجيل الحاضر أن يبثوا هذا الهدى بين أبناء الأمة الإسلامية المتأخرة حتى تتهيأ النفوس وتستعد لتلك المباحث وتؤسس ما عليه أبناؤهم يبنون مجدهم في مستقبل الأيام.

في آية (٢٤) علم طبقات الأرض وعلم الجغرافيا الطبيعية والاقتصادية وغيرها، وكذا علم النبات. وفي آية (٢٦) علم السحاب والمطر والهواء، وفي آية (٢٦) بقية علم النبات وهو الشجر.

(٢٧) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦]. في هذه الآية علم السياحة في الأرض بالجسم والعقل معاً، وأن ذلك نور للبصيرة. ثم إن أقل السياحات الحج، وقوله تعالى: ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦]، وختم الآية بقوله: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] تذكرة للمسلمين أن يكون سفرهم مفيداً لعقولهم، فلا يذر المسافر شيئاً مما رآه إلا فكر فيه وكتب مذكرة عنه إن كان من أهل العلم، وإلا رجع كأنه لم ير ولم يسمع. أسفاً على الأمة الإسلامية تلك الأمة التي تركت وشأنها فلم يذكرها واعظ، ولم يعلمها قوادها فأصبحت أضحوكة الأمم.

يعيش الطالب في دراسة العلم الفقهي وعلوم اللغة العربية والأصول مدة دراسته، ويخرج من ذلك وهو لا يذكر بأن يسير في الأرض ولا أن يفكر فيما فيها من العجائب، ويقتصر من العلم الديني على

علم الفقه وحده المشتمل على مائة وخمسين آية من القرآن، أما أمثال هذه الآية فإنها متروكة للطالب نفسه، وهذا كان في الأيام السابقة، أما الآن فأنا موقن أن جميع المعاهد الدينية في مصر وغيرها قد استيقظت لهذه الحكم والقرآن، وإن كثيراً من طلاب العلم بالمعاهد الدينية في الجامعة الأزهرية قد تنبهوا لهذه المسائل هم وأساتذتهم، وهذه حركة مباركة وشجرة خضراء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

(٢٨) ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾[الفرقان: ٤٠]. تقدم نظير هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ ﴾[طه: ١٢٨]. وهذه تذكر الناس بقراءة أخبار الأمم السابقة والاعتبار بها كما تقدم.

(٢٩) ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[الشرح: ١]. فيها معرفة حق النعمة والشكر لله باستعمالها فيما خلقت له، ومعاملة عباد الله بمثل ما عامل الله عبده به، فمن كان فقيراً فأغناه الله، أو كان ذليلاً فأعزه الله، أو كان جاهلاً فعلمه الله، فهؤلاء أحق الناس بأن يواسوا غيرهم بالمال أو بالجاه أو يعلموهم العلوم التي كانوا يجهلونها. سبحانك يا ربي، خلقتنا في الأرض وجعلتنا خلفاءك فيها، وخاطبتنا فقلت: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾[الأنعام: ١٦٥]، ثم إنك أنت هديتنا النجدين وربيتنا تربية خاصة، بحيث نعرف طعم الذل أو الفقر أو المرض أو الجهل، ثم تغدق علينا النعم، وكأنك تقول لنا: هاأنا ذا يا عبادي أريتكم أنواع النقص ثم كملتكم ولم أكتف بإحالتكم على كتابي المقدس، كلا، بل بلوتكم بالشر والخير، وقلت لنا: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[الأنبياء: ٣٥]، فأنت بابتلائنا بالضدين تمتحننا، أنقوم بحق النعمة فنصرفها فيما خلقت له، وننقذ إخواننا من الضراء التي كنا فيها؟ أم ننسى تلك النعمة التي كنا فيها ويقول كل منا: نفسي نفسي؟ اللهم إنك حكيم، وحكمتك وضحت وضوح الشمس في رابعة النهار عند المفكرين، وتخاطب نبينا صلى الله عليه وسلم وقدوتنا الأعظم فتقول له: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[الشرح: ١-٤]، ثم رتبت عليه أن قلت: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾[الشرح: ٧-٨]، كما قلت في السورة قبلها: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾[الضحى: ٦-٧] الخ. فأبنت له اليتم وعدم العلم وعدم المال، وأنك منحته الكمال في هذه الثلاثة، ثم كلفته بعد ذلك أن يراعي اليتيم والسائل ويعلم الجاهلين.

سبحانك يا الله، علمتنا بطريقتين: بطريق الدراسة العلمية والدينية، وبطريق المشاق التي نعانيها في الحياة من آلام وبؤس وجهل، كل ذلك لنقوم بالخلافة في الأرض ونساعد المجموع، هذه هي الحياة، وهذا هو دين الإسلام، وكل هذا مندمج تحت: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾[الشرح: ١]، و﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا ﴾[الضحى: ٦] الخ.

و﴿ الٓمٓ ﴾ التي ذكرت في أول البقرة رمز لجميع الآيات التي في أولها (ا ل م) كما قدمنا، وإنما ذكرناه هنا بعدما شرحناه أولاً لطول المقام الذي ينسى، فعلى المسلمين أن يفكروا في أمثال هذه الآيات.

إن من جهل أنه خليفة ربه فيما خلق له في هذه الحياة فإنه يقصر في عمله، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف: ١٢٩].

(٣٠) ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[الأعراف: ٢٢]

وفي هذه الآية تحذير من الغرور بخوادع اللذات والشهوات والأغراض، وخداع كل مضل يشبه المسيح الدجال فيأتي للإنسان بالشر في صورة الخير، فيوهمه أن السعادة بالمخدرات والمشروبات الروحية، أو في أن يحشد المال لنفسه بظلم أهل وطنه، فيخدم الأعداء ظاناً بغفلته أن المال الذي يناله بذلك يعطيه سعادة الحياة، فيعيش منبوذاً شقي الضمير الذي يعذبه بغضب من ظلمهم عليه، وهو في نيران تتلظى هذه الحياة، ثم بعد الموت يعرف مصيره، إن قوله تعالى في آدم وحواء: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾[الأعراف: ٢٢] الخ الآية، ليس القصد منه فيما نحن بصدده أن نعرف القصد بعد حفظها أو نعرف بلاغتها ونقف عند هذا الحد، كلا ثم كلا. وإنّما القصد أن ندرس أنواع الغرور التي تنتابنا في هذه الحياة الدنيا، وندرس الأمم والأشخاص ونفهم مقاصدهم لنعرف ما يريدونه منا، فكثير من رجال الديانات جميعها يتظاهرون بالصلاح وقد أخفوا في باطنهم العلو والكبرياء ليجمعوا المال أو ينالوا الجاه أو الملك، فكل ذلك سمة المسيح الدجال، لأنه يشبه المسيح بحسب ظاهره، وهو الصلاح، ولكن طلب المال أو الجاه أو الملك كل هذا يدل على أنه دجال، وهذا كله سر قصة آدم.

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[الأعراف: ٢٢].

ومن أعجب العجب أننا في الصلاة نقول: اللهم إنا نعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال. لسنا نقول: إن هؤلاء الشيوخ الكذابين الدجالين الذين يجمعون المال ولا علم عندهم إلا الترهات والخرافات أو أولئك الذين نالوا الملك بالدعاوى الكاذبة وما أظهروه بما يشبه الكرامة وخوارق العادات التي كانت على غير حق لأنهم ليسوا أولياء الله، لا نقول: إنهم هم المسيح الدجال، كلا. بل هم على قدمه يسيرون، وعلى منهاجه ينهجون، ويظهرون ما يشبه خوارق العادات ليسيطروا على الناس، فهؤلاء كلهم ممن أمرنا الله بأن نبتعد عنهم ونهانا عن اتباعهم وعن الاغترار بهم. إن الذين قتل المسلمين جهال ادعوا العلم فغشوا على عقول الجهلاء فتركوا حقائق الدين، ومنهم من يحقر علماء الدين ظناً منه أن كلام شيخه الجاهل حق، وأنهم عرفوا باطن الدين، وأما هؤلاء العلماء فإنهم لا يعرفون إلا ظواهره، وهذا فرق الأمة وأضل أغلب العامة، فأمثال هؤلاء إذا سئلوا عن نفوسهم وعن تشريح أجسامهم وهما حولهم من النبات والحيوان والسماء والأرض فإنهم لا يجيبون، ويقولون: نحن عرفنا الله، فنقول لهم: أيها القوم إن هذا حرام عليكم، معرفة الله تعالى إنّما تكون وسيلتها النظر في مخلوقاته، ومن وصل إلى حبه والغرام به يجتمع عليه في الآخرة، أما من لم يحبه في الدنيا واكتفى بالإيمان وحده وغفل عن مخلوقاته وجمالها فإنه يموت ناقصاً، وهل مثل هذا ينال الحظوة العظمى فيرى ربه يوم القيامة؟ وإنّما يراه من أحبه في الدنيا، وحبه في الدنيا لا يتم إلا بالنظر إلى جمال صنعه، وإن شئت فاقرأ ما كتبته نقلاً عن الغزالي في آية:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[فاطر: ٢٧] الآية.

ومن العجب أن المصطفى صلى الله عليه وسلم أبان في الأحاديث الشريفة أن المسيح الدجال يفعل عجائب تشبه الكرامات وليست بكرامات، بل هي امتحان للناس ولعقولهم، فذكر أنه يأتي بنار وجنة، فمن دخل ناره فهو يدخل الجنة، ومن دخل جنته فهو يدخل النار. وذكر أنه يأتي بمن يقتله ثم يحييه، ومع ذلك لم يعذر ديننا من اتبعه، فهذه القدرة وهذه الخوارق التي تأتي على يد المسيح الدجال لا تكون حجة للعبد على اتباعه، ولا يعذر بل يهان لأنه خالف ما هو معقول في الدين الإسلامي. بناء عليه نقول: كل من خالف الشريعة الحقة ولم يكمل نفسه وأخلاقه واتبع رجلاً ناقص العلم جاهلاً بالدين والعقل فعكف بتعليمه على أوراده ونبذ العلم ظهرياً، فإنه ضلال، أين العلم إذن؟ لنقرأ الأوراد، لنذكر الله، هذا حسن، ولكن ذكر الله وحده يورث الأنس به، ولكن حبه لا يتم إلا بمعرفة العجائب كما لا نحب العالم إلا بعلمه لا بأن نذكر اسمه، وأنا أقول: إن في الأمة الإسلامية اليوم من شيوخ الطرق من هم معتدلون صالحون مستمسكون بالكتاب والسنة يأمرون الناس بالعلم والعمل، ولكن هؤلاء قليلون.

وأقول لجميع المسلمين: يجب على كل قائد أن يأمر مريديه بالتعلم وترقية النفس وجميع المدارك، ويعلمهم الاستقلال في العمل والعلم لا أنهم يتكلون عليه، فذلك ضياع للأمة وخسران مبين. فالطاعة العمياء التي لا عقل فيها ولا تفكير تعطينا آلات صماء لا نفع للأمة فيهم، ذلك كله تذكرناه عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾[الأعراف: ٢٢]، وقوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[الأعراف: ٢٢]، فإن هذا انتقل من آدم إلينا وأخذ الشيطان له أولياء من بني آدم فغرروا بالأمم، ومن هؤلاء المغررين الذين يبيعون المخدرات، والمشوقون إلى الأمور الكمالية التي تضيع مال الأمة، ومن الدجالين الأمم الكبيرة التي تقول للأمم الصغيرة: أنا أرفعك إلى العلا وأريد الإنسانية، وهي تريد قتلهم علمياً واقتصادياً وتبتلعهم. فالشيوخ الجاهلون هم إخوان الأمم المستعمرة، ولذلك نرى أن هؤلاء بالنسبة لتلك الأمم أشبه بالغربان تحوم حول بقايا ما أكلته السباع من اللحوم.

يا أمة الإسلام، اسمعوا مني واعلموا أن كل من ينيم عقولكم ويأمركم بالخضوع للمستعمرين أو يعلمكم الإسراف في المال أو في الشهوات؛ فإنه أشبه بالمسيح الدجال الذي حذرنا منه النبي صلى الله عليه وسلم، ودعونا الله في الصلاة أن يعيذنا منه، فهبوا للعلم وهبوا للعمل وانبذوا جميع الدجالين كفانا الله وإياكم شرهم.

(٣١) ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾[المؤمنون: ١٠٥-١٠٦].

في هذا بيان أن الأمة التي اختل نظامها فكفرت بأنعم الله؛ هي التي انغمس رجالها في الترف والنعيم، وحالت الشهوات بينهم وبين العمل بالعلم والإنصات بسماع التذكير والوعظ، ولذلك قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الواقعة: ٤٥-٤٦]، ومثل هذا يقال في قوم أذلهم الطامعون، فاحتلوا بلادهم، وحقروا أمرهم، ذلك لغلبة شهواتهم وميلهم للترف والنعيم.

(٣٢) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[الحشر: ١١-١٢]. في هذه الآيات شدة الحذر في السياسة العامة والخاصة، وسياسة الأمم الداخلية، وتحذير المسلمين من نفاق أهل وطنهم الذين يوالون الأعداء، فيجب الاحتراس منهم، والوقوف على دقائق أخلاقهم سراً وجهراً.

واعلم أن هذا الداء ملأ بلاد الإسلام الآن، فما من دولة احتلتها الفرنجة إلا رأينا طائفة من أهل البلاد يوالونهم، لا سيما بعض الرؤساء الروحانيين وأهل الثروة وغيرهم، فهؤلاء يخافون على أموالهم وعلى مناصبهم فيوالون الفرنجة، فليحذرهم المسلمون وليعلموا أن الشيوخ الذين اشتهروا بالصلاح كثير منهم يحافظون على مراكزهم بموالاة الفرنجة، فهؤلاء لا يخرجون عن أنهم نواب المسيح الدجال، وأن المسيح كما قلنا صادق وهو ابن مريم عليه السلام، ومتشبه به بمظاهر الصلاح والتقوى، وهو في الباطن يريد المال والسلطة، فهذا يسمى مسيحاً دجالاً لا صادقاً. ولا عبرة بما يظهر له من كرامات أو صلاح، فليست كراماته بأكثر من خوارق العادات التي تظهر على يد المسيح الدجال الحقيقي الذي هو أحد أتباعه وإن لم يعلم.

(٣٣) ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[نوح: ١٥-١٦]. هذه الآية منبع لعلم الفلك، وأنواع السدم، والشموس العظيمة، والمجرات، وآثار الجمال الإلهي الذي تجلى في تلك العوالم المدهشة البهجة، فلقد ظهر من الشموس ما تجلى بلون الحمرة وحدها، ومن الشموس ما يزيد عن شمسنا ٢٥ مليون مرة في الحجم، بحيث لو حلت شمس منها محل شمسنا لكانت أرضنا داخلة في حجمها، وهذه الشمس إحدى نجوم الجوزاء، ومن الشموس ما زادت حرارتها زيادة هائلة، حتى أننا لو وضعنا مقدار جوزة من حجمها على بعد أميال منا لأحرق الأجسام إحراقاً تاماً، ومن الشموس ما لها ضوء ولا حرارة لها البتة فهو ضوء بلا حرارة، وهناك عجائب لا نقدر أن نحصرها الآن، لأن كتاب التفسير جامع لأبدع ما لهذه العوالم من الجمال.

(٣٤) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا ﴾[السجدة: ٢٧] الآية. وهذه الآية تشير إلى علم الماء والأنهر والنبات.

(٣٥) ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ﴾[السجدة: ٢٦] الآية. وهذه الآية تقدم نظيرها في الحث على درس الأمم السابقة، وما السبب في هلاكها، لا سيما إذا كان المسلم يعيش في أرضها التي كانوا يسكنونها.

(٣٦) ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[المؤمنون: ٦٨]. فيها تحذير من عدم التدبر في القرآن.

(٣٧) ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[سبأ: ٩]. في هذه الآية النظر في علم الفلك والطبيعة، وعلوم النبات والحيوان، وكل علم بحيث تصير كلها علماً واحداً وهل هذا إلا علم الفلسفة بعد دراسة التاريخ الطبيعي، وأكثر العلوم لا سيما الرياضية.

(٣٨) ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[الشعراء: ١٨-١٩]. هذه الآية تذكر بحفظ الجميل للمربي الصادق، ولكن فرعون لم يكن مربياً صادقاً.

(٣٩) ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴾[المرسلات: ١٦-١٧]. فيها بيان عظمة الله وبطشه بكل حي، وهو بالكافرين أشد بطشاً.

(٤٠) ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾[طه: ٨٩]. في هذه الآية بيان أن التقليد يعمي ويصم ويغطي على العقول حتى تنكر المحسوس والمعقول معاً، وهذه أكبر الرذائل، فيجب أن يعلم المسلمون بطرق تجعلهم يفكرون تفكيراً استقلالياً من إبان نشأتهم، ودراسة هذه الدنيا كافلة بارتقاء عقولهم ومعرفة أسرار الدين ونبذ الخرافات، ذلك هو الصراط المستقيم.

(٤١) ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٠-٣٣]. في هذه الآيات علوم كثيرة: منها علم منشأ هذا العالم، والنظرية الحديثة القائلة: إن النظام الشمسي كان كرة نارية، فلما بردت انفصلت عن الأرض والسيارات عن الشمس، ودارت حولها كما كانت تدور، وهي لا تزال بخاراً في ضمن حجمها الكبير، وفيها أيضاً: علم البحار، وعلم السحب والأمطار، وعلم طبقات الأرض، وأن الجبال أشبه بعظام لهيكل الأرض، وعلم الطرق الأرضية، وعلم السماوات، وكيف كانت سقفاً محفوظاً، مع أن السقوف التي نعرفها لا تدوم كثيراً. وهذا السقف يدوم ملايين السنين.

ثم ختم القول بذم من أعرضوا عن هذه الآيات، وهي آيات السماوات وعجائبها، فليس يكفي المسلم أن يقول: آمنت، كلا. فالإيمان الخالي من الكمال ضئيل. قال الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾[العنكبوت: ٢]، ومما يختبرون فيه جميع العلوم، ومنها عجائب السماوات، وهذا الابتلاء للمسلمين السالفين انتهى بسلب الممالك منهم وإذلالهم.

الخاتمة

لهذا الحديث الذي جرى بيني وبين العلماء الذين قابلوني في جدة أيام الحج من السنة الماضية، وإنني لما ذكرت هذه الآيات من أسرار ﴿ الٓمٓ ﴾ التي في أول «البقرة» وغيرها حمدت الله عز وجل على نعمة العلم.

انتهى الكلام على ما تيسر من أسرار ﴿ الٓمٓ ﴾. فلنشرع في ذكر بعض الآيات التي تتضمن العلوم الرياضية والطبيعية فنقول: قال الله تعالى:

١- ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٢].

٢- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٩].

٣- ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[البقرة: ١٠٧].

٤- ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[البقرة: ١١٥-١١٧].

٥- ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٦٣-١٦٤].

٦- ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٥٥-٢٥٦].

ألست ترى أيها الأخ في هذه الآيات علوم الفلك والهواء والرياح والفصول الأربعة وحسابها واختلاف أيامها واختلاف لياليها وهكذا والسحب والمطر والبحار والفلك الجاريات فيها.

ألا تعجب من أنه كرر ذكر السماوات في هذه الآيات اثنتي عشرة مرة، وذكر المشرق والمغرب واختلاف الليل والنهار وإحياء الأرض بالنبات، وذكر خلق الحيوان وهكذا، أفلا يخجلنا نحن المسلمين أن يكون هذا كلام ربنا ونحن عنه معرضون؟ ألسنا الآن قد عطلنا هذه المواهب والنعم في الأرض وفي السماء؟ ألم يقل في هذه الآيات: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[البقرة: ٢٩] فنقول له: لا يا ربنا لا يا ربنا، كلا، كلا. نحن عالة على أوروبا وعلى الشرق الأقصى، الأمم المكتفة بنا تعلم هذا؟ لا يا ربنا نحن آمنا بك، نحن عرفناك، وأي معنى لهذه العلوم. فمتى عرفناك وآمنا بك كفانا، أما إنك تقول: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ ﴾[الروم: ٥٠]؛ فهذا النظر لا يعنينا وإنما يعني الكافرين الذين يريدون أن يؤمنوا. ثم خاطبت صاحبي قائلاً: أيها الأخ أليس من أعجب العجب أن علماء التربية في أوروبا وأمريكا قد أجمعوا على أن دارس هذه العلوم المغرم بها يصبح محباً ومغرماً بأهل وطنه وبإسعادهم، لأن هذا هو الخاصة لقراءة هذه العلوم.

ثم نرى الله في آية: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[البقرة: ١٦٤] الخ بعد ذكر الرياح والمطر والنبات والليل والنهار والسماوات والأرض يقول في هذا: ﴿ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٦٤] فذكر العقل، وبعبارة أخرى: إن هذه لها آثار في العقل. وبعبارة أوضح: إن العقول تربى بهذه العلوم كما تربى الأجسام بالأغذية، وبتربية العقول تزدان البلاد بآثار أولئك العقلاء، أليس هذا هو عين ما يقوله هؤلاء العلماء الذين يجمعون على أن العقول الخالية من تلك العلوم لا محصل لها ولا نتيجة. أف لقوم نائمين، أف لمن يقرؤون القرآن ولا يعقلون.

رباه قد أديت النصيحة وأنت أعنتني عليها، رباه هاأنا ذا قمت بما ألهمتني أن أبينه للمسلمين حتى يعيشوا مع الأمم، وهاأنا ذا صائر إليك في الوقت الذي تشاؤه، ولك الحمد على التوفيق، فارحمني بالإنابة وارحمهم بالقبول إنك أنت الرحمن الرحيم.

فقال صاحبي: هون عليك وخفف عن نفسك، ثم أفض القول في الآيات التي من هذا القبيل في «آل عمران». فقلت:

إن في «آل عمران» ثلاث عشرة آية تدل على هذه العلوم مثل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران: ١-٦].

٢ ـ ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران: ١٨-١٩].

٣ ـ ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[آل عمران: ٢٦-٢٧].

٤ ـ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[آل عمران: ١٨٩-١٩٢].

فانظر يا أخي وتعجب من القرآن ومن أمة الإسلام، يذكر الله الأرض والسماء وتصوير الأجنة في الأرحام ويبين أنه قائم بالقسط والعدل في ذلك، ويبين أن الليل والنهار يلج كل منهما في الآخر، ولا يكون ذلك إلا بحساب يدل عليه أنه قائم بالقسط فيه كما هو قائم بالقسط في غيره، كإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي.

ثم نراه يصرح تصريحاً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض فيقول: إن أولي الألباب هم الذين يعرفون خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار معرفة ناشئة من تفكرهم في ذلك الخلق، وفي ذلك الاختلاف ويذكرون ربهم على كل حال من قيام وقعود وعلى الجنوب، ويستنتجون نتيجة صادقة، فيعرفون أن هذا عالم قائم بالقسط والعدل فلم يخلق باطلاً، فإن الباطل ما ينبى على غير أساس حكمة ولا علم ولا نظام. ثم يخاطبون ربهم بعد أن فرغوا من التفكير فيقولون: إننا نخاف من عذاب النار، فإن من عذبته بها فقد أخزيته، أليس ذلك داعياً حثيثاً لدراسة هذه العلوم كالفلك بجميع أنواعه وعلم النبات وعلم التشريح وعلم الحياة. الله أكبر، وضح الحق واستبان السبيل، فقال صاحبي: فأرجو أن أسمع ما في سورة «النساء». فقلت:

١ ـ ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴾[النساء: ١٧١-١٧٢].

فقال: وأي دليل هنا يدل على هذه العلوم؟ فقلت: إن الله يقول: إن ملكه يسع السماوات والأرض، والسماوات عوالم، وراء عوالم، ولقد ثبت الآن عند علماء الفلك أن من الشموس ما يفوق شمسنا (٢٥) مليون مرة، هذه الأرض الحقيرة التي هي أصغر من شمسنا ألف ألف مرة وثلاثمائة ألف مرة، فأين الأرض بالنسبة لتلك العوالم العظيمة، وكيف يمكن أن يكون له ولد يستعين به، وهو صاحب هذه المملكة كلها، وهاهنا نكتة خفية، وهي أن هذه الأرض التي يقول علماء عصرنا: إنها لو صغرت فأصبحت جوهراً فرداً؛ وأصبح عالمنا كله مصغراً على هذا النمط؛ لأصبحت العوالم كلها ألف مليون أرض كأرضنا بحالها الحالية، إذن أرضنا عدم بالنسبة للعوالم، فكيف يكون الولد الموهوم الذي هو ابن الله مختصاً بمكان هو بالنسبة لملك أبيه عدم محض وجوهر فرد بالنسبة لألف مليون أرض، إذن هذه خرافة، وأي خرافة؟ هذا سر من أسرار ذكر السماوات والأرض بعد ذكر المسيح ابن مريم، وإن هذه الجهالة عار على هذه الإنسانية. فيا أيها الأخ كيف يتسنى للمسلمين أن يقيموا الحجة بهذا على الناس إلا إذا قرؤوا هذه العلوم الفلكية.

رباه، إن الحق واضح والطريق مستقيم، ولكن أكثر الناس لا يعقلون، وأمة الإسلام غافلة نائمة. وهاأنا ذا يا رباه قد أوضحت لهم ما أقدرتني على إيضاحه، فأعنّي وارحمني واغفر لي، ووفق إخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى سعادتهم في الدنيا، وإلى حبك وإشراق أفئدتهم بنورك الذي أشرق وأضاء في سماواتك وفي أرضك، وأغدق علينا يا رب نعمك، فإننا عبيدك، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين، فلا تحرمنا من جمال أنوارك، واكشف الغطاء عن عقولنا وبصائرنا، إنك أنت الرؤوف الرحيم، النور الهادي ذو الجلال والإكرام.

قال صاحبي: فاذكر ما في سورة «المائدة» من هذه العلوم. فقلت: يقول تعالى:

١ ـ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة: ١٧].

٢ ـ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة: ٤٠].

٣ ـ ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٨) مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[المائدة: ٩٧-٩٩].

٤ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾[المائدة: ١١٦-١٢٠]

أليست جميع هذه الآيات مختومة بأنه على كل شيء قدير، وكيف تدحض حجة الولد وظهور هذه الترهات إلا بإظهار هذه القدرة، وهذه العظمة المجسمة في السماوات والأرض نتائجها على منوال ما جاء في السورة السابقة المختومة بسعة القدرة، هكذا هنا نرى هذه الآيات موجهات لما تضمنته تلك الآية من دحض الولد المنسوب لله، إذن هي مكملات لها مبينات لسعة قدرة الله تعالى.

يا سبحان الله، عجب عجاب! ذكرت السماوات والأرض في سورة «البقرة» و«آل عمران» لاتساع المدارك الإنسانية وارتقائها بالعلوم، ومعرفة سعة قدرتك وعلمك، وفي سورة «النساء» و«المائدة» ذكرت ذلك لاستنتاج تكذيب حصول ولدك، فإن العقول الإنسانية إذا تربت تربية عقلية علمية هدتها تلك التربية إلى أن الولد لله في العوالم خرافة، وكيف يحتاج للولد من له هذا الملك الواسع وهو نفسه حي لا يموت، والولد لمن يموت فيخلفه ويرثه، وأيضاً كيف يكون ذلك الولد المزعوم في أصغر بقعة هي كالعدم بالنسبة لوجود هذه العوالم الواسعة.

فقال صاحبي: كفى هذا الآن، فماذا جاء من هذه العلوم في سورة «الأنعام»؟ فقلت:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[الأنعام: ١-٣].

٢ ـ ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ
رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾[الأنعام: ١٣-١٨].

٣ ـ ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن
شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴾[الأنعام: ٣٨].

٤ ـ ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم
بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً
هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[الأنعام: ٤٦-٤٧].

٥ ـ ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ
إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم
بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ
رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾
قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن
يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ
ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ﴾[الأنعام: ٥٩-٦٥].

٦ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ
ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ
لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ
أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي
رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ
أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ
حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[الأنعام: ٧٣-٧٩].

٧ ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ
فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ

ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾[الأنعام: ٩٥-١٠٤].

فقال صاحبي: إن هذا المقام يعوزه إيضاح. فقلت: أيها الصديق تعجب، انظر كيف يقول في أول السورة: «الحمد لله»، ويذكر السماوات والأرض في حيز ذلك الحمد، ثم يذكر الظلمات والنور وذلك منشؤه السماوات، ثم يذكر خلق الإنسان وذلك من الأرض، وبعد ذلك يذكر إيضاح الظلمات والنور ونتائجها بالنسبة للخليل عليه السلام ونظراته الموجهة للسماوات وكواكبها، ثم يذكر آيات: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾[الأنعام: ٩٥] إلى آخره، وذلك إيضاح لعوالم الأرض تتميماً لما جاء في أول السورة من ذكر بعض ذلك، وهو خلق الإنسان من طين، وذكر هنا العلم بعد ذكر الليل والنهار وذكر الفقه بعد خلق الإنسان من نفس واحدة الخ. إذن هنا علم وهنا فقه.

ثم أتبعهما بمسألة المطر والنبات فيها وتفصيل الكلام فيها، وقال: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام: ٩٩].

إذن اجتمع العلم والفقه والإيمان في دراسة العوالم العلوية والسفلية وتفصيلها. وإذا كان آباؤنا جعلوا الفقه خاصاً بالأحكام الشرعية وحفظوا الممالك التي حكموها بالفروع والأصول فإنا نقتدي بهم، ونسأل الله لهم الدرجات الرفيعة، ثم نقول: لقد قاموا بما حملوا وحفظوا أممهم، فعلينا الآن أن نعلم هذه الأمم وندرس لها العلم والفقه والإيمان التي نص عليها القرآن، إن الفقه الذي نقرؤه واصطلح عليه أسلافنا فقه عملي، ولكن هاهنا فقه علمي.

فإذا نبغ أسلافنا في الفقه العملي وفي أصول الفقه فلماذا لا ننبغ نحن في الفقه العلمي؟ ولماذا لا نفكر في قوله تعالى:

١ ـ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[الأنعام: ١٤١-١٤٢].

أوَليس مما يشجع على علوم الفلك وعلوم الحساب والمطر والنبات قوله تعالى في سورة «الأعراف»:

١ - ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[الأعراف: ٥٤-٥٨]. فأول هذه الآيات تفصيل لعوالم السماوات المذكورة في أول سورة «الأنعام»، وآخرها تفصيل لعوالم الأرض المذكورة معها كما في فصل الأول في قصة إبراهيم، والثاني في: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ [الأنعام: ٩٥] الخ، ولا ينقص عن ذلك في الحض على دراسة الأرض وما عليها آية قبل هذه وهي:

٢ - ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠-١١]. أوَليس يؤكد دراسة تلك العلوم ويوجبها ما جاء في قوله تعالى في سورة «الأعراف» من الاستفهام التوبيخي إذ يقول تعالى:

٣ - ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. ويتمم ذلك ما جاء في آخر السورة.

فلنقف هاهنا وقفة ونقول: أليس هذا كلام الله المقدس؟ كيف يفصل الله في سورة «الأنعام» بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ [الآية: ٩٥] الخ؛ ما أجمله أولاً، أفليس هذا عجباً عجاباً.

سبحان الله أين العلم، وأين الحكمة، وأين دراسة السماوات والأرض، وأين دراسة العوالم الأرضية؟ أيها المسلمون إني أنذركم، الشرق الأقصى على يمينكم وأوروبا المسلحة على يساركم، ورب العرش من فوقكم، أين المفر أيها المسلمون، عار والله أي عار هذا النوم العميق؟ اسمعوا اسمعوا. كيف يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الأنعام: ٩٧] ثم يتبع ذلك بقوله: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٧]، هل نحن انتفعنا بهذه الآية؟ هل انتفع المسلمون اليوم بالنجوم، تلك النجوم التي درستها أوروبا، إنكلترا وفرنسا وألمانيا والمجر وإيطاليا، كل هؤلاء يدرسون تلك العلوم في مدارس خاصة فيتعلمها شبان يقودون السفن في البحار، فإنه محال عليهم أن يسلكوا السبل في لجج المحيط الهادي والهندي والبلطيق وبحر الظلمات وجميع المحيطات إلا بالاهتداء بالبوصلة ومراقبة النجوم الثوابت، أليس هذا معنى القرآن، ويقول الغافلون منا: هانحن أولاء عرفنا الله وكفى، أمعرفة هذه أم جهالة؟ فليقدس قوم شيوخهم وليرفعوهم إلى مصاف المقدسين.

ولكن خبروني أيها المسلمون أين الدراسة أين العلوم؟ أنعيش مغرورين نائمين، يا حنبلي ويا وهابي، يا من تريد تخليص العقيدة من الزيغ والضلال والشرك، ويا إمامي يا من تريد أن تتبع نهجاً خاصاً وتخالف الوهابي الحنبلي، انصتا إلي واسمعا ما أقول، أليس الله يقول: إنه أنشأنا من نفس واحدة، فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون، فهاهنا علم بالنجوم وفقه بعلم التشريح وعلم الحياة، وهذان يستلزمان علوماً كثيرة ترجع كلها لدراسة عوالم النبات والحيوان وأصنافهما.

عظة وتذكير

ولما كان الناس يقرؤون أمثال هذه الآية ولا يفكرون فيها نسمع الله يقول: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠٤-٢٠٦].

وفي سورة التوبة مجمل العلوم في آية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[التوبة: ١١٦].

آثار جمال الله وجلاله في سورة يونس

هنالك قال صاحبي: لقد جمل ما وصفت، وحسن ما صنعت، فقد أبنت أن حمد الله راجع لخلق العوالم وذلك في سورة «الفاتحة»، وقد فصلت العوالم إلى أرضية وسماوية بعد ذكر الحمد في «الأنعام»، ويذكر الظلمات والنور أولاً، ويذكر خلق الإنسان من نطفة ثانياً، ثم زاد تفصيلاً عروج الخليل وارتقاؤه في سلم العلوم والمعارف الإلهية، وتبيان الحب والنوى وشرح تلك العوالم، ولكن أريد أن أسألك أمراً جديراً بالذكر، وذلك أن أمتنا الإسلامية كثرت فيها الأولياء والصالحون وعندهم علوم لدنية لا نعرفها، وهذه العلوم تكون نتائج العبادة، فأما قراءة العلوم على النمط الذي تريده؛ فذلك شاق عسير ولا يوصلنا إلى الحقائق العلية. فقلت: أيها العزيز واحسرتاه على أمتنا، واحسرتاه على شبابنا، هذا هروب وفرار من ميدان الحرب والنزال.

الله أكبر. من لا يتقن المحسوسات لا يتقن المعقولات، نسي كثير من أمم الإسلام أنفسهم وجهلوها فناموا وتركوا العلوم كسلاً وتعللوا بما فوق طاقة الإنسانية، وقد سبقتهم الأمم وهم جاهلون وأصبح جميع أهل الديانات القديمة أعلم بالعلوم التي أوجبها ديننا وحده، وأكثر المسلمين كانوا لا يعلمون كل شيخ طريقة، يقولون لأتباعه: إن نجاتكم محققة باتباع أورادي، ويعول كثير على رؤساء طوائفهم وهم مفتونون مغرورون مخدوعون معذبون بالنقص الفاحش والجهل الفاشي، ﴿ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[آل عمران: ٢٤]، هل يغني هؤلاء أن يقولوا: تقدس شيخنا؟.

فإذا قال قوم ممن ينتمون لأمم الإسلام: إن أسرار الربوبية تنزلت على أحد عباد الله، أو أن فلاناً ولي الله، فهل هذا الاعتقاد يفيدهم علماً بهذه العوالم الجميلة.

يا قوم ليس هذا يغنيكم، لا تهربوا من العلوم ادرسوها وأنا موقن أنكم بدراستها تتحدون، لأن عقولكم إذ ذاك تكون متقاربة.

١ ـ فإنكم إذا سمعتم الله يقول في سورة «يونس»: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٣-٦]

٢ ـ ويقول: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[يونس: ٣١-٣٢].

٣ ـ ويقول: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[يونس: ٦١].

٤ ـ ويقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٧ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[يونس: ٦٧-٦٨].

أقول: إذا سمعتم الله يقول هذه الآيات تدهشون أشد الدهش، وتقولون: حقاً وصدقاً إننا قوم غير عالمين، فهاهو الله قد ذكر السماوات والأرض كما ذكرها في أول «الأنعام»، وأبان أنه يتصرف فيهما وهو على عرشه، ويدبر الأمر ولا شفيع إلا بإذنه، ثم يقول: إنه جعل للشمس المضيئة والقمر منازل ليعلمنا عدد السنين والحساب، ويقول: إنه يفصل ذلك للعلماء لا للجهلاء، وإذ ذاك يتحسرون على أنفسهم ويقولون: إن الله جعل علم الفلك ومعرفة النجوم لقوم علماء، إذن نحن جهلاء على أي: مذهب كنا في دين الإسلام، فالاحتماء بالمذاهب الإسلامية والطوائف والرؤساء والشيوخ لا يدفع أننا جهلاء، نجهل ما فصله الله لنا، وما بينه من تعاقب الربيع والصيف والخريف والشتاء، وكيف كان النهار والليل قد استويا في خط الاستواء. فكان كل منهما (١٢) ساعة، وفي القطبين فكان كل منهما (٦) أشهر، وكانا فيما بينهما بمقادير تزيد عن (١٢) ساعة وتنقص عن ستة أشهر، فمنها ما هو شهر، ومنها ما هو أسبوع، ومنها ما هو أكثر، ومنها ما هو أقل، هذا واضح إيضاحاً تاماً في سورة «البقرة» عند آية: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[الآية: ١٦٤]، فإذا قرؤوا هذه الآيات المذكورة وجدوا أنه تعالى أخذ يشرح أمراً عجيباً بعد الكلام على السماوات والأرض وعلى الشمس والقمر وعلى اختلاف الليل والنهار، ما هو هذا الأمر العجيب؟ هو مسألة الغفلة عن آيات

الله، والرضا بالحياة الدنيا، وتباعد الفكر عن لقاء الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [يونس: ٧] إلى قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

هنالك يعجبون ويقولون: أين المناسبة بين لقاء الله والغفلة عن آياته بهذه العوالم؟ فنقول لهم: أيها الإخوة الأحبة، إن المتأخر مرتب على المتقدم، وذلك لأن هذه العجائب لأول وهلة تذكر بمن صنعها، بل تجعل الإنسان مغرماً بمشاهدته محباً لملاقاته، والغافل عن ذلك الجمال محجوب غافل نائم ساه لاه، يأكل ويشرب، ولا يعقل هذا الجمال لأنه أعمى البصيرة، فعينه في جنة المناظر، وقلبه في جهنم الغفلات، فواحسرتاه على تلك القلوب، وواأسفاه على تلك النفوس، نفوس تعيش ولا تعيش، وتصرع كما تصرع البهائم، ويأكلون كما تأكل الأنعام، وهذا قوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، وسيقول جاهل: هذا في الكفار، وهذه شنشنة أعرفها من أخزم، كلمة حق أريد بها باطل، نعم هي في الكفار، ولكن المسلم الذي عميت بصيرته فلم يدرس هذا الجمال وعاش تائهاً ساهياً ليس له مركز الشرف الأسمى في العلم، و الذي به يحب صانع العالم ويفرح بلقائه، فالفرح باللقاء مترتب على الحب، والحب لا يمكن إلا بالعلم والمعرفة، وهذا يوضح بأجلى بيان كما قررناه ذكر اللقاء بعد ذكر هذه العوالم، هذا بعض أسرار هذه الآيات، ثم أقول: انظروا أيها الأحباء إخواني في أمم الإسلام، انظروا كيف يذكر بعد ذلك التسبيح والتحميد، ويجعل نهاية الأمر أن الحمد لله رب العالمين.

ولا جرم أن الحمد قد تضمن ما تقدم كله، وهو نهاية النهايات، لأن الحمد لن يصح إلا بعد الحب، فحمدك للمحسن الذي لا تفقه إحسانه حمد لفظي، أما حمدك للمحسن بعد امتلاء قلبك بمعرفة إحسانه؛ فإنه حمد صادق مبني على الحب، وذلك الحب نتيجة الشعور بالإحسان وبالعظمة وباتساع السلطان والقدرة والمجد والجمال والبهاء، فيكون الغرام على مقدار العلم بذلك كله.

ولما ذكر في هذه الآيات أن الاكتفاء بالحياة الدنيا ناجم من الجهل بهذه العوالم وجمالها المشوقات للقاء مبدعها فصل ذلك في نفس السورة بقوله:

١ - ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٤-٢٦].

فالله بإبرازه جمال الكواكب وإشراق النجوم وإظهار هذه العوالم الجميلة يدعونا إلى دار السلام ولقائه، ويحذرنا من الغرور بزخارف الدنيا. فالفرح بالدنيا دال على نقص الإنسان وقلة تبصره ومعرفته وهذا قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] إذن ليكن فرحنا بأمر آخر، هاهنا وضحه، فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ [يونس: ٥٨] إلى قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. وقال:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾[يونس: ٦١] إلى قوله: ﴿ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[يونس: ٦١]. ثم قال: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾[يونس: ٦٢] إلى قوله: ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[يونس: ٦٥]، ثم قال:

٢ ـ ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَـٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾[يونس: ٦٦-٧٠].

فإذا كان الفرح بالدنيا جهالة، فإن الفرح بفضل الله وبرحمته التي تتجلى آثارها في الشموس والأقمار والكواكب والنبات والحيوان والجماد والجمال والبهاء والإشراق الساطع في العوالم العلوية والسفلية يقول: إن هذا هو الجدير بأن يفرح به، لأن هذا آثار رحمة الله، والآثار تدعو حثيثاً إلى حب المؤثر، فهذه خير مما يجمعون، ذلك كله تفصيل لقوله في أول السورة: ﴿ وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾[يونس: ٧]، بعد وصفه للجمال السماوي والعظمة الربانية هناك.

ثم ختم ذلك كله بذكر أولياء الله تعالى. إذن أولياء الله وخواصه هم المغرمون بهذه العجائب الفرحون بها فهم أولياء الله.

أما أولئك العاكفون على الدرهم والدينار والطعام والشراب الذين قصرت عقولهم عن إدراك ذلك الجمال، فلم يفرحوا به؛ فهم أولياء الشيطان وأولياء المال والولد والذكر والصيت، وهؤلاء الأولياء مبشرون بالعز والسعادة لاقتراب الملائكة من نفوسهم وحب الناس لهم، فيحسون بالمسرات باطناً وظاهراً، أما باطناً فبإلهام الخيرات وأنواع المعارف من عوالم الملائكة، وأما ظاهراً فبما يسمعون من الثناء في سائر الأوقات، لأنهم قائمون بخدمة المجموع يعلمونهم كما هم متعلمون، ويدلونهم على الخير الذي هم به متصفون.

ثم إني أقول: أيها الإخوان انظروا كيف يقول الله بعد ذلك:

٣ ـ ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[يونس: ١٠١]. لعلمه أن كثيراً من الناس لا يأبهون بتلك العجائب بعد هذا البيان في الآيات المتقدمة.

ثم انظروا أيها الإخوان كيف أعاد الله الكرة في أول سورة «هود»، فذكرنا بما قاله في أول «الأنعام» وما قرره في أول سورة «يونس»:

١ ـ ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ (٦) وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[هود: ٦-٧].

ثم كيف وضح ذلك فقال:

٢ـ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود:٥٦].

ونراه تعالى في سورة «يوسف» يقول على لسانه عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف:١٠١].

ثم إننا نراه سبحانه أعاد الكرة في سورة «الرعد» فقال:

١ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد:٢-٤].

فهاهنا وصف العالم العلوي والسفلي، ففصل ما أجمل منهما في آخر سورة «يوسف» قبلها في دعائه عليه السلام، كما فعل في السور المتقدمة من الإجمال والتفصيل، هل يعجبكم هذا أيها العلماء في الإسلام؟ أوليست هذه العلوم أرقى وأعلى من ضياع العمر في العلوم الجزئية اللفظية.

أيها العلماء الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وهابية وغير وهابية، ويا أيها العلماء الزيدية، ويا أيها العلماء الإمامية، سلام عليكم، سلام عليكم، بارك الله فيكم، أنتم جميعاً لا تختلفون في القرآن، أنتم جميعاً تقدسونه، انظروا يا أحبابي، انظروا في كلام ربنا، واعجبوا من تتابع هذه الآيات كيف يذكر السماوات والأرض والنجوم والشمس والقمر، وكيف يكرر ذلك في سور كثيرة، ويجمل ثم يفصل، ويقول ذلك لقوم يعلمون ويتفكرون ويؤمنون ويوقنون ويفقهون ويعقلون.

أيها الأحباب، هل أنزل الله هذه الآيات لغير فائدة؟ وما هذا الفقه، وما هذا العقل، وما هذا العلم، وما هذا الإيمان، لا تقفوا على ما علمتم، ولا تجمدوا على ما درستم، فهذا الجمود معيب.

الله أكبر، جلّ الله وجلت حكمته، وعمت أنواره، وأدهشتنا آثار جماله. سبحانك ربي، رفعت وخفضت، وأعززت وأذللت، وأعززت أمماً وأمماً بمعرفتك، وأذللت أمماً وأمماً بالجهل بك.

اسمعوا أيها الإخوان ماذا يقول الله أيضاً في سورة «الرعد»، يقول عجائب وعجائب، يقول:

٢ـ ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾[الرعد:٨-١٠].

٣ ـ ويقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[الرعد: ١٢-١٨].

٤ ـ ويقول: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[الرعد: ٤١].

فانظروا أيها الإخوان المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها كيف نراه سبحانه بعد أن فصل الكلام على الشمس والقمر، ورفع السماوات بغير عمد، واستوائه على العرش، يذكر لنا أنه مدّ الأرض وجعل فيها جبالاً شوامخ، ومن الجبال تجري الأنهار بالماء المنهمر عليها من المطر النازل من السحاب المحمول على الرياح الجاريات بالحرارة المرسلة من الشمس المذكورة قبل ذلك، وبالحرارة أيضاً يرتفع البخار من البحار والآجام والأنهار والبرك وجميع ما هو رطب في الأرض، كل ذلك مذكور بعد ذكر السماء والشمس، ليدلنا على الأسباب والمسببات.

ومما يدهشنا أن يقول بعد أن ذكر الشمس والقمر، وتدبير الأمر، والاستواء على العرش، أنه يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون، يا عجباً يا عجباً، الله يقول: أنا فصلت لكم الآيات، فصلت لكم الكلام على الشمس في هذه السورة كما فصلتها في سورة «يونس»، وقد أبنت لكم هناك أنني جعلت الشمس ضياء والقمر نوراً وقدرت المنازل لتكونوا علماء بالحساب وعدد السنين، وإنّما فصلتها العلماء لأنهم هم الذين يفهمون هذا التفصيل. وهناك قلت: إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والفصول الأربعة داع حثيث إلى التقوى، وهناك أبنت لكم أني لا يغرب عن علمي مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها، كل ذلك محسوب عندي، وأتبعت ذلك بأن أوليائي لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فهذا التفصيل في هذه السورة وفي سور غيرها إنّما جعلته في القرآن لعلكم بلقاء ربكم توقنون.

الله أكبر، الله أكبر، هاهنا هاهنا بيت القصد، هاهنا هاهنا نهاية الحكمة، هاهنا مقاصد الحياة في هذه الأرض، يقول العقلاء والحكماء في الأرض: لماذا نعيش؟ ولماذا كل هذه الدول والممالك، والممالك الحيوانية والنباتية والشموس والأقمار؟ ولمَ كانت هذه الديانات، والأعمال في الأرض والأجيال والآمال، ما نتيجة ذلك. أجاب الله عن ذلك كله بقوله: ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: ٢]. هذا هو السر في هذا الوجود، ويا عجباً يا ربنا تقول لنا: إن هذا هو سر الإيقان بالوجود، والإيقان فوق الإيمان، فكما أننا نراه في قصة الخليل في سورة «الأنعام» يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[الآية: ٧٥]؛ نراه هنا يرتب الإيقان بلقاء الله على هذه العجائب، وبيانه أن تسخير الشمس والقمر والكواكب، لخدمة العوالم الأرضية، وتعاقب الليل والنهار وازدهار الأزهار، وخروج الثمرات وتنوعها، وتنوع الزروع المترتبات على اختلاف الحر والبرد وتعاقبها واختلاف بقاع الأرض: من حيث طبائع أحجارها وترابها وهوائها، وهكذا اختلاف كل شيء عليها، كل ذلك يعطي الناس علماً أن فاعل ذلك ومنظمه يريد استخراج عقول شريفة تحبه وتفرح بلقائه من بهجة آثار جماله. وإذا فرحت بفعله الجميل أحبت لقاءه، ومتى أحبت لقاءه فإنه يجود به ولا يحجبهم عنه متى استعدوا لذلك، وإذا رأيناه يعطينا الفاكهة وأنواع الطعام والشراب وقد استعددنا لها، فلا جرم يعطينا ما أحببنا من رؤيته بعد شوقنا إليه بمناظر جماله الباهرة في هذه الأرض.

وهاهنا أخذ يفصل ما على الأرض من الجمال فقال: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾[الرعد: ٨-١٠]. ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[الرعد: ٤١].

فهاهو ذا سبحانه بعد ذكر العوالم العلوية والسفلية من جبال وأنهار ومزارع؛ يذكرنا بخلق الأجنة في بطون أمهاتها، وما في ذلك من العجائب والحكم والإبداع، ويبين أن كل ذلك عند بمقدار، ثم يقول لنا: ارفعوا رؤوسكم إلى الجو فماذا تجدون؟ ذلك السحاب يصحبه رعد تسمعه الآذان، وبرق تبصره العيون، فإياكم أن تظنوا العوالم خاصة بما ترونه كلا، فكما أن في أرضكم من بدائع الحيوان والنبات ما لا حصر له، ومع ذلك لا ترونها إلا بالمناظير المعظمة التي أبانت لكم أن الحيوانات والنباتات الخفية التي لا ترى بالأعين، وإنّما ترى بالمناظير؛ هي الجمهرة العظمى ولا حد لعددها، وكل ما ترونه من الحيوان والنبات بالنسبة لما اختفى قليل جداً، لا نسبة بينه وبين ما غاب عن أعينكم، فهكذا نقول لكم في هذه العوالم المشاهدة والعوالم الغائبة التي لا ترونها، فإن هناك ملائكة لا حصر لعددها، تسبح ربها كما تسبحون أنتم وهم أعظم منكم تسبيحاً، وأكثر لله تقديساً وإعظاماً، وإذا كان من نوع الحيوان ما لا حصر له وقد خفي عن العيون؛ فهكذا هناك من المسبحين من لا يرون، وهم الملائكة المكرمون، وكما أن الملائكة يسبحون؛ هكذا يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً، وآية ذلك سجود الظلال الممتدة على الأرض خاضعة لعزة وعظمة خالقها الحكيم العليم، الذي أنزل الماء من السماء فسالت به الأودية، كل واد بقدره فكان زبد فوق الماء لا بقاء له، وكان ما بقي لينفع الناس بإنماء الزرع ولإبراز الثمرات والحب.

ذكر جملة من العلوم في هذه الآيات

ألستم أيها المسلمون تعلمون أن علوم هذه الآيات هي: علم السماوات، وحساب الشمس والقمر، وعلم الجيولوجيا، وعلم الجبال، وعلم الأنهار، وعلم السحاب، والمطر، والرعد، والبرق.

وبعبارة أخرى: علم الفلك، وعلم التقويم، وعلم الطبيعة المشتمل على المطر والسحاب، والبرد والثلج، والرياح وهكذا، وعلوم البيولوجي الذي هو علم الحياة، ماذا بقي إذن من العلوم، فإذا كانت علوم الطبيعة وعلوم الفلك قد شحنت بها هذه الآيات فأي سبب يقعد المسلمين عن دراسة هذه العلوم.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: أرجو أن تشرح لي بيت القصيد في هذه الآيات، وهو لقاء الله تعالى، وأنه مرتب على تفصيل هذه الآيات. فقلت: أيها الأخ إن هذه العوالم كلها لم تجتمع إلا بداعي التجاذب والتقارب وهو في معنى المحبة، ترى هذه العوالم يخدم بعضها بعضاً، نرى الشمس ترسل أشعتها وحرارتها فيكون رياح وسحاب ومطر، ونبات وحيوان يريان فوق رؤوسهما أمطاراً، ورعوداً وبروقاً، وضياء وشروق شموس، وأقمار ونجوم وغروبها، وهم يعيشون في وسط الأنوار والجمال. ويرون حولهم حرارة، وإذا نزل المطر إلى الأرض أحسوا باتحاد الأجزاء وارتقائها حالاً بعد حال، ويرون أرضاً تدور، وكواكب أخرى معها حول الشمس، كلهن متجاذبات كما تنجذب قطرات المطر إلى الأرض، وكما تنجذب ذرات العناصر بعضها إلى بعض، فيحدث النبات والحيوان، ويرون مياه الأنهار مجذوبة إلى البحار تارة، ومجذوبة من سطح مياه الأنهار بحرارة الشمس تارة أخرى، فالماء مجذوب إلى أعلى بالحرارة، وإلى أسفل بالبرودة، فيكون مطراً جارياً إلى البحر بالانحدار، والعوالم كلها في تجاذب، واتحاد وتلاؤم وتقارب، أفلا يحس هذا الإنسان أن له عالماً ينجذب إليه، وطريقاً يسير فيه، فما هو عالمه، إذن هو العالم الإلهي ذلك العالم القدسي الجميل العالم الذي يليق لأرواحنا، العالم الذي تألفه طباعنا، نحن نعيش في نقص الحياة وهمومها، وفزعها وشرورها، ولكن في وسط هذه الزعازع والمعامع يسطع نور، وهو نور المحبة، نور الغرام، نور الهيام والحب لمبدع هذا الجمال، فإذا رأينا القطرات المائية ترجع إلى أصلها في البحار التي خرجت منها، وإذا رأينا عناصر النبات بعد تفريقها ترجع إلى ما خرجت منه، وهو الأرض، وتستقل فيها، ورأينا كل شيء يحن إلى ما يألفه ويرجع له.

لا جرم أننا نثق بأن هذه النفوس يوماً ما راجعة إلى العالم الذي تحبه، وهو عالم العقل والحكمة عالم الجمال والكمال، عالم الملائكة القائمين بنظام هذا العالم، ومن هناك يرون ربهم، ورؤية الله تكون السعادة بها على مقدار حبه في الدنيا، وحبه في الدنيا على مقدار دراسة الناس هذه العوالم ومعرفة إتقانها وإبداعها.

إن المقصد من هذه العوالم إنما هو الحب الناجم من العلم، فالحب هو المقصد الأسمى من حياتنا في الدنيا، ومتى تحقق الحب كانت السعادة بلقاء المحبوب على مقدار ذلك الحب، فلتكن أمم الإسلام متحققة بهذه العلوم فيها سعادة الدنيا كما سعدت الأمم حولنا بها، وبها سعادة النفوس في

الحياة الدنيا بالحب الذي يملأ القلوب، وعلى مقدار المحبة في الدنيا تكون اللذات التي لا نهاية لها بلقاء الله تعالى، وهذا بعض أسرار قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: ٢].

ثم قلت: انظر أيها الأخ انظر ماذا ترى في قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: ٢] انظر كيف يقول في سورة «يونس»: إنه جعل للشمس ضياء، وللقمر نوراً، وللمنازل تقديراً، لنكون بالحساب عالمين وبعدد السنين عارفين.

ثم هو يقول هنا: إنه رفع السماوات وسخر الشمس والقمر يجريان لأجل مسمى، ودبر الأمر وفصل الآيات، لماذا هذا؟ لأجل أن نوقن بلقائه تعالى، إذن هذه العوالم السماوية تشوقنا لأمرين: الأمر الأول: إتقان العلوم الرياضية. الأمر الثاني: أن إيقاننا ليس قاصراً على وجود الله كما في سورة «الأنعام» في قصة إبراهيم، كلا، بل إيقاننا يكون باللقاء.

إيضاح هذا المقام

رباه قد ملكت أفئدة المخلصين من عبادك، كيف لا؟ ألم يكن من عنايتك بهذه الأمة المحمدية أنك فتحت لها بابين: باب السماوات العلى، وباب عجائب الأرض. فلم يقف كشفنا لعوالم الملك العجيبة عند حد، فلا وجدنا للشموس العظيمة آخراً، ولا للمخلوقات الدقيقة جداً نهاية، بماذا كل هذا؟ بأمر لا يؤبه له عادة، وهو الرمل والصودا أو البوتاسا وما أشبه ذلك، المواد الضئيلة هي التي مزجناها بهيئة خاصة وصنعنا منها الزجاج فكانت المناظر المعظمة، وهذا المقام واضح في تفسير هذه السورة في الأصل، وهو «الجواهر» في تفسير القرآن، فاقرأه إن شئت.

هذه المناظر منها ما يقرب البعيد كالكواكب، ومنها ما يعظم الصغير، ففتحت لنا أبواب السماء وخزائن الأرض العلمية، كل ذلك تفصيل لآياتك في عوالمنا لنقترب منك بالعلم ونفرح بجمالك ونحب لقاءك فضلاً عن أن نوقن به، وفي الحديث: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»، إن هذا هو الزمان الذي فيه يعرف المسلمون معنى: ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: ٢] بعد ذكر العجائب السماوية وتدبير الأمر، ويعرفون أيضاً صلة هذه الآية بآية «آل عمران» إذ يقول الله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]، فإن القيام بالقسط وإقامة العدل في هذه العوالم هو الذي يشهده المقربون الذين هم معطوفون على الملائكة المعطوفين على الله في الشهادة بذلك، وأهل هذه الشهادة هم الذين يعقلون ويتخلقون بما في آية: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[يونس: ٦١] الخ. ثم ذكر بعد: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾[يونس: ٦٢]، فكان هؤلاء الذين يشهدون فعل الصانع في كل ما يرونه أو يفعلونه هم المعطوفون على الملائكة في الشهادة في سورة «آل عمران»، وهم أنفسهم أولياء الله، وهم هم الذين يشهدون تدبير الأمر وتفصيل الآيات فيوقنون بلقاء الله تعالى وكلما كان تفصيل الآيات أتم كان الحب أوفر والشوق أكثر، لأن الحب على مقدار العلم بصفات المحبوب، والمحبوب هنا لا حصر لجماله وكماله ونهايته.

إن هذه الطائفة من الأمم الإسلامية الذين سيكونون بعدنا سيدهشهم جمال ربهم من جهتين: من جهة الجمال المطلق، ومن جهة العناية بهم، حيث كشف لهم عن مخبآت السماوات العلى، وعما استتر في خبايا الأرض، فإن رفعوا أعينهم إلى العلى بهرهم جمال الشموس التي تكشف في كل يوم، وسخر علماء أوروبا وأمريكا لذلك الكشف، وهكذا إذا نظروا في آفاق الأرض بالمنظار المعظم كشفوا جمالاً وبهجة وحكمة في تلك المخلوقات الدقيقة البديعة التي لا حد لها في نقطة واحدة من الماء مثلاً، وهذا كله قد أعده لهم علماء أوروبا وأمريكا.

إن الله قد وعد بتفصيل الآيات فهاهو ذا تفصيلها بالمناظر المعظمة الكاشفة لما في السماوات والأرض، الأمة الإسلامية المستقبلة سعيدة، فإن الله قد فصل لهم آياته وأظهر لهم أنوار جماله، بكشف العلماء لهم ذلك، وبإظهار المناظير المعظمة المعينة على ذلك، ونتيجة ذلك حبهم لربهم وحبهم للقائه وغرامهم به في الدنيا، ثم يفرحون بعد الموت به، هذا وعد الله لنا ووعده حق، فإنه فصل الآيات بما ذكرناه، وسيعشق المسلمون ربهم عشقاً ويحبونه حباً ويفرحون بلقائه، ويسعدهم في الآخرة بمن أحبوه في الدنيا وهو غائب عنهم.

مدهشات العلم وعجائب القرآن

ذكرنا أنه جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدر المنازل لنعلم الحساب، ودبر الأمر وفصل الآيات لنوقن بلقاء الله.

إذن العلوم الرياضية ولقاء الله مرتبان على معرفة عالم السماوات وتدبيره. إذن العلوم الرياضية بينها وبين الجمال الإلهي صلة، كيف لا، ألم يكن جمال النجوم مشوقاً لأمرين معاً:

الأمر الأول: إدراك حساب سيرها ومقاديرها وأبعادها.

الأمر الثاني: الشوق إلى مبدعها، هذان هما المذكوران في هذه الآيات.

ومن عجب أن «سقراط» جعل غاية علم الفلك وحسابه أن ترجع النفس إلى مبدع العالم، بل قال: إن الموسيقى لا معنى لها إلا ذلك، فهو يقول: إن الموسيقى والفنون الجميلة كلها موجهات النفوس الشريفة إلى الجمال الأعلى والمقام الأسمى، إذ لا جمال ولا كمال فيما هو فان سريع الانقضاء وحقر أولئك الذين يعكفون على المغاني لذات المغاني ويتلهون بذلك، وهكذا كل جمال وكل كمال في الأرض.

وهكذا ذكر في علم الحساب وقال: إن الحساب يجعل في النفس ميلاً إلى ما هو مجرد عن المادة وذلك يقرب النفس من صانعها بحكم هذا التجرد الحسابي، فبإطلاق هذه المجردات الحسابية من المادة تستعد النفس لإدراك ذلك الجمال الأسمى، وهذا من عجائب القرآن، ومن الأسرار التي ظهرت في هذا الزمان من أسرار قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[الرعد: ٢].

هنالك قال صديقي: شاقني قولك هنا أن تذكر من علوم السماوات وعلوم الأرض ما يدهش العقول، فتذكر الأجرام الكبيرة في السماوات، وتذكر أدق العوالم الحيوانية والنباتية، فنشاهد القسمين بأعيننا ليحصل لقلوبنا فرح بنعم الله تعالى وبحكمته، فيكون حبنا بلقائه والبهجة بأنسه، فقلت: نعم.

إن الذي يوضح هذا مقالان:

المقال الأول: في عجائب النجوم

والمقال الثاني: في بعض عجائب النبات

ولما كانت عجائب النجوم ستتضح في الزبرجدة الثالثة اكتفينا هنا بذكر المقالة الثانية وهي: في عجائب النبات وما فيه من الغرائب، فلنكتف بما جاء في كتاب «علوم للجميع» بقلم الدكتور «اندرو ولسن» تحت عنوان: ما هو النبات.

قال: إن هذا العنوان يبدو لسامعيه غريباً، فإن الناس لا يشكون في الفرق بين الحيوان والنبات، ولا يعتريهم في ذلك شبهة، فمن ذا الذي يشتبه عليه الفرق بين الوردة وحاملها الذي يشمها ويتحلى بها، أو بين الغصن والطير الذي يغرد عليه. وهو جائع بهيئة سارة، أو بين الثور والحشائش التي يقضمها، ليس أحد يجهل ذلك الفرق، ثم قال: إن الثور والطير وحامل الزهر تشارك الحشائش والأغصان والأزهار في أنها حية. والحياة كثيرة الوجوه: من غذاء وتنفس ونموّ الخ، ولكن هذا التشابه في الحياة له نهاية بحسب ما يظهر للناس الذين لم يدرسوا ولم يتعمقوا في هذه العلوم، وهل هناك من العلم ما هو أدق من الفرق بين الحيوان والنبات.

إن الفرق بين الحيوان والنبات عمل دقيق بعيد المنهج، يشق على أعظم العقول تبيانه، ولو أن عقلاً توصل إلى ذلك لامتاز على سائر العقول بذلك البيان.

إن علومنا الحاضرة عجزت عن أن تعرف الفارق بين الحيوان والنبات، ومن ادعى أن ذلك ممكن بالممارسة والتجارب، فإنه لا يقابل إلا بإنكار، بل بالازدراء والاحتقار.

الحيوان يتحرك والنبات ثابت، الحيوان لا ورق له ولا زهر، والنبات يملكهما، الحيوان له أعصاب وله إحساس، والنبات بحسب ظاهرة لا إحساس له ولا أعصاب.

إن الصورة وإن الاتصاف بالقوة وبالحركة وعدم الاتصاف بهما وبصفات الحياة المعتادة المعروفة لكل من نوعي الحيوان والنبات تقنع الناس بحسب الظاهر أن هناك فرقاً بين الحيوان والنبات، وأن هناك حداً فاصلاً بينهما، وهذا حق عند عامة الناس، إن هذه هي الفلسفة العامة عند نوع الإنسان.

أما الفلسفة العلمية فإنها أوسع مدى، وأحدّ نظراً، وأقوى وأقدر من الآراء العامة لذوي العقول، وبنظراتها العميقة تلقي أشعة من النور والعرفان، تتجلى بها الحقيقة فتحدث شكاً في قيمة تلك المعارف التي حددت خطاً فارقاً بين الحيوان والنبات.

أما الآراء العادية فإنّما كان بحثها خاصاً بأعلى النبات وأعلى الحيوان، ولم يكن الفرق الذي يتوهمونه إلا بين ما يرونه بأعينهم من الحيوانات والنباتات بلا بحث ولا تحقيق في أحوال الطائفتين المذكورتين من غير ممارسة لهياكلهما ولا دراسة خاصة لأجسامهما.

إلا إن هناك وراء هذه الهياكل المنصوبة أمام الناس المشاهدة لهم عوالم أخرى منها لا ترى بأعينهم واختصت بها المناظير المعظمة التي ترى ما دقّ على العيون وغاب عن الأبصار.

إن من هذه العوالم الحية التي لا نراها ولا حصر لها ما يصعب، بل ما يستحيل كشف حقائقها ومعرفة أسرارها، بل إن من العوالم التي عرفناها حولنا، ووصلنا من العلم بها إلى أمد بعيد في التحقيق وكشف النقاب عنها ما لم نصل إلى حقيقته، ولم نحصل على ضالتنا في تبيان خواصه، فكيف بما غاب عن أعيننا ولم نره إلا بمنظار.

وبالإجمال إن الفارق بين عالمي الحيوان والنبات المتعارف بين الناس إن هو إلا ظاهري لا قيمة له عندنا، نوجه النقد العلمي إليه ونبحثه بحث المدققين.

إن هذه المسألة معروضة أمامنا إن هي إلا إحدى المسائل التي نمت وترعرعت، وازدهرت في حقول التجارب العلمية، وازدياد البحث في أزماننا الحديثة.

إن اقتحام العلماء لمجاهل العلم وازدياد علومهم بها كان من نتائجها أننا اعترفنا بعجزنا وجهلنا بكثير من المباحث العلمية التي تقع ظواهرها تحت أسماعنا وأبصارنا.

إن فيما سأقصه عليك من العلم وما سألقيه عليك من الحكمة والتجارب العلمية ما يريك أن عجزنا في علومنا الحاضرة ليس قاصراً على معرفة الفرق بين الحيوان والنبات. كلا بل إنه يتعدى ذلك إلى قصورنا عن إدراك كنه الحيوان ومعرفة أحواله وخواصه، وهكذا النبات.

إن اختباراً بسيطاً في أصغر طبقات الحيوان والنبات ينتج لنا جواباً عن سؤال يؤخذ مما قدمناه، وهو ما هي خصائص الحيوان وخصائص النبات بالتحقيق؟ فلنضع في إناء قبضة من الدريس أو الحشائش ولننزل الماء على ذلك الدريس، فإننا نرى أحياء نقيعة تغدو فيه وتروح غدوة وعشيا، فلنتركه أسبوعاً أو نحوه معرضاً للهواء، ثم بعد انتهاء تلك المدة نأخذ قطرة من ذلك الماء ونضعها تحت الآلة المعظمة «الميكرسكوب» المكبر جداً فماذا نرى؟ نرى أمراً عجيباً يأخذ بأبصارنا، فإن هذا الماء الذي لا يشاهد فيه الرجل العادي إلا عكراً أو قذراً مما به من تلك المواد الجافية التي لا حياة فيها؛ يراه العالم تحت ذلك المنظار مزدحماً بمخلوقات حية عجيبة تدهش العقول. فهذه البقع التي نشاهدها في الماء فجعلته عكراً قذراً في نظرنا الظاهري؛ إن هي إلا مخلوقات حية لا حصر لها تجري هنا وهناك في حقول كشفها لنا المنظار المعظم.

بينما العين قد استقرت على أنها قد عرفت ما حولها معرفة علمية ثابتة إذا بأحياء ذات مواد عضوية مختلفة الأشكال والأنواع.

أضرب مثلاً لذلك، هذه الأجسام التي تشبه في شكلها العيدان المتناهية في صغرها تلتوي على نفسها بحركات بينة واضحة، وهذه هي:

(شكل ٤٤)
(أ) بكتريا مكبرة (٣٠٠)
(ب) مكبرة (١٦٠٠)



(شكل ٤٥)
فيبربو مكبرة (٣٠٠)



(شكل ٤٦)
حي ذري مكبر (١٠٠٠)

وهناك صور مخالفة لهذه في أشكالها ولكنها أكبر منها حجماً ومشتملة على كثير من البكتريا التي تظهر بصورة عيدان كل منها متصل نهايته بنهاية الآخر، وهذه يسميها علماء علم الأجنة أو علم الحياة «علم البيولوجي» فيبريوز.

ولكن هناك أيضاً أجسام أخرى نشاهدها تخالف في هيئتها ما شرحناه الآن من الأحياء العضوية، وله في حركاته السريعات هنا وهناك في أوقيانوسه المتناهي في الصغر ما يستوجب الانتباه ويجتذب إليه الأنظار، فانظر هنا تجد جسماً سريع الحركات قوي النشاط.

إن هذا الجسم أخذ يستريح قليلاً، ومن حسن الحظ أنه أفادنا منظراً عجيباً من حيث شكله وأحواله الطبيعية.

لا جرم أنك تراه على هيئة الكمثرى، وإذا أخذت تبحث عن مقدار هذا الحجم الدقيق الذي تراه أمامك الآن الذي اقتنصناه بالمنظار المعظم؛ فإنك ترى مقياس طوله جزءاً من ثلاثة آلاف جزء من البوصة. وهذا الجسم الكمثري الشكل ينتهي طرفه المتناهي في الدقة والصغر بذيل على هيئة خيط دقيق يسمونه «سيلميا» يشبه هدب العين.

وإن ازددنا في تدقيق النظر والملاحظة فإننا نشاهد ذيلاً آخر قد اتصل بنهاية جسمها المتناهي في الدقة والصغر، إن جرم هذا الحيوان في ذاته لا قيمة للتفكر فيه.

ولكننا نرى أمراً عجباً، نرى هذه الكتلة المدورة تنقبض فجأة وتختفي ثم تظهر كرة أخرى واضحة جلية، هاهو ذا الحيوان رجع إلى سيرته وأخذ يسير كرة أخرى متحداً مع الجموع الكثيرة السريعة الجري المتصادمة في سيرها والمالئة قطرة الماء أمامنا.

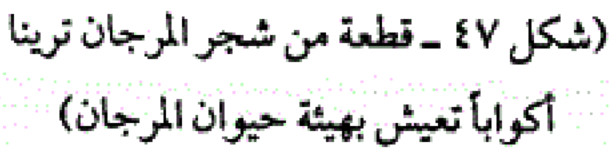
وإنك لتلاحظ في هذا الحيوان أمرين عجيبين أشد العجب: أما أولهما فإن أطول الذيلين هو المحرك لجسم الحيوان الذي يدفعه إلى الجري في هذه القطرة المائية التي هي أوقيانوسه العظيم عنده، أما أقصرهما الذي هو خلف الأول فإنه هو الذي يكون به وقوف هذا الحيوان كمرساة السفينة، ومتى وقف تراه يفعل كالمغزل ويدور دورات حتى يصير أشبه بكرة صغيرة حيوانية التركيب، ثم تأخذ كرة أخرى في أن تحل ما عقدته من جسمها، وتسير في مجراها وتصادم عشيرتها، وتخالط جماعتها وجيرانها في جهادهن الطويل لأعمال الحياة كما يفعل كل حيوان وإنسان في الاجتماع والمشاركة في أعمال الحياة.

إن هذا الوصف المختصر لهذه المناظر يعرفه كل من استعمل آلة المنظار، فهو يشاهدها كما وصفناها الآن، وهذه المشاهدة المدهشة تثير الإعجاب والدهشة عند جميع المشاهدين إلا قليلاً، وتحدث في أذهان العلماء الطبيعيين غرابة ومسرة وإعجاباً بما يشاهدون، وحينئذ يتساءلون قائلين: ما هذه الألوان المؤلفة من الأحياء العضوية العائشة في قطرة ماء آسن بالنقيعات الحاصلة من الدريس.

وهاهنا أخذ المؤلف يشرح كلام علماء العلوم الطبيعية، وكيف يفرقون بين الحيوان والنبات، وأخذ يسهب في هذا المقام، وهذا القول وإن كان لا يعنينا نحن في موضوع كتابنا الذي إنّما نكتبه ليتجلى لنا جمال هذه الدنيا وبهجتها وحسنها، وإننا نرى أجراماً لا حد لكبرها في السماء من الشموس

التي تفوق شمسنا سناء وكبراً وضوءاً إلى الحيوانات النقيعية التي رأيناها الآن ، وهي آلاف في قطرة ماء ، نذكر آراء القوم مختصرة لفوائد ستراها ، فنقول :

يقول المؤلف : إن الرجل العادي يحكم على هذا الحيوان النقيعي بأنه حيوان ولا يتردد في ذلك لكن عالم الطبيعة لا يقف عند هذا الحد ، بل يشك فيه ويقول : كيف نحكم بحيوانية هذا المخلوق؟ أنحكم عليه بأنه حيوان لأجل أنه يجري ، إن هذا الحكم لا برهان عليه ، كيف لا ونحن نرى هذه الحيوانات المرجانية في شجر المرجان الذي تراه .



(شكل ٤٧ ـ قطعة من شجر المرجان ترينا أكواباً تعيش بهيئة حيوان المرجان)



(شكل ٤٨ ـ أنبوبة البحر)

لا جرم أن هذه الشجرة المرجانية ذات جذور ، إذن الحيوان هنا لا حركة له ، وقد سلمنا أولاً أن النبات ثابت والحيوان متحرك ، فما بالنا رأينا الحيوان هنا ساكناً ، بل هو فوق ذلك حجري الجسم . ثم قال : وإذا قلنا إن فرق السكون والحركة يرجعان لأعلى الحيوان والنبات ؛ فإننا نقول إذن إن هذا لا يكون فرقاً ، فإن التعريف يجب أن يشمل كل حيوان وكل نبات ، أما الاقتصار على أعلاها فليس من العلم في شيء .

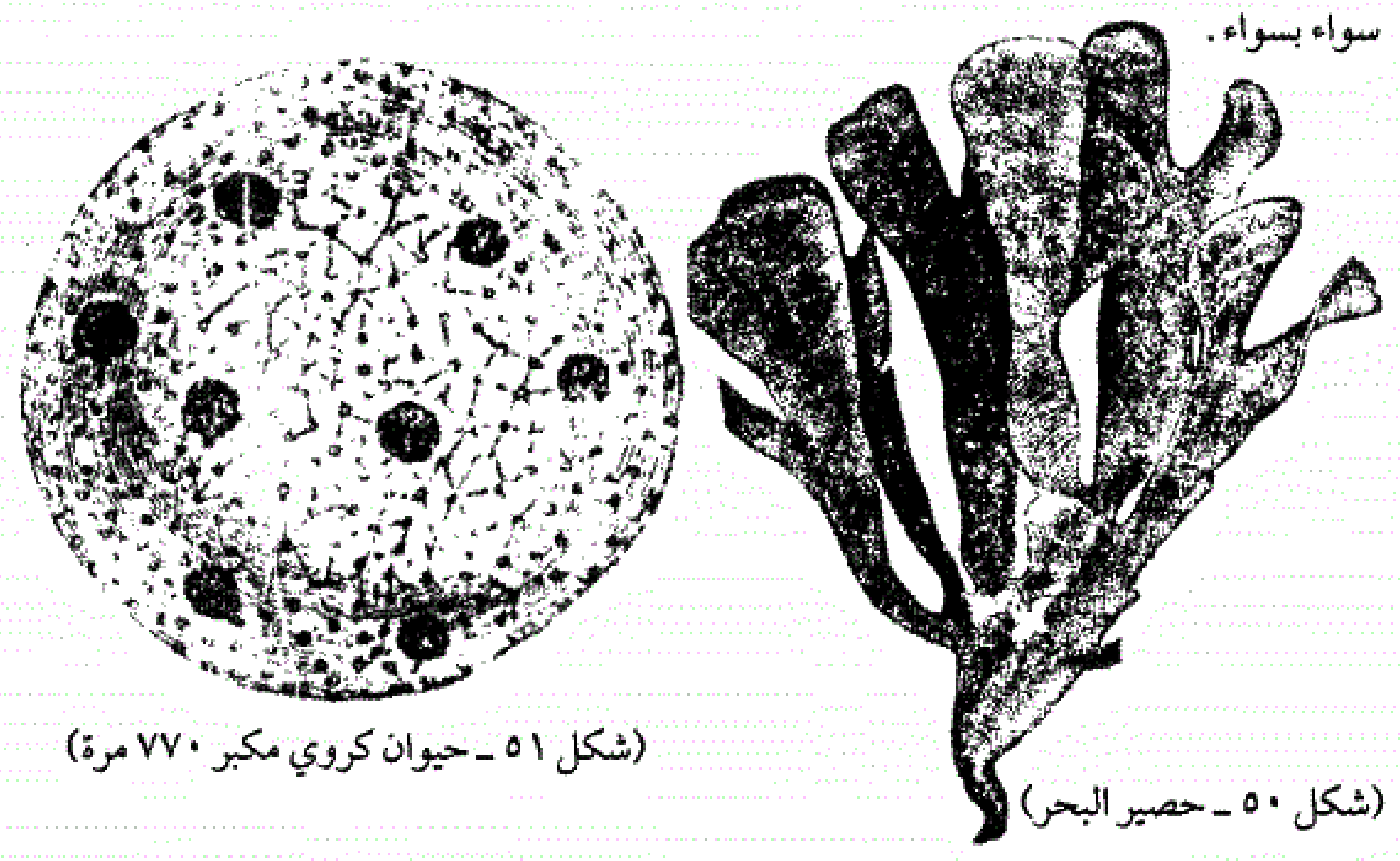
وليس هذا السكون قاصراً على حيوان المرجان ، فهاهنا حيوان السفنج الذي أثبت العلماء أنه حيوان مع أنه ثابت لا حركة له كالنبات ، وهكذا حيوان « الزوفييت » الذي ينمو كما ينمو النبات ضارباً عروقه في الأرض ويستخلص من هياكله بقاع البحر بالجرفة المحاربة البحرية .

ونضيف إلى ما قدمناه من الأمثلة حيوان نباتي يسمى أنبوبة البحر. وكذلك حيوان آخر يمت بصلة إلى السمك الصدفي وهو: الشقيق البحري.



(شكل ٤٩ ـ الشقائق البحرية)

وهكذا حصير البحر. وهكذا أنواع كثيرة من أسفل طبقات الحيوان تخلق ثابتة كهيئة النبات سواء بسواء.



(شكل ٥٠ ـ حصير البحر)

(شكل ٥١ ـ حيوان كروي مكبر ٧٧٠ مرة)

ثم أخذ يشرح أمر الإسفنج والمرجان، والشقائق البحرية، والأنابيب البحرية، فقال: إذا قيل إن هذه الأنواع تكون حرة تتحرك كما تشاء في صغرها كما يتحرك الحيوان، ولا جرم أن هذه خاصة النبات، نردّ عليه فنقول: إن من النبات أيضاً ما هو كذلك متحرك، وحركته لا تقتصر عليه في أول حياته، كلا بل تستمر طول الحياة، إذن ليست الحركة خاصة بالحيوان، بل النبات يشاركه في تلك الحركة، ومثل للنبات المتحرك بهذا المثال.

وإنّما سمي بهذا الاسم لظنهم عندما رأوه أنه حيوان، وما هو بحيوان، إن هو إلا نبات كروي يتدحرج دائراً على نفسه سائراً مع جماعات كثيرة من أمثاله في البرك الآسنة والمستنقعات يستبقن أشواطاً بعيدة المدى.

شرح حيوان حصير البحر

أخذ المؤلف يشرح الحيوان النباتي المسمى حصير البحر، فماذا يقول؟ يقول: إن حصير البحر قد نلتقطه من شاطئ البحر، وحينما يقع في أيدينا نظنه نوعاً من حشائش البحر اليابسة، وعند التحقق نرى عجباً وأمراً مدهشاً، نرى أن سطحه عبارة عن خلايا متجاورة منتظمة مكونة لحيوانات حقيقية مكرسكوبية، فإنك ترى أن من تلك الخلايا تظهر قرون الحشرة ورأسها وفمها ومعدتها وكل ما هو من خواص الحيوان.

إذن حصير البحر المرسوم أمامنا هنا ليس حصيراً، وإنّما هو مدينة عظيمة تسكنها حيوانات تعد بالمئات وهي تتكاثر تكاثر أوراق النبات.

ومثل حصير البحر من حيث إنه في ظاهره نبات وفي الحقيقة إنّما هو مدينة يسكنها جماعة من الحيوان: الزوفييت الذي يشبه نبات الشربين.

إن هذه الحيوانات تظهر بحسب هيئتها لمن هو على شاطئ البحر كأنها آتية من غابات بحرية، ولكن الحقيقة أن كل نبات من هذه إنّما هو أشبه بمدينة عظيمة تسكنها حيوانات أدنى من مرتبة حيوان: «الحصير البحري المتقدم».

هذا ملخص كلام المؤلف نقلنا منه ما أفادنا بهجة الحكمة، وجمال العلم، وضربنا صفحاً عن الأخذ والرد في أمر الفرق بين الحيوان والنبات. وإن كنا أوضحناه هنا، ولكننا نرجع ونقول: قد قدمنا أن المقصود من هذا الكتاب جمال هذه الدنيا وبهجتها أيضاً لقوله تعالى هنا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾[الرعد: ٢].



(شكل ٥٢)
الزوفيت الذي يشبه نبات الشربين

أعجوبة هذه الآيات

التدبير وتفصيل الآيات في عجائب الفحم

في يوم الأحد ١٦ من شهر صفر سنة ١٣٥٤، ١٩ شهر مايو سنة ١٩٣٥ قرأت في كتاب «علوم للجميع» بقلم الأستاذ «السون نيتشولسن» مدرس التاريخ الطبيعي والجيولوجيا تحت عنوان: قطعة من الفحم.

قرأت هذه القطعة الآتية من المقالة فلم أترجمها كعادتي، بل خيل إلي أن الله استوى على عرشه وأخذ يخاطب الأرض وكأنه يقول:

يا أرض، لآمرنك أن يكون عليك أعشاب وأشجار وغابات في مساحات واسعة تكون أميالاً وأميالاً عند مصاب الأنهار في البحار الملحة، ولتكن هذه الأشجار والغابات العظيمة مستمدة حرارة وضوءاً من الشمس سنين وسنين، وكلما يبست طبقة أخلفتها أخرى ونبتت في مكانها، وهكذا طبقاً عن طبق، قروناً وقروناً، ولتكن جذور تلك الأشجار والغابات نافذة فيما تحتها من الطين مخرجة جذوعها وأغصانها وأوراقها نامية حتى يتم دورها، ومتى مضت آلاف السنين وتراكمت هذه الأشجار الرميمة بحيث تكون طبقة فحمية أقلها ياردة؛ وقد تزيد إلى عشر ياردات؛ سلطت عليك أيها الأرض ما يوجب انزعاجك، ويزلزل قشرتك، فأحدث فيك رجفة أو زلزلة، فتنزل هذه الطبقة إلى ماء

البحر الملح ويغطيها ذلك الماء، فمن أشجار الغابات ما يخرّ واقعاً، وتعلو عليه طبقات من الرمل والطين، ومنها ما تقاوم أمواج البحر فتبقى واقفة، وقد أحاط بجذعها الرمل والطين من كل جانب، حتى إذا ظهر الفحم بعد مئات الألوف من السنين ظهرت تلك الشجرة عند الحفر دالة على تدبيري، وحسن إتقاني، ورحمتي بعبادي.

ولا تزال تلك الطبقة تحت الماء قروناً وقروناً حتى تعلوها طبقات من ذلك الرمل والطين، حتى إذا تمّ أمرها أمرت الرجفة والزلزلة، فرفعت هذه الطبقة إلى الأرض كرة أخرى حتى صارت أرفع من سطح الماء قليلاً. هنالك أعيد الكرة وأنبت الأشجار والأدغال والغابات والحشائش، فتعيش فيها الطيور والوحوش آلافاً من السنين، ثم أكر عليها ثانياً بالرجفة، فتخر إلى البحر، ويعلو عليها الطين والرمل وهكذا، فإذا تمّ أمرها أمرت الرجفة فأعادت تلك الطبقة ثانية.

إياك يا أرضي أن تتواني في ذلك، وامتثلي أمري، واعلمي أنني سأفعل ذلك مرات كثيرة حتى تصل الطبقات الفحمية إلى خمسين طبقة، بعضها فوق بعض، وقد تصل إلى مائة.

ولتعلمي أني أيتها الأرض قد قدرت ذلك النظام في مئات الألوف من السنين حتى أن (٥٠) طناً من هذا الفحم يغطي مساحة فدان إنجليزي يعوزها زمان لا يقل عن مائة سنة، وهذه الطبقة لا تزيد على نصف بوصة، فكيف يكون الزمان الذي تحتاج له طبقة سمكها ياردة واحدة، فما بالك بالطبقة التي تصل إلى عشر ياردات، فإذا كانت الطبقات خمسين أو مائة فكيف يكون الزمان الذي يمضي حتى تكون تلك الطبقات كلها أزماناً ودهوراً. أيتها الأرض ستمر عليك مدة تبلغ مئات الألوف، وهاأنت ذه يا أرض ليس عليك من يعقل أمر هذا الفحم الآن، كلا، ولكن فلتعلمي أني سأخلق عليك نوعاً اسمه الإنسان، وهذا النوع بعد تكوين هذه الطبقات يخرج على الأرض ويستخدم كل ما فيها من نبات وحيوان، وسأرسل مرسلين وعلماء يعلمون الناس حتى تمر مئات الألوف من السنين، وهناك يكثرون على الأرض، وسبب كثرتهم أنهم سيهتدون في علم الطب إلى قتل الحيوانات الفتاكة بأجسامهم، فيقل الموت، وسيخترعون طيارات يطيرون بها في الجو مع الطير، ويعرفون كل شيء يناسبهم، وهنالك يستعملون هذا الفحم، فيوقدون به منازلهم ويطبخون به أطعمتهم، ويسيرون به قطاراتهم.

هنالك يستخرجون هذا الفحم من طبقاته الأرضية ويوقدون عليه النار ويستخرجون حرارة الشمس وضوءها المخزونين في تلك الطبقات، فتجري بها سفنهم وتدور بها آلاتهم.

أنا المدبر، أنا الحكيم، أنا الصبور المقدر، أنا القادر، أنا الرؤوف، أنا الرحيم. دبرت الأمر فوق عرشي، كتبت في لوحي أني سأخلق نوع الإنسان الذي ستتمخضين عنه أيتها الأرض، فرحمتي له سبقت وجوده على الأرض، فهاأنا ذا أخلق له الغابات تلو الغابات وأحافظ عليها، ثم أجعلها طبقات لأني حفيظ عليم، لا أدع ورقة ولا غصناً ولا جذعاً ولا بذراً من الشجر إلا حفظته وأبقيته مدخراً في الأرض حتى يظهر نوع الإنسان ويأخذ في الرقي شيئاً فشيئاً، وهنالك أفهمه ما قصدت له، وألهمه أن يستعمل ما مهدت له من قبل ظهوره على الأرض. هذا هو الذي دبرته فوق عرشي، فلتسمعي أيتها

الأرض ولتطيعي. وليعلم العقلاء وأولو العلم من نوع الإنسان بعد أن تظهر لهم آثار رحمتي، ويستخرجون هذا الفحم من الأرض، أن ذلك ضرب مثل لنفوسهم.

هاأنا ذا سلطت الحرارة والضوء على الأشجار والغابات قروناً وقروناً، حتى إذا جاء الأجل استخرجتم ما كنزته لكم تاماً غير منقوص، فهل وجدتم في الفحم الحجري نقصاً؟ ألم تروا البذور لا تزال في الفحم والأوراق، بل هو ما أدقّ من البذور تجدونه.

أيها الناس هكذا أرواحكم التي سكنت أجسامكم، إني هديتها النجدين وأريتها الخير والشر وأصبتها بالنعم والنقم، وأرسلت إليها العلماء والأنبياء والحكماء، وأمرت الجميع بطاعتي، وكل ما خزنتم بنفوسكم من شر أو من خير، فإنكم لا محالة تجدونه بعد تجرد أرواحكم من أجسامها كما ظهرت أنوار الشمس وحرارتها المخزونين في الفحم الحجري حين احترق بالنار، إني قد جعلت ذلك نموذجاً لحساب الناس وبعثهم، فكما أن الفحم لم يحدث فيه شيء خلاف ما حدث له أيام تكونه طبقات بعضها فوق بعض، وسيظهر بقضه وقضيضه في حينه، هكذا سيكون المخزون في الأرواح الإنسانية أيام الحياة هو نفسه الذي يظهر في العالم الآخر كما هو بلا زيادة ولا نقص، وهنالك يفهم الناس: «إنما هي أعمالكم تعرض عليكم»، ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٩]، ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]، ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فيا أرض احفظي كل ورقة، وكل حبة، وكل بزرة، وكل صغيرة، وكل كبيرة في طبقات الفحم، حتى إذا أنزلت لهم في كتابي ذلك يشاهدون ذلك ويرون الورقة والحبة والبزرة قد حفظت مئات آلاف من السنين كما حفظت أضواء الكواكب، تلك الأضواء الجاريات من مسافة مائة مليون سنة باعتبار أن الضوء يجري في كل ثانية واحدة (١٨٦) ألف ميل، فأحفظ ذلك كله ولا أنقص منه شيئاً ولا أضيعه، وهو يجري ملايين السنين، وإن هو إلا ضوء، هكذا أفعل في أوراق الأشجار، وحياتها تحت الأرض فأحفظها، وحينئذ يفهم الناس قولي في كتابي الذي أنزل عليهم مثل أن أقول: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

وهنالك يفهم الناس لطفي، وأني خبير بخلقي، كما أني رحيم بهم، أوليس من لطفي أن أحفظ لهم البزر في شجره مئات الألوف من السنين، فيشاهدونها فيدركون حفظي لما دقّ وجلّ، ويعرفون أن أعمالهم ستعرض عليهم كما ستعرض جميع أجزاء الشجرات المخلوقات قبل وجودهم في الأرض أمامهم، أليس الفحم الحجري الذي سيرونه في باطنك طبقات من الصخور الحجرية المتراكمة، وقد حفظت فيها الحبوب حبةً حبة، أيتها الأرض، سأقص قصصك هنا عليهم، وأفهمهم ذلك في كتابهم المنزل عليهم، ولا يعلمون ذلك تفصيلاً إلا بعد ظهور طبقات الفحم فيك أيتها الأرض، هنالك إذن يكون للناس رحمتان بهذه الطبقات الفحمية: رحمة تجري قطاراتهم، وإدارة آلاتهم وجميع أعمالهم. ورحمة أخرى بالادكار والفهم حتى يدركوا لمَ ذكرت الحبة في ظلمات الأرض أو في الصخرة، ولمَ ذكرت الذرة، والأصغر منها والأكبر؟ والذي أصغر من الذرة أمثال الأضواء المحفوظة في مسافات طويلة وملايين السنين، فكل هذه محفوظة.

هذا ما خطر لي حين قرأت هذا الموضوع في ذلك الكتاب بالإنجليزية، أكتبه الآن قبولاً لنعمة العلم، وإظهاراً لآداب القرآن وعجائبه. وأسأل الله أن يلهم أمم الإسلام فيدرسون هذه العجائب فوق ما درسها الفرنجة ليفهموا دقائق القرآن.

سبحان الله، ألم يذكر: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[الأنعام: ٥٩]، ويقول: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام: ٥٩]، ويقول: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ [لقمان: ١٦]. أليس هذا وأمثاله ظهرت آثاره للعيان في الفحم الحجري وعرفنا بعض ما يشير له القرآن.

أيها المسلمون، إن الله أراد ولا رادّ لقضائه، إن زمان رقيكم قد أطل فأبشروا وبشروا واقرؤوا جميع العلوم، والله معينكم، والحمد لله رب العالمين.

مسامرة بيني وبين صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

وبيان أن الزلازل الأرضية نعمة عظيمة للإنسان، ولولاها لاستمر شقاؤه دهوراً ودهوراً

بل لولاها لفني هذا الإنسان وأكثر أهل الأرض غافلون نائمون هائمون لا يعلمون

هنالك أخذ صديقي يقول: ما هذه المهامه البعيدة المرام، نحن الآن في ملحق تفسير القرآن، وقد ابتدأته بعجائب الرحمة في تفسير: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وفيها صور الحيوانات الوحشية التي تحافظ على ذريتها رحمة بهن، وتلا ذلك أحاديث الرحمة وآياتها وما يتبع ذلك من الروضات الثلاث نعم كل ذلك في نفس الرحمة لم يتعدها.

انتقل الكلام إلى الآيات الخاصة بالحمد تفصيلاً لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وتبع ذلك كيف بدأ الله الخلق لتبيان الحمد على ذلك، هكذا ما بعده من تفصيل بعض عجائب وعجائب مصورات بالتصوير الشمسي.

وهانحن أولاً في ذكر الآيات القرآنية التي جمعت ما بين العجائب السماوية والأرضية تبياناً للحمد، وقد وصلنا إلى آية: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢] الآية، وجاء في هذا المقام بدائع في السماوات وبدائع في الأرض، وقد فصلت الكلام في

الفحم الحجري، هذا جلّ ما تقدم وملخصه، ولقد قلت في تفسير البسملة: إنك لا قدرة لك على استيعابها، وتخلصت من ذلك، فهل تفسير الحمد كتفسير البسملة كلاهما لا نهاية لعلومه، وإذا كان الأمر كذلك فهل تريد السير إلى غير نهاية، أم ماذا أنت صانع في هذه المهامه الواسعة الأكناف والبطاح العظيمة الرحاب.

فقلت: أيها الأخ، إن لقولك عندي مقاماً سامياً، وهذا القول يرد في خاطري كثيراً، فأقول في نفسي: هل أسير إلى غير نهاية؟ وماذا أنا فاعل في هذا الملحق؟ ولكن الله الموفق هو الذي يهدي إلى الهدى، وهو الذي يعلم عباده، فأجد في الاختصار جهدي وأحافظ على نظام فصول الكتاب، فأما موقفي الآن فإنه موقف خارج عن طاقتي، فأنا فيه مسير لا مخير مع المحافظة على نظام الكتب في الترتيب، لتعلم علم اليقين أن أكثر المتعلمين في النوع الإنساني ليسوا أهلاً لإدراك هذا الجمال.

أنا ذكرت لك أيها الأخ أنني قد قرأت في الكتاب الإنجليزي مسألة الفحم الحجري، وأبنت أنه قد كان طبقات قبل خلق الإنسان إلى آخر ما مر. أفتدري أيها الأخ ماذا جد بعد ذلك؟ قال: لا. فقلت: خطرت لي خواطر لم يكن لي بد من تدوينها، وإذا قلت يا أخي: إنه تطويل، فإني أقول: كلا. إنه ليس بتطويل، فإنه كلام جديد جميل. فقال: لقد شوقتني وألهبت في قلبي حرارة العلم بعد الابتداء في الاعتراض عليك، أسرع برد الجواب.

فقلت أيها الأخ: ما كدت أتم مقال الفحم حتى تذكرت قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام: ١]، وأن الظلمات جاء ذكرها في نفس السورة إذ يقول: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام: ٥٩] الخ. فذكر الحبة في ظلمات الأرض، والناس اعتادوا قراءتها وهم يمرون عليها مر الكرام كأنه كلام عادي، وقد اكتفوا ببلاغته وأنه معجز للبشر، ولكن لنا الحق اليوم أن نقول ما سبب ذكر الحبة في ظلمات الأرض، وقد جاء في أول السورة ذكر الظلمات، فالله محمود على خلق الظلمات وما فيها، كما هو محمود على خلق الأنوار وما فيها، وكما أنه ذكر قصة إبراهيم ونظراته في النجوم وتكرار ذلك حتى وجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض الخ، لمناسبة ذكر النور في أول السورة لهدم مذاهب عباد الكواكب، وهم الصابئون، هكذا هنا يبين في آية مفاتح الغيب تفصيل الكلام على عجائب الظلمات التي يستحق الحمد عليها، كما استحق الحمد على الأنوار التي بينها في قصة الخليل عليه السلام.

ونراه في أول السورة يذكر الظلمة بعد ذكر الأرض، ويبين خلق الإنسان من طين تبياناً لعوالم الأرض، أما ظلماتها فإنه أوضحها في آية مفاتح الغيب وفصلها بقوله: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام: ٥٩]. ونراه في قصة لقمان يقول: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾[لقمان: ١٦]، ما هذا؟ تارة يذكر الحبة في الظلمات، وتارة يذكر أنها في صخرة، نعم هذا وضح فيما تقدم، ولكن أعيده هنا لأبين أن أول «الأنعام» كان براعة استهلال، كما يذكره علماء البديع لمفاتح الغيب التي جاء فيها ذكر الظلمات، ولقصة الخليل ونظراته في الكواكب، وأن ذلك كله موجب للحمد.

فقال صاحبي: هذا القول صار الآن مفهوماً، ولكنه يعوزه تفصيل وتفصيل. فقلت: نعم أفصل وأفصل، وكيف لا أفصل؟ ألم يفصل الله الظلمات ويفصل النور كما قدمت في نفس سورة «الأنعام»، ثم جاء يفصل الأمر في علم الفلك الذي أظهر هذه الأجرام النورية البعيدة، وفي مباحث الفحم الحجري، وقد ظهرت بالمناظير المعظمة الحبة في ظلمات الأرض مدفونة في المتحجرات الفحمية فهاهي ذه قد أصبحت متصفة بالوصفين: وصف أنها في صخرة كما في سورة «لقمان»، ووصف أنها في ظلمات الأرض كما في سورة «الأنعام»، فهذان الوصفان فصلهما القرآن، وذكر الثانية في سورة «لقمان» الذي آتاه الله الحكمة للدلالة على أن الذين يدرسون هذه العجائب هم أهل الحكمة، بل هم ممن آتاهم الله الحكمة إذا كانوا مسلمين.

وإلا فلماذا نرى لقمان حين يعلم ابنه الدين يبتدئ بأن الله يعلم حبة الخردل في الصخرة وأنه يأتي بها، وقد أتى الله بها فعلاً في زماننا من جوف الصخرة ورأيناها بالمنظار المعظم.

فقال صاحبي: هذا الكلام في حد ذاته حسن، ولكن نريد إيضاحاً أتم وأجمل. فقلت: اسمع أيها الأخ: يقول الله في سورة «سبأ»: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾[الآيتان: ١-٢]، انظر أيها الأخ العجب العجاب.

يقول هنا: إنه له ما في السماوات وما في الأرض، وإنه يعلم ما يلج في الأرض ويعلم ما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها. فإذا تذكرنا أنه يقول في سورة «الأنعام»: إنه يعلم الحبة في ظلمات الأرض؛ علمنا من هذا المقام علم الفحم الحجري كله، فكأنه يقول لنا الآن: أيها المسلمون، أيها المسيحيون، أيها اليهود، أيها البراهمة في الهند، أيها البوذية هناك، ويا أتباع «كونفوشيوس» في الصين، ويا أتباع «الميكادو» في اليابان، اسمعوا اسمعوا.

إن الجهلاء منكم يؤمنون بأن لهم إلهاً على مقتضى سماعهم ذلك من شيوخ دياناتهم، وهولاء الجهال من حسن حظهم ـ الدنيوي، لأن آخر دين وهو الإسلام هو الذي جمع أسرار كل دين فيجب اتباعه على كل من وصل إليه وبلغه ـ بحكمتي البالغة لا يقدرون على الجدال، فلا يقول أحدهم: إذا كان إلهاً رحيماً فما هذه الزلازل؟ ما هذه الرجفات الأرضية؟ فبينما الناس آمنون في أوطانهم سعداء مهنئون فرحون مستبشرون إذا بنا في لحظة نرى الأرض قد ابتلعت مدناً وقرى ومزارع وحيوانات ونباتات، أي رحمة هنا وأي رأفة؟.

إن هذا القول لا يخطر ببال الجهلاء من نوع الإنسان، وإنّما الإيمان تقليدي، والتقليد هنا نعمة، ولكن الذي يسأل هذا السؤال ويصبح ملحداً كافراً بالله وبنعمه إنّما هم أكثر المتعلمين في الأرض.

إن المتعلمين في المدارس العالية في أوروبا وأمريكا والشرق الأقصى والأدنى وفي جميع الكرة الأرضية على قسمين: أذكياء، وبلداء، فأما البلداء فإنهم لا يشكون في دياناتهم لأنهم لا قبل لهم بالتفكير في هذه الحوادث المزعجة، بل يقولون: سلمنا، وهؤلاء أرحناهم من العناء.

أما قسم الأذكياء من أرقى الطبقات المتعلمة فإنهم فريقان: فريق بحث وحلل وشرح، واهتدى إلى أن هذا العالم جميل وجماله منا، ومتى جهل شيئاً نسبه إلى أن قدرته لا تطيق ذلك، وحمل ذلك على ظن حسن بجمال صنعنا وقاس ما لم يعرف على ما عرف.

وفريق آخر قال: كلا. كلا. إن العلم كله ضلال في ضلال، ما هذا الموت، ما هذه الحياة، ما هذه الأمراض، ما هذه الزلازل والبراكين، إن كل ذلك إلا خبط في خبط ولا قوة عاقلة تحفظ هذا العالم، وهل هو إلا عبارة عن عوالم متحركة لا مستند لها إلا المصادفات، أما العقل والعلم والحكمة فإن ذلك لا وجود له، وإلا فما هذه الأهوال والفواجع والزلازل والبراكين، كل ذلك يقع في أذهان هذه الطبقة المتعلمة التي وقفت في وسط الطريق، فلا هي من العامة المقلدين، ولا هي من الخاصة الواصلين إلي. فليعلم جميع أهل الأرض من سائر أهل الملل والنحل أن حقائق العلوم اليوم أخذت تظهر جلية للمفكرين.

هاأنا ذا أقول في القرآن: إني أعلم ما يلج في الأرض وأعلم ما يخرج منها، وأعلم الحبة في ظلمات الأرض، وأعلم الورقة الساقطة، كل ذلك أصبح واضحاً في طبقات الفحم الحجري.

لو أن أحداً الآن وقف عند مصب نهر «الكنج» وعند مصب نهر «المسيسيبي» ورأى مئات الأميال المربعة التي امتلأت بالغابات والأحراش والأشجار العظيمة الهائلة ورآها تكون طبقات تلو طبقات؛ لتعجب من ذلك وقال: أي فائدة في هذه كلها، وأي نفع في تراكمها طبقات بعضها فوق بعض، وهذه الطبقات لا ينتفع بها أي حيوان أو إنسان بعد ذبولها ويبوستها ودفنها في الأرض.

وهذه الظاهرة اليوم هي عين الظاهرة التي كانت قبل خلق أبيكم آدم، فقد كانت الطبقات تتلو الطبقات بلا مزية ظاهرة للجاهلين. هذه أفعالي في أقاصي السماوات وفي قطرة الماء، أدبر البعيد وأدبر القريب، الصغير والكبير عندي سيان.

تدبير الأمر وتفصيل الآيات جار في العوالم كلها وظهوره أتم في عنصرها

رباه أريتنا القريب الحقير عظيماً، وأريتنا البعيد الكبير صغيراً قريباً، إن ذلك التدبير العظيم ظهر بالتفصيل الذي فصلته بالمناظير المعظمة، وبانتشار العلوم التي أصبحت في نظر القرآن كأنها علم واحد من حيث جمالها وبهجتها بالماء وبعوالم السماء بهرت عوالم النبات والحيوان التي ظهرت علومها في عصرنا. دبرت التدبير واضحاً في نتائج هذين العالمين كما وضح فيما قدمناه بما شاهدنا من التدبير البديع في عالم النبات، وكيف:

(١) يظهر زهر بعضه أولاً فإذا ذبل دخل الثمر في شق الأرض.

(٢) وبعض النيلوفر تنفتح زهرته فوق الماء فإذا ذبلت تدلت الثمرة فيه.

(٣) وبعض ذلك النبات متى أزهرت الأنثى منه وظهر الثمر فوق سطح الماء كما أوضحنا، أخذت الزهرة التي فيها مادة الذكورة تنقطع وتخرج من تحت الماء جارية فوق سطحه حتى تصل إلى الأنثى فيكون اللقاح.

سبحانك يا رب، ما هذه العجائب والبدائع التي شرحنا سابقاً؟ وأعدنا بعضها هنا إعجاباً بالحكمة، وفرحاً بالنعمة.

رباه، ما هذه البدائع؟ نرى نوراً مشرقاً في هذه العوالم وسراً سارياً فيها، فيا ليت شعري هل يعلم بعض النبات أن بذره خلق ليعلق بصوف الغنم والغنم تسير به إلى أماكن أخرى ليقع فيها البذر فينبت هناك، ما هذا التدبير المحكم؟ نعجة تجري ولا علم لها بما علق بها، ثم يكون صوفها سبباً في تعلق البذر به فيكون زرعاً في أرض نائية فينتفع الإنسان والحيوان، ما هذه العجائب؟.

رباه حارت العقول وحارت الأفكار في هذا التدبير، من هنا يفهم المسلمون بعدنا معنى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾[الأعلى: ٣-٤]، ويفهمون: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾[الرعد: ٢]، ويفهمون أكثر القرآن مثل قوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: ٥٦]. ويا ليت شعري هل كانت الأرض وهي تدور حول الشمس عارفة كيف يكون نظام الصيف والخريف والربيع والشتاء، وكيف تكون الحرارة والبرودة ومقاديرهما سبباً في انتشار النبات والحيوان في الأرض ولكل زمنه الخاص به، أم كانت حرارة الشمس وضوؤها والعناصر التي ركبت منها أنواع النبات. فكرت في أمر الفول السوداني فقالت له: يا فول إذا نضجت حبوبك فادفنها في الأرض لتحفظ من الآكلات لها، وليكون قول آخر يأتي من حبوبك المدفونة، أم المادة والضياء هما القائلان للنبات المسمى «بنفسج الكاب»: يجب عليك أن تدفن بذرك على بعد عشرة أقدام لأجل أن تكون حراً في ظهورك بعيداً عني، وهل كان النبات المسمى «ورد أريحا» علم أنه لا نصير له في بقاء نوعه إلا أنه يصير كرة يبسه، وقد عرف أن الرياح تسوقه وتلعب به حتى يصل إلى مكان قصي فينبت بذره فيه، وهل الرياح كانت تعقل تلك النعمة.

لعمري ما كانت النعجات حاملات البذر ولا الرياح حاملات ذلك النبات الكروي بعالمات نتائج هذه الأعمال، أرى أن هذه العوالم كرة واحدة مملوءة من العمال الصغيرة المدبرة تدبيراً متقناً، والإنسان والحيوان في حيرة لا يعلمون ما هم إليه صائرون، غاية الأمر أظهر العلم أن الحكمة سارية في صغيرات الأمور وكبيراتها، أوليس هذا يفهمنا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: ٥٩]، وإلا فكيف نرى بذر القطن يحيط به شعر، ذلك الشعر الذي نبيعه في أسواق العالم لم يكن مقصود خلقه أولاً وبالذات إلا بقاء نوع القطن، وهذه البذور التي عليها مدار بقاء النوع قد كسيت بهذا الشعر وجعلت له أشبه بشراع السفينة تتقاذفها الرياح، وهي حافظة البذور فيها، حتى إذا وصلت لمكان آخر ووافقتها الأحوال الجوية ظهر نبات قطن جديد من هذه البذور، ومثله بذور شوك الجمال المعروف.

ثم ما هذه الكلاليب والصنارات التي تعلق ببذور بعض النبات، فمتى صادفها حيوان علقت بشعره، فإذا أراد التخلص منها صعب عليه ذلك، وقد تقتل الآساد إذا حاولت نزعها، ما هذا القتل؟ وهل هي دبرت ذلك؟ وهل هي التي كانت تعلم أن بقاء ذريتها لا يتم إلا بهذه الكلاليب، وتعلم أن شعر الحيوان مستعد لنقلها إلى مكان آخر، وقد يموت الحيوان شهيد المعركة، كل ذلك لقصد بقاء نوع

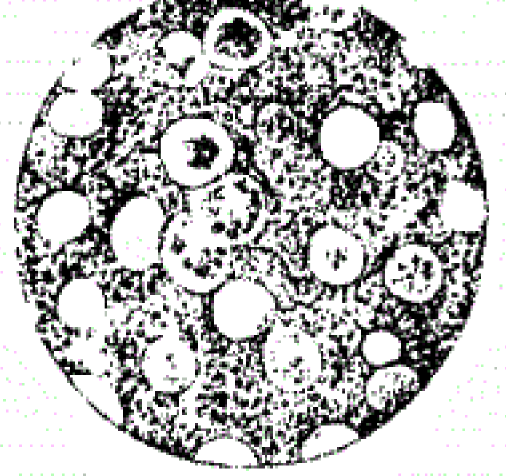
هذا النبات. ثم ما تلك الأسلاك الشائكة التي علقت ببذور النبات الطفيلي حتى إذا تعلقت بشجرة نبتت عليها واغتذت من عصارتها.

وهل كان جوز الهند يعلم أن ثمرته لا بد أن تذهب بعد أن يحملها الماء إلى مسافات بعيدة لتنبت هناك، فجعل جرم الجوزة قوياً يحفظ ما تحته من دخول الماء فيه فيفسده، وما هذه الخلايا الممتلئة هواء في ذلك النبات الهندي الذي يعوم في تيار المكسيك بذلك الهواء ويسير إلى أوروبا، ولم يجعل غلاف البذور بشكل بعض الحشرات، وهناك تكون زلازل أرضية تصبح بها هذه المروج الخضراء أثراً بعد عين في لمح البصر أو هو أقرب، ولكن العلم الآن أوضح أن تلك الطبقات الفحمية التي تبلغ في المكان الواحد من خمسين إلى مائة لا بد من زلزلتين لكل واحدة منها: زلزلة لإغراقها في البحر، وزلزلة لإخراجها منها، فإذا كانت الطبقات مائة طبقة كانت أعداد الزلازل مائتين، وإذا كانت سبعين طبقة كانت الزلازل (١٤٠) زلزلة، فهذه الزلازل المهلكات لم يرد بها إلا إتمام العمل في تلك الطبقات حتى يتم نمو الفحم الحجري على مر السنين، وهذا الفحم عليه الآن مدار العمران في أرضكم، خزناه لكم في أجيال سابقة على خلق أبيكم آدم، لهذا قلت لكم في القرآن: إني أعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، أريد أن من ذلك هذه الزلازل الأرضية التي من حكمها أن تنزل الطبقات إلى البحار تارة وترتفع أخرى، وبين النزول والطلوع آلاف السنين تتهنأ فيها مخلوقاتي بالسلام والأمان والرحمات والسعادات، وغاية الأمر أنني بعد سنين قد تبلغ عشرات الآلاف أو أقل أو أكثر أزلزل الأرض فيحصل موت الحيوانات، وهذا الموت حاصل في كل مكان، غاية الأمر أنه شمل أشخاصاً كثيرة وهو أمر سائر على النظام لا خلل فيه، فهذا الموت ليس شيئاً مذكوراً، بل إذا كان ذلك ضرراً بحسب الأنظار الجاهلة فإنا نقول: إن المنافع العظيمة في الأرض تتوقف على هذه الزلازل، وهذا الضرر القليل عند النظر السطحي يفضل عليه النفع الذي لا حد له، فليس ذلك النفع قاصراً على الفحم الحجري.

إن الزلازل تخرج لأهل الأرض عند جبال البراكين أراضي زراعية لا يحتاجون فيها إلى سماد وتبقى الأرض على هذا المنوال آلاف السنين. هذا واضح وضوحاً تاماً في سورة «سبأ» فاقرأه هناك فإنه مشروح شرحاً وافياً. وكم من منافع للناس من تلك الزلازل ومن تلك البراكين لولاها لفني الإنسان. وكيف لا يفنى؟ أليس حدوث القارات لن يكون إلا بالزلازل، فإذا كانت نفس القارات وما هو أقل منها وهي الأرض الخصبة في القارات لا تكون إلا بالزلازل، فكيف تكون شراً، وهي الخير كل الخير. فإذا ذكرت في القرآن الحبة في ظلمات الأرض، وذكرتها في الصخرة، وذكرت أني أعلم ما يلج في الأرض، وأني أعلم ما يخرج منها، وأني أعلم كل ورقة سقطت من شجرتها، فهاهو ذا مفصل تفصيلاً واضحاً في معادن الفحم الحجري، فهناك الورق والغصن والجذع والحب الصغير.

فقال صديقي: والله إن الموضوع لجميل وبديع، ولكني أحب أن أرى بعيني نفس الحبة التي في الصخرة والتي في ظلمات الأرض، وإذا كنا نقول: إن هذا هو الزمان الذي تظهر فيه الآيات العجيبة؛ والله يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فصلت: ٥٣]، ويقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[القيامة: ١٩] ويقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾[النمل: ٩٣]

فأنا أحب أن أشاهد نفس الحبة ونفس الصخرة في ظلمات الأرض كما شاهدتها أنت. فقلت: لك ذلك أيها الأخ.



(شكل ٥٣) قطعة رقيقة مما يسمونه لوح الحجر مكبرة جداً

وفيها ترى الحبات الدقيقة جداً في غلافاتها محفوظة من قبل خلق الإنسان موزعة في ذلك اللوح الحجري.

قال المؤلف الذي ترجمت عنه هذا القول: ما هذه الأكياس الصغيرة الموزعة في هذا اللوح الحجري؟ ثم أجاب على ذلك بأن علماء النبات يجيبوننا حالاً قائلين على طريق التأكيد بلا تردد: لا مرية أن هذه بذور نوع من الطحالب ذوات الأغصان والفروع.

ولقد اصطلح علماء النبات على تسميتها باسم «سبيور» قد غطيت بأغلفة بها بقيت محفوظة إلى الآن، وهذه الأغلفة تكون سبباً في اشتعال النار بها.

إن لوح الحجر إن هو إلا طبقات من طين تكون في العصور التي قبل خلق الإنسان، وامتزج بهذه البذور الدقيقة «سبيور» التي هي بذور أشجار الطحالب، وقد أصبح ذلك الآن متحجراً شديد الصلابة قوياً متيناً.

قال المؤلف: وإذا أردنا أن نعرف ما هي الطريقة التي بها أصبح ذلك متحجراً؛ نقول: لا ريب أن من ساح في أقطار «كندا» وشاهد غاباتها العظيمة فإنه يتعجب غاية العجب مما يرى أن شواطئ بحيراتها الواسعة العظيمة مغطاة بمقادير عظيمة من دقيق أصفر يظهر في نظر العين أنه تراب، وما هو بتراب، إن هو إلا حبوب دقيقة جداً، وما هذا الدقيق إلا حبوب طلع أشجار الشربين، تحملها الرياح من أزهار ذلك الشجر وتسير بها في الجو كأنها سحب عظيمة في الجو، وقد اعتاد أهل كندا أن يسموها «سحب الكبريت». ومن هذه السحب الصفراء ما يقع على غابات الصنوبر العظيمة، وكثير منها ما ينزل على ماء الأنهر والبحيرات، وما أسرع أن تتقاذف ذلك الدقيق الأصفر الأمواج، فتحملها إلى شواطئ البحيرة المكونة من الطين، هنالك تمتزج حبوب الطلع بذلك الطين، وتصبح بعد حين صلبة بهيئة الأحجار، وتلك الأحجار مشابهة كل المشابهة للوح الحجر الذي رسم في هذا المقام.

وإذا عرفنا تكون تلك الحبوب من الطلع في كندا؛ فهكذا لنقس عليه ما شاهدناه هنا في لوح الحجر، فإن العقل والقياس يقضيان أنه تكوّن في قديم الزمان قبل خلق الإنسان بهذه الطريقة، حيث تمتزج بذور الطحالب بالطين، ثم يصير صلباً حجرياً على مدى الأزمان.

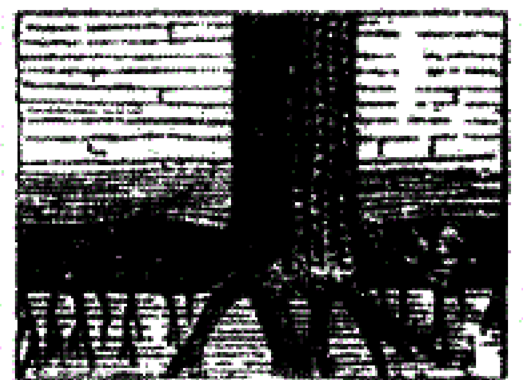
إذن قال صاحبي: الله أكبر، الله أكبر، لك الحمد، رباه لك الحمد على العلم وعلى الحكمة، رباه لقد أنعمت علينا بالعلم، وفهمنا قولك: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[فصلت: ٥٣]، وشاهدنا نفس الحبة في لوح الحجر بأعيننا بعد تكبيرها كثيراً جداً، وفهمنا أن هذا معنى قولك: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾[لقمان: ١٦] وقولك: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام: ٥٩]. هذه يا رب رأيناها رأي العين، وهذا أمر عجيب جد عجيب.

ولكن أرجع إليك فأقول: أنت تقول إنك شاهدت الورق الساقط محفوظاً مثل هذه البذور فأود أن أراه كما رأيت البذور لأفهم قوله: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾[الأنعام: ٥٩]، وحينئذ يكون قد تم المقام كله، لأن الزلزلة والرجفات الأرضية قد وضحت في قوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[سبأ: ٢] الخ. وبينها العلم في تكوين الفحم الحجري فلم يبق إلا هذا الورق، فقلت: إذا أريتكه فهل تقول كفى؟ فقال: إي وربي، فقلت: انظر.



(شكل ٥٤)

منظر رسم هندسي للفحم منظور من معدنه أثناء العمل



(شكل ٥٥)

(أ) هذا هو الجزء الذي تحت الطين مع الجذور الممتدة فيه.

(ب) فرش الفحم وهو أسفل طبقة.

(جـ) سقف الفحم مختلطاً بالرمل وبنوع من لوح.

فلما اطلع على هذه الأشكال الثلاثة قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. هاأنا ذا أشاهد الورق محفوظاً قبل خلق الإنسان في الأرض، وقد أتى الله به إلينا كما أتى لنا بالحب وبالطلع الذي هو أدق منه في صخور عظيمة، وهاهنا أشاهد بعض طبقات الفحم الحجري عياناً، والحمد لله رب العالمين.

إن الفحم المفصل في طبقات الأرض موجب للحمد ودليل على قيام الساعة في القرآن ثم استطرد صاحبي فقال: حيا الله العلم وحيا الحكمة، هاهو ذا القرآن نور على نور، ونعمة على نعمة، من ذا كان يخطر بباله أن تظهر هذه العجائب في زماننا، زمان العرفان، زمان النور، زمان الجمال، زمان السعادة.

الله أكبر، وأي سعادة أعلى مراماً وأجمل منظراً وأبهج نوراً من ظهور الحقائق، ظهورها واضحة جلية حتى أصبحنا كأننا نشاهد العالمين: عالمي الدنيا والآخرة.



(شكل ٥٦ ـ رسم الأعشاب في مدة الفحم الحجري)

أفليس مما يبعث في القلوب مسرة وفي الأعين قرة أن يكون الحمد في « الفاتحة » مفصلاً في أول « الأنعام » بذكر الظلمات والنور والمفصلين في قصة الخليل عليه السلام ومفاتح الغيب وأول سورة « سبأ »، كل ذلك لتفسير حمد الله الذي ربى العالمين.

فالفحم الحجري الذي ظهر بالعلم الحديث أنه تلج الأشجار في الأرض قبل خلق الإنسان تارة وتخرج منها تارة أخرى بالزلزلة دهوراً ودهوراً، كل ذلك لم يكن عبثاً، ولم يكن جهلاً، ولم يكن رمية من غير رام، فهذه هي الآثار الدالة على أن ذلك كان معلوماً لصانع العالم، لأن الذي يأتي بهذه الثمرات وهذه المنافع ويقلب الحضارة في كرتنا الأرضية بعد أن كان مخزوناً مجهولاً في ظلمات الأرض؛ لم يكن وليد المصادفة العمياء، فهذا معنى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾[سبأ: ٢] الخ. هذا كله قد فهمته مما قصصته علي أنت، قلته لأبين لكم أني عرفت هذا الدرس معرفة تامة، ويمكنني أن أقول: إني فهمته حق فهمه، فقلت: حياك الله وبياك، لقد كان سروري بما سمعته منك عظيماً، وأيقنت بأنك قد أدركت حقيقة هذا العلم وفهمته حق فهمه، ولقد تبين لي من قولك هنا حكمة عالية لم تكن لتخطر لي قبل الآن، فقال: وما هي تلك الحكمة؟ فقلت:

ألا تتذكر أيها الأخ أني قريباً عند شرح الفحم الحجري قد قررت أنه قد جعل مثلاً لخلق الإنسان وبعثه؟ قال: نعم. قلت: وقد قررت هناك أن المعارف والشرور والفضائل تخزن في النفس في حياتها ولا يغيب عنها شيء، وتبقى تلك المخازن محفوظة في النفس، ثم يظهر ذلك المخزون برمته عند رجوع النفس إلى العالم الإلهي وترى الأرواح أسرار بعضها، والأسرار تكشف، ويقال لكل امرئ: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[ق: ٢٢].

وقلنا هناك: إن ظهور الأنوار والحرارة المخزونات في الفحم الحجري في العصور القديمة واختلاط تلك الحرارة والأنوار اليوم بالحرارة والأنوار الشمسية في جو الأرض صاعدة من آلاتنا البخارية ومعاملنا الصناعية، كل ذلك تمثيل وتبيان لظهور المخزون في أرواحنا وما استكن فيها علومها وأعمالها وأخلاقها عند رجوعها إلى عالم الأرواح، والفرق أن المخزون في الفحم أنوار وحرارة حسيات رجعت إلى عالمها في الجو بعد أن اختفت عنه مئات ألوف السنين.

فأما المخزون في نفس الإنسان فإنه معنوي تدركه العقول ولا تدركه الأبصار، ويرجع ظاهراً في عالم الأرواح مشاكلة لظهور أنوار الفحم الحجري في عالم الأشباح.

فقال صاحبي: نعم أنا أتذكر أن ذلك تقدم وسمعته منك، غاية الأمر أنه هنا أشد تفصيلاً، فقلت: فهل تعجب معي أيها الأخ غاية العجب من أمر لم أكن لأتصوره. فقال: وما هو يرحمك الله؟ فقلت: إن الذي كنت ذكرته لك وقررته، وهو أن أمر الفحم وصنعه في باطن الأرض ضرب مثل لرجوع الأرواح لعالمها وقيام الساعة لم أكن لأعلم أن نفس هذا الاستنتاج صرح به القرآن في نفس هذه الآيات، فقال: نفس هذا الاستنتاج؟ فقلت: نعم، فقال: إذا علمت ذلك وظهر فعلاً نستدل به على أمور عظيمة، كأن تقول: إن كثرة تكرار الكلام على قيام الساعة قد ذكر في كل مقام لحكمة غير الحكمة التي تذكر في مقام آخر، فقلت، لقد أحسنت أيها الأخ فيما فهمت، فقال: إذن ماذا جاء في

القرآن، قلت: ذلك في سورة «سبأ»، فإن الله يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الآية: ١]. ثم أخذ يبين الحكمة وأنه خبير فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾[الآية: ٢]، ثم أتبعه بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[الآية: ٣]. فانظر هل كان يخطر لنا ونحن نبين أن الفحم الحجري ضرب مثل للبعث، إن هذا المقام مشروح في نفس الآية، فقال: كلا لم يكن ليخطر لنا، وإنّما ذلك أمر عقلي، فإن الأضواء وأنواع الحرارة الأرضية المخزونات في الفحم وظهورها مرة أخرى، هذه كلها تشاكل أخلاق الناس وأعمالهم التي تخزن في نفوسهم وتظهر عند الموت وعند البعث.

فقلت: إذن أيها الأخ هذا أمر عجب، والأعجب منه هذا الإيضاح، فانظر كيف يقول بعد قوله: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾[سبأ: ٣]، فقوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾[سبأ: ٣] راجع لقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[سبأ: ٢] الخ. فالذي يلجه في الأرض أصبح مغيباً كالفحم الحجري، فأما قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾[سبأ: ٣] فهو أعمّ، فذاك في عالم الأرض وحده، وهذا عام في كل غيب، ولذلك أخذ يبينه فقال: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ: ٣] فذكر مثقال الذرة، وذلك كتلك البذور التي أريتكها أيها الأخ وهي الحبة التي في ظلمات الأرض إلى آخر ما تقدم، فقال: هذا حسن، ثم ذكر ما هو أصغر منها، أتدري ما هو أصغر منها أيها الأخ؟ فقال: لا. فقلت: قد أشرت إليه سابقاً، وهو الأضواء والحرارة وما في النفوس الإنسانية من الخير ومن الشر، فهذه كلها أقل من الذرة، لأنها إما معنوية وإما قريبة من المعنوية، فالأصغر من الذرة يشمل جميع الأنوار الحسية، وجميع الأمور المعنوية، فالأمور المعنوية هي المخزونات في نفوس الناس، والأمور الحسية هي أضواء الكواكب المخزونات في طبقات الجو كما أشرنا إليه سابقاً، فإننا نرى جميع الكواكب البعيدة والقريبة ترسل أنواراً، وتلك الأنوار تجري حثيثاً سريعة، ولكنها لا تفنى تلك الأنوار بل هي في نفس هذا الجو.

ألسنا نرى الضوء قد جاءنا وسافر من آلاف وملايين السنين؟ أليس ذلك لكونها قد حفظت ولا يمكن حفظه إلا إذا كان معلوماً لحافظه كما حفظ الفحم الحجري وحفظت أنواره التي فيه التي تقبلها من الشمس ثم ظهرت لنا بعد ذلك، فنور الكواكب الجاري منها إليها لا فرق بينه وبين نور الشمس المخزون في الفحم الحجري، وقد رجع إلينا، كل ذلك حفظ بعلم ورجع إلينا، فهذا هو قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[سبأ: ٣].

فلما سمع ذلك صاحبي قال: يظهر لي أننا في فهم القرآن لسنا نقف عند حد، كما أننا في العلم لا نقف عند حد، فقلت: نعم. فهل تحب أن أزيدك أيضاً؟ فقال: بعد هذا أيضاً؟ قلت: بعد هذا أيضاً فقال: ماذا تقول؟ فقلت: اسمع، اسمع كيف يقول الله بعد هذه الآيات: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾[سبأ: ٤-٥].

أفلا تعجب أيها الأخ كيف نذكر الفحم الحجري وأنه ضرب مثل، ثم نرى نفس الآية تذكر ذلك صريحاً لا ضرب مثل، ثم نسمع علم الغيب والأصغر من الذرة والأكبر منها كالكواكب والشموس والأقمار، ثم يصرح بأوضح من هذا فيذكر جزاء الكافرين والمؤمنين على وفاق ما يظهر من أنوار الفحم الحجري وحرارته عند احتراقه في المعامل.

ثم اسمع يا أخي ما هو أعجب، فقال: وهل بقي شيء؟ قلت: نعم. فقال: وما هو يا ترى؟ فقلت: أبان بعد ذلك نتيجة هذا القول فقال: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[سبأ:٦]، فذكر أولي العلم، وهذا المقام أحق به، لأن هذه العلوم التي ظهرت الآن لا سيما في الفحم الحجري تجعل المدركين لها موقنين بذلك.

والأعجب من ذلك أن يقول: ﴿ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[سبأ:٦] فلماذا ذكر لفظ «رب» مذكراً لنا بأن ذلك كله راجع للتربية، فالفحم الحجري والسماوات والأرض كلها في حال التربية والارتقاء حالاً بعد حال لتربية الفحم في باطن الأرض كتربية الإنسان كلاهما له مقدمات ونتائج، وهذا كله داخل في معنى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ في أول «الفاتحة».

ولقد أشار له بقوله: ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[سبأ:٦]، فقوله: «الحميد» راجع لما في أول السورة من قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾[الآية:١] الخ، ولقوله في أول «الكهف»: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[الآية:١]، ولقوله في أول سورة «الأنعام»: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[الآية:١]، ولقوله في أول «الفاتحة»: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، فلفظ «الحميد» هنا يذكر هذا كله، ثم أتبعه بتوبيخ منكري البعث، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾[سبأ:٧-٨].

ولما كان الجهال محرومين من العلم المذكور في قوله: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾[سبأ:٦] الخ؛ وجب أن يخاطبوا بما يفهمونه من الزجر والتخويف، فأما العلم فلا، ولذلك قال: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾[سبأ:٩]. والعبد المنيب إلى ربه رجل صالح رجع إلى ربه، ويكفي في أمثال هؤلاء التخويف، أما الذين أوتوا العلم فهؤلاء يذكر لهم ما تقدم من أنه يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها إلى آخر ما تقدم.

ثم بعد ذلك أخذ يذكر قصص داود وسليمان إلى آخره، وقد وضح هذا المقام، والحمد لله رب العالمين.

كيف أسدلت الحجب على هذه الأسرار القرآنية قروناً وقروناً

لما سمع صاحبي ما تقدم أخذ يفكر طويلاً وظهرت عليه علامات الأثر الشديد وسكت مفكراً فقلت: ما لي أراك واجماً يرحمك الله. فقال: أفكر في أسرار القرآن في زماننا وأسراره في الزمان الأول. فنحن هنا والله قد دخلنا في بحر لجي من العلم لا ساحل له، وهذه أحق بأن تسمى أسراراً، أما ما كان

يتلقفه رجال عن رجال مما كانوا يسمونه أسراراً؛ فإن ذلك قد أسدل الحجب وحجب الأنوار عن أمم الإسلام قروناً وقروناً، إذ أخذ المسلمون يهيمون في أودية أسرار الحروف وحسابها بالجمل ويظنون أن ذلك أسرار، وما هي بأسرار، إن هي إلا بقايا علوم الأمم الصابئة واليهود، ونقلت إلى المسلمين في العصور المظلمة فمزجوها بآيات القرآن، فحجب بعض المسلمين عن الأنوار والجمال إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم، وبينما نحن كذلك نفيض في الحديث إذ حضر رجل مشهور بالصلاح والتقوى وهو من الصناع المصريين وهو يتردد علينا وله إلمام بالتفسير الذي نشرناه.

فقال: لقد كنت أبحث عن اسم الله الأعظم، وبحثت عنه سنين وسنين، واسم الله الأعظم وهو الاسم الذي من دعا الله به أجابه، ومن سأله أعطاه.

فقلت: يا أخا العرب. فقص قصصاً طويلاً، وملخصه أنه قرأ في بعض الكتب أن هذا الاسم حروفه محسوبة بالجمل، وجملها ٦٩٣ وهي ١٤ حرفاً، وإذا أخذ نصف هذه الحروف بطريقة خاصة كان جملها ثلث هذا العدد. فهذه الحروف هي الحروف النورانية، وهي التي في أوائل السور، ويجمعها قولك: طرق سمعك النصيحة فجملها ٦٩٣ وقد دخلت هذه الحروف كلها بهذا الدعاء: اللهم يا ربنا يا صاحب اللطف الخفي حق لطيف، بك نستعين ونكتفي. فهذا هو اسم الله الأعظم الذي بحثت عنه مدة حياتي، وظفرت به بعد التعب والنصب.

فقلت له: أيها الأخ، هل هذا هو اسم الله الأعظم؟ فقال: نعم. فقلت: اعلم أيها الأخ أن هذه العلوم تسمى العلوم الظلمانية، وليست بعلوم نورانية، علوم جهالة، وهذه العلوم قد مارسناها زمن الصبا، وكنا نظنها أسرار القرآن، ولما تضرعنا إلى الله أن يفهمنا الحقيقة أزال تلك الموانع، وظهرت لنا الحقائق، فدرسنا العلوم، واطلعنا فألفينا أن الأمم الإسلامية أصابها ما أصاب الأمم قبلها، ونقلت علوم الصابئين وعلوم اليهود، والجمل وحسابه كله علم اليهود.

ولقد كان الصابئون، أي: عباد الكواكب، ومنهم المتأخرون من قدماء المصريين؛ يكتبون الأوفاق المعروفة على صحائف من الذهب، ويتقربون بها إلى الكواكب، فكان لكل كوكب وفق خاص، فالمثلث الذي نسبوه إلى الغزالي وهو يرد على الباطنية في زمانه، إذ كانوا مغرمين بذلك اتباعاً للصابئين؛ كانوا يتقربون به إلى زحل، والمربع كانوا يتقربون به إلى المشتري، والمخمس إلى المريخ، والمسدس إلى الشمس، والمسبع إلى الزهرة، والمثمن إلى عطارد، والمتسع إلى القمر. هذه هي الأوفاق وعلومها التي نقلها المسلمون إلى دين الإسلام، وطبقوها على الآيات، ومن تلك الكتب: «مشارق الأنوار»، و«شمس المعارف» للبوني وغير ذلك، فهذه العلوم نقلها علماء الباطنية الذين كانوا من غلاة الشيعة، فدخلت في دين الإسلام، ففرقت الجموع، وأحدثت البدع، وضاع المسلمون وتفرقوا شذر مذر، وأصبح دين الإسلام كأنه ليس ديناً واحداً بل أدياناً كثيرة، فقال: وكيف كان ذلك؟ فقلت: فانظر ثم انظر.

ألست ترى حين تقرأ هذا الدعاء وهو الذي اعتقدت أن فيه اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، وأنت لم تقله إلا بعد المشقة، وبعد الحساب الطويل، وأن الجمل ٦٩٣ وأن

سبعة من هذه الحروف كما تقول إذا حسب جملها يكون ثلث ذلك العدد، فإني سمعتك تقول: إن حروف «سعي كامل» جملها ٢٣١ وهذه سبعة حروف من ١٤ فهذا في نظر هذه الطائفة سر عجيب، وهذا السر كسر قولهم: إن سر القرآن في الفاتحة، وسر الفاتحة بالبسملة، وسر البسملة في بائها، وسر الباء في نقطتها، والنقطة هي أول كل شيء، والله هو أول كل شيء، فلنعرف الله ثم نعرف الأمور الشرعية، ويرتبون على ذلك كتاباً فيه مسائل من العلوم المشهورة بين الناس، وهذا كله جهالة وسوء فهم وتدليس، إذ يظن الطالب المسكين أن ذلك سر عظيم وعلم عظيم لجهالته. وأن شيخه هو العالم بالأسرار، أما علماء الدين وعلماء التفسير والحديث وقراء جميع العلوم فهم محرومون من هذه الأسرار لا سيما سر اسم الله الأعظم الذي يبنى على ذلك الحساب، وهذا الاسم أصبح سراً بيننا وبين ربنا إن سألناه أعطانا، وإن دعوناه أجابنا، والناس من حولنا محجوبون عنه.

ثم قلت: اسمع يا شيخ عطية، ألست ترى أنك حين تقرأ هذا الدعاء، وقد اشتمل على هذه الأسرار، وتكرره ٦٩٣ مرة وأنت في خلوة تحس في نفسك بروحانية ومسرة؟ قال: بلى. قلت: ألست حين تجاب دعوتك ترى أنك وصلت إلى سر عظيم عجز عنه الجاهلون بذلك؟ فقال: بلى. قلت: أليس ذلك معناه أن لكل شيخ طريقة، وكل ذي فكرة، وكل ذي نحلة من الأمم الإسلامية قد عمل نفس هذا العمل وجعل له أوراداً، وهذه الأوراد يتلوها أتباعه صباحاً ومساء لائذين بشيخهم، عائذين به، راجعين إليه، وهم موقنون بأن أدعيته وأنواع أوراده هي سر الأسرار، ومنبع الأنوار، وكشف الحقائق.

أفأنت ترى أن المسلمين بهذا تفرقوا فرقاً، وكل حزب بما لديهم فرحون، وثق أيها الأخ، وتحقق ما أقول، واعلم أنك حينما تقرأ هذا الدعاء الذي تعبت في حسابه واستخراج جمله، وقلت: اللهم يا ربنا يا صاحب اللطف الخفي حق لطيف، بك نستغيث ونكتفي، تحس في نفسك بالإجابة وبالمسرة وتنسى نسياناً حقيقياً الأدعية الواردة في القرآن، والواردة في الحديث كما اتفق لنا، ونحن نخوض في هذه الجهالات أيام الفتوة والشباب. إنك حينما أسمعتني هذا الدعاء تذكرت فرق المسلمين والجهالة الفاشية، وابتعادهم عن القرآن، وحصر أفكارهم في أمور جزئية جاهلة.

فيا ليت شعري كيف يفلح قوم غابت عنهم شمس الحقائق، وجهلوا هذه العوالم المحيطة بنا، والقرآن هو الذي طلبها، وعاشوا في جو من الجهالة والبطالة، وحبست عقولهم في محابس مظلمة ظلمة شديدة، ثم أيها الأخ بماذا تدعو بهذا الاسم الأعظم؟.

أنا أخبرك، تدعو الله أن يذل أعداءك، ويكثر مالك وولدك، ويأتي لك بالرزق الرغد والعيش الهنيء، هذه أدعية هذه الطائفة التي تقرأ الأوراد، وتعرف حساب الجمل، وتعيش في الجهالة والبلاهة والعمى والغفلة والضلال المبين. ثم إن هذا الدعاء استجيب أو لم يستجب، فإنه أيضاً جهالة، هل نزل القرآن لهذا؟ هل كان النبي صلى الله عليه وسلم وعمر وعثمان، وقد فتحوا البلاد شرقاً وغرباً عاكفين على طلب ما يطلبه هؤلاء الجهلاء الغافلين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

المسلم يعيش في الأرض قائماً بأمر ربه خليفة له، هذه الخلافة أظهرتها النبوة وبينتها، فبينما نرى جهال المسلمين وغوغاءهم يدعون في ظلمات الليل على أعدائهم، أو لكثرة أرزاقهم؛ نرى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحاب النبي يصلون ويدعون الناس للصلاح والتقوى، وتأتيهم الدنيا راغمة فيصرفونها للناس ويتبرؤون منها.

إذن هذا ليس دين الإسلام، وإنّما تلك ملصقة به منقولة عن الأوثان، إن المسلم الذي يفعل ذلك إنّما يريد نفسه ولا يبالي بغيره، وهذا انحطاط وجهل كبير. المسلم خلق ليعلم هذا العالم، ويعرف ربه، ويخدم مجموع الناس على قدر طاقته، فأما لو فكر في خدمة نفسه وأهله فذلك راجع لعلوم السحر، فالساحر لا يريد إلا نفسه، ويسخر الناس لخدمته هو، وهذا لا يتم له شيء في هذه الحياة، فجميع السحرة وجميع المتدينين بأي دين وهم لا يريدون من ربهم إلا حظوظ أنفسهم، فهؤلاء جميعاً أقل من الحيوان فضلاً عن الإنسان.

بهذا طاحت العلوم في الأمم المتأخرة الإسلامية، وحجبت عقول وعقول عن العلوم والمعارف التي تدخل تحت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ويقرؤها المسلم صباحاً ومساء، وهو غافل عن الحمد والشكر، وإنّما يريد خدمة نفسه وشهواته لجهالته، وليس للمسلمين والله ملجأ إلا هذا الحصن الحصين، وهو هذه العلوم والمعارف التي ننشر شذرات منها في هذا التفسير.

وإذا كان الله يقول: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٧٢] فإننا نقول: إن هؤلاء الذين جهلوا أسرار القرآن وما يطابقها من عجائب صنع الله تعالى، وانحصرت أفكارهم تبعاً لشيوخهم في أمثال هذه الأمور الحسابية الضيقة الجاهلة؛ هم أنفسهم الذين يحشرون وهم على هذه الجهالة يوم القيامة أشبه بالسحرة، فكلهم يعيش ويموت وهو محصور في شهواته وملذاته، ويدعو الله لنصرته هو على أعدائه.

ولقد قرأت في كلام الشيخ الدباغ الذي عاش قبل مائتي سنة كما عاش في نفس ذلك الزمان رجل إيطالي قد كشف له عن الحقائق واعترف بالإسلام، وقال كلاهما: إن علوم السحر إنّما هي علوم أهل جهنم. وقال عمانوئيل أيضاً: إنه رأى كثيراً من البابوات في قعر جهنم، ولا يزالون يقولون: إنهم هم نفس الإله ويكرهون من يقول لهم غير ذلك، ويريدون من الناس حولهم تعظيمهم، فلا يرون إلا إعراضاً فيزيد عذابهم بذلك.

أنا لست أقول: إن هؤلاء الذين يحسبون بالجمل سحرة فعلاً، ولكن أقول: إنهم أشبه بالسحرة والمسلم وإن كان يغفر له ويدخل الجنة بعد حين؛ فيكون هذا ناقصاً، ونحن نريد الكمال، وهذا نقص في الدنيا ونقص في الآخرة.

فما أتممت حديثي مع الضيف القادم ويسمى الشيخ عطية موافي حتى قال صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير: الله أكبر، الله أكبر.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد

إننا حينما تذكرنا الحجب المسدلة على الأمم الإسلامية في القرون المتأخرة، فغابت عنهم هذه العلوم الجميلة، وأسرار القرآن الحقيقية، حضر الشيخ عطية فكان سبباً في شرح هذا الموضوع شرحاً وافياً. فقلت: أيها الأخ، إن هذا الموضوع تقدم له نظائر فيها كثير من هذه الآراء.

أولاً: في سورة «التوبة» عند آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾[الآية: ٣٤]، وفي أول سورة «طه»، وفي أول سورة «الرحمن» في تفسير «الفاتحة»، فإنك هناك، أي: في فاتحة سورة «الرحمن»، ترى إيضاح الكلام على كتاب ألفه الشيخ الجيلي المسمى «الكهف والرقيم في سر بسم الله الرحمن الرحيم»، وهناك أظهرت كيف جعل الجمل في البسملة علماً، وكيف كان المسلمون إذ ذاك مغرمين بما ليس بعلم، وإنما هي قشور وقشور من العلم.

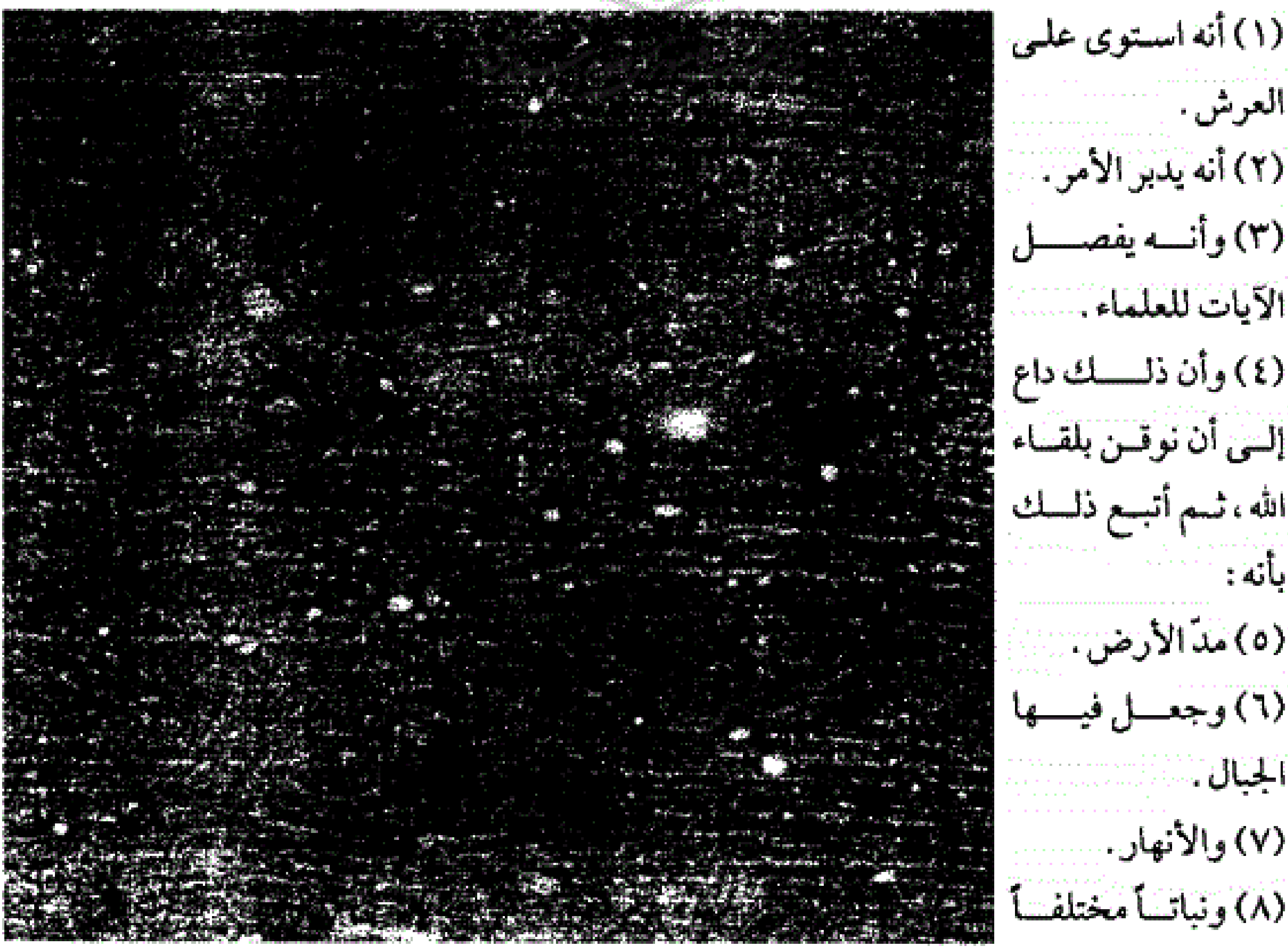
فقال صاحبي: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. فقلت: وأنا أحمده معك على التوفيق وعلى الإلهام وعلى النور الذي أنزله الله على أمم الإسلام في هذا الزمان، وعلى خروجهم من المآزق التي كان فيها السابقون. وبهذا انتهت المقالة الأولى.

المقالة الثانية: في عجائب السماوات

الله أكبر، قد بينا عجائب من أمة الحيوانات التي وصلت في صغرها إلى أن آلافاً منها تعيش وتتكاثر في قطرة ماء، وقد شاهدناها الآن.

إن هذا المقام لم يكن محلاً لذلك كله، ولكننا أدهشنا قوله تعالى:

(١) أنه استوى على العرش.
(٢) أنه يدبر الأمر.
(٣) وأنه يفصل الآيات للعلماء.
(٤) وأن ذلك داع إلى أن نوقن بلقاء الله، ثم أتبع ذلك بأنه:
(٥) مدّ الأرض.
(٦) وجعل فيها الجبال.
(٧) والأنهار.
(٨) ونباتاً مختلفاً أشكاله الخ.



(شكل ٥٧ ـ جمع من السدائم في ذات الشعور)

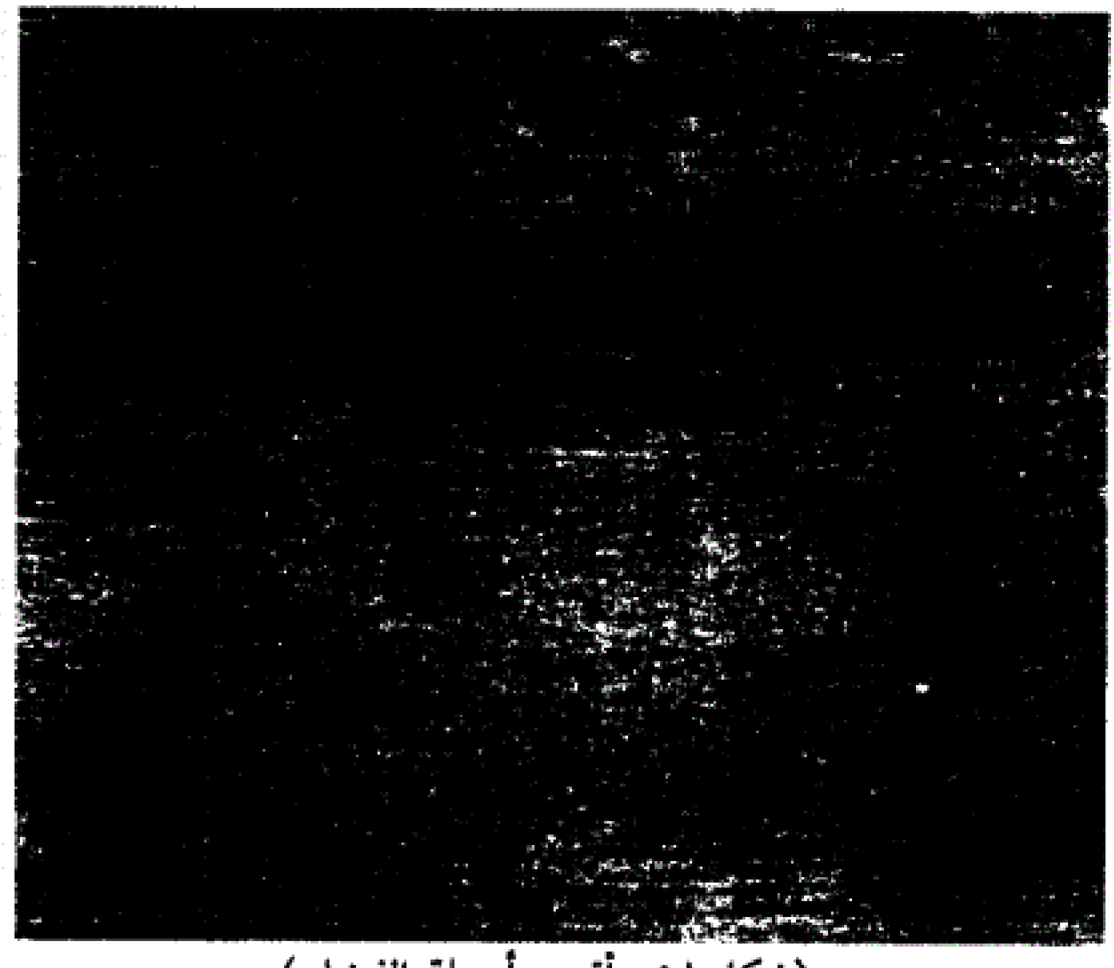
ونراه في آية أخرى يذكر أن هذه السماوات داعية لعلم الحساب، ولعلم الفلك، ولعلم سير الكواكب، واختلاف الليل والنهار. ثم يذكر بعد ذلك لقاء الله ويذم المعرضين عن هذه العجائب الذين اطمأنوا بالحياة الدنيا، وغفلوا عن هذه العجائب.

أغلبية الأجرام التي في هذه الصورة سدائم من البعد عنا بحيث إن ضوءها يستغرق ٥٠ مليون سنة للوصول إلينا.

سبحانك يا ربنا، حمداً لك وشكراً، أريتنا عجائب في هذه الدنيا على حسب طاقتنا في زماننا وحبتنا في البحث والتنقيب، ومعرفة الجمال والبهاء، وألهمتنا أن ننادي جميع علماء الإسلام من سائر الفرق ونقول لهم: أيها الإخوان، ما لكم؟ أنتم لستم فرقاً متشاكسين، أنتم أمة واحدة، دينكم واحد، خبروني أيها الإخوان ماذا يفعل الناس إذا سمعوا أن ملكهم عظيم المقام قد استوى على عرشه ودبر أمر مملكته الواسعة النطاق؟.

فهل تراهم يجلسون ويتناقشون في هيئة عرش الملك، وهل هو من ذهب، أم من ماس أم من بلاتين؟ وهل هذا الملك طويل، وما هيئته وكيف شكله؟ أظن أنكم تقولون كلا. فالناس لا يهتمون بهيئة الملك ولا بعرشه، وإنّما يهتمون بأمر مملكته وعظمتها، ويجدون في إرضائه، وإقامة العدل تبع أمره، فليست عظمة الملك بحسب وصف هيئة جلوسه، أو ملابسه، أو سرير ملكه، كلا، بل ذلك راجع لاتساع ممالكه، وظهور آثار تدبيره، ذلك هو الذي يهتم له الناس، ويكون تمجيده والخوف من سطوته وحبه على مقدار ذلك التدبير، واتساع السلطان.

فخبروني أيها الإخوان، أبعد هذا كله يحلو الجدال في كيفية استواء الله على العرش؟ وهل ذلك الخلاف نافع للأمة، كلا والله هذا تفريق للأمة لا فائدة منه، وإذن فاسمعوا، اسمعوا أيها الإخوان انظروا إلى ما يأتي وتعجبوا.



تبين هذه اللوحة بعضاً من أبعد الأجرام السماوية التي يمكن تناولها بالرصد، جمع مكون من ١٦٢ سديماً في الفرس الأعظم أغلبها على أبعاد ١٠٠ مليون سنة أو أكثر، وكل منها يحوي مادة كافية لصنع مدينة نجومية مكونة من آلاف الملايين من النجوم.

(شكل ٥٨ ـ أقصى أعماق الفضاء)

هاتان الصورتان المرسومتان الآن إحداهما وهي شكل (٥٧) فيها جمع من السدائم في هيئة الكواكب المسماة بـ« ذات الشعور »، وهذه السدائم التي فيها كثيرة، وسدائم جمع سديم، والسديم هو السحاب أو الضباب، وهذا ترجمة كلمة لاتينية بهذا المعنى، والسديم عبارة عن مجموعة تشبه المجرة، والمجرة تحوي ملايين كثيرة من الشموس كشمسنا وسياراتها، إذن هذه اللوحة التي صورناها هنا فيها عشرات المجرات التي هي كمجرتنا، ومجرتنا لا يقل ما فيها من الشموس عن (٣٠ ألف) مليون شمس، والشمس الواحدة كشمسنا أو أكبر أو أصغر قد يحيط بها سيارات ومذنبات. فالشمس الواحدة عبارة عن عوالم وراء عوالم، والشمس إحدى ملايين الشموس في المجرة الواحدة، وهذه اللوحة فيها مجرات كثيرة، أما لوحة (٥٨) فإن فيها (١٦٢) سديماً كلها في مجموعة النجوم المسميات بـ« الفرس الأعظم »، أغلبها على أبعاد (١٠٠) مليون سنة أو أكثر، كل منها يحتوي على مادة كافية لصنع مدينة نجومية مكونة من آلاف الملايين من النجوم.

ثم إن السدم التي في المجموعة (٥٧) يصل إلينا ضوؤها في (٥٠) مليون سنة، والثانية كما قدمنا في (١٠٠) مليون سنة.

ولا ريب أن الضوء يقطع (١١) مليون ميل في الدقيقة أو نحو (٦) ملايين مليون ميل في السنة، وبعبارة أخرى: إن الضوء يقطع ما بيننا وبين الشمس في (٨) دقائق و(١٨) ثانية، وهذه المسافة يقطعها القطار في (٣٥٠) سنة تقريباً، وتقطعها قلة المدفع في (١٢) سنة، إذن ضوء الشمس من حين خروجه منها إلى وصوله إلينا في الثمان دقائق المذكورة و(١٨) ثانية؛ يكون قد قطع هذه المسافة العظيمة التي تستغرق نحو (٧) أجيال من أجيالنا بقطر سكة الحديد، أو تستغرق زمن الصبا بقلة المدفع.

فلننظر إذن في هذا البعد الشاسع الذي تقطع فيه أضواء هذه السدم مدة ليست ثمان دقائق و(١٨) ثانية ولا ساعة ولا يوماً ولا شهراً، بل ولا سنة ولا عشرين سنة ولا مائة سنة ولا ألفاً ولا مليوناً بل خمسين مليون سنة بل مائة مليون سنة، هذا الضوء سافر هذه المسافة وقد قطع في كل ثانية منها (٣٠٠) ألف مليون كيلومتراً، أو (١٨٦) ألف ميل مسافات شاسعات تعجز عقولنا عن تصورها وكلما كان الكوكب أقرب كان أظهر، وكلما كان أبعد كان أخفى، ولذلك تجد اللوحة (٥٨) خفية جداً، فهي مع بعدها الشاسع ظهرت أنها صغيرة جداً بحيث أصبحت أشبه بالحيوانات الذرية المتقدمة المصورة فيما تقدم في قطرة ماء، وهاهنا الدهشة والعجب.

يقول الله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ ﴾[الرعد: ٢]، هو يدبر الأمر وهو على العرش، ولكن نحن لا نرى ولا نعلم إلا تفصيل الآيات التي وعدنا الله بها، الله يقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣] ويقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣].

الله أكبر، يا الله، يا الله، نحن نقر ونشهد بأنك قد فصلت لنا الآيات وأريتناها، فهذا هو التفصيل الذي وعدتنا به، ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ﴾[الروم: ٦]. يا رب وعدتنا أن تفصل الآيات لنا، وهانحن أولاء نرى تفصيلك لها، أنت فصلتها وأريتناها، وقلت: انظروا يا عبادي، انظروا أيها المسلمون، انظروا أيها النائمون، أنتم حكمتم عبادي بعد النبوة سنين وسنين، ولكن لما رأيتكم رجعتم

إلى حال الجاهلية الأولى وجعلتم سلطتكم على عبادي سلطة جاهلية ؛ انتزعت الملك منكم وحرمتكم من العلم ، ولما ربيتكم وأدبتكم في مئات السنين وسلطت الأمم على أكثر ممالككم ؛ رجعت العلم إليكم موضحاً مذللاً ، فادرسوه وانظروا في آياتي ، فهاهي ذه آياتي مفصلة فادرسوها .

فصلت آياتي في قطرة الماء ، وفصلتها في أقاصي السماء ، فقطرة الماء في برككم ومستنقعاتكم الحقيرة تحوي آلافاً من الحيوانات ، وهذه الآلاف لم تكن معروفة لكم بتفصيلها ، ورأيتم أن بعضها له ذيل يقوم مقام شراع السفينة ، وذيل آخر يقوم مقام مرساة السفينة ، وهذا الحيوان الذري له جسم مركب وله فم ومعدة وهكذا من سائر ما يلزم الحيوان أو ما يشبه الحيوان ، وهاأنا ذا قربت إليكم البعيد بعداً شاسعاً ، فنظرتم تحت المنظار بقعاً صغيرة جداً أصغر من قطرة الماء ، والبقعة الواحدة منها عبارة عن عوالم كعالم مجرتكم التي تحتوي على نحو (٣٠) ألف مليون شمس ، وكل شمس أشبه بشمسكم ، وذلك كله إما أن يكون مكوناً أو في حكم المكون ، وغاية الأمر أنه مستعد للتكوين ، إذن أنا الآن أريتكم جمال تدبيري على عرشي ، وكيف رأيتم أن قطرة الماء حيركم أمرها كما حيركم أمر السديم الذي هو كالمجرة ، فالعالم الصغير والعالم الكبير كلاهما مدهشان عجيبان ، وأنا على عرشي استويت أدبر الأمر ، فأنا أدبر أمر ما هو حقير لديكم كآلاف الحيوانات في قطرة الماء تحت أسماعكم وأبصاركم تغدو وتروح وتتناسل وتلد وتتقاتل وتصطدم ، وكل يغزو أخاه ، وكل يعمل لكسب المعاش .

وكما أدبر ما هو حقير أدبر ما هو عظيم ، فهذه النقطة الصغيرة المرسومة في اللوحة المتقدمة التي قلنا إنها أصغر من قطرة الماء فيها شموس تعد بآلاف الملايين كونت فعلاً أو صائرة إلى التكوين ، وهذه الشموس لا تتصادم ولا تتدخل ولا تختل في سيرها ولا في حساب سيرها ولا في جريها ، فأنا أرقبها وأحسبها لأني أنا الرقيب الحسيب الملك القدوس السلام ، فلولا السلامة التي شملت هذه الحيوانات الذرية في قطرة الماء وهذه الشموس العظيمة في السديم الواحد لم يكن لتلك ولا لهذه عين ولا أثر .

وأنا المؤمن وأنا المهيمن وأنا العزيز عززت فخضعت لي مخلوقاتي ، فكنت جباراً عليها قهاراً لها بعد أن خلقتها وقدرتها وجعلت لها مقادير وبرأتها ، فأحدثتها بعد العدم وصورتها ، فأنا الخالق البارئ المصور ، ووهبت لها ما تعيش به وتدوم لأني الوهاب ، ورزقت ما فيها ، فأنا الرزاق الفتاح العليم ، قبضت وبسطت وخفضت ورفعت ، وهكذا إلى آخر الأسماء .

إن ضوء هذا السدم خرج منها ولم يصل إلا بعد (٥٠) مليون سنة أو مائة مليون سنة على حسب اللوحة الأولى والثانية ، ووصوله لأعيننا كان بعد هذه المدة ، أتدري أيها الأخ كم يدخل العين من الأمواج في الثانية الواحدة ، إن الذي يرد للعين في الثانية الواحدة (٥٠) مليون مليون موجة ، وشعاع الضوء الذي بين أعيننا وبين هذه السدم يكفي أن يدخل أعيننا مدة (٥٠) مليون سنة في اللوحة الأولى و(١٠٠) مليون سنة في الثانية ، أي أن الضوء الذي هو موجود الآن في الجو متصلاً ما بين أعيننا وبين هذه السدم ؛ يكفي أن يدخل العين منه (٥٠) مليون مليون موجة كل ثانية من الزمان مدة (٥٠) مليون سنة أو مائة مليون سنة ، وكأن الله يقول : كل هذا حفظته وراقبته وحافظت عليه ولم أخل بصغيرة ولا بكبيرة .

أي عبادي، هاأنا ذا قلت لكم في القرآن: إني على عرشي استويت، وإني أدبر الأمر، وإني أفصل الآيات، وذلك لأخرجكم من انحصار أفكاركم في هذه الأرض الضئيلة، لأنكم نور من الأنوار التي خلقتها لتقترب مني، والاقتراب مني لا يكون بملازمة المادة الجامدة التي أنتم فيها، كلا بل الاقتراب مني يكون بمعرفة آياتي التي فصلتها.

ولا جرم أن من عرف الجمال كره القبح، ومن ظهر له الملك العظيم والشرف الأسمى واطلع على العجائب المخبوءة في الذرات والقطرات المائية وما تحويه تلك الأقطار الشاسعة الجميلة؛ يرى في نفسه شوقاً إلى إشراقها والتمتع بجمالها، ويزداد الشوق حتى يحب المرء أن يرى ذلك المدبر الذي استوى على عرش عظمته، الذي دبر هذه الأمم والممالك والحكم والأعمال العجيبة، فإذا سمعتم أيها العباد أني أقول لكم: إني جعلت الشمس ضياء والقمر نوراً وقدرتهما منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ثم أتبعت هذا بذكر اختلاف الليل والنهار وعجائب مخلوقاتي، وذلك في سورة «يونس» وبعد ذلك ذكرت مسألة لقائي، وأن الذي يصدكم عنه إنّما هو الاغترار بالحياة الأرضية. وإذا سمعتم أيضاً أني أقول لكم في سورة «الرعد»: إني أدبر الأمر وأفصل الآيات، ثم ذكرت لقائي، وهكذا ذكرت في سورة «يونس» أني أشهد أعمالكم التي تعملونها، وأني لا يعزب عني مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وأتبعت ذلك بذكر أوليائي وأنهم لا خوف عليهم الخ، وهكذا.

فإن ذلك كله جعلته لإخراجكم من حال الجهالة، وانحصار الفكر في العالم الأرضي، والتوجه إلى إدراك الجمال والبهجة والإبداع، وكل ذلك يحدث في نفوسكم مسرة وبهجة، وشوقاً إلى لقائي.

فالشوق إلى لقائي هو المقصود الأهم من حياتكم الدنيا، وفي عبادي من يعرفون من الجمال ما يشوقهم إليه، فهؤلاء أوليائي، وهؤلاء هم الذين يستقبلون الموت فرحين، لعلمهم أنهم سيقابلونني، وإنما يفرحون بذلك ويوقنون به لأنهم يعلمون أني آتيت الناس من كل ما سألوه، فالناس يأكلون ويشربون ويسافرون ويتحدثون على بعد، ويطيرون في الجو، كل ذلك اشتاقت له نفوسهم، فأعطوا هذه النعم. وهاأنا ذا أقول لكم: يا عبادي، أرجو لقائي، ولكنكم لا ترجونه رجاء أتم إلا بعد النظر والبحث في الجمال في السماوات والأرض، وقطرات الماء، وتشريح الحشرات والنبات والإنسان والحيوان، إلا طائفة منكم هديتهم بطرق أخرى، واطلاع أتم، كالأنبياء ومن على شاكلتهم، فهؤلاء لا حاجة توجب هذه الدراسة عليهم لأني أفضت عليهم علوماً أرقى.

فقال صديقي: هذا الكلام جميل وحسن، ولكن أنت تقول: إن الله يقول، فإني أخاف أن يفهم الناس أنك تقول: إن الله قال ذلك وهو لم يقل.

فقلت: أيها الأخ، أنا قلت: كأن الله يقول، فهذه المعاني استنتجتها من العجائب التي طابقت القرآن، فهي إذن مأخوذة من فعل الله ومن كلامه. فقلت: كأنه يقول، لا أنه قال لي، والله إنّما يقول لمن يوحي إليهم، وهذا ليس وحياً، بل هو علم مأخوذ من كلام الوحي ومن عجائب المخلوقات التي أبدعها الله. وإن كان الله يعطي الناس من كل ما سألوه، وأجلّ سؤال وأعظمه أن يروا ربهم، وفريق المصطفين الأخيار الذين اشتاقوا إلى لقائه يسألون ذلك، فمن المحقق أن يجيبهم.

درجات العقول والمخلوقات ودرجات الجنة

انظر أيها الأخ إلى درجات المخلوقات، فمن مخلوقات دقيقة يسبح آلاف منها في قطرة ماء، إلى مخلوقات عظيمة جداً، مثل ما سيأتي في علم الفلك في هذا الملحق إن شاء الله. إن شمساً من شموس كوكب الجوزاء سيأتي وصفها أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة، بحيث لو كانت في مكانها لا تصل جرمها بجرم أرضنا، ودخلت فيها المسافة التي بيننا وبين الشمس، وهي نحو ٩١ مليون ميل، فلو كانت هي موضع الشمس لكنا الآن ونحن في أرضنا من سكان شمسنا لا من سكان أرض بعد شمسها بعداً شاسعاً حتى كانت هي أشبه بإطار المنخل، فإذا كانت هذه العوالم الجسمية بلغت هذا الحد في التنوع بحيث استغرقت ما لا حد له من صور كبيرة وصغيرة وأشكال لا حصر لها، فكيف تكون درجات الجنات التي هي أقرب إلى عالم الأرواح، فقد غلبت عليهم الروحانية وإن كانوا أجساماً، أفلا نرى أن تلك الدرجات أبعد مدى؟ وهذا يشير إليه قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: ٢١].

درجات الحرارة في عوالم المادة ودرجات العوالم الروحية

إن الحرارة من أعراض الأجسام لا من عوارض الأرواح، وإذا كانت الحرارة التي على سطح الأرض قد تكون تحت الصفر مئات المرات، وقد تكون ٤ فوق الصفر، وبهذه يصير الثلج ماء، وترتفع هذه الحرارة فتصير ٣٧ في جسم الإنسان، وترتفع فتصير مائة درجة، وهي درجة الغليان، وتزيد الدرجات فتصل إلى ٤٠ مليون درجة عند مركز الشمس، إذن الحرارة درجاتها واسعة جداً، وهي من عوارض المادة، فما بالك بعالم الأرواح الذي جعلت درجاته مرتبة على درجات ارتقاء الأرواح علماً وحكمة، وإن كان لأهل الجنة أجسام تعيش فيها تلك الأرواح نجهلها نحن على الأرض، والحمد لله رب العالمين. تم هذا قبيل ظهر يوم السبت ٨ صفر سنة ١٣٥٤، ١١ مايو سنة ١٩٣٥.

أسلوب القرآن وبهجته في وصف السماوات والأرض
وموازنته بأساليب الأمم القديمة في أقاصيصها
قصة الربيع من أساطير اليونان القديمة

في البحر الأبيض وبالقرب من شواطئ أوروبا الجنوبية تقع جزيرة «سيسيليا» أو «صقلية»، وتحكي أساطير القدماء أنه في خالي العصر وقديم الزمن كانت تقطن هذه الجزيرة آلهة تدعى «سيريز» وأن من «سيريز» هذه كان سكان الأرض جميعاً يستمدون نعمة الحياة، فقد كان لها وحدها مطلق السلطان على غذائهم وطعامهم، فكانت حين ترضى تنبت لهم في الأرض الزهر والزرع والثمر، وحين تغضب تدع الأرض لهم صحراء جرداء. وكانت لـ«سيريز» ابنة وحيدة هي «بروسربين» تخصها بالحب والحنان، ولا يهمها في الوجود غيرها. وكانت الفتاة حسناء يحوطها المرح والصحة والجمال، ذات وجه يشع لون الورد في بياضه، كزهر التفاح حين يتفتح نسيم الربيع، وعينين كأنما أخذت زرقتهما من زرقة السماء الصافية في صباح يوم من أيام إبريل، أما شعرها المجدول الذهبي الطويل فكان يذكرك بشعاع الشمس وقت الأصيل، وجملة القول: فكل ما كان يحف بهذه الصبية من

شباب وحسن ولين يجعلك لو خلت الربيع بكل ما فيه من معاني الجمال ممثلاً في جسم إنسان لما ترددت حين تنظر لحظة إلى « بروسربين » أن تقول : إنّما هي الربيع .

كانت ابنة « سيريز » تقضي طوال أيامها السعيدة تجول في الحقول لتعين أمها على إحياء الزرع أو لترقص بين الزهور ، وتنشد الألحان وسط أترابها الحسان تبعث في أغانيها الأماني لأمها ، وتسألها المزيد من بهجة الدنيا ، وخصب الأرض ، ونماء الزرع .

وكان يعيش في نفس ذلك العهد الملك « بلوتو » الأسود في جوف الأرض ، وفي مملكة الأموات موحشة أيامه ، لا يؤنسه فيها غير الأشباح . وكم حاول « بلوتو » أن يحمل إحدى الآلهة لكي تنزل إليه تعاشره ، وتقاسمه عرشه المظلم ، ولكن هيهات ، فما كانت ثروته العظيمة ولا كنوزه وجواهره تكفي لتغري إحداهن ، فتترك بهجة الشمس وضوء الحياة على سطح الأرض ، وتنزل لتقطن معه في مملكة الأشباح .

صعد « بلوتو » يوماً إلى سطح الأرض ، وسار يطويها على عربته السريعة ، وإذ كان يمر على غابة من الأحراش إذ استرعت سمعه أغان مرحة في أصوات وأنغام عذبة في ضحكات ، فأوقف عربته وترجل ثم أزاح بيديه كثيف الأعشاب لينظر ما وراءها ، فوقع بصره على « بروسربين » تحيط بها هالة من حسان الغيد يضحكن ، وبالزهر يقذفنها ، خفق قلب ذلك الملك الشيخ وأسرعت ضرباته ، فتنة منظر الغيد ، فاصطفى لوقته من بينهن « بروسربين » وهو يقول لنفسه : سوف تكون هذه الفاتنة مليكتي ، وإن جمال وجهها لكفيل بأن يبدل ظلام مملكتي نوراً ، ويملؤها بهجة وسروراً ، وإنه ليعلم عبث إقناعه للفتاة بالذهاب معه راضية مختارة ، فاعتزم أخذها قسراً واقتداراً ، وتقدم بخطوات ثابتة جريئة إلى وسط تلك الدائرة المرحة البريئة .

ذعرت الفتيات وامتلأن رعباً لدى رؤية ذلك الوجه الأسود الكريه ، فعدون وأطلقن سيقانهن للريح ، ولكنه تمكن من « بروسربين » قبل أن تهرب ، وحملها بذراعه القوي الخشن إلى مركبته ، وسرعان ما كانت الخيل تنهب بها الأرض نهباً حتى ابتعدت عن رفيقاتها وأخفتها عن أعينهن . وكان « بلوتو » يرغب في الإسراع بإخفاء كنزه الثمين ، ويتحاشى السبل المطروقة خشية أن تصادفه « سيريز » أو تعلم بفقد وحيدتها ، فلما وصل إلى أحد الأنهر ، واقترب من شاطئه ليعبره فإذا بالماء يموج ويهيج ويعلو ويضطرب في ثورة من الغضب ، لم يجسر إزاءها « بلوتو » أن يعبر عليه أو يركن إليه ، فتحير فيما يصنع ، إذ لو ارتد عن هذا الطريق إلى غيره لضاع عليه الوقت الذي كسبه ، وأخيراً اهتدى إلى عصا سحره فأخرجها وضرب بها الأرض ثلاثاً فانشقت عن هاوية سحيقة ، وفي سرعة البرق إذ يخطف ، أو العين إذ تطرف ، كان بعروسه وعربته وخيله يهبطون جميعاً إلى الظلام في جوف الأرض .

أما « بروسربين » فقد كانت أسرع منه خاطراً ، وأحد ذهناً ، فإنها حين تيقنت أن ملكة النهر عرفتها وحاولت لها الخلاص لما أهاجت الماء ؛ خلعت حزامها وألقت به إليها قبل أن تنطبق فجوة الأرض التي فتحها « بلوتو » ، وهكذا تمنت لو أن حزامها يصادف أمها « سيريز » يوماً فتستعين به على معرفة مقرها . عادت « سيريز » في المساء إلى بيتها ، فتعجبت إذ لم تر ابنتها تجري إليها كعادتها كل

مساء، فدخلت البيت تبحث عنها فلم تجدها، خرجت وبيدها مشعل كبير أوقدته من نار البركان وسارت هائمة طول الليل تبحث عن فتاتها بين الحقول، فلما أصبح النهار ولم تجد لها أثراً استبد بها الألم واشتد عليها الجزع.

من ذلك الصباح بدأت «سيريز» رحلة شاقة طويلة، تقطع طول الأرض وعرض البحار، تحمل في يمينها ذلك المشعل الذي يلتهب رأسه من نار البركان، لقد نسيت شؤونها، وأهملت أمر الناس، وقطعت عن الزرع عنايتها، فجف النبات، واصفر الشجر، وحل القحط محل الرخاء، واحتل مكان النعمة البؤس والشقاء، كأنّما الأرض كلها شاطرت حزن الأم على فقد «بروسربين» الحسناء.

عض الجوع الناس فهبوا إلى «سيريز» يضرعون، يطلبون منها العناية، ويسألونها الرحمة، فرفعت إليهم جفنيها العظيمتين، وقد أثقلهما تعب البحث، وقرحهما ألم الحزن، وأجابتهم أنها لن تفكر اليوم إلا في «بروسربين» حتى تعود إليها، وأنها حتى تجدها ستظل بحزنها في شاغل عن شؤون الأرض وما تحويه، فانصرف عنها الناس جزعين يبكون إلى «جوبتير» أبي الآلهة جميعاً، لكي يرد «بروسربين» إلى أمها فقد أشقاهم حزن «سيريز».

بعد غربة طال مداها وطافت فيها «سيريز» نواحي الأرض جميعها تبحث عن ابنتها عبثاً، عادت إلى جزيرتها. وفي يوم من الأيام وهي تعبر أحد الأنهار إذ بنبع صغير يتفجر ويقذف شيئاً إلى قدميها، فالتقطته لتتبينه، فإذا به حزام «بروسربين» الذي ألقته في الماء لملكة النهر يوم خطفها «بلوتو» وما إن كادت «سيريز» تفحصه، والدموع ملء عينيها؛ حتى سمعت خرير النبع بجوارها يصخب، ويشتد صوته رويداً حتى أصبح آخر الأمر كلاماً واضحاً يقول لها: أيتها الأم العظيمة «سيريز»، إنني ملكة هذا الينبوع، أتيت الآن من أعماق الأرض حيث رأيت ابنتك هناك مستوية على العرش إلى جانب ذلك الملك الأسود، ولقد شاهدت رغم ما يحوطها من عظمة الملك وجلاله شحوباً يغطي وجهها، ورأيت أثر البكاء يقرح جفنيها، والآن لا أستطيع المكث معك طويلاً يا «سيريز»، إذ يجب أن أصعد إلى ضوء الشمس، فالسماء تناديني أن أسرع بالصعود.

هرعت «سيريز» على أثر ذلك إلى «جوبتير» تقول: لقد عرفت مخبأ ابنتي فلتردها إلي حتى أرد على الأرض خيرها وأعيد للناس الرخاء.

تحركت الرحمة في «جوبتير» لحزن الأم، كما ثارت شفقته لدعوات أهل الأرض، فقال لها أن سوف تعود إليها «بروسربين»، وكانت للآن لم تذق طعاماً في مملكة «بلوتو».

أحست «سيريز» بالسعادة إليها تعود فأسرعت تهبط إلى حيث مملكة الظلام في جوف الأرض وهي تمني النفس بأن ابنتها لم تذق بعد لـ «بلوتو» طعاماً، ولكن وأسفاه أن «بروسربين» أكلت في نفس ذلك اليوم ست حبات من حبوب الرمان، فحق عليها أن تقضي عن كل حبة منها شهراً في مملكة «بلوتو». هكذا أصبحت «سيريز» لا تسعد بقرب ابنتها إلا ستة أشهر كل عام، وفي هذه الشهور الستة التي تقضيها «بروسربين» بجزيرة أمها يتفتح الزهر، ويغرد الطير، ويبسم كل ما على الأرض، ويطرب تحية لمقدم الملكة الصغيرة الحسناء، ويظل هكذا حال الوجود طالما بقيت «بروسربين» مع أمها

فوق الأرض، فإن حان موعد عودتها إلى دار الملك «بلوتو» في الظلام لتقضي معه الستة أشهر الأخرى بجوف الأرض، عادت «سيريز» إلى حزنها ووحدتها تنعي غياب ابنتها تلك المدة التي حقت عليها جزاء أكلتها حبات الرمان. وكأنما الدنيا كلها تشارك الأم حزنها طول أمد الحداد، فتجف أوراق الشجر وتتساقط على الأرض وكأنها دموع البكاء على «بروسربين»، وتختفي الزهور عن سطح الأرض حتى تعود خطوات تلك المليكة الحسناء، فتوقظ بمشيتها كل ما في الوجود من نومه العميق طول الشتاء.

هذه هي القصة التي اخترعها الأقدمون ليعرفوا بها نظام الأرض وما عليها بما تعرفه العقول من تصور الإله بصورة بشر ويجعلونه متعدداً، ويحكمون على هذه الجماعة بأحكام البشر في أخلاقهم وعوائدهم وأفراحهم وأحزانهم. فلنوازن ما بين عقول تلك الأمم وأساطيرهم وما بين عقول الأمم الحاضرة والكتاب المقدس المنزل لهم إذ يقول: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: ٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صلاتي قبيل الفجر ليلة الثلاثاء ٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٤، ٤ يونيو سنة ١٩٣٥ وتذكرة بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: ٢].

لما صليت المغرب غلبني النوم فلم أستيقظ إلا الساعة الثانية والنصف، فتوضأت وصليت العشاء، ومما قرأت في الصلاة هذه الآية: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[الفرقان: ٦٢]، فما كدت أقرؤها حتى وجدت نفسي لا تود مفارقتها وهي ترددها، وكيف يقول الله تعالى: ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[الفرقان: ٦٢]، أخذت أفكر وأنا أردد الآية ما معنى: ﴿ يَذَّكَّرَ ﴾، وما معنى: ﴿ شُكُورًا ﴾.

سبحان الله هل هذه الممالك كلها والشمس وإبداعها ونظامها وجمالها وحسابها وسنوها وقرونها وآلاف قرونها لأجل تذكرنا نحن ولأجل شكرنا نحن، لله مخلوقات لا نحصيها، ولله عوالم نجهلها، ونحن بالنسبة لها قليل، ولكن الله عز وجل يخاطبنا بما يهمنا وبما يجب علينا، يوجه لنا الخطاب بما يليق لنا، ويوضح لنا النعم المحيطة بنا، يريد إخراجنا من ضيق الفكر إلى سعته، يقول: انظروا إلى هذه الشمس والليل والنهار واختلافها، وكيف تمر السنون تتلوها السنون وتتعاقب الأجيال وتحدث الأمم أمة بعد أمة والناس في غفلة لا يعلمون إلا ظواهر الأمور من الحياة والموت، وخراب دولة وحياة أخرى، وضحك قوم وبكاء آخرين، ولم يعلموا أن تحت هذه الظواهر المتقلبة ـ التي لا ثبات لها فيما يظهر ولا نظام ـ تدبيراً محكماً وسنناً عادلة ورحمة، فبينما الدول يحارب بعضها بعضاً ويصطدم الجيشان ويقتتلان ويعز قوم ويذل آخرون، ويهجم الأسد والنمر والذئب والعقاب والصقر على الإنسان والبقر والغنم والحيوانات الأخرى، فتكون فريسة وتقطع إرباً، وتكون معدات الكواسر

والوحوش مقابر لتلك الفرائس؛ إذا خلائق من أنواع هذه الفرائس تخلفها وتكثر الذرية من أنواعها وتمتلئ الأرض ببقر وبغنم وبإنسان بعد ذهاب تلك الفرائس، كما يخلف الليل النهار والنهار الليل، فلئن كان في العوالم تدمير وتخريب وذهاب قوم؛ ففيه عمران وإصلاح وظهور ذرية تسد مسد الهالكين كما يخلف النهار الليل، ويخلف الليل النهار، ذلك بعض ما على الأرض، وهكذا يكون ما في داخلها، يكون ليل ويكون نهار ويكون سنون وقرون تتلوها قرون تخلق فيها غابات وأشجار وزروع عند أمثال نهر «الكنج» كما قدمنا، وعند نهر «المسيسيبي»، وتلك الأشجار وتلك الغابات تتوالى قروناً وقروناً كما يتوالى الليل والنهار ثم تبتلعها البحار بالزلازل والرجفات، وهنالك تبقى أجيالاً وقروناً كثيرة، ثم تكون رجفات فظهور فوق اليابسة، وقد دفنت تلك الطبقة وأخذت تصير فحماً وتتلوها أخرى، ويقدر لها من العمل ما قدر لما قبلها، كما يكون ليل يتلوه نهار، ويستمر العمل في طبقات الفحم على هذا المنوال، حتى إذا مضت مئات ألوف السنين خلق الله أجيالاً كأجيالنا الحالية فقال لها: أيتها الأمم، اسمعي اسمعي، هذا ملكي وهذه عنايتي بك.

هاأنا ذا أرحم الراحمين، فأنا لرحمتي بكم خزنت لكم في الأرض قبل خلق أبيكم آدم هذا الفحم، وقلت: يا شمس أرسلي أشعتك، وأنت يا فحم احفظها واحفظ الحرارة، وبقيت هذه المخازن محفوظة، ثم ألهمت فريقاً منكم أن يستخرجوا هذه الكنوز، فأخرجناها لكم، وخلقنا أمماً كثيرة في الشرق والغرب وأمريكا وكندا وأستراليا، وقلنا لكم: هذه نعمنا التي أنعمنا بها عليكم بالليل والنهار، فمدوا سكك الحديد وطيروا في الجو وعمروا أرضي بما أخرجت لكم من الفحم المخزون منذ آماد وآماد.

هذه بعض المعاني المخزونة في قوله تعالى: ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾[الفرقان: ٦٢]، فهذا بعض التذكر الوارد في هذه الآية المناسبة لآية: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[آل عمران: ١٩٠-١٩١]، فهذا نوع من ذلك التفكر، فقوله في هذه الآية: ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾[الفرقان: ٦٢] يوضحه آية «آل عمران» التي ذكرناها الآن.

أما الشكر المذكور في قوله تعالى: ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[الفرقان: ٦٢]؛ فهاأنا ذا أقص عليك أيها الأخ ما لاح لي، فأقول: خطر لي في الصلاة معنى الشكر الذي ذكرته في هذا الكتاب كثيراً، ذلك الشكر الذي تبنى عليه سعادة الشاكرين في نفس هذه الحياة.

لا شكر إلا بعد التذكر والتفكر كالذي ذكرناه هنا، وهذا بعض السر في تقديم الذكر في الآية على الشكر، فمن هو الشاكر؟ هو ذلك الذي تذكر أولاً في سيرة المشكور، وفي أعماله وإبداعه وحكمته، فيحبه قلبه، لا شكر إلا مع حب، ولا حب إلا بعد العلم بصفات المشكور الجميلة.

فإنا نرى في نفوسنا حباً لجميع الشجعان ولجميع الحكماء، ولكل ذي فضل ولكل ذي جمال، فنحن نحب الجميل ونحب العالم ونحب الشجاع؛ وإن لم نحظ بالأول ولم يعلمنا الثاني ولم يحمنا الثالث من العطب، فنحن نحب علماء الشرق وعلماء الغرب والمحسنين والشجعان على أي دين، وفي

أي أمة، إن قلوبنا نقية صافية بحسب أصلها، قلوبنا ذوات أصل نقي تحب النظام تحب الجمال تحب العدل تحب الكمال، وهذا الحب لا يفارقنا سواء أكنا فقراء أم أغنياء، أصحاء أم مرضى، هاهنا الحب لم يتغير بتغير أحوالنا، فإذا ذكر أمام العامة الذين يسمعون قصة عنترة وعبلة وأبي زيد الهلالي سلامة وكليب والمهلهل؛ فإنهم يثنون عليهم ويحترمونهم سواء أكانوا مرضى أم أصحاء، أقوياء أم ضعفاء، أعزاء أم أذلاء، ذلك لأن سبب الحب الذي يوجب الشكر ويوجب الحمد، وهو النطق بما قام بالقواد من الإعظام والإجلال لم يتغير.

إنما الذي يتغير حبه ويضعف وجدانه ذلك الذي أحب وشكر على نعمة وصلت إليه هو، فلو أن هؤلاء العامة الذين يغرمون بهؤلاء الأبطال أحبوهم لما وصل إليهم من نعمهم وأفضالهم. كأن يحب عنترة لأنه حماه من عدوه مرة، ويحب عبلة لأنها تجالسه وتتودد إليه، ويحب حاتماً الطائي لأنه أحسن إليه. فلا جرم ينقلب الحب إلى عدم الاكتراث بهؤلاء (١) إذا نزل به عدو فلم يغثه عنترة. (٢) أو قطعت وده عبلة فلم ترد أن تتودد إليه بل تزوجت أو أحبت رجلاً آخر. (٣) أو قل ماله فلم يواسه حاتم، بل قطع صلته. إن هذا الحب المبني على الإحسان الخاص حب يتقلب تبع الأسباب التي أوجبته. فإن كان السبب هو جمال المحبوب وكماله وأعماله العظيمة وآثاره العالية التي أثرت في المحب؛ فإن هذا الحب يبقى ويتبعه الشكر، أي: الثناء باللسان والخدمة بالجوارح والقيام بما يرضي ذلك المشكور المحبوب. هذا ضرب مثل نفهم به الآية.

ربّاه لك الحمد على نعمة العلم، وعلى نعمة الحكمة، ونشكرك يا رباه على أن علمتنا. وبعد أن صليت جلست فوق سقف المنزل وأخذت أنظر للنجوم مبتهجاً بذلك الجمال الرائع، فرفعت طرفي إلى السماء وقلت: رباه، رباه لقد دعوتك وأنا مراهق في حقولنا، ولكم جلست فوق الحشائش وصليت وناجيتك وطلبت منك المعرفة ـ أي: التي على قدر الطاقة، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فليس لنا أن نطلب إلا ما نقدر نحن عليه، وإلا فالعلم لا حد له ـ فعلمتني بعد اليأس، ولطالما كنت أجلس على شاطئ نهر أبي الأخضر وأفكر في الحشائش وفي الزروع، وفي الليل وفي النهار وفي السحاب، وأقول: يا صاحب هذا الملك العظيم، أنت ربيت هذه الطيور وعلمتها ما يصلحها، فعلمني يا رب، فإني أريد أن أوقن بك وأريد أن أسر أبوي وأسرتي، وأريد أن أعرف ما الداء وما الدواء لإصلاح أمة الإسلام، فهاأنا ذا يا رب أريد إصلاح عقلي وجسمي وإسعاد أبوي والقيام بشؤون أسرتي وإصلاح الأمم الإسلامية.

رباه، لقد أجبت الدعاء بحذافيره على مقدار ما تطيقه قوتي وما تعلمه من نفسي. وهاهنا بيت القصيد وهو الشكر المذكور في الآية: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]. إن المثل الذي ذكرناه في أمر عنترة وحاتم وعبلة نريد أن نطبقه هنا فنقول:

إن حب الله الذي يترتب عليه شكره إما أن يكون تابعاً للإحسان الخاص، وإما أن يكون تابعاً للجمال والكمال وحسن الأعمال، فإذا كان تابعاً للإحسان الخاص كان حباً ضعيفاً، وكان الشكر عليه متقلباً.

مثال ذلك رجل أحب الله، لأنه أنعم عليه بمال أو بولد أو بإمارة، فقال: لك الحمد يا رب، وهو لم يلاحظ عند ذلك الحمد الذي نطق به إلا تلك النعم الواصلة إليه. فلا جرم ينقلب هذا الحب إذا ذهب المال أو مات الولد أو طاحت منه الإمارة، لأن هذا كحب الرجل الذي أحب حاتماً على ما بذل له من المال، لا على سيرته الجميلة، وكحب من أحب عبلة لتوددها معه هو، فلما أعرضت عنه تقلب القلب، وكحب من حماه عنترة من أعدائه ثم خذله فوقع في أسرهم، فهذا حب متغير متقلب، وهو حب ناقص ويتبعه الشكر، فلا شكر إذن، فأما الشكر والحب الخالصان فهما اللذان ينبيان على الصفات الجميلة، والمزايا العظيمة، فالجميل والغني والشجاع والعالم محبوبون، ولكن عند النظر إلى وصول الإحسان إلى نفس الشاكر تتغير الحال.

إذن الذي يشكر ربه لأجل النعم الخاصة شكره ضعيف وحبه الذي هو سبب الشكر ضعيف أيضاً، بل إن هذا الشاكر أقل درجة في شكره لربه من شكر العامة لعبلة ولحاتم ولعنترة، لأنهم يحبونهم لما فيهم من صفات الجمال والشجاعة والإحسان، لا لوصول تلك النعم إليهم كلا. فلذلك ترى هؤلاء العامة يحبون هؤلاء الأبطال في الصحة والمرض، والغنى والفقر، وفي العز والذل. الله أكبر، الله أكبر، هاهنا ظهر معنى الآية التي قرأتها في الصلاة، وظهر معنى الآية التي نحن بصددها الآن، وهي: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: ٢].

يقول الله في الآية التي كنت أقرؤها في الصلاة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[الفرقان: ٦٢]، هانحن أولاء تذكرنا فماذا رأينا؟ رأينا شموساً وأقماراً، وعجائب جديرة بأن يحب صاحبها، وأن يغرم به غراماً وولوعاً أعظم من غرام العامة وولوعهم بعنترة وحاتم.

ولو أننا عرفنا الجمال الإلهي والإبداع كما عرف العامة فضل عنترة وحاتم لم نطق الحياة، ذلك للجمال الرائع والعظمة والكمال، ولكن الله حجب هذا الجمال الرائع، وهذه العظمة عن أغلب العقول الإنسانية مع أنهم يشاهدون هذه العجائب وهم مغمورون فيها ولا يعطيهم من فهمها إلا قليلاً قليلاً، ولا ينال هذه السعادة وهو الحب والشكر إلا قليل من الناس، يصطفيهم سبحانه ليعلموا غيرهم ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣].

فيا عجباً لهذا النوع الإنساني. يسمع العامة قصصاً، وكثير منها خرافية، فيعشقون الموصوفين في تلك القصص بالكمال وهم لم ينلهم حظ منهم، ولكنهم يرون بأعينهم شمساً وقمراً وبحاراً وأنهاراً، فلا يفكرون في جمالها ولا في المنعم بها، فلا يكون حب ولا شكر.

إن الله عز وجل جعل حب العامة لمن غاب عنهم من الأبطال نعمة للعلماء وللحكماء، ليفهموا أولاً قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾[الفرقان: ٦٢] إلى قوله: ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[الفرقان: ٦٢]. أي: إن الحب الذي يترتب عليه الشكر ليس مبنياً على طعام وشراب ولباس ورفد وسلطان، كلا. فهذا الحب ناقص، ولكن الحب والشكر يرجعان هنا إلى ذلك الجمال في

السماوات والأرض، فنفس الشمس ونفس الليل والنهار ونفس النجوم، كل هذه بحسب أشخاصها أشبه بالأحجار الكريمة من حيث جمالها الذي لا يعقل غيره الجهلاء، وإن كانت مزاياها لا حد لها عند الحكماء.

إذن الشكر الحقيقي الدائم يتبع صفات المشكور من حيث الجمال والكمال، والعظمة والآثار والإحسان العام، ومتى حصل ذلك الحب الذي لا يتغير تبعاً لتلك الصفات الذاتية التي لا تتغير أنتج العظماء وأنتج كبار الحكماء.

الله أكبر، كيف ظهرت آثار هذا الحب في عظماء الرجال، وأعظمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، انظر إلى ما أصابه في تبليغ الرسالة.

سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبره على الأذى قد أوجبته المحبة التي لا تتغير

فانظر كيف كان أبو طالب يحميه صلى الله عليه وسلم، ولما قربت وفاته جمع قريشاً وخطبهم خطبة يحثهم فيها على اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيها قال: «لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمداً واتبعتم أمره فأطيعوه ترشدوا»، فلم يقبلوا قوله.

ولما مات أبو طالب اشتدت قريش على النبي صلى الله عليه وسلم ونالت منه من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب، فدخل صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه بعض بناته وجعلت تزيله عن رأسه وتبكي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها: «لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك».

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه، أي: أشد كراهة، حتى مات أبو طالب، ولما رأى قريشاً تهجموا عليه قال: يا عم ما أسرع ما وجدت فقدك.

ولما بلغ أبا لهب ذلك قام بنصرته أياماً، وقال: امض يا محمد لما أردت وما كنت صانعاً، إذ كان أبو طالب حياً، واللات والعزى لا يصلون إليك حتى أموت، فلم يزل أبو جهل وعقبة بن أبي معيط وغيرهما من أشراف قريش يحتالون على أبي لهب حتى صدوه عن ذلك. وتأخر عن النبي صلى الله عليه وسلم وترك نصرته، ورجع إلى ما كان عليه من معاداته، فلما اجتمعوا على معاداته ومقاطعته صلى الله عليه وسلم وهموا بإخراجه والفتك به؛ خرج إلى الطائف وهو مكروب مشوش الخاطر مما لقي من قريش ومن قرابته وعترته، خصوصاً من أبي لهب وزوجته حمالة الحطب من الهجو والسب والتكذيب. وعن علي رضي الله عنه قال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت أبي طالب أخذته قريش تتجاذبه وهم يقولون له صلى الله عليه وسلم: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً، فقال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر رضي الله عنه، فصار يضرب هذا ويدفع هذا وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله.

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف في شوال سنة عشر من النبوة، وكان معه مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه يلتمس من ثقيف الإسلام رجاء أن يسلموا ويناصروه على

الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى سادات ثقيف وأشرافهم، وكانوا إخوة ثلاثة: عبد ياليل، واسمه كنانة ولم يعرف له إسلام، وأخوه مسعود وهو عبد كلال، بالضم وتخفيف اللام، والثالث حبيب، وهؤلاء الثلاثة أولاد عمرو بن عمير، فجلس إليهم صلى الله عليه وسلم وكلمهم فيما جاء به من نصرته إلى الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم وهو يمرط ثياب الكعبة، أي: يشقها ويقطعها: إن كان الله أرسلك، وقال له آخر: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك، وقال له الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من عند الله كما تقول لأنت أعظم خطراً، أي: قدراً من أن أرد عليك الكلام، وإن كنت تكذب ما ينبغي لي أن أكلمك، فقام صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد أيس من خيرهم، وقال لهم: اكتموا علي، وكره صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه ذلك فيشتد أمرهم عليه، ثم قال له هؤلاء الثلاثة من أشراف ثقيف: اخرج من بلدنا والحق بما شئت من الأرض، وأغروا عليه سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وقعدوا له صفين على طريقه، فلما مر صلى الله عليه وسلم بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه، وفي رواية أخرى: حتى اختضبت نعلاه بالدماء. وكان صلى الله عليه وسلم إذا أزلقته الحجارة؛ أي: وجد ألما؛ قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه فإذا مشى رجموه وهم يضحكون، كل ذلك وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شج برأسه شجاج، فلما خلص منهم ورجلاه يسيلان دماً عمد إلى حائط من حوائطهم، أي: بستان من بساتينهم، فاستظل في حبلة، أي: شجرة من الكرم لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فلما دخل الحائط رجعوا عنه. اهـ من كتاب السيرة النبوية والآثار المحمدية لمفتي السادة الشافعية بمكة المشرّفة أحمد زيني دحلان رحمه الله.

وإنّما أوردت هذه القصة هنا لأبين كيف يكون الشكر والحب في الأخلاق النبوية. ولو كان حب النبي صلى الله عليه وسلم لتسهيل أمر النبوة وإظهارها ونحو ذلك؛ لم يستطع صبراً على هذه الشدائد، ولكنه يحب ربه لذاته تعالى ولصفاته العالية الرفيعة، وللجمال الرائع الذي يدهش العلماء والحكماء والأنبياء. وهذا بعض السر في ترتيب الشكر والذكر على اختلاف الليل والنهار، وفي قول المصلي: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام: ٧٩] ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

يقول المصلي: إن توجهي للذي فطر السماوات والأرض، ويأتي بعدها بالبراءة من الشرك، إذن المسلم خليفة الله تعالى، ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾[الأنعام: ١٦٥]، ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون.

فلو أن المسلم نظر إلى غير ذلك لعد ذلك من الشرك الخفي. الله أكبر، أيها المسلمون، وضح الحق، واستبان السبيل. إن ديننا جاء لاجتذاب القلوب إلى الحب الخالص لخالقها، وهذا الحب يدفع المرء إلى إفراغ جهده في العمل بطريق الحب فلا يبالي بما يصيبه، وهذا الحب للأنبياء راجع إلى ما

أعطوا من أمور نبوية، أما نحن فلسنا أنبياء، فهذه العلوم تفتح لنا باب الحب، ويتبعه الشكر والعمل الخالص، وهذا سر قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ﴾[الحج: ١١].

وهذا سر قوله أيضاً صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع المذكورة في تفسير سورة «العنكبوت» في أولها، إذ يقول: أحبوا الله من كل قلوبكم، فهذا هو الحب من كل القلوب، وهو الحب الذي لا يخالطه غرض ذاتي، فأمثال هؤلاء المحبين يفرحون بالمحبوب الآن في الحياة الدنيا، ويسعدون بحبه ويرون في نفوسهم الآن أن هذا الحب له في هذه الحياة الدنيا قبل الموت - وإن كان فيه عوائق وقواطع - سعادة دائمة تبتدئ من الآن، وهؤلاء يرون ازدياد السعادة بمفارقة الأبدان ليتفرغوا لتلك المحبة، وإذا أحبوا البقاء في الدنيا؛ فذلك لما يعلمون من أنهم عليهم عمل يؤدونه لمن أحبوه. اهـ.

هذه هي الخواطر التي خطرت لي في صلاتي هذه الليلة عند ذكر الشكر والذكر بعد اختلاف الليل والنهار. فلما رأيت هذه المعاني مناسبة للآية التي نحن بصددها أثبتها، مع أن الأطباء نصحوني بالابتعاد عن الكتابة، ولكن كتبتها تذكرة بالآية التي نحن بصددها، وهي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد: ٢].

فقد عبر باللقاء ولم يذكر الشكر ولا الذكر، بل تجاوزهما إلى التعبير باللقاء، وهذا هو اللائق لهذه الآية، لأن ذلك العظيم الجليل، المهيب المبدع، المحدث للجمال والصور البديعة، المحسن المتقن، قد رفع سماوات فوق سماوات، ولم نر تلك العمد التي رفع بها سماواته، كلا بل رأينا أفلاكاً وراءها أفلاك في ساحات واسعات، وهذه الساحات فيها عوالم ظاهرها أنها خلاء، وباطنها أنها أثير، والأثير مدهش فقد تقدم شرحه وفيه كرات وراء كرات عظيمات مضيئات.

فهو يقول بعد ذلك: إنه استوى على عرشه، ولما استوى عليه أخذ ينظم ملكه، وهذا الملك العظيم لم يكن دولة كالألمان، أو اليابان، أو الإنجليز في عوالم أرضنا. كلا. بل إن الدول التي ينظمها الشمس والقمر، والشمس عالم يتبعه ملايين المخلوقات، وكرات وراء كرات من الكواكب السيارة وأقمارها وذوات الأذناب والنيازك، وهذه لا حصر لها، فذوات الأذناب وحدها يقال: إنها كسمك البحر عداً، والنيازك لا حصر لها.

يقول: لما استوى على العرش سخر الشمس والقمر، وكم في العوالم من شموس، وكم فيها من أقمار أعظم من شمسنا وقمرنا؟ ثم يقول: ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[الرعد: ٢]، فأبهم على الناس المدد التي تبقى فيها الأقمار والشموس، لأن عقولهم لا طاقة لها على معرفة الآماد البعيدة والتطلع إليها، بل النفوس لا تقدر أن تفهم إلا المدة القصيرة على مقدار طاقتها في الإدراك.

ولما كانت هذه الشموس وهذه الأقمار وهذه السيارات يعوزها نظام خاص حتى لا تصطدم فتتفتت وهكذا سكان السيارات كأرضنا يعوزهم نظام زرعهم وحياتهم وموتهم ودولهم ونظامهم العام والخاص ودياناتهم وملوكهم؛ أردفه بقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾[الرعد: ٢]، حتى لا تصطدم

الشموس والأقمار ولا تتقدم شمس في سيرها دقيقة أو ثانية ولا تتأخر، لأن ذلك يضر من حيث علاقتها مع الشموس الأخرى ومن حيث نظام السكان الذين يعيشون فوق سيارتها، كالأرض، فلو أن أرضنا فوجئت بتأخير الشمس دقيقة واحدة في سيرها عن مواعيدها المحددة أو بتقديمها دقيقة واحدة لحصل الخلل في قطاراتنا وسفننا في البحر، ولاصطدمت السفن عند مداخل الميناء، وهلكت جموع كثيرة، وهكذا يختل نظام الطرق الحديدية التي لا نظام لها إلا بنظام سير الشمس، ونظام الشمس يتبعه نظام الساعات الزمنية التي ترجع في تنظيمها إلى محاذاة مركز قطر الشمس لملتقى الشعرتين وقت الاستواء بمرصد حلوان، وحينئذ يرسل بالتلغراف المبرق إلى بلاد قطرنا كله وإلى رجال المينا، فيضبطون ساعاتهم المقدرات للأزمان، فلو أن الشمس تأخرت ثواني أو تقدمت ثواني لذهبت أرواح من تصادم القطرات في السير، ومن تصادم السفن في أمثال ميناء الإسكندرية والسويس ونحوهما، هذا معنى قوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾[الرعد: ٢].

ولما كانت هذه العظمة وهذا الجلال فوق ما يعرفه الناس في الدنيا، لأن أهل الأرض لم يألفوا عرشاً سخر لصاحب شموس وأقمار، وهذا العرش تتبعه ممالك عظيمة، وهذا الملك العظيم يدبر الأمور الصغيرة والأمور العظيمة ولا يغفل عن النملة في جحرها كما لا يغفل عن عموم المملكة، وكان اتصافه بهذه الأوصاف إذ رفع سماواته واستوى على عرشه يوجب حبه، والحب يستدعي طلب اللقاء؛ أخذ يمهد لذلك بأنه وإن كانت له الشموس والأقمار وقد استوى على عرشه ــ الذي لا يصح البحث فيه بل يؤخذ إجمالاً ـ يفصل الأمر ويبين لكم العوالم، إما بإخبار الأنبياء، وإما بدراسة العلوم في الشرق والغرب، فهو كما سخر الشمس والقمر هكذا سخر العلماء وأرسل الأنبياء، فهؤلاء بالدراسة، وهؤلاء بتبليغ الوحي، وكل ذلك تفصيل لكم، وهذا التفصيل يجعلكم مغرمين بحبه، ومتى أحببتموه طلبتم اللقاء.

فإذا كنتم في شك من لقائه للعظمة والجلال والبهاء والسلطان والملك العظيم ولسماواته العظيمة وكواكبه وشموسه وأقماره وسياراته وعرشه العظيم وتدبيره المحكم، فلتعلموا أنه لا يحجبه شأن، وليس كملوك الأرض الضعاف الذين لا يتسنى لرعاياهم أن يروا وجوههم، فهاهو ذا أخذ يمهد السبيل للقائه بهذه العلوم وبهذا التفصيل الذي ينشره العلماء في الشرق والغرب بعد وحي الأنبياء، فهل هذا التفصيل بالعلوم بعد دراسة وحي الأنبياء رمية من غير رام؟ وإذا كانت الشموس والسيارات لا خطأ في سيرها فلا يتجاوز كوكب خطته المرسومة ثانية واحدة؛ فكيف يرسل الأنبياء ويخبرون بلقائي ثم تدرس العلوم المشوقة لصانع العالم ويكون كل ذلك لغواً؟.

إن الأمر لأعظم مما تعلمون، إن فرحكم بجمال النظام في الأرض يدلكم على أن أرواحكم لها صلة بالعوالم الروحية الإلهية، فلذلك تحب هذه العلوم وهذا الجمال الذي تنزل من عالمها الأعلى فشوقها إليه كل من اشتاق إلى ربه بهذا التفصيل وبقراءة هذه العلوم، فليعلم أنه سيلاقي ربه، ذلك الرب الذي سخر الشمس والقمر واستوى على العرش ودبر هذه الممالك. فهذا هو الملك الذي ستلاقونه، إذن بذلك فلتفرحوا.

هذا هو الذي فهمته عند قراءة هذه الآية في الصلاة ابتدأت في كتابتها بعد الصلاة قبل الفجر، وفي أثناء الكتابة صليت الصبح ونمت ضحى قليلاً وأتممتها الساعة العاشرة إلا ربعاً يوم الثلاثاء في التاريخ المتقدم، والحمد لله رب العالمين.

انتهى الفصل الذي جاء بين الزبرجدة الثانية و الزبرجدة الثالثة لإيراد آيات تعين على الحمد المذكور في « الفاتحة » وفي أول « الأنعام » وغيرهما.

الزبرجدة الثالثة

في عجائب السماوات وعلم الفلك تفصيلاً لقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢] ولجميع الآيات الواردة في عوالم السماوات كآية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ﴾[الآية: ٥] في « يونس » وآية: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾[الرعد: ٢] الخ.

ثلاث ليال في الحقول

وحديثي مع فلاح في كفر الباشا بناحية البركة بضواحي القاهرة

وتطبيق المشاهدات على تفسير آية: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٦٤] وعلى غيرها من الآيات التي تشبهها.

رباه لك الحمد ولك الشكر ولك النعم العظيمة علينا وعلى الناس أجمعين. رباه في العيون بهاؤك، وفي القلوب حبك، وفي النفوس إجلالك، جمالك في السماوات باهر، وفي الأرض ظاهر، ولكن هذا الجمال البارع أكثر الناس عنه محجوبون، بكبريائك مبعدون، بما لك من العظمة والجلال يروح الناس ويغدون في هذه الأرض، وهم يتقلبون في النعماء ويرون مظاهر الجمال عن أيمانهم وعن شمائلهم، وهم لا يرون الجمال فكثير منهم صم عمي فهم لا يعقلون.

وما إن سطرت هذه الجمل حتى حضر صاحبي العلامة الذي اعتاد محادثتي في كتاب «الجواهر في تفسير القرآن»، قال: ماذا تريد أن تكتب في تفسير هذه الآيات بعد ما كتبت في نفس التفسير المنتشر حديثاً؟ ثم ماذا تحس به من الوجدان بعد أن تم ذلك التفسير؟.

فقلت: لقد كان لتمام هذا التفسير وطبعه في نفسي أعظم الأثر، وقد كان ذلك يوم ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٢ إذ تم في ٢٥ مجلداً. لقد مضت عشر سنين في تأليفه وطبعه ولم أكن في تلك المدة حراً أتنقل كما أشاء لملازمتي القاهرة لتصحيح ما يطبع منه، وما إن تم طبعه حتى أخذت أروح عن نفسي وأنطلق إلى الحقول البهجة والرياض اليانعة في الهواء الطلق الشارح للصدر المنعش للفؤاد.

فهاأنا ذا قد غادرت القاهرة يوم الاثنين ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٥٢ وهناك أقمت ثلاث ليال وأنا أعيش في العراء بنفس الحقول، أبيت مع المزارعين أرعى النجوم ليلاً، كما أدرس النبات وأبتهج بجماله نهاراً. الرياض والحقول دروس بثها الله في الأرض ولكن الناس عنها غافلون.

سبحانك اللهم سبحانك، منحت وفتحت وأنعمت إنعاماً يفوق كل تقدير، نعم أحمدك، جعلت المزارع لي دروساً أدرسها في أول حياتي زمن الشباب والمراهقة، جعلتها مشوقات في المزارع في قريتنا، كانت مشوقات محببات لي في التعليم، كنت أمشي مع والدي في قريتنا كفر عوض الله حجازي بالشرقية، وأتأمل المزارع والأشجار وأنظر محاسنها وأرفع طرفي إلى السماء ثم أقول: رباه أراك علمت الطيور في وكناتها كيف تربي أولادها، هاهي ذه أمامي لا تخطئ في تربية ذريتها، ولها شفقة ورحمة وعلم غزير بما تزاوله من التربية والإطعام واتخاذ الأعشاش وتدريب الفراخ على الطيران إذا قويت أجنحتها واشتدت قواها، هذا فعلك في خلقك بعيني أراه، أفلست من مخلوقاتك؟ نعم أنا منهم وفي جبلتي غريزة وثابة إلى الاطلاع مغرمة بالمعارف عاشقة للحكمة.

رباه، درست النحو والصرف والفقه وعلوماً صغيرة لسانية، ولكني أشعر بنقص في تعليمي، أحن إلى دراسة أسرار هذه الكائنات، نجوم في سمائك أراها بالليل جميلات بهيات، ومزارع وأشجار وجبال وأنهار ورمال وبحار بالنهار عجيبات، وهذه كلها لا أفقه لها معنى ولا أدري لها تركيباً، فيا ويلي إذا خرجت من هذه الأرض وأنا بها جهول، ويا حسرتي على حياتي إذا ضاعت ولم تستضئ بتلك المعارف والعلوم. ثم إنك أنت الذي أنزلت ديننا إلى نبينا صلى الله عليه وسلم، كما أنك أنت الذي خلقت هذه الدنيا، إذن قولك يطابق فعلك، لأن كلام العالم يطابق فعله فما لي لا أسمع في تعليمنا إلا نواقض الوضوء والحيض والنفاس والبيوع والمعاملات ونحوها، كان ذلك أيام تعلمنا بالأزهر فقط، أما الآن فإن الحال أحسن وأحسن والحمد لله. أما جمال فعلك فإنّما يذكر عرضاً كقولهم:

فانظر إلى نفسك ثم انتقل للعالم العلوي ثم السفلي
تجد به صنعاً بديع الحكم لكن به قام دليل العدم

الخ. فهاهم أولاء يمرون على مصنوعاتك سراعاً كأنهم لا يأبهون بها. ثم إني أرى صناعات عجيبة، فهذه القطرات الجاريات بالركاب في سكة الحديد وهي من صنع قوم غيرنا، فيا ليت شعري ما علومهم! وماذا عرفوا عنك؟ ثم لماذا أرى قومي ضعفاء مساكين مقهورين؟.

رباه، أنا أريد حل هذه المعميات وإنقاذي من هذه المشاكل المحيطة بي، ثم شفائي من أسقام جسمي وإصلاح حالي لتسعدني بهذه العلوم والمعارف والكمال، وأنا أعاهدك لئن وقفت على الحقيقة لأنشرها للشبان بعدي حتى لا يلازمهم البؤس والشك كما لازمني، فلتكن حياتي فداء لحياتهم، وحيرتي مقدمة ليقينهم، وشقائي مقدمة لسعادتهم. هذه حالي أيام المراهقة على وجه الإجمال، كنت أنظر النجوم وأتحسر على دراستها، ولم أكن لأعرف منها إلا جمالها الظاهر وبهجتها التي تراها العين مع خلو القلب من كل حساب لها ونظام. وأنظر الزهر والثمر واختلاف الطعوم والروائح والأشكال نهاراً وأنا في حسرة ولهف وشوق لإدراك أسرارها وأسبابها وتركيبها.

استجيب الدعاء ونلت ما كنت أصبو إليه، وجدت العلوم الرياضية والطبيعية وحساب النجوم والشموس والأقمار وبدائع النبات والحيوان والمعادن والجبال والأنهار كل ذلك يطلبه القرآن طلباً صريحاً واضحاً. ورأيت أكثر الأمم الإسلامية المتأخرة كانوا في غفلة ساهين، لظلم ملوكهم وإقصاء

علمائهم عن ذلك المقام المكين والسر المصون الذي حفظ ليسلم إلينا وإلى من بعدنا إلى حين، بل أقول: إني نلت فوق ما كنت أصبو إليه، إذ وضحت جمال تلك العلوم من الفلك والنبات والحيوان والمعادن وحسابها الدقيق العجيب في تفسير القرآن موضحاً بالصور ظاهراً بالأشكال، فلم أذر فاكهة ولا أباً ولا نجماً ولا شجراً ولا كوكباً ولا قمراً ولا شمساً ولا طبقات أرضية إلا صورتها بالمصور الشمسي وشرحتها شرحاً وافياً كافياً في تفسير القرآن، ولم أغادر هواء ولا ماء ولا مغناطيساً ولا كهرباء ولا أثيراً ولا معدناً من المعادن الفلزية وغير الفلزية إلا أوضحتها إيضاحاً كافياً، بل أوراق الأشجار وسلاؤها وشوكها والنسب بينها وحسابها وتركيبها وأنابيبها الشعرية والزوايا التي بينها وبين أغصانها والزوايا التي بين عروقها، كل ذلك مشروح مصور في نفس التفسير، هذا هو الذي أنعم الله به وتم منذ أسبوعين فقط وأخذ ينتشر في أنحاء المعمورة، تسألني أيها الأخ عما أحس به بعد انتشار الكتاب. أما أنا فإني أحس بما يشعر به قائد قد تألبت الأعداء عليه من كل جانب، فجمع جيوشه وأعد عدته وأخذ يحارب عشر سنين وقد ألم به الكبر ولم تهن قوته ولم تضعف عزيمته، بل لا يزيده الكبر إلا إقداماً، ولا يفل عزمه تقلب الدهر وحوادث الأيام، وانتهى أمر ذلك القائد بالنصر المبين والفوز على العدو المغير، ذلك هو الذي أشعر به الآن، أشعر بنصر وسعادة وروح وريحان ومسرة قلبية وفوز مبين.

فليكن حمدي لله على أنه استجاب دعائي أيام الشباب وأيدني بالعلم على مقدار طاقتي، وأمد في حياتي حتى أتممت هذا الكتاب، وشاركني الناس في شعوري ووجداني ونظراتي في السماوات والأرضين، ورجعنا كرة أخرى إلى الحقول.

نظراتي في الحقول اليوم غيرها بالأمس

فنظراتي في أول حياتي كانت لإحداث الأشواق والحسرات على العلم، أما الثانية فلتطبيق المشاهدات على القضايا النظرية، فدراستي الآن للحقول والسماوات للتطبيق، ودراستي أولاً كانت لمجرد التشويق، بت أرعى النجوم ليلاً وأنا جالس وسط الحقول ببلدة كفر الباشا بالقرب من القاهرة وصرت أخاطبها فأقول: أيتها النجوم، قد لبست جمالاً لم يكن لك بالأمس، إن الجمال مقدر بقدر المعارف، نحن نعيش والجمال يحيط بنا، ولكننا بالجهل منه محرومون، أنت متلألئة ببهجة تفوقين كل جمال في الأرض، ولكن هذا الإنسان مشغول عنك بالدواعي الصارفات له الشاغلات عنك من شهوات تنتابنا، وأعداء تساورنا وآمال تصرفنا، وجهل يحجبنا. جمالك أيتها النجوم عجيب، أنت مبدعات بحكمة، أراك ساكنة كأنك مسمرات في هذه القبة الزرقاء، هذه القبة ساكنة لا حركة لها، وأنت تشعين نورك في سقفنا الجميل، يخيل إلينا أننا في بيت منبسطة أرضه مقببة حيطانه، وسقفه المزين بأجمل الصور والأشكال.

ولكن العجب أن هذا السكون المشابه لسكون منازلنا وقرانا لم يكن إلا بادي الرأي لاطمئناننا وإلا فلا سكون، فنفس هذه القبة الزرقاء حركات في حركات، وهذه القناديل المشرقة تجري جرياً حثيثاً عشرات الأميال في ثانية، بل مئات الأميال، فهاهنا حركة هي السكون وسكون هو الحركات، مدهشات هذه الدنيا عجائب هذه الحياة سكون شامل هو نفس الحركات السريعة.

الناس جميعاً في غفلة عن جمال الإبداع، ولن يحظى به إلا الدارسون، على مقدار الدراسة يظهر الجمال، وكلما بدا جمال تبعه شوق لجمال وراءه حتى تطمئن نفوسنا الوثابة إلى الكمال، لا يعرف الجمال إلا بالدراسة، من لم يعرف صفات الجميل لا يعشقه، فالمعرفة ثم الابتهاج بالجمال، هذه كانت حالي ليلة الثلاثاء وقد استيقظت ليلاً، وبينما أنا أفكر في ذلك إذا مزارع من الذين في هذا الحقل قد أخذ يحدثني فقال: أنا أقدر أن أعرف الأوقات بسير النجوم، ثم نظر إلى نجم السماك الرامح وهو لا يعرف اسمه وهو نجم يقترب من بنات نعش الكبرى في جنوبها يبعد عنها قدر رمحين، فقال: هذا النجم متى غاب يكون قد مضى بعد نصف الليل ساعتان. انظر إلى هذا النجم، وأشار إلى القطب فقال: هذا لا يغيب أبداً، وهو لا يعرف اسمه أيضاً، ثم قال: أنا أعرف هذا، ولكن أكثر من حولي غافلون، وهذا دأبي وديدني، فعجبت كل العجب وتذكرت ما قاله «كنت» الألماني، انظره في المجلد الخامس والعشرين من التفسير في سورة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١-٢] فإني هناك ترجمت أهم ما في كتابه في التربية، وقد قال: إن كل ما نستعمله من الآلات مضعف لقوانا العاقلة، وضرب مثلاً لذلك بأن نعرف الوقت بالساعات مع أننا بملاحظة النجوم نعرفها فنكسب حكمة وعلماً وتدريباً وازدياداً في البصيرة، وبأن نعرف موضعنا في الغابة بالبوصلة مع أننا نقدر أن ندرك ذلك بملاحظة القمر والنجوم وهكذا، وبينما أنا كذلك إذ ظهرت الثريا، كما قال الشاعر:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل

وقول الآخر:

وقد بان في الصبح الثريا كما ترى ... كعنقود ملاحية حين نورا

يريد أنها كعنقود العنب في تقارب حباته واستدارتها وبريقها.

كل ذلك وأنا أحس كأني في عالم غير عالمنا، أولاً لأن الجو صحو والسماء صافية الأديم، ولأني درست هذه العلوم أمد حياتي ولم أغفل عنها في شبابي ولا في مشيبي، فأنا إذ ذاك أراني قد اجتمعت على أصحابي القدماء وأصدقائي الندماء، ولم تمض إلا لحظات حتى تبدى من ناحية الشرق ما لفت نظري إليه من كرة حمراء من المرجان بديعة الشكل بهجة المنظر، فأخذت أتبينها فإذا هي القمر، ثم أخذ يخلع حلته الحمراء ويلبس أخرى أقرب إلى البياض والإشراق، ثم استوى في السماء وهو يشرق على الأرض نوراً، وما كانت إلا دقائق حتى أقبلت جحافل تتبعها جحافل من الجيوش البيضاء تغزو ما أمامها من أخرى سوداء تتقهقر بانتظام، والسكون شامل والهدوء تام، وانفلق عمود الصباح، وقال المؤذن: حي على الفلاح، فصليت الصبح. ولما أن كان الضحى، ونشرت الشمس على الأرض ملاءة ذهبية مشرقة تبدت لي في الأرض نجوم أخرى، وأخذت أدرس درساً آخر لذيذاً.

ماذا تبدى لي في يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء

نظرت زهرات القرع صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، نظرتها في النهار أشبه بنجوم الليل مركبات من خمس ورقات ذهبيات، ورأيت الحشرات ذاهبات آيبات، أذكر منها النحل والزنابير السوداء التي على ظهرها كبقعة صفراء، وكل واحدة تنتقل من زهرة إلى أخرى سريعاً، وبجانب

القرع نبات « الصنطاوي »، وهو يشبه القرع والبطيخ والخيار من حيث إنه يمتد على الأرض، ولزهر الجميع خمس ورقات. هناك، هناك تذكرت نظام الحشرات، وأوقات انفتاح الزهرات، وأن كل طائفة منها لها زهرة خاصة، وللزهر وقت للنوم، ووقت للاستيقاظ، والحشرات تعرف الوقتين، ولا تخطئ في حسابها، ونفس الزهرات مقدرات في خلقها بمقدار حشراتها اللاتي تشرب عسلها لتنقل الطلع من الذكور إلى الإناث.

هذا كله مشروح موضح بالتصوير الشمسي في سورة « الحجر »، وفي الجزء الخامس والعشرين من تفسير الجواهر في سورة « عمّ » وفي سورة « عبس »، وهكذا ترى في هذين المقامين وغيرهما العجب العجاب، ترى أن النبات ذا الفلقتين كالقرع والبطيخ تكون سيقانه مخروطية، أما أمثال القمح والنخل من كل ما هو ذو فلقة واحدة فإن سوقه تكون أسطوانية، فهذه قواعد علمية مرنت عليها، وهاأنا ذا أشاهدها بالبصر بعد البصيرة. إذن هناك فرق عظيم بين نظراتي أيام الشباب ونظراتي أيام المشيب، تلك مقدمات وهذه نتائج، تلك حسرات وهذه سعادات.

كنت أجلس وسط الحقول وأنظر هذه الزهرات فلا أعرف لمَ كانت هذه الزهرة خمس ورقات؟ وهذه ٣ و٢ و٤ وهكذا، وقد تبين الآن أن كل نبات ذي فلقة واحدة تكون ورقات زهره ثلاثاً أو مكرر ٣، فأما ذو الفلقتين فهذا البطيخ والقرع والخيار والصنطاوي فإنه يكون خمساً أو مكرر خمسة، وقد يكون ٤ و٢.

جميلة هذه الدنيا، وجميل العلم، هي للحكماء جنة، وللجهلاء جحيم، لا يعرف الجاهل من الدنيا إلا أنها مخلوقة لشهواته، كما يرى الطفل أن كل من حوله مسخرون لإشباع غرائزه وإعطائه ما يشتهي.

إن الطلاب في أيام جهالات أممهم وغفلات معلميهم يكتفون من العوالم بنظرات أكثر الشعراء في الجاهلية والإسلام، كخيال امرئ القيس إذ يمثل له الليل بجمل ناء بكلكله عليه وأمضه وأضناه لكثرة الهموم، أو كبحر لجي اضطربت أمواجه، وكخيال البهاء زهير في شعره إذ تمثل له الليل كأنه لا آخر له من شدة شوقه لمحبوبه، أو كأنه يفاخره بمحبوبته، ويفضلها على البدر في السماء، فيقول الأول:

وليل كموج البحر أرخى سدوله　　علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه　　وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي　　بصبح وما الإصباح منك بأمثل

ويقول الثاني:

يا ليل طل يا شوق دم　　إني على الحالين صابر
لي فيك أجر مجاهد　　إن صح أن الليل كافر
يهنيك بدرك حاضر　　يا ليت بدري كان حاضر
حتى يبين لناظري　　من منهما زاه وزاهر
بدري أرق محاسناً　　والفرق مثل الصبح ظاهر

فأمثال هذا هو الأدب اللفظي وهو مقدمة للحكمة والعلم، والمقدمات بالمراهقين وصغار الفتيان أولى، والنهايات والحكم بالشبان والكهول والشيوخ أليق وأتم:

على نفسه فليبك من ضاع عمره   وليس له منها نصيب ولا سهم

نظرات الأمم أيام رقيها وسعادتها للحكمة أقرب ونظراتها أيام طفولتها للشهوات أكثر

فهؤلاء يمرون على تلك المناظر وهم غافلون، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[يوسف: ١٠٥]، يرون الحشرات وهن طائفات على الزهرات يشربن العسل ويلقحن النبات وهم لا يعلمون أنه لولا هذه الحشرات الطائفات على الأزهار ما كانت الثمار، ولهلك هذا الإنسان، كل هذه الخواطر جاشت بنفسي ضحى، وشجر الأثل والكافور وأنواع المزارع والحشائش تغني طرباً، وتحدث عجباً، وتطرب بغوير الأعشاب، وحفيف الأشجار، وترنح الأغصان، وغناء الأطيار، كأنما هذه حفلة موسيقية، احتفالاً بما أفكر فيه من الحكمة والعلم الذي يجول بخاطري، فأما السماء ليلاً فقد زينت لناظري، وأما الأرض نهاراً فهاهي ذه أنوارها وموسيقاها وغناؤها، فهذه الدنيا عروس تجلت للمفكرين، وحوراء ازينت للناظرين، ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[الحجر: ١٦]، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾[الكهف: ٧]، ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣].

فبينما أنا في هذه الحال المونقة إذ أقبل أحد العمال في الحقل فقال: لماذا تتأمل كثيراً في زهر البطيخ والصنطاوي؟ فقلت: انظر ورقات الزهر أليست خمساً، وهذه قاعدة في كل ما كان ذا فلقتين كالبطيخ والخيار، فأخذ يقول: عجب أنت فلاح عظيم، أنا عشت وما فكرت في هذا، نحن لا نعرف شيئاً في الفلاحة، أنا ما سمعت أحداً يقول هذا الذي أشاهده إلا أنت، فقلت له: ما هذا الذي على مجرى الماء من الحشائش الجميلة؟ انظر ألست ترى هذه الحشائش التي تسمونها الركبة، والنجيل، والدمسيسة، والبرنوف، تزين حقولكم وأنتم عنها غافلون، فقال: نحن لا نرى فيها جمالاً، نحن نقطعها بالفأس لأنها تضر زرعنا. فأي جمال في ذلك؟ فقلت له: أرى هنا أنبوبة دقيقة تحمل فوقها خمس شعب لها زوايا منتظمات متناسبة بمقياس واحد، وجميع هذه الشعب متساويات طولاً وعرضاً وحول كل شعبة منها تنبت فروع دقيقة، وهذه أشبه بالتيجان على رؤوس الملوك منتظمات بهجات. ثم انظر إلى أنابيب أخرى ذات ثلاث شعب، وفيها هذا التناسب بعينه، وهاهي ذه يتلاعب بها النسيم تتمايل ذات اليمين وذات الشمال، زينة على مجاري المياه وأنتم تنظرون، فقال: حسن كل هذا. ومن العجب أننا لم نسمع أحداً مر بحقولنا وذكر لنا أمثال هذا المقال، أنت مغرم بالنبات، ونحن لا غرام لنا إلا بمحصول أرضنا، وسد ديوننا، وإشباع بطوننا. وانتهى حديثي معه. ثم إن محدثي في أمر النجوم كان أوفر ذكاء وأوسع فطنة، أما هذا فإن نفسه لا سعة فيها ولا استعداد لاستيفاء الحديث.

العبرة من هذا المقال

العبرة من هذا المقال أن التربية في البلاد المصرية للشبان يجب أن تزداد ارتقاء، ولو أن ذوي اليسار منهم أرسلوا أبناءهم زمن الصبا عند أهل البادية المصرية بضع سنين قبل دخول المدارس

وتعلموا منهم تلك البساطة والشجاعة والاهتداء بالأنوار والنجوم؛ لكان في مصر رجال يضاهئون أعظم رجال الأمم. هذا ما خطر لي كتبته يوم الجمعة ٢١ يوليو سنة ١٩٣٣، والحمد لله رب العالمين.

يوم الثلاثاء ٢٥ يوليو سنة ١٩٣٣

بهجة الحكمة في هذا المقال، وجمال هذه الدنيا، ونور الله المشرق في الأرض، وتطبيق المناظر السابقة على آية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾[البقرة: ١٦٤] الخ

حضر صاحبي الذي اعتاد محادثتي في تفسير القرآن فقال: إن ما قصصته علي يوم الجمعة إجمال يعوزه تفصيل، فأرجو أن تبين الكلام على السماك الرامح الذي حدثتني عنه من حيث نظرك في النجوم ليلاً وذكرته لي. فقلت: نعم أنا أحدثك عنه. إنني وأنا جالس ليلاً مع الفلاحين وهم يحدثونني في أمر السماك الرامح كنت أخاطبه في سري ولا أخبر الفلاحين بشيء، فكنت أقول: أنت السماك الرامح، أأنت ذا الجمال الرائع، ذو النور المشرق الساطع، أأنت القريب البعيد، الكبير الصغير، أنت ذلك الذي يجري (٨٣) كيلومتراً و(٢٠٠) متر في الثانية. فأنت تسير أضعاف جري أرضنا حول شمسنا ٣ مرات لأنها تجري (٢٩) كيلومتراً و(٥٠٠) متر في الثانية، أأنت الذي إذا أردت أن تزور أرضنا فإنك لا تصل لها إلا بعد ٩٣١٣ سنة بسرعتك المتقدمة، أأنت الذي إذا فرضنا أن قطاراً يجري على الأرض في سكة الحديد من أرضنا بسرعتك وهي ٨٣ ميلاً و٢٠٠ متر في الساعة، أي: كسرعتك أنت في الثانية الواحدة، فإن هذا القطار لا يصل إليك بعد خروجه من أرضنا إلا بعد (٨٠٠ و٥٢٦ و٣٣). فكيف يكون هذا البعد ونحن نراك بأعيننا، عجب لك ٣٣ مليون سنة بسرعة هي أكبر ما نراها في أرضنا بسكة الحديد مع أنك أنت قريب جداً، فإن هناك من النجوم ما هو أبعد جداً جداً، فإن من الكواكب ما لا يصل ضوؤه لنا إلا في مئات السنين، بل في ملايين السنين.

فقال صاحبي: لقد شوقتني لأرى هذا النجم مرسوماً، وعندي شك في هذه الأرقام، فهل لك أن تريني رسم هذا الكوكب أولاً، وتطلعني على كلام علماء الفلك لأطمئن على هذه المقادير وأتصور سعادتك وأنت تفكر في هذه المعاني وأنت في الحقل بين الفلاحين وتطبق العلم على العمل، فقلت: حباً وكرامة.

هذا مقال لصديقنا الفلكي المصري محمد أفندي مسعود، وهاك نصه من صحيفة الأهرام يوم الأحد ٢٥ يونيو سنة ١٩٣٣، ٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٢.

اركتوروس

بقلم الأستاذ محمد مسعود

في صحيفة الصور من أهرام السبت الماضي صورة لبعض علماء مرصد «هوفارد» بأمريكا وهم يسخرون شعاع النجم اركتوروس في توليد تيار كهربائي أداروا به زراً خاصاً متصلاً بأسلاك الاستضاءة في معرض شيكاغو الكبير، فضاءت مصابيحه وانطلقت صفاراته، فكان ذلك بمثابة إعلان لافتتاح هذا المعرض منذ نحو أسبوعين.

هـذه خلاصـة مـا ورد في الأهـرام، ولست أريد بالإشارة إليه معالجة هذا الكشف العجيب الذي يشتغل لـه العلماء منذ أواخر القرن الماضي، بدليل أنهم قاموا آنئذ بتجارب تأيدت بـها قـدرة الحرارة الواصلة مع أشعة ذلك النجم على تحريك إبـرة الجلفـانومتر رغم شدة انخفاضها، لأنها لا تصل منـه إلى الأرض إلا بعـد أن تقطـع ٦٢ ترليونـاً مـن الفراسخ في ٢٥ عاماً ونصف عـام بسـرعة الضـوء التي قدرها العلمـاء بثلاثمائـة ألـف كيلومتر في الثانية الواحدة.

(شكل ٥٩ ـ صورة الدب الأكبر والعواء)

أقول: لست أريد معالجة هذا الموضوع الذي يحار فيه الفـهم ويكثر الوهـم، بل أقصـد إلى أن ذلك النجم بل الشمس الكبرى التي تعد بحق من أسطع شموس النصف الشمالي من الكرة السـماوية وأعظمها حجماً ما برحت الصحف، والأهرام في طليعتها، تسميها باسمها اللاتيني.

على حين أن له من الأسماء العربية ما يغني بعضها عن ذلك الاسـم الأعجمي منـها: السـماك الرامح، وهو أكثرها ذيوعاً وأقربها إلى التعريف به، سـمي كذلـك لسـموكه، أي: ارتفاعـه في السـماء، ولأن الرمح هو مجموعة النجوم المتتابعة على فخذه اليمنى وساقه اليسرى مجـاور لـه، ومنـها حـارس السماك وحارس السماء، لأنه يرى في السماء أبداً لا يغيب تحت شعاع الشمس، ومنها أسماء أخر من أسماء كوكبة العواء التي هو نيرها الأعظم إذ كثيراً ما ينسحب اسم النـير على الكوكبـة التي هـو أحـد نجومها والعكس بالعكس.

وفي قدرة القارئ إذا أراد أن يلتمس مكان السماك الرامح من السماء في هذه الأيام التـي تغلـب فيها حلكة الليل فتعم الكون أن يهتدي إليه من أقرب طريق إذا كان على حـظ من العلـم بموقـع الـدب الأكبر وأوضاع نجومه، وبخاصة الثلاثة التي يتـألف منها ذنبه، وهـي الجون أو الألية، وعنـد الفرنجـة Alioth، والعناق أو المئزر وعندهم Mizar، والقائد وهو طرف الذنب وعندهم Alkaid.

فإنه إذا عمد إلى الاثنين الأخيرين ووصل بينهما بخط مستقيم ثم مد هذا الخط فيما يلي الثاني منهما وهو القائد لا على استقامته المطلقة، بل في شيء من الالتواء والتقوس؛ يكاد لا يحس بلغ به من غير ريب إلى السـماك الرامح الذي استمد الأمريكيون بشعاع من ضوئـه في افتتـاح معرضـهم العظيـم.

وعندي طريقة عملية الاهتداء إليه، وهي أن تستدبر الشمال قبيل الساعة التاسعة مساء، ثم ترفع رأسك كما لو كنت تريد محادثة أحد في الطابق الثالث من منزل أنت منه قيد بضعة أمتار، فالنجم الوهاج الذي يسترعي بصرك بشدة تألقه هو هو السماك الرامح، أو اركتوروس الصحف العربية، إذ يكون مكانه من سمت رأسك، أي: النقطة المقابلة لرأسك من السماء على انحدار إلى الجنوب ببضع درجات.

ولكي يتأكد لك أنك كنت موفقاً في اهتدائك إلى ضالتك المنشودة، بادر إلى تغيير وضعك باستدبار الجنوب واستقبال الشمال، ثم انظر إلى فوق كما نظرت بادئ ذي بدء ترى أول ما ترى من النجوم المضيئة تجاه السماك الرامح القائد فالعناق أو المئزر، أو سياه كوش بالفارسية، فالجون أو الإلية وهي في أوضاعها على خط منكسر كالسبابة تشير إلى ذلك النجم.

والسماك الرامح أول ما شوهد من النجوم في وضح النهار، شهده المنجم مورن Morin وهو في مخدع نوم الملكة «آن دوتريش» حين وضعت ابنها الملك لويس الرابع عشر يستخرج طالعه. ففي استطاعتك أيها القارئ متى ضبطت موقعه من السماء في أية ساعة من ساعات النهار أن ترصده بالمنظار، وربما أبصرت به من غير منظار بعد غروب الشمس بربع ساعة إذا كان بصرك حديداً.

وهو أول ما يرى من نجوم السماء متألق السناء ما لم يكن فوق أفقها أحد السيارين: الزهرة والمشتري ـ والمقارنة هنا مع الفارق، فإن السماك الرامح من النجوم الثابتة، والزهرة والمشتري من الكواكب السيارة التابعة مع أرضنا للنظام الشمسي ـ ولسطوع نوره، وتألق سنائه، كان مع النسر الواقع والشعرى اليمانية «الشعرى العبور» أول ما استرعى أنظار البشر من الآثار العلوية، فقد ذكره أيوب النبي في الآية التاسعة من المزمار التاسع، وذكره الشاعر هوميروس صاحب الإلياذة في شعره، إذ حض الفلاحين وربابنة السفن على توقيت أعمالهم الزراعية والبحرية بحركاته العلوية لاقتران بعض هذه الحركات بالظواهر الطبيعية على وجه الأرض، كهبوب الرياح العاصفة، وثورة أمواج البحار، وما جرى مجرى ذلك.

وكان السماك الرامح أول ما حاول العلماء تقدير البعد بينه وبين الأرض، ولكن محاولتهم في هذه السبيل ذهبت ضياعاً على الرغم من اعتقادهم أنه من أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض، لما لاح من ضخامة جرمه وسطوع نوره، وقد ظلوا يخبطون في ذلك التقدير خبط عشواء إلى سنة ١٨٤٢ حيث تمكن الفلكي بترس Peters من تقدير ذلك البعد بطول نصف قطر الفلك الأرضي، أي: المسافة بينها وبين الشمس مكرراً ١,٦٢٨,٠٠٠ مرة.

ولما كان بعد ما بين الأرض والشمس هو ٣٨,٠٨٣,٣٨ فرسخاً فيكون بعد ما بينها وبين السماك الرامح هو٢٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرسخاً، ما يقرب من: ٢٤١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتراً، ولكي نزجي إلى ذهن القارئ فكرة سطحية عن مدى هذا البعد السحيق في الفضاء الكوني الذي يصعق العقل دون تقديره برقم أو وقفه عند حد؛ نثبت هنا أن سرعة السماك الرامح وهو يسبح في الفضاء اللانهائي يبلغ ٨٣ كيلومتراً و٢٠٠ متر في الثانية، أي أنها تعدل سرعة الكرة الأرضية في مدارها حول الشمس نحو ثلاث مرات وهذه السرعة هي ٢٩ كيلومتراً و٥٠٠ متر في الثانية.

فإذا فرض أنه سار متجهاً نحو الأرض على خط مستقيم بدلاً من مواصلته السيرة في فلكه؛ فإنه يقطع المسافة بيننا وبينه بسرعته المتقدمة في ٩٣١٣ عاماً، وإذا فرض أن قطاراً فاخراً كالذي يسير بين القاهرة والإسكندرية قد سار من الأرض إلى السماك الرامح على ذلك الخط المستقيم عينه بسرعة ٨٣ كيلومتراً و٢٠٠متر في الساعة، وهي نفس سرعة السماك الرامح في الثانية الواحدة، فإن ذلك القطار

لن يصل إليه بعد قيامه من محطة الكرة الأرضية إلا بعد انقضاء ٨٠٠ , ٥٢٦ , ٣٣ سنة . وفي هذا البيان مقنع بضخامة جرم السماك الرامح، وبأن الفضاء الكوني لا يمكن أن تحصي مداه الأرقام .

وقد كان السماك الرامح موضع اهتمام الفلكيين من قديم الزمان، فقد بحث هيبارقة الفلكي الإسكندري سنة ١٢٧ قبل الميلاد في حركته وحققها، فظهر له أنها من السرعة بحيث تبلغ ثانيتين وربع ثانية من الدرجات السماوية، وأنها تنحدر به نحو الجنوب الغربي، وأن ما يقطعه من رقعة السماء في كل ٨٠٠ عام يعدل بناء على ذلك الطول الظاهر في رأي العين لقطر القمر، وإذن يكون طول ما قطعه من تلك الرقعة منذ عهد الفلكي هيبارقة إلى أخريات الجيل الماضي، أي في نحو ٢٠٣٠ سنة ٧٥ دقيقة أي: درجة واحدة وربع الدرجة من درجات السماء، ومعنى هذا أن السماك الرامح ينحدر في سيره نحو خط الاستواء السماوي لينتظم في سلك نجوم النصف الجنوبي من الكرة السماوية بعد أن كان من أقرب نجوم نصفها الشمالي إلى القطب، ولا يبعد أن تندثر الأرض وأخواتها السيارة وأمهن الشمس قبل أن يجتاز السماك الرامح خط الاستواء السماوي منتقلاً من الشمال إلى الجنوب .

وليس بين نجوم النصف الشمالي من كرة السماء ما هو أسطع ضياء ولا أشد تألقاً ولألأ من السماك الرامح سوى نجوم تعد على الأصابع، نذكر منها النسر الواقع والشعرى اليمانية والنير من كوكبة قنطورس الخ . ولذا حسبه الفلكيون من نجوم القدر الأول بالنسبة لنجوم السماء كلها لا نجوم العواء التي هو النير لها جميعاً، ومع هذا فقد قدمه فريق من الفلكيين على النسر الواقع في صفاء أديمه وحسن إشراقه، وقال أحدهم: إنه إذا كان النسر الواقع ناصع البياض كالألماسة البيضاء، فالسماك الرامح يشبه الألماسة الصفراء التي استخرجت من مناجم الكاب، لأنه كالنار المتوهجة في لونها وشدة حرارتها التي سخرها الأمريكيون في إضاءة معرضهم، وإن وصلت إليهم ضعيفة بعد أن اخترقت تضاعيف كرة الزمهرير في مدى ٦٢ ألف ألف مليون من الفراسخ .

هذا وقد ذكرنا آنفاً أن السماك الرامح هو نير كوكبة العواء، ونقول الآن: إن العواء صورة من الصور السماوية تتألف من ٢٢ نجماً في الصورة وواحد خارجها وهو السماك الرامح، وتمثل في رأي بعض الفلكيين صورة فلاح يحمل بيمينه منجلاً وبيسراه دبوساً، وفي رأي آخرين صورة صياد يحمل بيمناه عصا معقوفة، ويجعل غيرهم هذه العصا بيسراه وبيمناه مربط كلبين سلوقيين يطارد بهما نجوم الدب الأكبر، ومن ثم سمي العواء طارد الدب، وأسماه عبد الرحمن الصوفي في كتابه «صور الكواكب» الموجود منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية، وترجمه إلى الفرنسية العلامة «سجلروب» عن نسخة دار كتب سان بطرسبورغ سابقاً بالنقار، وأخذها الفرنجة عنه فقالوا: كوكبة الـ rakkeN، وأكبر ظني أن النقار إنّما هي تحريف البقار بالباء بدل النون، لأنهم يشبهون النجوم الأصلية السبعة في الدب الأكبر بسبع بقرات: senoirt atpeS يطاردها العواء بكلبيه السلوقيين، واسم العواء عند الفرنسيين هو reivuobeL أي: البقار، وأسماه الصوفي أيضاً بالصناج، أي: الشديد الضوء، من: صنج، الذي يفيد لغة هذا المعنى، نقول: ليلة قمراء صناجة، أي: مضيئة، أو الضارب بالعصا، تقول: صنجه بالعصا، أي: ضربه وصرع بالعصا، وقد فهم القارئ مما تقدم أن العواء يحمل بإحدى يديه عصا معقوفة أو

دبوساً، وإذن يكون الفلكي الشهير كامي فلاماريون واهماً إذ يقول: إن العرب يسمون العواء rueirceL أي: الصياح ـ بالياء المشددة بدلاً من النون ـ وأكبر الظن أن كلمة الصناج حرفها ناسخ، فظن قارئوها أنها الصياح، ومن ثم نقلوها إلى ما يفيد هذا المعنى في اللغات الغربية.

والخلاصة مما تقدم جميعه أن «اركتوروس» يسمى في اللغة العربية بالسماك الرامح، وأن على من يريد رصده بنفسه أن يعمل بالإرشادات التي أوردناها في صدر هذا المقال.

فلما سمع صاحبي هذا المقال دهش، وقال: هذا أمر عجب، ثم إني أحب أن أعرف بقية وجدانك بعد أن قرأت هذه المقالة قبل اليوم وما خواطرك؟ يظهر لي أن العلوم لا قيمة لها إلا بالعواطف، ولولا العواطف والأذواق لأصبحت العلوم حملاً ثقيلاً على الأمم، فغرامك بالجمال وعواطفك تستحق أن تبرز في هذا المقام.

فقلت: إني لما اطلعت على هذه المقادير لم أكن لأستغربها، لأن الكواكب تبعد بملايين السنين بسير الضوء، ولكن الذي أثر في نفسي أني كنت في الحقل مع الفلاحين كما قدمت، والكوكب كان أمامي كما ذكرته لك، وكانت بنات نعش الصغرى وبنات نعش الكبرى متجليات، والجو مظلم، والنجوم فيه تكاد ترقص لشدة بريقها ولمعانها ولألائها، نظرت إذن بعد أن ذكرت ما تقدم، ثم قلت: أأنت السماك الرامح، ذلك الذي بهر الناس ضوؤه هو والنسر الواقع والشعرى اليمانية، أنزل ذكرك في الزبور، وذكرك هوميروس في شعره، أأنت الذي أيقظ بك هوميروس الفلاحين، وكل ربان سفينته، لأن لك في الجو أثراً بحكمة المبدع الحكيم. اهـ.

خيل إلي إذ ذاك رحمة لا حد لها، ونعمة مزجاة إلى هذه الأرض وما عليها، وأصبح العالم في نظري مع كثرة عدده وعدم تناهي بعده خادماً لهذه الأرض، كما أن جسم المرأة كله معد لتغذية الطفل ونقصان أي عضو من أعضاء المرأة يؤثر في تربية الطفل نقصاً في خلقه أو استعداده أو شكله، هكذا أي كوكب نقص من الكواكب، فإن آثار نقصه تصل إلى الأرض.

الله أكبر، أصبحت العوالم وأنا أنظر إليها كأعضاء جسم واحد، وأرضنا رحم لذلك الجسم، ونحن بيضات تحيط بتلك الرحم، عظمت الرحمة عند نفسي، وهالتني هذه العناية، ولاحظت كأن القمر بأنواره المشرقات يخاطبني بما ذكرته الآن، وبينما أنا غارق في هذه الأفكار إذ هبت النسمات فزاد الفكر اشتعالاً، وأخذت أقول في نفسي:

نسبة الأرض إلى العوالم كنسبة الفرد الواحد إلى الأمم

هاهنا أخذت أقول في نفسي: هذه الأرض فرد واحد من المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية مملكة من قارة واحدة هي المجرة التي شمسنا فيها، وكل مجرة مع شموسها وتوابعها وأقمارها وذوات أذنابها أشبه بقارة من قارات أرضنا: آسيا وأمريكا وأوروبا وأستراليا وأفريقيا، وكل كوكب تتبعه سيارات وأرضون. هذا حكم تلك الأرضين حوله، فما من أرض أو سيار حول شمس من الشموس إلا كان هذا حكمه، فهو فرد من مملكة مجموعته الشمسية، وهي إحدى ممالك مجرتها التي كأنها قارة في أرضنا، والمجرات كلها كأنهن قارات في السماء.

إذن:

المشبه به

الإنسان أمة قارة سطح الأرض

مشبه

أرض مجموعة شمسية مجرة عوالم السماء

هذا هو الذي خطر لي في هذه الليلة. رباه العلم لا حد له، فمنذ ليال لم يكن الخاطر على هذا النمط بل كان متجهاً إلى جهة أخرى، وذلك من حيث إن العوالم متحركات حقيقة، وإن كانت سواكن ظاهراً، الله واحد وهو قد صبغ العوالم بوحدة تجمعها، وسيشمل النوع الإنساني بوحدة تناسبه. اهـ.

نظرتي في العوالم العلوية والسفلية

في ليلة الجمعة ٥ ربيع الثاني سنة ١٣٥٢، ٢٨ يوليو سنة ١٩٣٣

جلست في الصحراء تلك الليلة، وقد ظهر نور القمر بعد الغروب، وأشرقت الأرض بنوره، وقد حفت به مواكب النجوم، وليس حولي في الأرض إلا نبات الصنطاوي، وهو الذي يشبه ثمره ثمر «العجور» في هيئته، وهو أصغر منه حجماً وأحلى طعماً، ويمتد على الأرض فتحمل هي ثمره عنه كما في البطيخ والشمام والخيار وغيرها. هي مزرعة صغيرة تجاورها الصحراء المصرية الكبرى الشرقية وتحيط بها أرض لا نبات بها لقلة الماء الذي يرويها، ولكن يتخلل الأرض المحيطة بها أشجار من النخل والأثل، وهذه تداعبها النسمات، وهي تختال ذات اليمين وذات الشمال والريح سجسج لطيفة، هناك لاحت مني لفتة إلى القمر وإلى النجوم وإلى السماء، فخطرت لي خواطر غير ما تبدى لي منذ بضعة أيام مما أشرت إليه فيما أسلفناه.

رباه قمر أشرق نوره على الأرض، وكواكب أضواؤها مزجيات معه، وحرارات الكواكب كلها، وإن قلت ممتزجات بأضوائها، فليس في الكواكب العلوية كوكب إلا وضوؤه وحرارته مزجيات على الأرض، كما ذكرناه آنفاً من أن أمريكا فتحت المعرض في هذه السنة بأشعة السماك الرامح مع تناهي بعده في أقطار السماوات. هذه العوالم التي لا حصر لها كلها مرصعات بحسب المناظر الظاهرة في هذه القبة الزرقاء المحيطة بأرضنا. عناية والله ورحمة واسعة، عوالم لا حصر لها، وشموس ومجرات وسدم كلهن متحدات على تربية أهل الأرض، وما أرضنا وما عليها إلا كرحم المرأة، وما العوالم كلها إلا كجسمها، وهذه الرحمة يتربى فيها كل حيوان، وكل نبات كما يتربى الجنين في رحم أمه.

أما الليلة، فإن التجلي لم يكن على هذا الوجه، بل اتجاهه إلى نظام الجماعات، فكان الفرد كأرض، والأمة كمجموعة شمسية الخ.

نظام العوالم ونظام الأمم

هاهنا استبان لي أمران مختلفان اختلافاً بيناً، هذه العوالم أراضيها ومجموعاتها الشمسية ومجراتها وسدمها كلهن متجاذبات متعاطفات لا خلل في نظامها، كيف لا، ألم تكن هذه الكرات كلهن جاريات بنواميس خاصة، ولم نر كوكباً اصطدم بآخر، وهذه النجوم كلهن جاريات في عوالم

الأثير لم نرها يوماً ما اصطدمت فهلكت، نعم لها حساب يقتضي أنها تفنى، أما الآن فهي متجاذبة متعاطفة مشرقة ذات جمال وكمال، هذا هو الأمر الأول، وهو المشبه.

أما الثاني وهو المشبه به؛ فإننا نراه يخالف الأول على خط مستقيم، فكثير من الأفراد متقاطعون، والأمم في القارة الواحدة، والقارات المتعددة يختصمون ويتقاتلون، و﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٣].

أرضنا نتيجة العوالم كلها، وما في الرحم من الأجنة تتجه أعضاؤه إلى ما اتجه إليه أعضاء جسمي الأبوين، أليس جميع من على أرضنا نواتج لمقدمات هي العوالم المحيطة بنا، إن النتائج توابع المقدمات.

المقدمات كوامل فكيف لا تكمل النتائج

عوالمنا كاملة، فلماذا لم يكمل نوع الإنسان؟ جوابه أن نقول: إن هذه النتائج وإن كانت في غاية النقص من حيث أخلاق الأمم والأفراد، فإن ذلك بحسب الظاهر.

الإنسان لم يعش على هذه الأرض بحسب ما يظن العلماء اليوم إلا ثلاثمائة ألف سنة، أما الحيوان فإنه عاش قبله (٣٠٠) مليون سنة، وأعمال الحيوان غريزة فيه لا يعوزه نصب ولا تعب، فهو على منهاج العوالم السماوية المحيطة به من حيث النظام.

أما الإنسان فهو إلى الآن في حال الطفولة، وهاهو سائر يوماً ما إلى ذلك الكمال الذي نشاهده في العوالم المحيطة بنا. وإذا كنا نرى الطفل لا يكمل كأبيه إلا بعد أن يكون فتى فكهلاً فشيخاً؛ هكذا هذا الإنسان يوماً ما سيكمل كما كملت العوالم حوله فيصير الفرد محباً لجميع الأمة ويكون عمله لها بطريق الحب والعطف كما يعطف على ذريته وأسرته، وتكون كل أمة عالمة أن الأمم كلها كأنهن معها أعضاء في جسم واحد، وإذن يكون هناك حب عام مشابه تمام المشابهة للتجاذب العام في المجرات والشموس والسيارات، الإنسان صائر إلى هذا شاء أم أبى، لأن النتائج سائرات إلى ما صارت إليه المقدمات.

هل دين الإسلام أشار إلى كل ما ذكرناه

في آية: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾[البقرة: ١٦٤]

إلى قوله: ﴿ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ١٦٤]

إن هذه الآية مسبوقة بآيات قبلها مشيرات إلى ما ذكرناه، قد ذكر الله إبراهيم في هذه السورة، أي سورة «البقرة»، وأنه ابتلاه بكلمات فأتمهن، فلما أتمهن قال: ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤]، ومعلوم أن إبراهيم دينه الإسلام، وإبراهيم أسلم وجهه لله وهو محسن، والله يقول: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾[البقرة: ١٣٠]، وفي آية أخرى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾[النساء: ١٢٥]، وإسلام الوجه لله هو الذي أمر به النبي صلى الله عليه وسلم هو ومن تبعه، يقول تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[آل عمران: ٢٠].

إذن الناس إذا أسلموا وجههم لله اتحدوا وإلا فهم في شقاق، والسلام تسليم وجوهنا، والتسليم هنا أن نكون على صراط مستقيم، والصراط المستقيم ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الشورى: ٥٣]، وفي آية أخرى: ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود: ٥٦]. وصراط الله في السماوات والأرض قد شاهدناه. فهذه العوالم كلها متجاذبات لا شقاق فيها، والذين لا يسلمون وجههم لله كلهم في شقاق كأهل كرتنا الأرضية لأنهم إلى الآن لا يعلمون وليسوا بمذمومين، لأنهم في طريق التعليم سائرون.

موازنة ما بين هذه النظرات ونظرات سقراط في نظام الأمم وفي علم الأخلاق

كل من كان له إلمام بالفلسفة يعلم أن سقراط جعل الفرد مقيساً على الأمة، فإذا كان في الأمة رئيس كلي أو مجلس عام يسيطر عليها، وجيوش يدافعون عنها، وطوائف آخرون للزراعة والصناعة والتجارة، هكذا في الأفراد، فالقوة العاقلة في مقابلة القوة المدبرة في الدولة، وقوة الغضب في الفرد نظير قوة الجيش في الأمة، والقوة الشهوية في الفرد أشبه بالزراع والصناع، وجميع رجال الأعمال الجسمية أشبه بالمعدة والأمعاء والكبد والطحال في جسم الإنسان، ومنزلة القلب وغليان الدم فيه، والدماغ وجريان الفكر فيه، كمنزلة الجيش، والرئيس المدبر للأمة الواحدة، ذلك ما قاله سقراط.

فلنقل نحن: إذا رأينا سقراط قاس الفرد على الأمة؛ فعلينا نحن أن نقيس أمم أرضنا على المجرات والسدم والمجموعات الشمسية ونتم العلوم التي أسسها السابقون. فإذا كانت العوالم حولنا كلها متجاذبات متحدات؛ فلنقس العالم الصغير على العالم الكبير، أي: عالم أممنا الأرضية على عوالم المجموعات الشمسية، وإنّما قسنا أممنا عليها، لأن دراسة العوالم أسهل علينا من دراسة أممنا، كما أن دراسة الأمة عند سقراط أسهل من دراسة الفرد الواحد، ولذلك قيس عليها، وحكم عليه بما اتصفت به هي.

فإذا كانت دراسة الحيوان والنبات أسهل من دراسة جسم الإنسان، ولذلك تقدم دراستها على دراسته في المدارس، وإذا كانت معرفة نظام الأمم أسهل في التعليم من معرفة نظام الفرد الواحد فقاس الحكماء نظامه على نظامها، هكذا نرى الآن أن دراسة المجموعات الشمسية أسهل علينا من دراسة الأمم على الأرض، فلذلك قسنا نظام هذه الأمم على نظام تلك المجموعات. إن نظام هذه المجموعات عبارة عن إسلام وجهها لله فهي سائرة على نهج الجاذبية العامة التي تشبه المحبة العامة في نوع الإنسان، هذه سنة العوالم، وهذه سنة دين الإسلام.

كيف كان اتجاه الإسلام نحو غاية الوحدة العامة من حيث الوفاق والوئام

(١) نرى الله في هذه السورة يقول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٣].

وإذا كان رجال هذه الأمة عدولاً فهذا قد حصل في أزمان مختلفة كزمان عمر رضي الله عنه، فهم كانوا يحاربون الأمم، ويحافظون عليها، ويحكمونها بقانون، وهو قانون دين الإسلام، هذه

وحدة في الحكم والنظام على وفاق وحدة النظام العام، ولم يبح عمر لأحد من المحاربين أن يملك أرضاً في بلاد الأمم المحكومة. إذن هم كانوا شهداء على الناس.

(٢) ونرى الله يفصل بعد ذلك أمر القبلة ويأمر الناس بالإسلام والاتجاه إليها، وهذه فتح باب للوحدة.

(٣) ويقول في آية أخرى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾[آل عمران: ٢٠]الخ وهذا اتحاد في العقائد.

(٤) ويذكر بعد ذلك آيات مناسك الحج كالصفا والمروة، وهذا اتحاد عملي لنوع الإنسان، مقدمة للاتحاد العام كتجاذب الكواكب في السماوات.

(٥) ويتبع ذلك بآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾[البقرة: ١٥٩] الخ. يذم الله بذلك ويلعن أولئك الذين يكتمون العلم.

ولا جرم أن العلم بانتشاره يجعل المستمعين له متى كان حقاً على رأي واحد، فأما الظنون فلا حد لكثرتها.

(٦) وأتبع ذلك كله بقوله: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[البقرة: ١٦٣]، أي: وإذا كان إلهاً واحداً، فإن أعماله تتجه كلها إلى الوحدة وتكون ذات أسلوب خاص مناسب لكمال قدرته وعلمه، كما نرى الصناع والكتاب والمؤلفين كل له أسلوب خاص في عمله يختلف عمن سواه.

ولا جرم أن من درس نظام هذه العوالم وجدها على أسلوب من الكمال والنظام لا خلل فيه، ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[لقمان: ١١]، لأنه لو كان هناك آلهة أخرى لحصل اختلاف في نظام الخليقة، والله يقول: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾[الملك: ٣] الخ.

والرحمة المذكورة لا يدركها في هذه العوالم إلا الحكماء الدارسون وأما المتوسطون فإنهم عن هذا الجمال مبعدون.

ضرب مثل للوحدة في النظام العام

وقد ضرب الله مثلاً للوحدة العامة بما نرى من اختلاف الليل والنهار والفصول شتاء وصيفاً وخريفاً وربيعاً، فهذه الفصول كل منها يخرج فيه من النبات ما فيه منفعة لبقاء الإنسان والحيوان، فهي اختلفت ذاتاً واتحدت وجهة، ومن حرارة الشمس المزجاة على هذه العوالم الأرضية جرت الرياح في كل مكان، فجرت السفن وسارت السحب وأمطرت على اليابسة في كل مكان، ومن المطر كانت الأنهار فالمساقي في الحقول، ثم المجاري الجاريات تحت وجه الأرض، فتكون الآبار والعيون، فيكون النبات والحيوان، وهذا ملخص الآية إذ جاء فيها ذكر الفلك وما تحمل من الأمتعة والمطر والنبات والحيوان.

أليست هذه كلها قد اتحدت مبدأ من حيث الحرارة الشمسية والمواد الأرضية، واختلفت أعمالاً ثم اتحدت غاية، هذه وحدة في عوالمنا.

فهم جهلة الصوفية في وحدة الوجود ضلال

تبين بما ذكر أن وحدة الله غير وحدة المخلوقات، فوحدته من حيث الذات والصفات والأفعال ووحدة المخلوقات ترجع لحسن انتظامها، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[لقمان: ٢٨] ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾[الملك: ٣].

فلما سمع صاحبي هذا المقال فرح أشد الفرح وقال: ما أحسن هذا البيان، لقد قست نظام أمم الأرض على نظام المجموعات الشمسية، وجعلت كل قارة كمجرة، وجعلت القارات كلها أشبه بالمجرات، ورتبت على ذلك أن تكون أمم الأرض متحابات كتحاب هذه الكواكب، وهذه الآراء تمت بسبب إلى ما ذكرته في كتابك «أين الإنسان»، وهذه آراؤك في ليلة قمراء:

(١) فأرجو أن تتم الكلام على وحدة الأمم كلها، وأقول أيضاً: لقد تبين لي من هذا المقال أنك ترى أن أمة الإسلام عليها أن تقوم بوحدة الأمم كلها، وكيف يكون ذلك وهي متفرقة فرقاً شتى، وهل فاقد الشيء يعطيه؟ هذا، ثم إنك قد ذكرت آراءك في ليلة قمراء.

(٢) فماذا رأيت في نهار تلك الليلة؟ وإنّما سألت هذا السؤال لأنك قلت: إنك كنت متفرغ الفكر هناك في الحقل فماذا رأيت من عجائب نبات الأرض؟ وماذا استنتجت من تلك المظاهر النباتية في حقول البطيخ وما أشبهها هناك، فإنك إذا تبدى لك في السماء آراء غير السابقة، فلا جرم تكون قد تبدت لك آراء أخرى في نظام النبات.

(٣) ثم أرجو بعد أن تشرح لي ذلك أن تريني بالتصوير الشمسي نظام السماوات والأرضين، وكيف اتحد ذلك النظام بحيث أراه بنظري كما رأيته ببصيرتي، ثم بعد ذلك أحب أن تذكر لي ملخص علوم الحكمة كلها، وتذكر مع كل قسم منها بعض الآيات القرآنية التي تناسبها لأعرف الأقسام التي تناسب آياتنا، وهي: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[البقرة: ١٦٤] إلى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. فقلت إذن هنا خمسة فصول:

(١) في أمة الإسلام وكيف كانت وهي أمم متفرقة تقود كثيراً من الأمم وفاقد الشيء لا يعطيه.

(٢) وفي الحكمة المستنتجة من مناظر الحقول.

(٣) وفي صور الكواكب وصور عجائب الأرض من حيث وحدة النظام.

(٤) وفي النفحات الإلهية في الليلة المذكورة.

(٥) وفي أقسام الحكمة مع ما يناسبها من القرآن مع تبيان ما يخص هذه الآية التي نحن بصددها من سورة «البقرة».

الفصل الأول: في بيان أن أمة الإسلام المتفرقة عليها أن تجمع الأمم ومعلوم أن فاقد الشيء لا يعطيه

اعلم أيدك الله أيها الأخ الفاضل أن أمة الإسلام إنّما تفرقت وجهتها في القرون السابقة لأنها كانت مدة اختبار ومحنة، وهذه التجارب السابقة والمحن المتشعبة قد جعلها الله نعمة علينا لأننا سنتخذها عبرة لنا، الأمة كلها كفرد واحد، وتجارب السابقين لتعليم اللاحقين أن الله عز وجل لم

يقص علينا قصص الأمم السابقة إلا وهو يعلم أننا سنتخذ منها عبرة لنا، ومعنى هذا أننا نضيف إليها قصص أمم الإسلام ونتخذ منها العبر ونتبع مبتدأها بالخبر فنقول: لمَ تفرقت أمم الإسلام سابقاً وتشعبت؟ وجوابه أن تقول: إنهم قد اجتهدوا في حفظ النظام بإقامة الخلافة، وكل أداه اجتهاده إلى طريقة درج عليها، فتشعبوا وكثرت الفرق والخوارج جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، هذا من جهة السياسة، وهكذا جهة العلم، فكل طائفة لها آراؤها ولها طرقها في التعليم فتفرقوا شيعاً.

** وكلهم من رسول الله ملتمس **

ولكن هذا الزمان هو الذي جعله الله للم شعث هذه الأمة، نعم هذا زمانه، فأما تفرق الأمة من حيث سياستها وعدم انتظامها في وحدتها لأجل الخلافة؛ فهذا زمان مضى وانقضى، ولم يكن مع أمم الإسلام إذن من هم أشد منهم وأقوى لا في السياسة ولا في حكم الأمم، فأخذوا يقتسمون الممالك التي فتحوها واشتدت بينهم العداوة، أما اليوم فإن المسلمين نظروا فوجدوا الأمم حولهم أقوى منهم عدداً، وأشد منهم بأساً وأوسع حيلة، فلن تكون بينهم تلك الإحن ولا الضغائن على اقتسام الممالك كما كانوا يفعلون، وهاهم أولاء الآن يقرب بعضهم من بعض ويتعاونون عربهم وعجمهم. فأما افتراقهم في المذاهب والآراء فلعمرك لم يكن ذلك إلا لنقص في التعليم، وهذا النقص أخذ الآن في الزوال، وبيانه أن هذه الأمة مهما اختلفت فإن لها وحدة تجمعها، وهل هناك اتحاد أقوى من دراسة هذه الدنيا ونظامها وجمالها، هذه العوالم الجميلة من سماوات وأرضين، هذا النظام الجميل هو الذي سيوحد هذه الأمة، بل هاهو ذا الآن قد أخذ يلم شعثها ويجمع المتفرقين منها.

الله أكبر، الله أكبر، لقد عرف السني اليوم والشيعي والزيدي والأباضي، لقد أخذوا يعرفون اليوم جميعاً أنهم في أشد الحاجة إلى دراسة هذه الكائنات، وهم في دراستها يرون أن ما بينهم من الخلاف في فروع الدين شيء قليل جداً.

فإذا عرفوا جمال الله وحكمته في العوالم العلوية والسفلية كالذي كتبناه في التفسير ـ وقد قرؤوا فعلاً والحمد لله ـ وكالذي كتبه كتاب المسلمين اليوم في ذلك؛ فإنهم يرون أن هذا أهم مقاصد القرآن، أما الاختلاف في فروع الفقه كعدد الركعات في صلاة ما أو أنواع البيوع وغيرها؛ فإن ذلك كله ليس شيئاً مذكوراً بجانب ما اتحدوا عليه من نظام هذه العوالم وجمالها، وما اشتق منها من علوم الزراعة والصناعة وأمثالها.

هاهو ذا الشيعي يصافح فعلاً السني ويقول كل منهما للآخر: أيها الحبيب، إن خلاف آبائنا كانت وجهته الأمور السياسية والخلافة العامة، وكان كل يحرص على إقامة العدل بحسب ما أداه إليه اجتهاده، ولكن ذلك زمان مضى وانقضى، وقد ظهرت في الأرض أمم وأمم هم أشد منا بأساً وأصعب مراساً، فليست أرض الله اليوم تحت إشرافنا حتى نتقاتل عليها، وهذا التشعب اليوم لا قيمة له، ولقد اتحدنا من جهة الدين لأن هذه العوالم كلها لا يختلف في دراستها شيعي ولا سني ولا مالكي ولا حنبلي ولا زيدي ولا أباضي، فإذا تقابلت أفراد هذه الطوائف فإنهم يتحدثون في جمال ربهم وحكمته ونظام سماواته وأرضه، وهذا هو عماد التوحيد كما أن الصلاة عماد الدين، بل هذا سر الصلاة، لأنها

جعلت معينة على العلوم، ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[طه: ١٤]، وهذه العلوم مع العلوم الإلهية الخاصة بالحضرة الربانية تبلغ (٧٥٠) آية في القرآن، وهكذا نظيرها في آيات الأخلاق، وبقية القرآن يعين على هذين الأمرين، إذن لا خلاف إلا في أمور عرضية عملية بسيطة لا تفرق الوجهة كالاختلاف في عدد الركعات أو في أيام حيض أو نفاس أو بيع أو هبة أو دعاوى أو بينات أو نحو ذلك، فهذه كلها لا توجب تفريقاً، كلا ثم ألف مرة كلا. هذه هي الوجهة العامة للمسلمين التي أخذوا يتوجهون إليها الآن، وأنا الآن أعبر عما في صدورهم، والله عز وجل أراده منهم، وهم إلى هذا صائرون.

تذكرة: إنني قبل الانتهاء من الفصل الأول أذكر حديثاً لإخواني المسلمين جرى بيني وبين العلامة بحر العلوم المجتهد الإمامي الإيراني.

أنا أكتب هذا في حي السيدة زينب شارع زين العابدين صباح يوم الأربعاء في آخر شهر ربيع الثاني سنة ١٣٥٤ في أواخر شهر يوليو سنة ١٩٣٥ حين تقديم هذا الكتاب للطبع، وتقدم تاريخ كتابه هذا الموضوع وأنه كان في الحقل، وبين التاريخين سافرت إلى بيت الله الحرام، أي في أواخر سنة ١٣٥٢ ولقد عجبت الآن كيف كنت أكتب حديث الشيعي مع السني على طريق الخيال وإن كانت كتبهم تترى إلي متضمنة هذا المعنى كثيراً، ولكن نفس الحديث لم يكن له وجود إلا خيالاً واستنتاجاً، فهاأنا ذا أقص قصص حديثي مع صديقي في الله بحر العلوم المجتهد الإمامي.

صفة الحديث

بينما كنا قافلين من جدة إلى مصر وسفينتنا المصرية «زمزم» تجري في البحر الأحمر متجهة إلى ميناء السويس إذا بالأستاذ بحر العلوم يقابلني فنتعارف ونتجاذب أطراف الحديث، وقد جلنا جولات فقصّ عليّ قصص ارتقاء الإمامية ارتقاء لا حد له، فقال: إن الخطباء اليوم في بلادنا يخطبون على المنابر يذكرون سيدنا عمر رضي الله عنه ويمدحونه ويجلونه، فقلت: ولكن أرجو منك أن تأذن لي أن أسألك. فقال: سل، فقلت: لو أني كنت إمامياً عامياً لوقفت في وجهك أيها المجتهد، وقلت لك: لقد خالفت عظماءنا وأكابرنا في وصف عمر والحكم عليه بأنه عظيم، فقال: أنا أجيب إذ ذاك فأقول: ذلك كان على مقتضى اجتهادهم، ولكن الآن أرى غير ذلك، فقلت له: إن هذا عجيب جداً، إن هذا حسن، وهذه حرية دينية عجيبة، وإن هذا تصريح جميل وبديع. اهـ الحديث.

والذي دفعني إلى ذكر هذا هنا أنني دهشت إذ كان حديث الأستاذ العلامة «بحر العلوم» معي هو بنصه وفصه عين ما ذكرته قبل ذلك بنحو سنة في هذا المقال، فلله الحمد على نعمته، ولله الحمد على التوفيق وعلى التأييد، وعلى إسباغ نعمته، وعلى ما أفاض من الخير واللطف والبشائر، وعلى ما حقق من الأماني والمقاصد في أمم الإسلام.

ومثله الأستاذ العلامة صديقنا أبو عبد الله الزنجاني، فقد ورد إلى مصر في هذه الأيام، وكان حديثه معي على هذا النمط، وهو من كبار علماء الإمامية ببلاد إيران، وقد أخبرني بأن «الجواهر في تفسير القرآن» يقرؤه الطلبة الإيرانيون فاتجهت هممهم إلى الدين بعد أن صرفت عنه، لظنهم إذ ذاك أنه مناف للعلوم العصرية. فحمدت الله كثيراً لأني كنت أظن أن قراءته قاصرة على العلماء والخطباء

والوعاظ، وكنت أرجو أن يطلع عليه الطلبة، فلما أخبرني بذلك ثلج صدري وحمدت الله حمداً كثيراً، وعلمت أن الأمم الإسلامية قد أقبلت أيام سعدها، وأدبرت أيام تقهقرها ونحسها، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [آل عمران: ٢٧].

ولقد جاء إلى مصر قبل الفاضل أبي عبد الله الزنجاني الأستاذ المرتضى الحسيني الذي جاء إلى الجامع الأزهر، وهو أيضاً من علماء الإمامية، وشرع في تثقيف نفسه ثقافة واسعة ليربط أهل السنة بالشيعة ويقرأ العلوم العصرية، وهو مثل أخويه في الآراء والعواطف. وبالجملة فهذا انقلاب عظيم حدث في أمم الإسلام. وبهذا انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني: في ذكر الحكمة المستنتجة التي ظهرت لي من مناظر الحقول التي ذكرت سابقاً

أقول: إني لما جلست في الحقل بمزرعتنا جهة المرج من ضواحي القاهرة، ونظرت تلك الحشرات الطائفات على زهرات البطيخ والقرع والصنطاوي وأمثالها، وشاهدت الحشائش التي وصفتها وأنها جعلت زينة للأرض، وأكثر الناس عنها غافلون.

أقول: لما شاهدت ذلك أخذت أقول في نفسي مخاطباً تلك الحشرات كالزنابير والنحل وهي تخرج من زهرة إلى وهرة غادية رائحة ناظرة جمال الزهرات شاربة عسلها قائمة بتلقيح النبات:

أيتها الحشرات، إنكن مسخرات لقوة قاهرة وحكمة باهرة. أيتها الحشرات، أنتن لم تسعين إلا لمطالب نفوسكن من حفظ الزاد، وحفظ ممالككن، ولكنكن لم تعلمن أن نوع الإنسان كله، وأنواع الحيوانات الأخرى، قد توقفت حياتها على أعمالكن، لولاكن لم نتمتع بنعمة الفواكه وكثير من المزروعات، إنكن قائمات بتلقيح الإناث من طلع الذكور، أنتن تساعدن الرياح، فالرياح ملقحات وأنتن أتممتن النعمة المزجاة، لكن من الذي خلقكن وصوركن وسخركن لنا وأنتن غير عالمات.

سعيتن لمنفعتكن، وبنفس هذا السعي كانت حياتنا نحن، ونحن نسعى لمنفعتنا وشهواتنا كما تسعين، ولكن في نفس الوقت تصح أبداننا ونعيش عمراً طويلاً أو قصيراً بدون قصد منا، ونلد الذرية بما تعاطينا من طعام لشهواتنا وسد جوعنا، وبما شربنا من شراب لإطفاء ظمئنا، وبما اجتمع ذكراننا وإناثنا لمجرد الشهوات واللذات بذلك الاجتماع، وكذلك أيضاً أنتن أيتها الحشرات تعشن على أزهار زرعنا الذي نجد في تنميته بسقيه وتسميده، فنحن وأنتن سواء، سعينا لمقاصدنا الجزئية وأنتن كذلك، ولكن هناك حكمة وراءنا دبرت تدبيراً أتم وأسبغت النعم علينا وعليكن، فبينما نحن وأنتن نسعى حثيثاً لسد نقصنا من جوع وعطش وشبق، إذا بنا نرى ثمراً حلواً لذيذاً أسدي إلينا ولا علم لكنّ بذلك، ونرى لنا أبداناً صحيحة نعيش بها، وذرية تخلفنا بعد موتنا، ونرى أنكن تعشن أنتن وحيوانات كثيرة من عمل أيدينا، أردنا أم لم نرد، علمنا أم لم نعلم، فنحن وأنتن سواء، فنحن جميعاً عبيد مسخرون، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

انتهى الفصل الثاني.

الفصل الثالث: في صور الكواكب السماوية وبعض العجائب الأرضية من حيث وحدة النظام

قد وعدنا أن نرسم صورتي العواء، فهاهما ذان ونتبعهما بالخريطتين السماويتين:



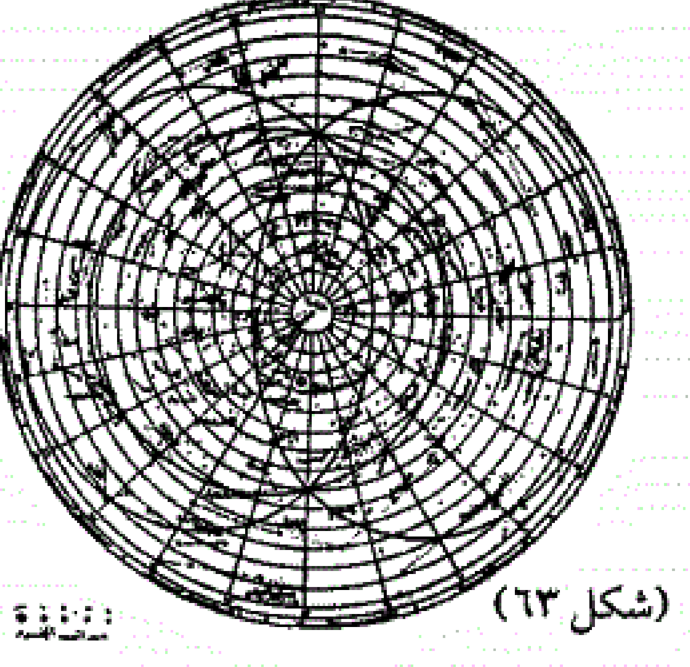
(شكل ٦٠) العواء عند الفرنجة



(شكل ٦١) العواء كما صوره الصوفي في كتابه



(شكل ٦٢)



(شكل ٦٣)

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

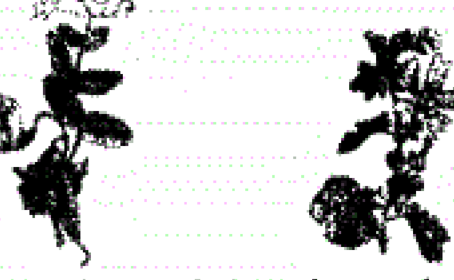
﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٥-٦].

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧]

﴿ وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الحجر: ١٦].

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [الملك: ٥].

صور من النباتات ذوات الفلقتين ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الرعد: ٤]، ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[الذاريات: ٤٨-٤٩].



(شكل ٦٤) الخشخاش (شكل ٦٥) حامل الصليب (شكل ٦٦) (شكل ٦٧) البسلة الجلبان

﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾[عبس: ٢٧-٣١].



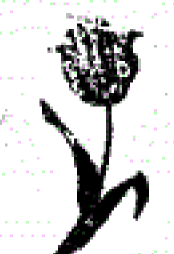
(شكل ٦٨) البطيخ (شكل ٦٩) الأقحوان (شكل ٧٠) الحرشوف (شكل ٧١) شيكوري







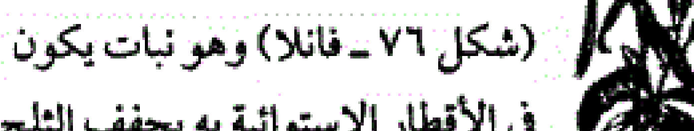
صور من النباتات ذوات الفلقة الواحدة







(شكل ٧٢) (شكل ٧٣) نوع من الزنبق (شكل ٧٤) قوس قزح (شكل ٧٥) القمح



(شكل ٧٦ ـ فانلا) وهو نبات يكون في الأقطار الاستوائية به يجفف الثلج

(شكل ٧٧) هليون

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾[الأنعام: ١٤١]. ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ (١١) وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾[الرحمن: ١٠-١٢].

فقال صاحبي: أي ثبات تراه في هذه الصور للكواكب السماوية والأزهار الأرضية؟ فقلت: أيها الأخ، إني لفي غاية العجب، هذه الكواكب وإن كانت سريعة الحركات نراها ثابتة أمد الدهر، وتغيرها لا يظهر إلا بعد أجيال وأجيال، والذي يدهشني أن السيارات حول الشمس موضوعة بنظام تام مدهش، إذ أنها على حسب متوالية هندسية، فإذا كان عدد ٣ لعطارد كان للزهرة ٦ وللأرض ١٢ وللمريخ ٢٤ وللنجيمات ٤٨ وللمشتري ٩٦ ولزحل ١٩٢ وهكذا، أليست هذه متوالية هندسية، هذا مثل واحد من هذا النظام الجميل، ثم انظر بعد ذلك واعجب من هذا الجمال.

ألم تذكر أن العلماء يقولون في علم النبات: إن زهر ذي الفلقتين كالبطيخ مثلاً يكون ذا خمس ورقات أو مكررة، وقد يكون (٤) أو (٢). أما النبات ذو الفلقة الواحدة فإنه يكون ٣ أو مكرر ٣، فهاك انظر معي، ألست ترى أن نبات الفول ونحوه فيه عشرة أعضاء للتذكير فهي ضعف ٥، ومعنى هذا أن النبات استعملت فيه المتوالية العددية، فيكون ذو الفلقة الواحدة ٣ أو ٦ أو ٩، وهكذا. وذو الفلقتين ٥ ـ ١٠ ـ ١٥، وهكذا غالباً، وفي السيارات حول الشمس استعملت المتوالية الهندسية ٣ ـ ٦ ـ ١٢ ـ ٢٤، وهكذا. إذن السماوات والأرضون بنيت على حساب واستعمل كل باب من أبواب الحساب في مخلوق من المخلوقات.

رباه عجبنا لعملك، وكيف لا نعجب وقد رأيناك فوق ذلك تجعل ما كان ذا فلقة واحدة من النبات كالنخل وكالقمح له ساق أسطوانية، أما ما كان ذا فلقتين كالفول والعدس والبطيخ، فإن ساقه تكون مخروطية، فهاهنا قواعد للأشكال وقواعد لأعداد الأعضاء ونحوها في الزهرات.

عجب يا ربنا، كواكبك جعلتها بحساب وهندسة، ونبات أرضك حسبته. رباه إن هذه نعم تنزلت منك إلينا، فنحن في الأرض سعداء بهذه النعمة، وهي نعمة الحكمة، وأي سعادة فوق ما يرى حكماء الأمة من نظام متين وجمال بارع، ولا جمال في العالم إلا ما بني على حساب ونظام، فهذا هو الجمال، وهذا هو الكمال، وهذه هي السعادة سعادة الحكماء، فأما من عداهم فهم همج الهمج.

فقال صاحبي: جميل جداً، وإني أرجو أن تحدثني حديثين: أولهما: عن غرامك في شبابك بهذه العوالم العلوية، وما انتهى إليه أمرك وأنت تؤلف هذا المقام في الفلك، وما الذي تحس به الآن من الوجدان. الحديث الثاني: في أمر الدب الأكبر والأصغر وما حولهما وما فيهما من العجائب التي لم تكن تخطر لك ببال في أيام شبابك. فقلت: أيها الأخ، ليكن ذلك جوهرتين هاهنا:

الجوهرة الأولى: في حديثي أيام الشباب.

الجوهرة الثانية: في إيضاح عجائب النجوم التي تحيط بالنجمة القطبية، ومما كشف حولها من جمال وجداني في ذلك.

الجوهرة الأولى
في حالي أيام الشباب من جهة هذه العلوم

اعلم أيها الأخ أن حديثي عجيب. أيام الشباب تعلمت في الأزهر زماناً ثم تحولت الحال واضطربت الأسرة ومرض والدي، فبقيت في بلدنا كفر عوض الله حجازي ثلاث سنين أكابد أمراضي ومداواتها ومداواة والدي، والبحث في أمر أسرتنا والمحافظة عليها، وهنالك تبدت لي فكرة باحثة عن كل شيء، عن الله والوطن والأمم والعلوم، وهذه النجوم، وهذه الأرض، وهذا النبات، وكان إذ ذاك عندي ظواهر من علم الفلك تلقفتها من الكثير، ومن الدراسة مع بعض المشتغلين بالعلم.

سبحان الله! ما أرحم الله بعباده! فهو الذي صرف نفسي وحبها في هذا إبان صغري، ولقد سمعت من المشتغلين بهذا الفن إذ ذاك أن الأرض فيها بلاد جهة الشمال وجهة الجنوب، يكون كل من ليلها ونهارها نصف سنة، فكنت أبيت أفكر في هذا الموضوع، وأصبح فكري لا يفارقه هذا الموضوع،

وأنا لا أتصوره، وكم كنت أجلس في الخلوات وحدي بعيداً عن العمران، وأنظر للنجوم، وأعجب من جمالها وبهجتها وحكمتها، ولم يكن لدي قول أقوله إلا هذا البيت الذي نظمته إذ ذاك وهو:

النجم أخبرنا بأن وراءه ... حكماً تجل عن العقول وتعظم

وتطاول الزمان في ذلك الحرمان والوجد يزداد الاطلاع حتى رجعت إلى الجامع الأزهر ثانياً.

وإن أنس لا أنسى ليلة كلمت المرحوم أستاذي الشيخ علي البولاقي، وقد كان يدرس لنا علم البيان بعد المغرب، وقد أحسست في نفسي بنار متأججة للاطلاع على علم الهيئة ولو اطلاعاً ظاهرياً، وسمعت أن هناك كتاباً عنوانه «الجغمين»، فلما كلمته في ذلك؛ وكان ذلك الكلام مساء بين المغرب والعشاء بمسجد محمد بك بجانب الأزهر؛ فلما أطلعته على ذلك تبسم وقال: هكذا أنا مر علي زمن قلت فيه: إني لا أكون مسلماً إلا إذا قرأت هذا العلم، ثم أعارني كتابه، وقد كنت بحثت عنه في المكاتب بمصر فلم أجده، فأخذته وسافرت إلى قريتنا مدة العطلة (١٥) يوماً، فصرفتها بنقل هذا الكتاب بخطي، فبلغ مائة ورقة، أي: عشرة كراريس. ولم أكتب فيه حرفاً إلا بعد أن اطلعت على مجمله، ذلك أننا لما ركبنا في السفينة بالترعة الإسماعيلية أخذت أقرأه ليلاً ونهاراً وأنا مبتهج، وكان عندي مبادئ سطحية بسيطة جداً من علم الفلك، فاطلعت على أسماء البروج والمنازل، وهيئة العالم بالطريقة القديمة المحصورة، وفيها كلام على نهاية المعمور من الأرض، ولم تكن أمريكا قد كشفت إذ ذاك، فرأيت المؤلف يقول: لا علم لنا ببلاد غير هذه البلاد المعروفة وهي: آسيا وأفريقيا وأوروبا، ثم قال: وربما كانت هناك أمم أحالت بيننا وبينهم بحار، وقد صدق لأن ذلك قبل كشف أمريكا، وما وصلت في سفري إلى قرب قريتنا، حتى أحسست بسعادة وراحة، وجلست في الحقول القريبة من بلدة بردين القريبة من قريتنا، وأخذت أصلي وأشكر الله الذي علمني، ولم أدخل قريتنا إلا بعد ذلك، وأنا فرح بما نلت من هذا العلم القليل، ثم نسخت الكتاب كما ذكرت آنفاً. وبعد ذلك بسنين دخلت مدرسة «دار العلوم» وهنالك قرأت هذا العلم بالطريقة العلمية الحديثة، وكان أستاذنا في ذلك العلم المرحوم أحمد أفندي حمدي، وكان رجلاً بارعاً في العلوم الرياضية، ولكنه لم يكن بارعاً في علم الفلك، فسألته يوماً عن مناظر نفس البروج، وقلت له: إني أعتبر شهادتنا غير حقة في هذا العلم إذا لم اطلع على نفس البروج في السماء، فتبسم واعتذر بكثرة الدروس، وأن هذا يستلزم الاطلاع في الليالي المظلمة، ويعوزه استعداد خاص، وكان الكتاب الذي نقرؤه قد ألفه المرحوم حسني بك، لمدرسة «المهند سخانة المصرية» وقد درسه هو نفسه لنا. هذا حديثي في زمن الشباب الخاص بعلم الفلك، وهذه هي الجوهرة الأولى.

الجوهرة الثانية: في حالي الآن وعواطفي نحو النجوم

أما حالي الآن فإني أعتقد أني نلت مرادي، وهل السعادة إلا أن ينال المرؤ مراده. نعم سعدت بالجمال، سعدت بالحكمة، سعدت بالعلم. سبحانك اللهم، كم من ليال بتها وأنا مفكر في أمر النجوم أريد أن أنظر نفس البروج ونفس المجموعات الكوكبية فلا يتيسر لي، اللهم إلا أني أرى الثريا فأعرف أنها تقرب من برج الثور، وأعرف أن الدبران وراءها، وهكذا كما أعرف النجمة القطبية والدب الأكبر والأصغر، وأخيراً عرفت السماك الرامح. أما بقية الكواكب فلا أعرفها إلا في الكتب، وكم كنت

أسمع من الإنجليز الذين كانوا مدرسين معي بالمدرسة الخديوية، إذ يقولون: في هذا الشهر، أو في هذا الأسبوع، تكون في السماء مناظر هي كذا وكذا، وهم ينتظرون ذلك بفروغ صبر، إذ يرسل لهم بضعة خرائط في جرائد خاصة. هذا، وقد لاحظت أن هذه العلوم الفلكية والطبيعية أخذت تتناقص بعد الاحتلال شيئاً فشيئاً، حتى عفت آثار الفلك وآثار العلوم الطبيعية من مدارسنا المصرية، وبعض النابغين من علماء الفلك، وقد درسوه لنا، وهو أستاذنا عبد المجيد أفندي، أمر «دانلوب» الإنجليزي أن يدرس في المدارس الابتدائية، وأقصاه عن علم الفلك. ولما كانت هذه العلوم هي ضالتي المنشودة، ألفت إذ ذاك كتباً صغيرة ضمنتها تلك العلوم، وبتكرار الكتب تزداد العلوم، وأخيراً أخذت مصر استقلالاً داخلياً، فرجعت بعض تلك العلوم إلى ديارنا تدريجياً، والحمد لله، ومنها بعض العلوم الطبيعية، وهاهو ذا علم الفلك قد نشر حديثاً، وجاءت فيه هاتان السورتان السماويتان في الكتاب الذي ألفه الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني ناظر مدرسة «القبة الثانوية» بعنوان «النجوم ومسالكها».

فهاهي ذه الصور السماوية أمامي، وأنا اليوم أقابلها على نفس السماء في الليالي المظلمة. ولم يكن ذلك متيسراً من قبل، فأنا أحمد الله إذ اطلعت على هذه الصور السماوية في هذه الخريطة.

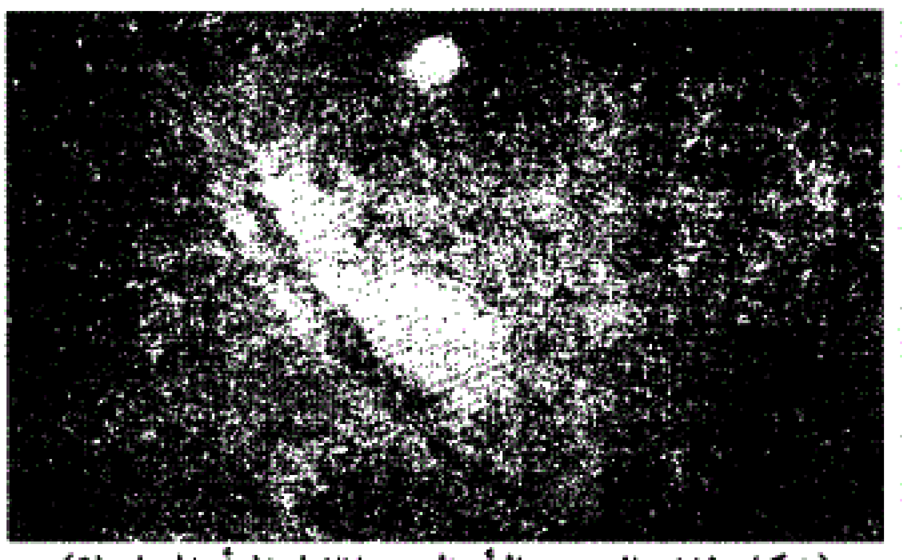
تفصيل الكلام على عجائب هذه النجوم التي في هذه الخريطة

لما سمع صاحبي ذلك قال: أنا أفكر في هذه النجوم وأنظرها كثيراً، وأنا الآن في حيرتك التي وصفتها. ثم وضع يده على الخريطة وقال: هذه كوكبة الدجاجة وتقرب منها كوكبة المرأة المسلسلة، ثم كوكبة المثلث، ويقرب من هذه الثلاثة الدب الأكبر، وفي مقابلة الكوكبات الثلاث المتقدمة من الناحية الأخرى من القطب أرى كوكبة الدب الأكبر وكوكبة ذات الشعور التي في مقابلة المرأة المسلسلة على خط مستقيم أو شبه مستقيم يمر بالنجمة القطبية.

ورأى أيضاً كوكبة الكلب الأصغر وكوكبة الكلب الأكبر، وهما تقريباً في مقابلة الجوزاء، والجاثي على ركبتيه من الناحية الأخرى، وبينهما النجمة القطبية، بحيث يكاد يمر خط مستقيم بها وبهن، هذا هو الذي أريد أن تحدثني عنه اليوم، وماذا في تلك الكوكبات من العجائب، وهل هناك سدم، جمع سديم، أي: سحاب، ويراد بذلك نجوم بعيدات ظهرت بهيئة سحاب، فإني أكاد أرى ذلك فيها، أو أظنه ظناً بغير دليل. فقلت: أيها الأخ، رعاك الله هاهنا تسع صور تبين ما طلبت، فأما الصورة الأولى فهي صورة السدم في الدجاجة، وهذه صورتها:

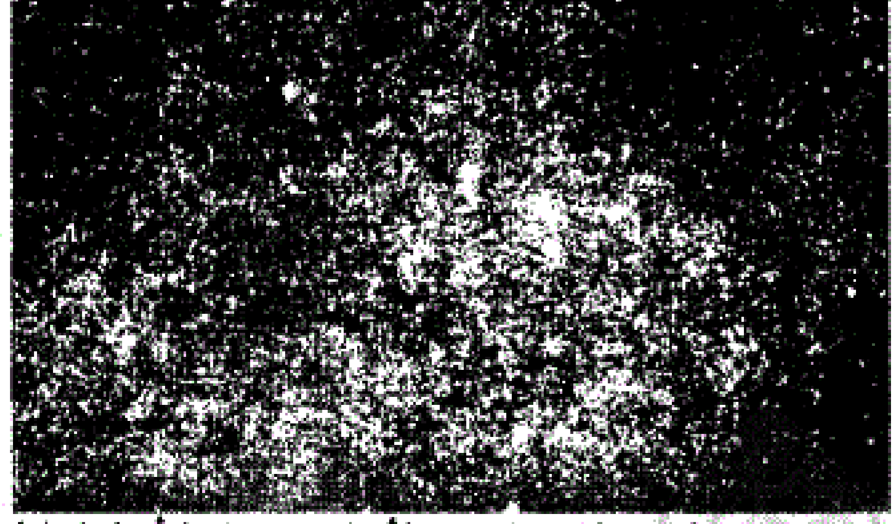
(شكل ٧٨ ـ السدم في الدجاجة)

فأما الصورة الثانية فهي هذه: هذا السديم وهو أظهر المدن النجومية في الفضاء يزيد بعده قليلاً على بعد م ٣٣ « لوحة ٨١ » ويستغرق ضوؤه في الوصول إلينا ٩٠٠٠٠٠ سنة، وهو من عظم الاتساع بحيث إن الضوء يستغرق نحو ٥٠٠٠٠ سنة في اختراقه من جانب إلى جانب.



(شكل ٧٩ ـ السديم الأعظم م ٣١ في المرأة المسلسلة)

وأما الصورة الثالثة فهي هذه: تبين هذه اللوحة بالتفصيل الركن العلوي اليساري للسديم المبين قبالة هذه، وهو كما يرى يتألف من نجوم فرادى.



(شكل ٨٠ ـ الحرف الخارج للسديم الأعظم م ٣١ في المرأة المسلسلة)

وأما الصورة الرابعة فهي هذه: مع أن هذا أقرب كل ما في الفضاء من مدن نجومية؛ فإن ضوءه يستغرق في الوصول إلينا ٨٥٠٠٠٠ سنة، ولا بد من تكبير هذه الصورة حتى تصير قدر أوروبا بأسرها قبل أن يصبح مرئياً فيها جرم قدره مثل قدر الشمس.



(شكل ٨١ ـ السديم م ٣٣ في المثلث)

وأما الصورة الخامسة فهي هذه: هذا من أجمل ما في الفضاء من مدن نجومية، وهو أول سديم لوحظ دورانه، ويستغرق ضوؤه في الوصول إلينا ١٦٠٠٠٠٠ سنة.



(شكل ٨٢ ـ السديم م ٨١ في الدب الأكبر)

وأما الصورة السادسة فهي هذه: أغلبية الأجرام التي في هذه الصورة سدائم من البعد عنا بحيث إن ضوءها يستغرق ٥٠ مليون سنة للوصول إلينا.

(شكل ٨٣ ـ جمع من السدائم في ذات الشعور)

وأما الصورة السابعة فهي هذه: وتبين هذه اللوحة بعضاً من أبعد الأجرام السماوية التي يمكن تناولها بالرصد، جمع مكون من ١٦٢ سديماً في الفرس الأعظم أغلبها على أبعاد تبلغ ١٠٠ مليون سنة أو أكثر، وكل منها يحتوي على مادة كافية لصنع مدينة نجومية مكونة من آلاف الملايين من النجوم.

(شكل ٨٤ ـ أقصى أعماق الفضاء)

وأما الصورة الثامنة فهي هذه: تبين هذه اللوحة بالتفصيل المنطقة الوسطى للسديم المبين في لوحة ٣٦، ولا يمكن كشف أي نجم في الكتلة المنفوشة الوسطى.

(شكل ٨٥ المنطقة الوسطى للسديم الأعظم م٣١ في المرأة المسلسلة)

وأما الصورة التاسعة فهي هذه: هذا من أقرب السدائم بعد السديمين المبينين في لوحتي ٣٦ و٣٨ وربما استغرق ضوؤه في الوصول إلينا ١١٠٠٠٠٠ سنة.

(شكل ٨٦ ـ السديم م ٥١ في كلب الصيد)

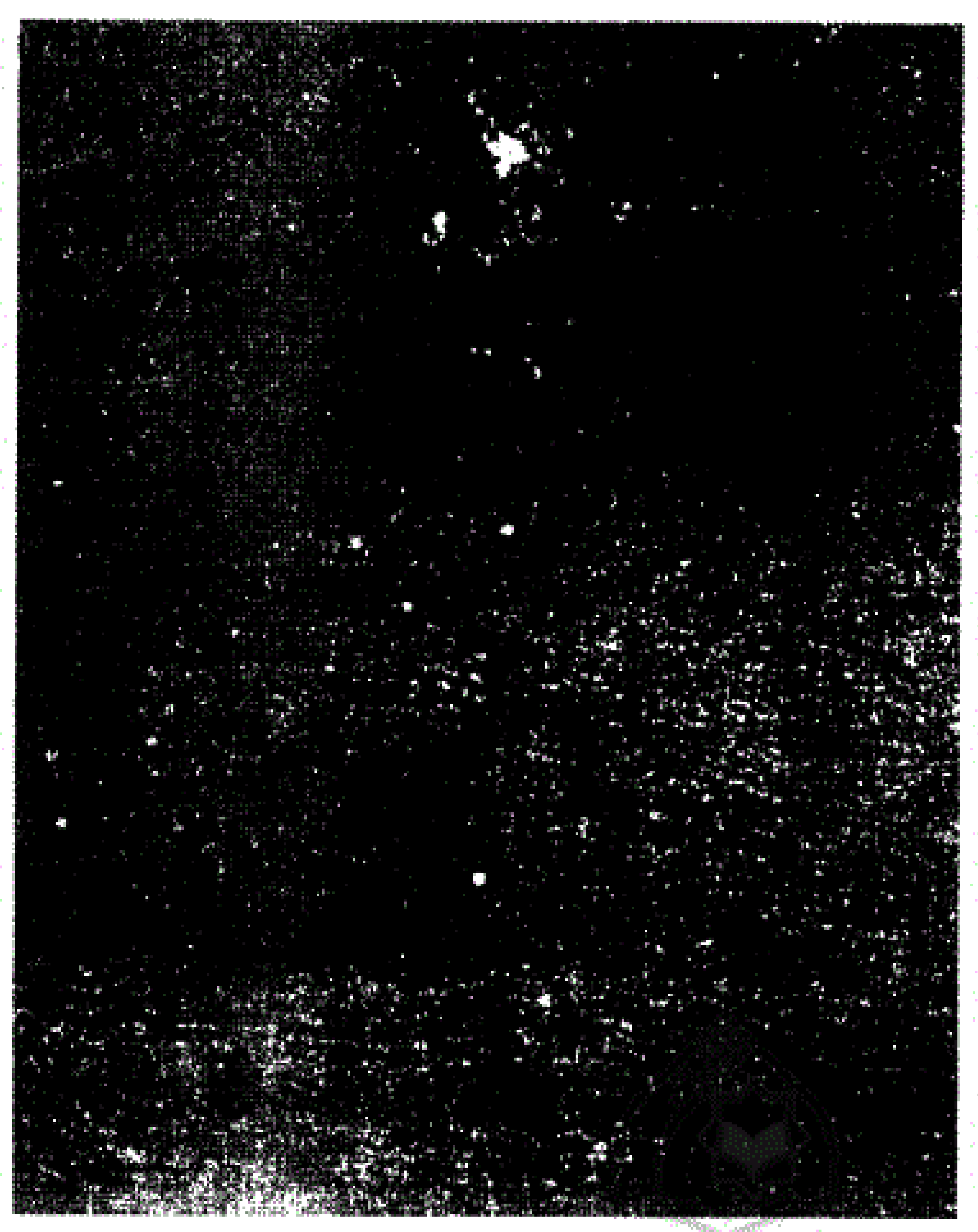
فلما نظر صاحبي هذه الصور حار جداً ودهش وقال: عجب هذا السديم الأعظم في المرأة المسلسلة، قد ذكرت أن ضوءه يستغرق في الوصول إلينا تسعمائة سنة، أي أن الضوء الذي يسير من الشمس إلى الأرض في ٨ دقائق و١٨ ثانية هو نفسه الذي يسير من سديم المرأة المسلسلة إلى أرضنا في تسعمائة ألف سنة، ومعنى هذا أن ضوءه الذي وصل إلى أرضنا الآن وسأراه بعيني هذه الليلة قد سافر من تلك الكوكبة إلينا قبل وجود الإنسان على سطح الكرة الأرضية، وإذا كان سفر ضوء الشمس إلينا في ٨ دقائق و١٨ ثانية، تستغرق القنبلة في قطع مسافته ١٢ سنة، ويستغرق القطار مدة نحو (٣٥٠) سنة، فكيف بضوء هذا السديم الذي يجري تسعمائة ألف سنة؟ ثم كيف كان اتساعه يستغرق الضوء في قطع مسافته خمسين ألف سنة. كل هذا عجب فبعده عجب واتساعه عجب وحياتنا كلها عجب، وأنت حقيقة على حق إذا قلت: إنك اليوم لسعيد، فإن الغرام بالعلم ونيله هو السعادة، والعلوم الفلكية كانت في شبابك لديك قليلة. أما هذه فهي بهجة وجمال وإقبال ووصال.

ويقرب من هذا في العجب والغرابة السديم في المثلث، لأن ضوءه يستغرق في الوصول إلينا (٨٥٠) ألف سنة، وأعجب منهما كليهما السديم في الدب الأكبر، فإنه يصل إلينا ضوؤه في مليون وستمائة ألف سنة، ويقرب منه السديم الذي في كلب الصيد، فإن نوره يصل إلينا في مليون سنة ومائة ألف سنة، وهذه دهشة كبرى ورب الكعبة. كيف يكون الدب الأكبر الذي يراه العالم والجاهل في السماء؛ ويقول الناس عنه: إنه بنات نعش الكبرى، باعتبار أنه أربعة نجوم منه بهيئة النعش، وثلاث منها بهيئة بنات يبكين على الميت الذي على النعش.

أقول: كيف يكون في وسط هذه النجوم السبعة كواكب متباعدة ترى لشدة بعدها أنها سحائب؛ وهي في الحقيقة شموس عظيمة بعدها يحير العقول. وأعجب من ذلك وأكثر غرابة أن سدائم ذات الشعور يستغرق ضوؤها في الوصول إلينا (٥٠) مليون سنة، فهذه مسافة تدهش العقل، فليست بالآلاف ولا مئات الآلاف ولا آحاد الملايين، بل هي عشرات الملايين، فضوؤها أخذ يجري فيها منذ (٥٠) مليون سنة، فإذا كانت هذه الصورة تمثل هذه العجب؛ فأرجو شرحها شرحاً وافياً على قدر الإمكان لتتجلى الحقائق سارة للناظرين.



(شكل ٨٧ ـ السدم Nebulosity في الجبار)
«رأس الحصان» جنوب الجبار
«دخان مدينتنا النجومية تجليه أنوار مدينتنا النجومية»



(شكل ٨٨) المجرة

تبين هذه اللوحة أبعد أجزاء المجرة في الجنوب، من قنطورس في أعلاها إلى السفينة في أسفلها، والنجمان اللامعان قرب أعلاها في الوسط هما أ، ب قنطورس وتحتهما زكية الفحم صفحتي ١١٠، ١٩٣ من كتاب النجوم في مسالكها، وإلى يمين هذه الصليب الجنوبي وتحته السديم المحيط بحاء السفينة، وفي ربع المسافة إلى أسفل بقرب الحرف الأيمن ترى الجمع الكروي ع قنطورس.

فقلت: جاء في كتاب «النجوم في مسالكها» ما نصه تحت عنوان تخطيط العالم:

تخطيط العالم

لو أن «لامبرت» كان مصيباً؛ واتضح أن النجوم كلها متساوية في اللمعان الذاتي؛ كصف المصابيح في الطريق؛ لكان علم الفلك أبسط كثيراً مما هو عليه الآن، لأننا كنا نستطيع أن نستنتج في الحال بعد النجم من لمعانه الظاهري، وأن نخطط العالم بهذه الكيفية نجماً فنجماً، لكن إذا أخذنا الأشياء على ما هي عليه في الواقع؛ فإن النجم الخفي الذي نكون ناظرين إليه قد يكون ضوءاً كشافاً بعيداً جداً، أو قد يكون يراعة قريبة جداً، ومن الصعب أن نقول أيهما إذ لا سبيل إلى ذلك إلا بقياس بعد النجم.

وقد رأينا كيف يمكننا قياس بعد النجوم بطريقة المساح العادية، وذلك بملاحظة مقدار تغير أوضاعها تبعاً لتنقلنا في الفضاء، لكن هذا لا ينطبق إلا على قليل من النجوم قريب جداً.

إن أطول سياحة ممكنة لنا في الكون تبلغ ١٨٦ مليون ميل، وهي التي نقطعها في كل ستة أشهر حين تنتقل بنا الأرض من أحد جانبي الشمس إلى الجانب الآخر، ومعظم النجوم هو من البعد عنا، بحيث لا ينشأ حتى عن هذه السياحة الطويلة تغير محسوس في اتجاهاته كما نراها، فنحن في الواقع أمام معضلة قياس أبعاد الأجرام عن طريق النظر إليها دون أن يسمح لنا بالانتقال من مكان إلى آخر، فكيف يمكننا فعل ذلك؟.

قد رأينا كيف أمكننا ذلك في حالة صف من مصابيح الطريق بشرط أن نعرف أنها جميعاً متساوية في القدرة الشمعية، وهذه بعينها هي الطريقة التي نستخدمها في حالة النجوم. والنجوم بوجه عام مختلفة كثيراً في القدرة الشمعية، لكن قد اكتشف حديثاً أن طوائف خاصة من النجوم سهلاً تعرفها، لها قدرة شمعية منتظمة تتخذ عياراً، فلا تكاد تعرف القدرة الشمعية لإحداها حتى تعرف قدرة سائرها، وعندئذ يمكننا استخدام طريقة مصابيح الطريق لتقدير أبعادها: كلما كان النجم أخفى في رأي العين كان أبعد، أو بعبارة أدق حتى من هذه: يبعد النجم عنا بقد ما يظهر لنا أنه بعيد.

وطريقة مصابيح الطريق تفشل بالطبع إذا كان هناك نوع من ضباب أو من مادة حاجبة تتخلل الفضاء وتطفئ النور بعد أن يقطع مسافة خاصة، إننا لا نستطيع في الليلة ذات الضباب أن نرى في الشارع إلا عدداً قليلاً من أقرب الأنوار، وليس لنا أن نحكم على أبعادها من ضعفها البادي، فأضعفها ليس من البعد بالقدر الذي قد نظنه لو لم نكن نعرف أننا نبصره من خلال الضباب. وقد أجريت أبحاث غاية في الدقة والعناية تبين منها على ما يظهر أنه ليس في الفضاء ضباب كهذا إلا في جهات قليلة خاصة، ففي السماء عدد من الرقع السوداء واضحة الحدود مبعثرة هنا وهناك لا نبصر فيها نجوماً مطلقاً، أو نبصر البعض القليل الذي يدل لمعانه على أنه قريب منا تماماً، ومن أمثلتها الظاهرة الرقعة السوداء الحالكة، المعروفة بـ« زكيبة الفحم » التي تظهر بالقرب من منتصف (شكل ٨٨).

هذه الرقع تبدو كأنها فجوات فاغرة، وكانت تؤول بأنها كذلك، إذ كان المظنون أنها ثقوب في المجموعة النجومية، كان المظنون أنها مجموعة أنفاق توصل من الفضاء الخارجي إلى الأرض، وانصباب أنفاق كثيرة كهذه على أرضنا الصغيرة لا بد أن يكون آثار الاستغراب والعجب إذ ذاك، أما الآن فنحن نعرف أن تلك الفرج السوداء الفارغة ليست فقط أنفاقاً، إنّما هي سحب من مادة مظلمة قريبة من موطننا قرباً لا بأس به، تمنعنا من رؤية ما وراءها من النجوم. ومجرد تأمل الصور الفوتوغرافية الحديثة يكفي لإقرار هذا التفسير، فمثلاً الرقعة المظلمة التي يشبه شكلها رأس الحصان في لوحة ٣٠ لا يمكن تفسيرها أبداً بأنها نفق بين النجوم. إننا نرى في لمحة أنها نوع من عائق عارض.

فإذا استثنينا الجهات القليلة التي نصادف فيها مادة حاجبة من هذا النوع؛ بدا الفضاء الفلكي شفافاً تام الشفافية، يسبح فيه ضوء النجوم غير مقطوع ولا ممنوع إلا بتأثير البعد. وإذن فالقول عن أي طائفة خاصة من نجوم متساوية القدرة الشمعية بأن النجم منها يبعد عنا بقدر ما يظهر لنا أنه بعيد؛ قول صحيح لا غبار عليه، وأعظم نجوم هذا النوع إمتاعاً للباحث طائفة تعرف بالمتغيرات القيفاوية.

المتغيرات القيفاوية

ضوء معظم النجوم في غاية الثبات، لكن هناك نجوماً قليلة نادرة يتقلب ضوؤها باستمرار من القوة إلى الضعف، ثم من الضعف إلى القوة كما يتغير ضوء مصباح الغاز إذا وقف إنسان يزيد في فتح صنبوره وينقص، وقد لوحظ منذ عهد بعيد أن نجماً اسمه « دال قيفاوس » يتقلب ضوؤه بطرقة خاصة غريبة جداً كما لو كان الصنبور يغلق بالتدريج ثم يفتح فجأة باندفاع، والنجم يكرر دورة تغيراته هذه بانتظام تام كل خمسة أيام وثلث يوم، وهناك سحابة من نجوم بعيدة اسمها السحابة المجلية الصغرى ـ

انظر (شكل ٣١ في كتاب النجوم في مسالكها) ـ تحوي مجموعة كاملة من نجوم تشابه هذا النجم تماماً تبدو جميعاً متساوية اللمعان، ولما كانت كلها على بعد واحد فلا بد أن تكون متساوية القدرة الشمعية وقد وجدت نجوم أخرى من نفس النوع بالضبط قريباً من موطننا لدرجة تمكننا من قياس أبعادها بطريقة المساحين العادية، وبذا نستطيع بالطبع أن نحسب قدرتها الشمعية الحقيقية، وقد وجد أن هذه أيضاً كلها متساوية القدرة الشمعية، وإنا لنلخص مقداراً كبيراً من البحث الفلكي حين نقول: إن كل نجم يسلك مسلك « دال قيفاوس »؛ يكون مثله في القدرة الشمعية.

وهناك نجوم أخرى تتميز بتقلبات ضوئية من نفس هذا الباب، خمسة تدريجية يتبعها استرداد للمعان سريع، ولكن فترات تقلبها تختلف عن الخمسة أيام والثلث التي لـ« دال قيفاوس». هذه النجوم وأمثالها تكون كلها طائفة تعرف بالمتغيرات القيفاوية، وكذلك قد وجد أن جميع النجوم التي لها فترة تقلب واحدة مهما بلغت؛ لها قدرة شمعية واحدة نكشفها كما فعلنا من قبل بحساب القدرة الشمعية لنجم مثلها قريب من موطننا، فنحن نستطيع أن نعرف القدرة الشمعية لأي متغير قيفاوي في السماء بملاحظة فترة تقلبه، فإذا عرفناها استطعنا أن نستنبط بعده من لمعانه الظاهري، هذه النجوم كالمنارات في محيطات الفضاء الواسعة، نعرفها في لمحة ولا نخطئها، نعرفها بالتقلبات الخاصة بأضوائها وبمعرفة قدرتها الشمعية يمكننا استنتاج أبعادها في الحال. هذا يمدنا بطريقة نفيسة جداً لسبر غور الفضاء كله أو على الأقل غور تلك الأجزاء منه التي نستطيع أن نرى فيها متغيرات قيفاوية، وقد استخدم الدكتور « شبلي » المدير الحالي لمرصد « هارفرد » هذه الطريقة، بعد اكتشافها بقليل، في قياس أبعاد بعض جموع من النجوم تعرف بالجموع الكرية، يحتوي كل منها بضع مئات آلاف من النجوم.

الجموع الكرية

تصور سرباً من النحل مستقراً في الهواء الطلق، تجده يكون كتلة كرية عند المركز يطن حولها عدد عظيم من النحل يكون شبه جو للسرب الأصلي، فإذا استعضنا عن كل نحلة بنجم؛ كان أمامنا ما يمثل مرأى الجمع الكري تمثيلاً جيداً. كتلة مستديرة من النجوم أفرادها أكثر ما تكون تقارباً عند المركز وتفرقاً عند المحيط، وترى في لوحة ٣٢ نموذجاً حسناً من هذه الجموع.

ويبلغ المعروف من هذه الجموع الكرية نحو مائة، وليس هناك جموع جديدة تستكشف في الوقت الحاضر، ولم يكشف شيء منها منذ قرن أو نحوه، وإذن يصح لنا أن نفرض أنه لم يبق منها شيء يستكشف، فنحن قد عرفناها جميعاً، وهي في أغلبها تبدو أجراماً ضعيفة النور جداً في السماء لا يرى منها بالعين المجردة إلا خمسة أو ستة.

كل هذه الجموع تحوي أعداداً عظيمة من المتغيرات القيفاوية، وهذا يمكننا من تقدير أبعادها بدقة تذكر، ونتائج تسترعي وتبهر، حتى أقرب هذه الجموع الكرية قد تبين أنه من البعد السحيق عنا، بحيث يستغرق ضوؤه في الوصول إلينا نحو ١٨٤٠٠ سنة، فنحن لا نراه كما هو عليه الآن، ولا في المكان الذي هو فيه، وإنما نراه حيث كان وكيف كان منذ ١٨٤٠٠ سنة، أي: قبل أن يتمدين الإنسان بزمن بعيد، نراه بضوء بدأ رحلته الطويلة إلينا عندما كانت الأرض لا تزال مغطاة بالغابات الأولى

الملتفة مكتظة بالوحوش الضارية حين كانت الزراعة مجهولة وكان الإنسان عائشاً على أغشم أنواع القنص وصيد السمك.

فبينما كان هذا الضوء سائحاً يخترق الفضاء في طريقه إلينا؛ حدث كل ما سجل من تاريخ الجنس البشري، ستمائة جيل من البشر ولدت وعاشت معيشتها ثم ماتت، وإمبراطوريات قامت ثم اضمحلت وسقطت، هذا الوقت كله استغرقه الضوء المنبعث حتى من أقرب الجموع الكرية، استغرقه للوصول إلينا مخترقاً الفضاء بسرعة تزيد على ١١ مليون ميل في الدقيقة، هذا الجمع الكري القريب يحوي مئات الآلاف من النجوم. منها عدد كبير أسطع كثيراً من الشمس، ومع ذلك فإنها من البعد بحيث لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة إلا ضعيفة خافية.

فلو اتفق أن كان في سكان هذا الجمع فلكيون يدرسوننا كما ندرسهم لرأوا مسار الأرض السنوي حول الشمس في حجم رأس الدبوس على بعد ٤٠٠ ميل، وهذا يرينا عبث محاولة استخدام طريقة المساحين القديمة في قياس أبعاد النجوم عندما تكون المسافات بهذا العظم، فالكائنات التي قصارى جهدها الزحف على رأس دبوس لا يصح أن تتوقع رؤية الأجرام التي على بعد ٤٠٠ ميل تغير مواضعها بقدر محسوس. وقد وجد «شبلي» زيادة على ذلك أن أعظم الجموع يبلغ بعده عنا نحو عشرة أمثال بعد أقربها، فبينما يستغرق الضوء نحو ١٨٤٠٠ سنة في الوصول إلينا من أقرب جمع؛ إذا به يستغرق في الوصول من أبعدها نحو ١٨٥٠٠٠ سنة، كذلك قاس «شبلي» أبعاد الجموع الواقعة بين هذين الطرفين وخطط مواضعها في الفضاء، وقد تبين أن نظام توزيعها العام في الفضاء يشبه إلى حد ما توزيع الزبيب في قرصة الزبيب، وبعبارة أخرى: أنها موزعة بانتظام لا بأس به في فضاء شكله كالقرصة، فضاء دائري المقطع سمكه أقل من طوله وعرضه.

إن الظاهر لنا الآن، وإن لم يبلغ بعد مبلغ اليقين، أن شبلي كان بتخطيطه الجموع الكرية بهذه الكيفية يحل معضلة أكبر مما كان يظن في ذلك الوقت، كان يحل معضلة نظام توزيع النجوم في الفضاء.

لعل أول ما نزع إليه الإنسان الأول بغريزته هو أن يفرض أن النجوم تمتد ثم تمتد إلى الأبد، هذا أبسط فرض وأقربه من وجوه كثيرة أن يخطر بالطبيعة على البال، ومع ذلك فهناك اعتبارات كثيرة جداً، تبين أن هذا الفرض لا يمكن أن يكون صحيحاً، نذكر منها واحداً، لو أن النجوم كانت ممتدة إلى الأبد الآبد مرتبة كترتيبها بالقرب من الشمس لكان من المؤكد أننا كنا حيثما وجهنا نظرنا لا بد أن نعثر إن عاجلاً وإن آجلاً على نجم، وإذن كانت تبدو السماء كلها وهجاً من الضوء منتظماً غير منقطع، كما تبدو السماء كلها وقت عاصفة الثلج أو التراب كأنها لوح واحد من الثلج أو التراب منتظم غير منقطع، ولما كان الجزء الأكبر من السماء أسود بالليل فلنا أن نثق بأن النجوم لا تمتد إلى ما لا نهاية، بل لا بد بعد أن نذهب في الفضاء إلى بعد معلوم أن تأخذ النجوم في التناقص ثم في النهاية تختفي، وإذا ضربنا صفحاً عن المناطق الخاصة التي ورد ذكرها والتي تحول فيها بيننا وبين ضوء النجوم رقع من مادة مظلمة، فإن السماء لا تظهر سوداء إلا حيثما نكون قد اخترقنا بنظرنا كل المجموعة النجومية ونفذنا إلى الفضاء الخالي الذي وراءه.

المجرة

ومع ذلك فليست سماء الليل كلها سوداء، فإننا نرى في أي ليلة من الليالي الصافية غير المقمرة قوساً عظيماً من النور اللؤلؤي الضعيف يعبر السماء من أفق إلى أفق، ولسنا نستطيع أن نعرف ماذا يجري له تحت الأفق إلا إذا سحنا حول الدنيا، عندئذ نجد نهايتيه قد اتصلتا في السماء الجنوبية، مكونة بذلك دائرة عظيمة لا نهاية لها من النور تمر حول السماء كلها، حزام من النور يحيط بالدنيا له اسم واحد في كل لغات العالم تقريباً هو المجرة أو الطريق اللبني.

وقد خفيت طبيعة هذا القوس من النور لا على الشعوب الأولية وحدها، بل على الفلكيين الأقدمين أيضاً، وقد أطلق عليه المكسيك اسماً شعرياً إذ سموه «الشقيقة الصغيرة البيضاء» لقوس قزح المتعدد الألوان، وكان في معظم المدنيات موضوع قصص كثيرة مأثورة، وقد تكون متذكراً صورة تنتورتو «أصل المجرة» في المتحف الأهلي. انظر الصورة المصدر بها كتاب النجوم في مسالكها.

ثم جاءت سنة ١٦٠٩ وفيها صوب «غاليليو» نحو المجرة مرقبه المستحدث، فكشف معماها في الحال، إذ ظهر أن المجرة ليست إلا سحابة من نجوم خفية مبعثرة كالتراب الفضي الدقيق على البساط السماوي القطيفي، انظر لوحة ٢٩ المقابلة لصفحة ١١٠ ولوحة ٣٣ المقابلة لصفحة ١٢٢ من كتاب «النجوم في مسالكها»، كذلك بين مرقب غاليليو أن الجزء الأكبر من السماء حتى في المجرة نفسها سواد، فالنجوم ليست سوى حوادث على وراء أسود.

ولا يمكن أن ينشأ هذا السواد فيما عدا الحالات التي تعرض فيها قطع من المادة تعوق النظر، إلا عن كون بصرنا قد اخترق النظام النجومي كله إلى ما وراءه من فضاء خلاء، وإذن فنحن نصل في النهاية إلى آخر النجوم حتى في اتجاه المجرة، ومع ذلك فالنجوم التي يمكن رؤيتها في هذه الجهة أكثر جداً من التي يمكن رؤيتها في أية جهة أخرى، كما أن النجوم فيها تبدو أضعف نوراً، وفي ذلك إشارة إلى أنها أبعد. إن من الواضح أننا نستطيع أن نسافر في هذا الاتجاه أبعد كثيراً مما نسافر في أي اتجاه آخر قبل أن نصل إلى نهاية النجوم.

عجلة النجوم

وقد وصل السير «وليام هرشل» إلى هذه النتيجة منذ ١٢٠ سنة، فقد كان يظن أن النجوم مرتبة بحيث تشبه عجلة عربة هائلة، والشمس في موضع قريب من سرة هذه العجلة، وقد فرض أن النجوم التي في حافلة العجلة هي المجرة، ونسب خفاء النجوم في هذا الاتجاه إلى بعدها العظيم، وفسر كثرتها بأننا إذا نظرنا في اتجاه المجرة لم نر نجوم الحافة فقط، ولكن أيضاً كل النجوم الموجودة على امتداد برمق العجلة. وقد أيدت الأبحاث الفلكية الحديثة استنتاجات السير «وليام هرشل» من عدة وجوه، لكنها تدل على أنه كان مخطئاً في أمر واحد، فالشمس ليست كما ظن عند سرة عجلة النجوم الهائلة، بل ولا قريبة منها، وإنّما تقع على البرمق بعيدة لحد ما عن المركز، وربما كانت قريبة من ثلث المسافة بين السرة والحافة، ذلك لأننا نعرف الآن أن تلك العجلة الهائلة من النجوم تدور في الفضاء لا حول الشمس ولا حول أية نقطة قريبة منها، وإنّما حول سرة على بعد منا هو من العظم، بحيث إن الضوء

يستغرق للوصول منها إلينا نحو ٥٠٠٠٠ سنة، هذه السرة تقع في اتجاه يكاد ينطبق تمام الانطباق على اتجاه مركز القرصة التي تصورنا أنها تضم نظام الجموع الكرية، وكلما اتفقا في الاتجاه يتفقان تقريباً أيضاً في البعد، كذلك ينطبق مستوى العجلة، وهو بالطبع المستوى الذي تقع المجرة فيه على المستوى الأوسط للقرصة تمام الانطباق، فإن نصف الجموع الكرية واقع في ناحية من المجرة، والنصف الآخر في الناحية الأخرى.

وهذا يثبت إثباتاً لا يتطرق إليه شك أن عجلة العربة المستديرة التي قال بها السير « وليام هرشل » هي في صميمها نفس القرصة المستديرة التي مثلنا بها ترتيب الجموع الكرية في الفضاء، فالنجوم تشغل نفس مناطق الفضاء التي تشغلها الجموع الكرية، وينتهيان تقريباً معاً إذا سافرنا خلال الفضاء. إن هناك بينهما فرقاً واحداً هو أن عجلة العربة التي تمثل النجوم لا تبلغ سمك القرصة التي تمثل الجموع الكرية، وربما كان الأحسن أن نضع المسألة الوضع الآتي:

لندهن القرصة بالزبد، لنبدأ بقطعها نصفين أعلى وأسفل، ثم ننشر بينهما طبقة سميكة من الزبد، ثم نردهما إلى مكانهما، عندئذ تمثل الزبد النجوم، ويمثل زبيب القرصة الجموع الكرية، وليست الشمس كما ظن السير « وليام هرشل » قرب وسط القرصة، صحيح أن ما فوقها من القرصة قدر ما تحتها بحيث تقع وسط طبقة الزبد؛ لكنها تقريباً في منتصف المسافة بين المركز والحافة.

هذا النموذج على ما فيه من الابتذال أبسط ما أستطيع أن أبتكره لشرح النظام الذي تقوم عليه عظمة جلال السماء بالليل، ولكي ننتقل من النموذج إلى الحقيقة يتحتم علينا أن نكبر ثم نكبر ثم نكبر حتى تصير كل هباءة دقيقة من الفضاء ملايين الأميال، يجب أن نحل مكان الزبيبة جمعاً من مئات الآلاف من النجوم، ونحل مكان طبقة الزبد سحابة من ملايين كثيرة من النجوم، وأن ندع كل ما عدا ذلك يضمحل إلى السواد القطيفي للفضاء الخلاء، أو على أكثر تقدير إلى ذرات متناثرة متفرقة، أو إلى بقايا ذرات مهشمة وسحب من التراب، فإذا استطعنا أن نحمل خيالنا على إجراء كل هذا التبديل والتغيير؛ فستكون النتيجة أي شيء إلا المبتذل، ستمدنا بمفتاح لأجل منظر رأته أو تراه عين الإنسان، وستمكننا من أن ننظر إلى السماء العجيبة المترامية، فنفهم من معانيها ما لم نكن نفهم.

سماء الليل

وحتى هذا يجب أن لا نتوقع أن نرى بنية السماء كلها منثورة أمام أعيننا، حينما نقف في العراء ننظر إلى سماء ليلة صافية، فالمسافات في الفضاء من العظم بحيث إن أشد النجوم لمعاناً لا يؤثر في أعيننا المجردة إلا إذا تصادف أن كان قريباً منا نسبياً، إننا لن نستطيع رؤيتها بغير مساعدة آلة ضوئية ما لم يكن في إمكان الضوء المنبعث منها أن يصل إلينا في أقل من نحو ثلاثة آلاف سنة، فإذا تذكرنا أن بعد حتى أكبر الجموع الكرية إلينا قدر ذلك ست مرات؛ أمكننا أن نقول بأن كل النجوم التي نستطيع أن نراها فرادى « كنجوم » تقع في جزء صغير جداً من الفضاء محيط بالشمس، جزء من قرصة الزبيب لا يزيد حجمه في ذاته كثيراً على زبيبة متوسطة الحجم، ولو أن كل نجم خارج عن تلك المنطقة الصغيرة من الفضاء اندثر فجأة لما استطاعت أعيننا المجردة أن تدرك اختفاء نجم واحد، أما المجرة فستختفي

عندئذ لأنها مكونة من الأضواء المجتمعة المنبعثة من عدد كبير من نجوم هي أبعد جداً من أن ترى فرادى، كأنها أنوار مدينة بعيدة، وأما الوراء العام للسماء فستزداد ظلمته قليلاً لأنه الآن تغشاه غشاوة من نور خفي لا يكاد يحس منبعث من نجوم سحيقة هي أيضاً أبعد من أن ترى فرادى، ولن تدرك أعيننا المجردة تغيرات عدا هذه، فكل النجوم التي نراها فرادى ستظل كما كانت لأنها جميعاً قريبة جداً من موطننا إذا قسنا المسافات بالمقاسات الفلكية. وينتج عن ذلك أن المنظر الذي نراه في السماء ليلاً ينقسم إلى قسمين متميزين: نرى أولاً الكوكبات التي تتألف من وجهة مكونة من نجوم قريبة جداً، أي: قريبة بالمقياس الفلكي، ونرى ثانياً المجرة وهي وراء مكون من نجوم هي من البعد عنا بحيث إننا لا نراها إلا جماعات الكوكبات والمجرة، هذان هما كل ما نبصر، وفي المسافة الوسطى بين هذين ملايين من النجوم لا نراها مطلقاً لأنها أبعد من أن ترى نجوماً فرادى، وأقل من أن تظهر لنا سحابة متصلة من الضوء، إنّما قصاراها أن تنشر ضوءاً قليلاً على ذلك الوراء المظلم من السماء. كل هذه المجموعة النجومية المجموعة التي على شكل عجلة حافتها المجرة تسمى عادة المجموعة المجرية.

عدد النجوم

إذا أتيح لنا أن نرى كل نجوم المجموعة المجرية نجوماً فرادى فكم يكون عددها؟ قد يبدو هذا السؤال أول الأمر أبسط الأسئلة التي على الفلكي أن يجيب عنها، إذ قد يظن أن ليس عليه إلا أن يعدها من خلال مرقبه، لكن المؤسف أن الأمر ليس بهذه السهولة، فإنه كلما كبر المرقب ازداد عدد النجوم التي نراها من خلاله. إن أكبر مرقب أنشئ للآن يرينا نحو ١٥٠٠ مليون نجم، عدد سكان الأرض الذين يزيد سنهم على خمس سنوات، غير أن مرقباً يصنع الآن أكبر من هذا، نكاد نجزم بأنه سيكشف لنا عن نجوم كثيرة غير هذه، ولن نستطيع على الرغم من ذلك أن نرى النجوم كلها أو جلها. لا! إن من العبث أن نحاول عد النجوم، إنّما هناك طريق واحد لمعرفة عددها جميعاً، وذلك هو وزن النجوم كلها معاً. وقد يبدو منا جنوناً أن نتكلم عن وزن نجوم لا نتمكن حتى من رؤيتها، لكن هذا هو بالحرف الواحد ما يفعله الفلكيون حديثاً.

لقد مكث الفلكيون طويلاً يساورهم بعض الشك في الكيفية التي أمكن النظام النجومي بها أن يحتفظ بشكله كقرص أو عجلة، إذ كان من الصعب أن ندرك لماذا لم تستطع قوة جاذبية النجوم التي عند السرة أن تجلب النجوم التي عند الحافة حتى تسقط كلها معاً عنقوداً واحداً عند المركز، هذا اللغز قد حل الآن، فالعجلة تحتفظ بشكلها لسبب بسيط هو أنها تدور حول السرة، وهي في هذا تشبه المجموعة الشمسية وإن على مقياس هائل، والمجموعة الشمسية هي أيضاً على شكل قرص أو عجلة، وليس هناك سر في كيفية احتفاظها بشكلها، إنها تحتفظ بشكلها لأن السيارات تدور حول الشمس، ولو بطل دورانها لسقطت نحو الشمس، وليس يعصمها من هذا المصير في الواقع إلا حركتها حول الشمس، والسيارات الأقرب إلى الشمس مضطرة للحركة بسرعة أكبر من سرعة غيرها، لأن قوة جاذبية الشمس التي على هذه السيارات أن تجاهد ضدها أكبر ما تكون حيث توجد تلك السيارات، كذلك الحال في مجموعة النجوم الأكبر كثيراً من المجموعة الشمسية فحركتها هي التي تنجيها من

السقوط إلى السرة، وقوة الجذب أكبر ما تكون قرب السرة، ولذا كان أقرب النجوم إلى السرة أسرعها حركة، والشمس التي على شيء من البعد عن السرة تتحرك بسرعة تقرب من ٢٠٠ ميل في الثانية، وهي سرعة قدر سرعة الإكسبريس ١٠٠٠٠ مرة، وبعد الشمس عن السرة كبير لدرجة أنها على الرغم من تحركها بهذه السرعة، فإن رحلتها حول السرة ربما استغرقت مائتي مليون أو ثلاثمائة مليون سنة.

هذه الأرقام ليست مضبوطة قط، فنحن لم نعلم للآن بأي وجه من وجوه الدقة مقدار بعدنا عن السرة التي ندور حولها وإن كنا أكثر علماً وأحسن إحاطة بالاتجاه الذي تقع فيه هذه السرة، إنها بالطبع لا بد واقعة في المجرة، ويكاد يكون من المؤكد أنها واقعة في المنطقة المبينة في لوحة ٣٣ بالقرب من وسطها على الراجح. والآن نجد أن وسط هذه المنطقة كان معروفاً من زمن بعيد بأنه أغنى جزء في المجرة، ولما كان المتوقع أن يبلغ تكاثف النجوم أشده حول سرة العجلة، وكان الواجب على أي حال أن نبصر أعمق المعمور بالنجوم إذا نظرنا في اتجاه السرة إلى الحافة وراءها، لم يكن من المستغرب أن نجد السرة واقعة في الجزء الغني بالنجوم من المجرة.

وأغنى الأجزاء كلها بالنجوم هي السحابة النجومية العظمى في برج الرامي، هذه السحابة تقع قريباً من وسط لوحة ٣٣ وترى بتفصيل أعظم لوحة ٣٤، وهناك عدد عظيم من أبحاث متنوعة جداً كلها تؤكد لنا بإجماع عجيب أن سرة العجلة العظيمة واقعة في هذه السحابة النجومية أو قريباً منها، ومن الراجح جداً أنها واقعة وراء رقعة المادة المظلمة الحاجبة التي تشغل النصف الأيمن من اللوحة، وإذا كان الأمر كذلك فلن نتمكن أبداً من رؤية السرة التي تدور حولها العجلة العظيمة.

إن أبسط ما نستطيع أن نتخيل عليه حركة النجوم هو أن نتصور مسار كل نجم ينحني انحناء مستمراً نحو سرة العجلة بفعل قدرة جذب شمس ما مركزية هائلة، ومع ذلك فالمرجح جداً أن مثل هذه الشمس المركزية غير موجودة، ولو استطعنا أن ننفذ ببصرنا إلى ما وراء السحب المظلمة من المادة الحاجبة ما رأينا على الراجح أكثر من جمع كثيف من النجوم العادية، إن أشبه الأمور بالواقع هو أن تكون النجوم يمسك بعضها بعضاً بقوة التجاذب بينها كما يمسك أحد نجمي المجموعة الثنائية الآخر، وأنها ليست تحت سلطان كتلة مركزية كبيرة واحدة.

ومتى عرفنا الانطلاقات التي تتحرك بها النجوم حول السرة استطعنا أن نزن مجموعة النجوم كلها، كما استطعنا أن نزن الشمس عندما علمنا كيف تتحرك السيارات حولها، إن كل نجم واقع لا تحت تأثير قوة جذب النجوم التي في السرة فحسب، ولكن تحت تأثير جذب مجموعة النجوم كلها، وبذا نستطيع أن نوجد لا وزن نجوم السرة فحسب، بل وزن نجوم العجلة كلها، ولما كنا نعرف أن متوسط وزن النجم قدر وزن الشمس تقريباً أو ربما كان أقل قليلاً، فإنا نستطيع أن نقدر عدد النجوم الكافي لتكوين عجلة العربة. ولا حاجة بنا لأن نقول: إنه ليس في استطاعتنا تقدير العدد بدقة كبيرة، وإن من المؤكد تقريباً أنه أكثر من ١٠٠٠٠٠ مليون، أي أنه يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا بل ربما إلى ثلاثة أمثاله أو خمسة أمثاله.

وليس من السهل إدراك معاني مثل هذه الأعداد، فلننظر أولاً كم نجماً في ليلة تامة الصفاء نستطيع أن نراه بأعيننا فقط دون استخدام أي مرقب، إن النجوم تبدو فوجاً عظيماً، وإذا طلب إلى معظم الناس أن يحددوا عددها فسيقولون مائة ألف أو عشرين مليوناً أو عدداً مثل هذا، لكن الواقع أن أقوى بصر وأحده إنّما يستطيع أن يرى نحو ٣٠٠٠ وهو عدد يزيد قليلاً على عدد حروف الطبع الموجودة في صفحتين من هذا الكتاب.

تصور أن كل واحد من الثلاثة الآلاف نجم (كذا) التي يمكننا رؤيتها قد اتسع وامتد حتى صار سماء كاملة جديدة مملوءة بالنجوم، هذه الأعجوبة من أعاجيب التخيل، إذا قدرنا عليها لا تعطينا إلا تسعة ملايين نجم فقط، وهذا لا يزال كسراً ضئيلاً من عدد نجوم السماء كلها، إنه يساوي عدد الحروف التي في صفحات نحو أربعين كتاباً كل منها في حجم هذا الكتاب، ولكي نتخيل المجموع الكلي لنجوم السماء يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوي على الأقل نصف مليون كتاب، كل منها مثل هذا الكتاب فجميع حروف الطبع التي في جميع صحف كل كتب هذه المكتبة عددها مساو تقريباً لعدد نجوم السماء، وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة في الدقيقة مدة ثمان ساعات في كل يوم فلابد لنا من ٧٠٠ سنة لقراءة هذه المكتبة عن آخرها، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة ١٥٠٠ نجم في الدقيقة، أي ٢٥ في الثانية، لاستغرق عدنا للنجوم كلها ٧٠٠ سنة، وأرضنا ذيل ضئيل لنجم من تلك الأفواج المترامية لنجم لا يكاد يبين، فهي أقل، أقل كثيراً جداً من نقطة نون في مكتبتنا ذات نصف مليون مجلد، وكان الأولى أن نشبهها بهباءة من التراب المحبوس بين صفحتين، هباءة لا ترى إلا بالمجهر، وهذه الهباءة من التراب هي التي كان يظن سكانها من نحو ٣٠٠ سنة أنها مركز العالم كله، وأن النجوم الأخرى تدور جميعها حولها، بل لم تخلق لأي غرض سوى أن تدور حولها، وترسل قليلاً من الضوء إليها من آن لآخر إذا غابت الشمس أو غاب القمر، فالآن نبدأ وندرك مقدار تفاهة موطننا في الفراغ في الواقع، ومع ذلك فالجزء الأكبر من القصة لا يزال ينتظر من يرويه كما سترى في الفصل التالي.

الفصل السابع
بعيداً في أعماق الفضاء

قد رأينا كيف كان طبيعياً حين كان من المعروف عن الفلك قليلاً أن نتصور أن النجوم تمتد إلى ما لا نهاية، بحيث إننا مهما توغلنا في الفضاء وتحسسنا فإنا نصل إلى نجوم بعد نجوم، وقد كان شأننا في ذلك شأن الطفل الذي ينشأ في المدينة فهو يتصور أعمدة المصابيح ممتدة بلا انقطاع، ومع ذلك فنحن نعلم الآن أننا إن توغلنا في الفضاء مسافة كافية وصلنا إلى مناطق فيها تبدأ النجوم تتضاءل في العدد ثم تختفي كلياً، عندئذ نكون قد توغلنا في أعماق الفضاء إلى ما وراء المجرة. إن النجوم تشبه أنوار مدينة كبيرة لكن ليس هناك مدينة مهما كبرت تمتد إلى غير انتهاء، وإذا نحن توغلنا في السير توغلاً كافياً فسنخرج من المدينة ونبلغ في آخر الأمر العراء المظلم الذي وراءها.

على أن هذا ليس هو القصة بأكملها، فنحن الآن نعرف أن مجموعة النجوم التي تشبه العجلة والتي تحدها المجرة ليست مجموعة النجوم الوحيدة في الفضاء، إن هناك وراء المجرة على بعد شاسع

منها مدناً أخرى لكل مدينة منها نظامها الخاص من الأنوار، فالعراء المظلم المحيط بمدينتنا نحن ليس نهاية كل شيء، إذ لو ثابرنا على التغلغل فيه زمناً كافياً لوصلنا في الوقت المناسب إلى مدينة أخرى أنوارها نجوم شبيهة بالنجوم المحيطة بشمسنا، والآن أشرح لك الدليل على هذا القول.

حينما نبتعد عن البر موغلين في البحر لا نبصر الأنوار في إحدى مدن الساحل نقطاً من الضوء متميزة لأنها تندمج كلها معاً، فتكون ما يشبه سحابة من الضوء مختلطاً بعضها ببعض، فإذا ما اقتربت بنا السفينة من الساحل بدأنا نبصر الأنوار فرادى، نبصر أكثرها لمعاناً أول الأمر، ثم نبصر كذلك أضعفها فيما بعد.

وهذا هو الشأن بالنسبة للمدن النجومية البعيدة المتوغلة في الفضاء، فنحن وإن كنا لم نقترب منها يصح أن نقول: إن الزيادة المستمرة في قوة مراقبنا تقربها منا، ولذا قد بدأنا في السنين القليلة القريبة نبصر أضواءها فرادى، ونتعرفها على ما هي عليه مدناً من النجوم كمدينتنا، لكن طبيعتها هذه كانت متوقعة من قبل أن تعرف بالتحقيق بزمن طويل. ففي سنة ١٧٥٥ وصفها الفيلسوف «كانت» بأنها مجموعات من نجوم كثيرة تبدو لنا لبعدها كأنها لا تشغل إلا حيزاً هو من الضيق بحيث إن الضوء الذي لا يمكن أن يحس من كل منها على انفراد يصل إلينا لكثرتها البالغة ومضة مستمرة باهتة.

وإذا كانت المدن لم تبد إلا سحباً ضعيفة من الضوء فقد سميت سدائم، وهي تعريب كلمة لاتينية معناها ضباب أو سحب، وليست كل السدائم مؤلفة من طوائف من النجوم، فالسدائم الحقيقية نوعان متميزان يمكن تمييزها بأشكالها، فسدائم النوع الأول منتظمة الشكل أو قريبة جداً من ذلك. أما سدائم النوع الثاني فشكلها لا نظام فيه مطلقاً، وهي بلا شك أبلغ الأجرام أثراً في نفس الناظر إلى السماء بمرقب، ولا يرجع ذلك إلا لقربها منا كما يبدو القمر أبلغ أثراً في النفس من منكب الجوزاء، وهي تبدو عادة قريبة الشبه بكتل الدخان السائبة كتلك التي ترى متصاعدة من بيت أو كومة تبن شبت فيها النار، وما هي في الواقع إلا ما يصح وصفه بأنه دخان مدينتنا النجومية تضيئه أنوار، مدينتنا النجومية هي نتف وسحب من التراب والغاز المضيء ممتدة من نجم إلى نجم داخل حدود المجر، مكونة رقعاً منيرة، ورقعاً مظلمة على السماء كالتي يكونها على السماء النار العادية ولهيبها.

وقد سبق أن عرضنا عليك في لوحة ٨٧ صفحة ٢٢٦، ولوحة ٨٨ صفحة ٢٢٧ مثلين من هذا النوع من السدائم كلاهما في كوكبة الجبار، وترى في لوحة ٨٥ مثلاً ثالثاً في كوكبة الدجاجة.

السدائم العظمى النائية

والنوع الآخر هو السدائم المنتظمة الشكل عبارة عن المدن النائية من النجوم، وهي من البعد بحيث إنها تبدو قليلة الأثر في النفس قلة عجيبة إذا نظرنا إليها مباشرة ولو من خلال مرقب، فإن ضوءها الخفي لا يكاد يؤثر في أعيننا إلا قليلاً، وألمعها جميعاً هو السديم الأعظم في كوكبة المرأة المسلسلة، انظر (لوحة ٨٦)، وصفه الفلكي «ماريوس» بأنه يبدو كضوء شمعة يرى من خلال بوق، ولكي نفهم ما هي هذه السدائم لا بد لنا من أن نمكن ضوءها من التأثير في لوحة فوتوغرافية ساعة بعد ساعة، بل ربما ليلة بعد ليلة، فإذا فعلنا ذلك أخذت بعض الأنوار الفردية المنعزلة تبرز من بين

ضوء السدائم العام، انظر (لوحة ٨٧)، ويتبين أن هذه الأضواء نجوم، ونحن نعرف أنها نجوم لأن كثيراً منها متغيرات قيفاوية من غير شك، تبدي لنا عن نفس الخصائص والتقلبات الضوئية المألوفة التي تبدي لنا عنها المتغيرات القيفاوية الأقرب إلى موطننا، وهذا لنا من سعادة الجد، لأننا كما سبق أن رأينا نستطيع أن نقدر بعد أي متغير قيفاوي من لمعانه البادي أو ضعفه، والمتغيرات القيفاوية التي في السدائم تظهر كلها ضعيفة جداً، وإذا كنا نعرف أنها في ذاتها نجوم شديدة التألق فإن هذا وحده برهان على أن السدائم على بعد عظيم جداً. وإنا لنحتاج إلى وحدة طويلة من وحدات الطول لقياس هذا النوع من المسافة، إن الضوء يقطع ١١ مليون ميل في الدقيقة أو نحو ٦ ملايين مليون ميل في السنة، ويختار الفلكيون هذه المسافة وحدة لمقاييسهم، ويسمونها سنة ضوئية، وكما أن الألمان عندما يتكلمون عن مسافة ساعة يعنون بذلك المسافة التي يمشيها الرجل في الساعة، كذلك عندما يتكلم الفلكي عن سنة ضوئية، فإنه يعني المسافة التي يقطعها الضوء في سنة.

أقرب المدن النجومية

قد رأينا أن الضوء المنبعث من أقرب الجموع الكرية يستغرق في الوصول إلينا ١٨٤٠٠ سنة، أو كيف أن بعد أقرب جمع كري منا ١٨٤٠٠ سنة ضوئية، كما نستطيع الآن أن نقول، لكن أقرب سديم إلينا، وهو م ٣٣ في كوكبة المثلث لوحة ٣٨ قد تبين أنه على بعد ٨٥٠٠٠٠ سنة ضوئية، فبعده قدر بعد أقرب الجموع الكرية أكثر من أربعين مرة.

إن الضوء الذي به نبصر جموع الكرية قد بدأ رحلته الطويلة عبر الفضاء قبل أن يصير الإنسان متمديناً. أما الضوء القادم حتى من أقرب السدائم، فقد بدا قبل أن يخلق الإنسان بالمرة، فلو أن أول إنسان عمر الأرض كان قد بنى محطة لاسلكية، وأذاع منها نداء ينادي به جميع السمحطات التي في الفضاء، يبحث عما إذا كان هناك في العالم أي مخلوقات عاقلة أخرى، لما كان نداؤه بلغ أقرب السدائم الآن.

حتى أقصى الجموع الكرية تبعد عنا بأقل من ربع بعد أقرب السدائم، فبعد أن نترك كل الجموع الكرية وراءنا لا بد لنا قبل أن نبدأ نلقي السدائم من أن نقطع أربعة أمثال المسافة التي قطعناها، ولما كانت الجموع الكرية تعين حدود المجرة كان معنى هذا أن السدائم منفصلة تماماً عن المجرة، ولو مثلنا لمدينتنا النجومية في القدر بلندن لوقعت أقرب مدن الفضاء إلينا بقرب «كمبردج»، وبين الاثنين عراء طلق كثير. والمدينة النجومية التي تلي هذه لا تبعد عنها إلا قليلاً على بعد ٩٠٠٠٠٠ سنة ضوئية منا، فإذا مثلنا لأقرب مدينة نجومية بـ«كمبردج» صح أن نمثل بـ«أكسفورد» للتي تليها، وهي السديم الأعظم في كوكبة المرأة المسلسلة، انظر لوحات ٣٦ و٣٧ و٤٢، أشهر مدن النجوم في الفضاء وأعرفها، ثم هي السديم الوحيد الذي يرى بوضوح تام بالعين المجردة، وهي تكاد تقع في شمال النجم باء المرأة المسلسلة. انظر الخريطة النجومية الأولى وصفحة ١٧٤، ولا بد من الاعتراف بأنها مخيبة جداً لأمل من يتطلب فيها منظراً، ومع ذلك فربما كانت تستحق أن ينظر الإنسان إليها مرة في العمر ولو ليتفكر، وهو ينظر إليها، أن شبكية عينه فيها ضوء ظل يعبر إليه أجواء الفضاء ٩٠٠٠٠٠ سنة ضوئية

متصلة. إن أمواج الضوء المتولدة من وثوب الكهرباء في ذلك السديم البعيد منذ ٩٠٠٠٠٠ سنة قد كانت تسبح في الفضاء غير مروعة منذ ذلك الحين، والآن حين تلج أعيننا تصادف مادة صلبة للمرة الأولى بعد ترك السديم، تلك الأمواج ترد العين على التتابع بغير انقطاع بمعدل نحو ٥٠٠ مليون مليون موجة في الثانية، وشعاع الضوء الذي يصل ما بين عينك وبين السديم يحتوي من الأمواج ما يكفي لإمداد البصر بالأمواج ٩٠٠٠٠٠ سنة على هذا المعدل، وللذين يحبون الحساب أن يحسبوا بالضبط مقدار عدد هذه الأمواج إن شاؤوا.

وليس هناك سدائم كثيرة قريبة قرباً يمكن من تمييز متغيرات قيفاوية فيها، فإذا ما تيسر هذا التمييز أمكن في الحال اكتشاف أقدار السدائم وأبعادها، لكن لا بد من اتباع طرق أخرى في أغلب الحالات.

إذا وضع عدد من أجسام متشابهة تمام التشابه على أبعاد مختلفة منا فإنها تبدو بالطبع بأقدار مختلفة، لكن لمعان سطوحها لا يتأثر بالمسافة إلا إذا كانت هناك في الفضاء مادة تضعف الضوء أو تحجبه، لكن لدينا كل الأسباب التي تحملنا على الاعتقاد بأن وجود مثل هذه المادة نادر لدرجة أنه يمكننا إغفاله إلا في أجزاء قليلة من السماء، والآن يجد الدكتور «هيل» أحد فلكيي مرصد جبل ولسن أن السدائم ذات الشكل الواحد تظهر جميعاً ذات لمعان واحد، وتختلف فقط في القدر الظاهري هذا يشير بقوة إلى أنها متشابهة في بنائها لا تختلف إلا في أبعادها عنا، وبذا نستطيع أن ندرك أبعادها إما من أقدارها الظاهرية أو من مقدار الضوء الذي نتلقاه منها، ومختصر القول أنه كلما بدا السديم أصغر وأخفى كان السديم أبعد. وتبين لوحة ٤٠ جمعاً من السدائم في كوكبة ذات الشعور على بعد ٥٠ مليون سنة ضوئية على الراجح، والسدائم في هذا الجزء من السماء كثيرة متراصة، بحيث إن اللوحة تحتوي من السدائم أكثر مما تحتوي من النجوم، وتبين لوحة ٤١ جمعاً من السدائم أبعد حتى من هذه في كوكبة الفرس الأعظم، وكل واحد من الأجرام الخفية الغامضة الحدود في اللوحة عبارة عن سديم ويبلغ عددها جميعاً ١٦٢، لو تيسرت لنا رؤية كثير منها عن قرب كاف لبدت لنا مجموعات شاسعة معقدة التركيب كالتي في السديم القريب المبين في لوحات ٣٦ و٣٨ و٤٣، وأبعد ما كشفت عنها مراقبنا من السدائم هي من البعد بحيث يستغرق الضوء في الوصول إلينا منها نحو ١٤٠ مليون سنة.

وقد قام الدليل على أن المقارنة التي عملناها بين المجموعة المجرية وأقرب سديمين، وبين لندن وأكسفورد وكمبردج؛ مقارنة صحيحة من وجوه كثيرة، فأكبر المراقب يكشف عن سدائم عددها جميعاً نحو مليونين ليس فيها كلها حسبما نستطيع أن نحكم إلى الآن واحد في كبر مدينتنا النجومية، ولذا فقد أحسنا أولاً إذ شبهنا هذه بلندن التي هي أكبر مدينة في العالم، وفي الحق أن كثيرين من الفلكيين يميلون إلى اعتبار المجموعة المجرية مكونة من عدد من المدن النجومية تجمعت وتدخل بعضها في بعض، شأنها في ذلك بالضبط شأن لندن التي تجمعت من مدن بعضها متدخل في بعض، فإذا كانت لندن تمثل المجموعة المجرية في القدر، فإن كمبردج وأكسفورد ليمثلان أقرب مدينتين نجوميتين إلينا في القدر أيضاً، وتستقيم المقارنة كذلك بالنسبة لعدد السكان، وأيضاً بالنسبة للترتيب في الفضاء، فعدد سكان لندن قدر عدد سكان كمبردج أو أكسفورد نحو مائة مرة، ومدينتنا النجومية تحتوي من النجوم

بالتقريب قدر ما يحتويه أي السديمين الأقربين إلينا مائة مرة، على أنه قد يبدو من الغريب أن نتحدث بمثل هذا الوثوق عن المجموع الكلي للنجوم في سدائم هي من البعد عنا بحيث إننا لا نستطيع أن نرى سوى قليل من أشد نجومها لمعاناً.

وزن المدن النجومية

قد رأينا كيف أن مجموعة النجوم التي تنتسب إليها وهي المجموعة المجرية مسطحة كالمجموعة الشمسية، كما رأينا أنها تستطيع أن تحتفظ كالمجموعة الشمسية بشكلها المسطح لكونها في دوران دائم، وكثير من السدائم مسطح في شكله، ومن المعقول فيما يظهر أن نتخيل أن هذه أيضاً تحتفظ بشكلها المسطح لكونها في دوران، والرصد يحقق هذا الحدس إذ أنه قد كشف عن أن السدائم تدور، ولا بد على وجه التحقيق تقريباً أن تكون هذه الحركة الدورانية هي التي تنجي النجوم التي على حافة السدائم من السقوط نحو مراكزها، ولو علمنا سرعة تلك الحركة لأمكننا حساب مقدار قوة الجذب نحو المركز ومن ثم نستطيع أن نزن السدائم، كما نستطيع قريباً من موطننا أن نزن الشمس أو المشتري أو كل المجموعة المجرية من النجوم، وقد وجد أن متوسط وزن السديم قدر وزن الشمس ألفين أو ثلاث آلاف مليون مرة. ولا يتحتم أن يكون معنى ذلك أن في كل سديم هذا العدد من النجوم، فالظاهر أن قليلاً من السدائم إن كان يحتوي على نجوم فقط، أما أغلبها فله منطقة مركزية تبدو أشبه بسحابة غازية منها بسحابة نجومية، وعلى أي حال فلم يوجد بعد المرقب الذي يستطيع أن يحلل تلك السحابة إلى نجوم. انظر لوحة ٤٢. وبالطبع لا بد للسحابة من إحداث قوة جذب قدر التي تحدثها نجوم في وزنها، وإذن فوزن هذه السحابة، غازية أو كائنة ما كانت داخل في تقديرنا وزن السديم، لكن إذا لم تكن تلك السحابة، الغازية في الظاهر، تتركب من نجوم بالفعل؛ فمن المحتمل فيما يظهر أن يكون مقدراً لها أن تصير نجوماً في الوقت المناسب. انتهى الفصل الثالث.

الفصل الرابع

في خواطري ليلة السبت وليلة الأحد ٦ و٧ من ربيع الثاني سنة ١٣٥٢هـ

٢٩ و٣٠ شهر يوليو سنة ١٩٣٣م

لقد كانت لي إذ ذاك نظرتان: نظرة علمية، ونظرة عملية.

نظرتي العلمية

نمت سحراً ليلة السبت المذكورة وأنا في الحقل مع المزارعين شأني أيام الصبا والمراهقة، وكان نومي في خص صنعه الفلاحون ليبيتوا فيه محافظة على الفاكهة مثل البطيخ والصنطاوي التي يبيعونها في القاهرة القريبة منهم. نظرت في السماء وفي ظلمة الليل، فرأيت النجوم بهجة جميلة، وقد تجلى ذلك الجمال بهيئة تأخذ بالألباب، وسحر فؤادي أن منظر النجوم في العراء والحقول غيرها في المدن، أن تلك المزرعة في أطراف المزارع من الجهة الشرقية ووراءها أرض فضاء رملية لا أنيس بها ولا جليس. ووراء ذلك الجبل الشرقي ببلادنا المصرية، فظهور النجوم هنا أتم وأبهج منظراً وأبهى وأبهر، هاهنا أخذت أقول: ربنا لقد ظهرت واحتجبت، ظهرت لنا بمصنوعاتك واحتجبت عنا بذاتك العلية،

والحجاب حجابان: حجال كثيف وحجاب لطيف. أما الحجاب الكثيف، فهو الذي أسدلته على عقولنا ونفوسنا من شهوة الطعام والشراب وصلة الذكران بالنسوان وضرورات الحياة والعداوات وأحقاد النفوس والمنافسات والأمراض والأحزان. وأما الحجاب اللطيف فهو هذا الجمال الرائع والإبداع الظاهر الباهر في كواكبك البديعة.

فنحن يا رباه مسجونون فعلاً، مسجونون في شهواتنا التي سلطتها علينا لتدربنا على العمل وتكسبنا ملكة فيه، وجميع الحيوان وبنو آدم قد أقفلت عليهم تلك السجون، كما شاهدته أنا ورأيته بباصرتي في الحشرات والأنعام والإنسان، كل هؤلاء معذبون مسخرون ليسدوا حاجاتهم ويقوموا بشؤونهم. ولقد فر من هذا السجن قليل من نوع الإنسان وفروا إليك وسمعوا قولك: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ولما فروا إليك أخذوا يتلمسون الطريق ليلقوك، فنظروا في هذه النجوم فأقفلت الأبواب أمام كثير منهم، فهم يبصرونها ولكن لا يحسون بالجمال ولا يدركونه، لأنهم مرنوا على الجمال الجزئي الذي يسعون لتحصيله من النساء وأنواع الزينة والخيل المسومة والأنعام والحرث والأحجار الثمينة والقصور البديعة، وكيف يذوق جمال النجوم من حبست نفوسهم في تلك السجون الأرضية وهم ساهون لاهون نائمون.

هاهم أولاء الناس حولي في القرى والمدن منصرفون إلى أعمالهم. وبعبارة أخرى: محبوسون في سجونهم وقليل منهم الذين خرجوا من هذه السجون، ولكن أبواب السماء مقفلة أمامهم فلا يفكرون فيها ولا هم بها مبتهجون. وهناك طائفة قليلة من هؤلاء فتحت لهم أبواب السماء فأدركوا جمال النجوم وفرحوا بها واطمأنوا لمناظرها، ولم تقف عقولهم عند الطبقة الدنيا في زينة جزئية، ولكن هؤلاء أكثرهم وقف عند ظواهر النجوم وبريقها ولمعانها، وظنوا أنهم من المفكرين، وفريق من هؤلاء قالوا: كلا.

النجم أخبرنا بأن وراءه ... حكماً تجل عن العقول وتعظم

وهؤلاء أخذوا يدرسون علوم النجوم ومقاديرها وأبعادها وحركاتها وبهجة نظامها ومجموعاتها الشمسية والمجرات والسدم « جمع سديم »، فهؤلاء دهشوا من ذلك الجمال البارع ووقفوا عند ذلك، وظنوا أن هذا غاية ما تصل إليه الألباب، ومن هؤلاء أفراد نبلاء قالوا: إن النظرين السابقين إن هما إلا حجابان نورانيان كما كانت قوة الشهوة والغضب حجابين ظلمانيين ثم قالوا:

إذن هنا أربعة سجون: سجنان ظلمانيان، وسجنان نورانيان. فالسجنان الظلمانيان: الشهوة والغضب. والسجنان النورانيان: سجن جمال العوالم الظاهري، وسجن إدراك حسابها وإتقانها وإبداعها فهذان حجابان لطيفان جميلان، والله وراء ذلك كله، ولم يبح لنا ونحن في حالنا هذه إلا أن نشاهد آثار صنعه من خلال هذا الجمال آناً فآناً، فتجد الأشواق على مقدار إدراك الجمال، هذه نظرتي العلمية سحراً.

أما نظرتي العملية

فإني لما انفلق عمود الصباح وشاهدت جحافل الأنوار تتلوها جحافل وهن يغزون جيوش الظلام ونصر الأولى يلازم انهزام الثانية، وقد أخذ مليك تلك الجحافل وهو الشمس بموكبه العظيم

يقترب من أفقنا شيئاً فشيئاً، وقد انتشر النور في جميع الأقطار وعم جميع الممالك، هنالك هالني هذا المنظر ورأيت ما أدهشني، ملك يقبل ويتقدمه جنود مجندة وتهتز له الأرض شرقاً وغرباً. رباه هذا ملك عظيم ليس في أرضنا نظيره، أي ملك هذا الذي لمقدمه يقوم كل نبات وكل حيوان وكل إنسان وكل ملك وكل صعلوك، هؤلاء متى أقبل هذا الملك نراهم جميعاً له شاخصون.

أي ملك هذا الذي بقدوم موكبه قبل ظهور طلعته تهتز الممالك شرقاً وغرباً، وتقف لمقدمه الجموع تتلوها الجموع، لا فرق في ذلك بين الصناع في دور صناعاتهم والفلاحين في حقولهم ورجال الجيش في ثكناتهم وقوادهم وملوكهم فوق عروشهم. كل هؤلاء يهرعون لمشاهدة ذلك الموكب الذي يتقدم حضور ذلك الملك العظيم. هنالك هنالك يشاهدون طلعته ويفرحون بمنظره، ومتى أقبل عليهم يكسوهم حللاً سبعة بهية مصبوغة بألوان كثيرة لا تحصى وأشهرها سبعة: الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والبنفسجي والنيلي، فهذه متى أقبل نفس الملك أعطى هذه الأمم كلها تلك الحلل، ولدقة نسجها وحسن سبكها ظهرت لهم بهيئة لون البياض الجميلة فازدانت آفاقهم وهم في السعادة رافلون، ذلك الملك هو الشمس، وذلك الموكب هو الفجر ونور الصباح.

لعل نظر الحكماء في جمال العوالم الظاهر، ثم تعمقهم في إدراك الأسرار المحجوبة عن عيونهم كنظر أهل الأرض جميعاً موكب الشمس قبل طلوعها، فهم لذلك يستيقظون ويعقب ذلك أن يشاهدوا خلقها، فكما كان هؤلاء يرون موكب الفجر والصباح مقدمة لطلوع الشمس وإشراقها على جميع أهل الأرض.

هكذا كان موكب الجمال الظاهري للنجوم والجمال الباطني للعوالم من حيث إتقانها ودقتها مقدمة لإشراق شمس الذات العلية على أولئك الذين استعدوا للنظر إليها أولاً بالخروج من سجون القوتين الشهوية والغضبية، وثانياً بالابتهاج بجمال الحجابين الجميلين: حجاب جمال العوالم الظاهر، وحجاب جمالها الباطن، فهؤلاء إذا فارقوا السجون الأربعة شاهدوا الملك كساهم حللاً بهجة من العلم والحكمة، نسبتها إلى جمال نور الشمس وإبداع صنعه وحسن نسيجه ودقة وضعه من الألوان البديعة الكثيرة، وآثار ذلك النور من حيث الهداية في سبل الأرض وإنعاش القوى النباتية والحيوانية والإنسانية كنسبة خالق الشمس ومبدعها إلى جرم الشمس، فكما لا نسبة بين الشمس وصانعها من حيث العظمة والجلال والجمال والآثار، هكذا لا نسبة بين نور الشمس المشرق على أهل الأرض وبين إشراق النور الإلهي على المصطفين الأخيار في هذه الدار وتلك الدار.

لما هالني ذلك المنظر رفعت طرفي إلى السماء وقلت: يا الله عجباً، ما هذه العناية، ما هذه الدنيا ما هذه العوالم، أكل هذه العوالم مسخرات لنا. ومن نحن حتى تعنى بنا هذه العناية؟.

رباه، أهذه الشمس لنا نحن؟ عجباً، أهذه الكواكب التي هي شموس أكبر من شمسنا ومنها العيوق الذي هو شمس الشموس يفوق شمسنا فوق مليوني مرة من حيث الحجم، وهناك كوكب من كواكب الجوزاء يفوق شمسنا من حيث حجمها ٢٥ مليون مرة، أهذه كلها لنا نحن؟ سبحانك، ومن نحن حتى تسخر هذه العوالم كلها لنا؟.

رباه أنا لا أقول إنها كلها خاصات بنا كما كان يقول قدماؤنا، كلا. إن لكل كوكب على ما يظهر لنا في الأرض سكاناً في سياراته التي تسير حوله يشرق عليها، ولكن ما من كوكب من تلك الكواكب إلا وهو مكمل لنا نحن على أرضنا هذه الضئيلة، فهي ترسل لنا ضوءاً وحرارة ولو ضئيلين وهكذا يهتدي ربان السفينة في بحر الظلمات والبحر الهندي وبحر البلطيق وجميع بحار الأرض بمواقع كواكب كثيرة في أقطار السماوات، فهن وإن خلقن أولاً بالذات لمنافع سكان سياراتهن وأراضيهن، هكذا هن نافعات لنا عرضاً مكملات لحياتنا، فلولا دراستهن لم نتمكن من الانتقال من مملكة ومن قارة إلى قارة.

رباه، إن إبداعك العجيب وصنعك الجميل، عوالم تتلوها عوالم، كلهن مسخرات لنا، إما بالذات وإما بالتبع.

أكل هذه العناية لنا نحن، حار فكري يا رباه في هذه العوالم العظيمة المشرقات. لقد عهدنا نحن أهل الأرض في تربية ناشئتنا أن تكون للتربية مقاصد ونتائج، والنتائج مناسبات للمقدمات، وعهدنا النحل تربي ملكاتها تربية خاصة وتطعمهن عسلاً غير الذي تطعمه جندها وحماتها، وتلاميذنا في المدارس العالية قد أعدهم الناس للإصلاح العام والقيام بنظام الشعوب وحكمتها وجميع شؤونها في هذه الحياة، وهذه العوالم المحيطة بنا عوالم هائلة عظيمة لا نسبة بينها وبين نظام مدارسنا إلا كنسبة عظمتك وجلالك وجمالك إلى ضعفنا وافتقارنا في هذه الحياة، أو كنسبة عدم تناهي حياتك أزلاً وأبداً إلى قصر أعمارنا وقصور قوانا ونحن غرقى في غمرة الجهالات، فماذا يراد بنا؟ ولعل الجنة التي وعد بها المتقون خطوة أولى في سبيل الارتقاء.

أنا الآن استبان لي يا رباه أننا خلقنا لأمر عظيم وبهي وجميل، إن عوالم الجنان لا ندرك منها إلا النزر اليسير. إن مستقبلنا باهر. إن أمر الوجود لعظيم.

ولعلنا بهذه التربية العظيمة نستأهل لإدارة شؤون بعض عوالم صغيرة لا نعرفها الآن، ونكون مسلمين وجوهنا لك قائمين بالنظام العام بحسب ما تسنه لنا ونحن به ملهمون، وإلا فما هذه المواكب والكواكب، وما هذه التربية العجيبة، وما هذه العناية التامة الكاملة، ولعلنا نركب طبقاً عن طبق في الارتقاء حتى نصل لعوالم تناسبنا ونكون ملهمين إذ ندير شؤونها كما ندير الآن ممالكنا ومدارسنا لتعليم الناشئين، ولعل كلًّا منا سيكون بعد الموت في عمل يناسب عمله في الأرض الآن، إن كل عمل من أعمالنا إن هو إلا بإمدادك ومساعدتك للعاملين، ولعل أعمالنا هناك تكون قائمة بالإلهام الإلهي.

رباه إنا في الأرض لا نعلم ما خبأته لنا من الجمال والبهاء والنور والعرفان، ولا ما نحن قادمون عليه، وكل ما نقوله إن هو إلا ضرب من الحدس والتخمين والحقيقة وراء عقولنا، فلنفوض الأمر إليك، ولكن اليقين عندنا الآن أننا خلقنا لأمر عظيم جداً مجهول لنا جهلاً تاماً.

فنحن نبتهل إليك أن تزيد قلوبنا نوراً وعقولنا إشراقاً وتهدينا سبلنا في هذه الحياة وغيرها، ولا تصرفنا عن آياتك لنرى وجهك الكريم.

تذكرة: لما سمع صاحبي هذا أخذ يحدثني قائلاً: ماذا تقصد بقولك: ولا تصرفنا عن آياتك أتخاف من الكفر بعد هذه السن والعمل؟ فأرجو تبيان هذا المقام، وهل يصرف العلماء عن آيات الله وهم هم الذين يعلمون غيرهم الدين وأحكامه وقواعده.

فقلت له: حياك الله أيها الأخ وأنار بصيرتك وشرح صدرك، إن كثيراً من العامة وصغار العلماء من كل دين ونحلة، يعيشون ويموتون ولا هم يذكرون، تحيط بهم الآيات وهم عنها غافلون لا يعقلون ولا يتفكرون صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون، نعم يصلون ويصومون ويزكون ويحجون، فهذه كلها مقدمات للمعارف والعلوم ولكن الآيات شيء وراء ذلك، بل ربما اغتر العالم بعلمه وفرح به وانصرف عن هذا الجمال البارع، وصدق عليه قول الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. هذه الحدائق والجنات والحقول في الأرض، يرى الإنسان الحشرات طائفات فيها للإلقاح، ولا علم للناس ولا لنفس الحشرات بهذا العمل، فهل يعلم العامة وصغار العلماء في الإسلام مثلاً أن هذه الحشرات لولا طوافها في الحدائق لم نأكل الفاكهة ولم نتمتع بها، كلا ثم كلا، مع أنهم لو فكروا قليلاً لرأوا أن هذه الحشرات والأنعام والإنسان من حيث أعمالها في الحقول، هذه بإلقاحها وهذه بعملها في الحرث والسقي وهؤلاء بإدارة شؤون المزارع وحفظها، أشبه بجسم إنسان واحد، فعينه لا تعلم أعمال الأذن، ورجلاً لا تعقل عمل يديه، ومعدته غافلة عن عمل الكبد والطحال والحالبين والمثانة والأمعاء، وقلبه يجتذب الدم من أعماق الجسم ويوزعه بالأورطي في أعلى الجسم وأسفله وهو غافل عن عمله.

ولكن فوق هذه الأعضاء كلها قوة عاقلة مدبرة في الدماغ تعلم أعمال اليد والرجل والعين والأذن، وتعرف اختلال هذه الأعضاء بآلام الأمراض، فهي التي تستخدم تلك الأعضاء التي تحت إشرافها فيما يناسبها وما هي جديرة به، ولولا هذه القوة العاقلة المدبرة لكانت هذه الأعضاء مخلوقة عبثاً، هكذا هذه الحشرات، وهذه الأنعام والبهائم، وهؤلاء الناس كلهم فهم جميعاً يعملون، ولكن أحدهم لا يعلم عمل الآخر، فلا الفلاح يعقل ما تفعله الحشرات في الحقل من الإلقاح، ولا الحشرات تعلم ما هو الإنسان ولا ما عمله، ولكن هناك قوة عليا مدبرة تعلم أن عمل كل دابة يجعل النظام تاماً كما نستخدم نحن أيدينا وأرجلنا وعيوننا وآذاننا في أعمالنا، وكل واحد من هذه الأعضاء لا علم له بعمل الباقين. فأنا أيها الأخ أقول: هل هذه الآراء، بل هذا البرهان الذي يحيط بنا ونحن لا نفكر فيه إلا قليلاً، يشعر به العامة وصغار العلماء. قال: كلا ثم كلا. هذه آراء غريبة مع أنها مشاهدة، فالناس يشاهدون ذلك ولكنهم لا يفكرون فيه ولا يخطر لهم على بال، ولم أجد فرقاً بين العامة والعلماء في ذلك.

قلت: أيها الأخ. إذا صح هذا أفلا يكون ذلك تفسيراً لآية: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، فإذا رأيت صغار العلماء وجهلة الصوفية قد صرفوا عن هذا واكتفوا بقشور العلوم في الديانات؛ أفلا يقال لهم وهم مؤمنون بالله: إنهم عن آيات الله مصروفون، وعن آلائه معرضون، نعم الآية واردة في حق الكفار، ولكن هذا على سبيل الاعتبار.

أولا ترى أن هذا يمت بسبب إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾[الأعراف: ٤٠] الخ. أفلا ترى أيها الأخ أن الإعراض عن هذه النظرات أشبه بالتكذيب نوعاً ما، فإنا إذا آمنا بالله ولكنا عمينا عن هذا الجمال المشاهد حولنا في الأرض وفي السماء، فكيف نفرح بهذه السماء، وكيف نبتهج بالنجوم وندرسها لجمالها وبهجتها، وكيف ننتفع بمثل قوله: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾[الحجر: ١٦]، وهل قوله: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾[الحجر: ١٧] إلا لنعرف أن من غفلوا عن هذه العجائب في حكم الشياطين، وإلا فما عبرتنا من مثل هذه الآية، فهم يرون السماء ولكنهم لا يدركون الحسن والإشراق والبهجة والجمال، فهم هم الذين لا تفتح لهم أبواب السماء، ومن لا تفتح له أبواب السماء بالعلم وإدراك الجمال في هذه الحياة، فكيف يدخل الجنة، وهذا قوله تعالى بعدها: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[الأعراف: ٤٠] نعم ربما دخلوا الجنة الحسية إن عملوا أعمالاً صالحة، أما جنة العرفان فلا، فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾[الأعراف: ٤٢] تعميم للرحمة وتبيان أن رحمة الله واسعة تسع من أدرك الجمال في هذه العوالم، فهو في حضرة الذات العلية يشاهد الجمال والنور والإشراق بما نال من الحكمة والعلم وتسع من قصر نظره على المحسوسات، ولم يعرف من الدين إلا ظواهره وعمل صالحاً، فهؤلاء يدخلون الجنة الحسية، لأن رحمة الله واسعة، وهذا قوله في هذه الآية: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾[الأعراف: ٤٢]، فالمقتصرون على العمل لهم جنة، والمتغلغلون في العلم لهم جنة أعلى.

ضرب مثل

إنّما مثل هذه الدنيا والناس فيها كمثل قصر مشيد مزين بأنواع الزينة وفيه سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة، قد زينت سقوفه وحيطانه بأكمل زينة، حيطانه من ذهب وفرشه من حرير وإستبرق، قد ازدانت بأجمل الأحجار الثمينة من الدر والمرجان والعقيق والزمرد وكل جميل وبهي بهيج، ورب ذلك القصر ملك عظيم الشأن قوي السلطان وقد أعد في قصره الولائم ودعا لها جميع رجال مملكته، وقال لهم: كلوا وتمتعوا واشربوا هنيئاً.

فأي رجال مملكته أشرف؟ أولئك الذين اكتفوا بأنواع الطعام والشراب والفاكهة والحلوى وعكفوا على الموائد وهم غافلون؟ أم أولئك الذين شرفهم الملك بحضور مجلسه والاستماع لحديثه والتلقي عنه؟.

فقال صاحبي: بل هؤلاء أشرف مقاماً، وأعلى منزلة، وأعظم جاهاً، أما الأولون فهم كدواب القصر لا يفقهون إلا إشباع بطونهم ونهم نفوسهم فهم قاصرون.

فقلت: أيها الأخ، أفلست ترى القسم الأدنى أقرب إلى قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[الأعراف: ١٤٦]، وإلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾[الأعراف: ٤٠]. وأن القسم الأعلى أقرب إلى آية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[آل عمران: ١٨]، وإلى قوله:

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[القمر: ٥٥]، وكيف يكونون عند مليك مقتدر إلا إذا كانت حياتهم الدنيا مصروفة إلى التفكر في هذه العجائب، فهؤلاء هم الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، لأنهم يشهدونه عند كل حجر وشجر. انتهى الفصل الرابع.

الفصل الخامس

في مبحثين: المبحث الأول: في أقسام الحكمة مع ما يناسبها من آيات القرآن.

المبحث الثاني: في نظرات المؤلف، وبهجة النجوم في السماء.

المبحث الأول

نذكر في هذا المبحث فهرست العلوم التي ذكرت في كتاب «إخوان الصفاء» الذي ألف منذ ألف سنة للثقافة العامة الإسلامية، ولم يكن ليطلع عليه إلا أفراد في كل أمة، فهذا الفهرست إذا أثبتناه هنا فليس معناه أننا نوافق على كل ما فيه، كلا فإننا لا نوافق على بعض ما فيه:

(١) مثل كلامهم في العزائم والسحر، ولذلك حذفنا الرسالة المعنونة بهذا العنوان.

(٢) ومثل ذكر أن العناصر أربعة، وهي المعروفة إذ ذاك، فإن العناصر اليوم بلغت فوق الثمانين عدًا.

(٣) ومثل قولهم: إن نفوس البهائم ملائكة خاضعة للإنسان والآساد مثلاً شياطين تعصيه، فهذه أقوال شعرية، يقولونها على سبيل التمثيل والتشبيه وغير ذلك من المباحث، فلا نطيل في تعدادها.

ونحن نرى من جهة أخرى أن رسالة العدد تمت بسبب إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣]، وإلى قوله: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[الرعد: ٤١]. ورسالة الهندسة تنحو نحوها، ورسالة النجوم تمت بسبب أيضاً إلى قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[الواقعة: ٧٥-٧٦] الخ. ويلحق بها الموسيقى من حيث النظام والإتقان والحساب، وأما أمثال الجغرافيا، وعلم النبات، وعلم الحيوان، وعلم المعادن وأمثالها، فهذه العلوم أمرها معلوم، والقرآن يحض على ذلك، وكتاب «الجواهر» فصل ذلك كله من أوله إلى آخره بهيئة سهلة، وصور مرسومة وترى أمثال الحاس والمحسوس يرجع لعلم النفس الذي شرح كثيراً في التفسير، وبالجملة أن أكثر هذه الرسائل قد أدرج ما هو أجمل وأبهج منها، وأوضح في كتاب «تفسير الجواهر»، وقصدنا من ذكرها هنا أن يقف الخلف على ما عند السلف، وأن يلتقطوا الحكمة حيث وجدوها، ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[البقرة: ٢٦٩].

واعلم أن الشبهات التي ترد على الإنسان من أمثال هذه الكتب قد جعلها الله عز وجل مهمازاً يسوق به النفوس إلى البحث، فعقولنا يجب أن تكون دائماً عاملة مفكرة مخلصة الذهب من معادنه، وقد آن أن نذكر لك ذلك الفهرست.

فنقول: جاء في أول الجزء الأول من كتاب «إخوان الصفاء» ما نصه: فهرست: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، وأهل العدل، وأبناء الحمد، بحمل معانيها، وماهية أغراضهم فيها، وهي اثنتان وخمسون رسالة في فنون العلم، وغرائب الحكم، وطرائف الآداب، وحقائق المعاني عن كلام الخلصاء الصوفية، صان الله قدرهم، وحرسهم حيث كانوا في البلاد، وهي مقسومة على أربعة أقسام: فمنها

رياضية تعليمية، ومنها جسمانية طبيعية، ومنها نفسانية عقلية، ومنها ناموسية إلهية، فالرسائل الرياضية التعليمية أربع عشرة رسالة:

الرسالة الأولى منها: في العدد وماهيته، وكميته، وكيفية خواصه. والغرض المراد من هذه الرسالة: هو رياضة أنفس المتعلمين للفلسفة المؤثرين للحكمة، الناظرين في حقائق الأشياء، الباحثين عن علل الموجودات بأسرها، وفيها بيان أن صورة العدد في النفوس مطابق لصور الموجودات في الهيولى، وهي أنموذج من العالم الأعلى، وبمعرفته يتدرج المرتاض إلى سائر الرياضيات والطبيعيات، وأن علم العدد جذر العلوم، وعنصر الحكمة، ومبدأ المعارف، واسطقس المعاني.

الرسالة الثانية منها: في الهندسة، وبيان ماهيتها، وكمية أنواعها، وكيفية موضوعاتها. والغرض المقصود منها: هو التهدي للنفوس من المحسوسات إلى المعقولات، ومن الجسمانيات إلى الروحانيات، ومن ذوات الهيولى إلى المجردات، وكيفية رؤية البسائط التي لا تكثر ولا تزداد، ولا تنفرد بالاتحاد، ولا تتقدر بمقدار ولا انحصار في الأقطار، كالصورة المجردة المعراة من المواد المبرأة من الهيولى، والجواهر المحضة الروحانية، والذوات المفردة العلوية التي لا تدرك بالعيان، وفوق الزمان والمكان، وكيفية الاتصال بها والاطلاع عليها والترقي بالنفس إليها.

الرسالة الثالثة منها: في النجوم، شبه المدخل في معرفة تركيب الأفلاك، وصفة البروج، وسير الكواكب، ومعرفة تأثيراتها في هذا العالم، وكيفية انفعال الأمهات، والمواليد منها بالنشو والبلى والكون والفساد. والغرض منها: هو تشويق النفوس الصافية للصعود إلى عالم الأفلاك، وأطباق السماوات، منازل الروحانيين، والملائكة المقربين، والملأ الأعلى، والجواهر العلى، والوصول إلى القدس والروح الأمين.

الرسالة الرابعة منها: في الموسيقى، وهو المدخل إلى علم صناعة التأليف والبيان، بأن النغم والألحان الموزونة لها تأثيرات في نفوس المستمعين لها، كتأثير الأدوية والأشربة، والترياقات في الأجسام الحيوانية، وأن للأفلاك في حركاتها ودورانها واحتكاك بعضها ببعض نغمات مطربة ملهية، وألحاناً طيبة لذيذة معجبة منها كنغمات أوتار العيدان والطنابير، وألحان المزامير. والغرض منها: التشويق للنفوس الناطقة الإنسانية الملكية للصعود إلى هناك بعد مفارقتها الأجساد التي تسمى الموت، لأنه إلى هناك يعرج بأرواح النبيين والصديقين والشهداء والصالحين المحققين المستبصرين، كما بين الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ١٨-٢٠].

الرسالة الخامسة منها: في جغرافيا، يعني صورة الأرض والأقاليم، والبيان بأن الأرض كروية الشكل بجميع ما عليها من الجبال والبحار والبراري والأنهار والمدن والقرى، وأنها حية تشبه بجملتها صورة حيوان تام عابد لله تعالى، بجميع أعضائها، وأجزائها وظاهرها وباطنها، وكيفية تخطيطها، وتقديرها ومسالكها وممالكها. والغرض منها: هو التنبيه على علة ورود النفس إلى هذا العالم، وكيفية اتحادها، وعلة ارتباطها بغيرها، واستعمالها الحواس، واستنباطها للقياس، والتنبيه على خلاصها، والحث على النظر والتفكر فيما نصب الله لنا من الدلالات، وأرانا من الآيات التي في الآفاق والأنفس

حتى يتبين للناظر أنه الحق فيتمسك به ويزدلف إليه، ويتوكل في أحواله عليه، فيستعد للرحلة، والتزود إلى دار الآخرة قبل الممات، وفناء العمر، وتقارب الأجل، وفوت الأمل ووجدان الحسرة والندامة.

الرسالة السادسة منها: في النسب العددية والهندسية والتأليفية، وكمية أنواعها وكيفية ترتيبها. والغرض منها: التهدي لنفوس العقلاء إلى أسرار العلوم وخفياتها وحقائقها، وبواطن الحكم، ومعانيها. والوقوف على أن الموجودات المختلفة القوى المتباينة الصور المتنافرة الطباع إذا جمع بينها على النسبة المتعادلة ائتلفت وصحت وبقيت ودامت، وإذا كانت على غير النسبة المتعادلة اضطربت وتنافرت حتى اضمحلت وفنيت وما اعتدلت، ولا استقام شيء إلا على قدر المناسبة، وصحة الائتلاف، وبمعرفة كمية ذلك وكيفيته يكون الحذق والمهارة بالصنائع كلها، والتبرز فيها.

الرسالة السابعة منها: في الصنائع العلمية النظرية، وكمية أقسامها، وكيفية مراتبها، وإيضاح طرائقها ومذاهبها. والغرض منها: تعديد أجناس العلوم، وأنواع الحكم، وبيان أعراضها، وحقائقها، والتهدي لطلب العلوم والحكم والتوقيف عليها، وكيفية الطريق إليها، وبيان معرفتها.

الرسالة الثامنة منها: في الصنائع العملية والمهنية. وتعديد أجناس الصنائع العملية والحرف. والغرض منها: هو تنبيه نفوس الغافلين على معرفة جواهرها التي هي الفاعلة على الحقيقة التي هي المستنبطة الصنائع كلها المستعملة لأجسامهم، المستخدمة لأبدانهم، إذ هي للصنائع كالآلات للنفوس والأدوات لها، تستعملها لتبلغ بها غرضها على اختلاف مقاصدها، وفنون حاجاتها.

الرسالة التاسعة منها: في بيان اختلاف الأخلاق، وأسباب اختلافها، وأنواع عللها، ونكت من آداب الأنبياء وسننهم، وزيد من أخلاق الحكماء وسيرهم. والغرض من ذلك منها: تهذيب النفوس وإصلاح الأخلاق اللذان بهما الوصول إلى البقاء الدائم، والسرور المقيم، وكمال السعادة الباقية في الدنيا والآخرة

الرسالة العاشرة منها: في إيساغوجي، وهي الألفاظ الستة التي تستعملها الفلاسفة في المنطق وفي أقاويلهم ومخاطباتهم في كتبهم وحججهم وبراهينهم. والغرض منها: هو التنبيه على ما يقوم ذات الإنسان ويتممه ويعرفه البقاء الدائم، ويعرفه الفرق بين الكلام المنطقي، واللغوي والفلسفي، وما حقيقة كل واحد منها، وبيان ما يحتاج من ذلك إليه لتسديد العقل، وتثقيفه نحو الحقائق، ورده عن الزلل والغلط، كما يحتاج إلى النحو لتسديد اللسان، وتقويمه نحو الصواب، ورده عن اللحن، لأن نسبة صناعة المنطق إلى العقل والمعقولات مثل نسبة صناعة النحو إلى اللسان والألفاظ.

الرسالة الحادية عشرة منها: في قاطيهورياس، وهو البيان عن المعقولات الكليات، وهي الألفاظ العشرة التي كل واحد منها اسم لجنس من الموجودات كلها. والغرض منها: هو البيان بأن معاني الموجودات كلها قد اجتمعت في هذه المعقولات العشرة التي يسمى كل واحد منها جنساً من الأجناس، والأجناس داخلة فيها، وكيف تتقسم الأجناس إلى الأنواع، والأنواع إلى الأشخاص، والأشخاص إلى الأمهات، وأنها حدائق الآداب وبساتين العلوم، وجنات الحكم، وفواكه النفوس، ونزه الأرواح.

الرسالة الثانية عشرة منها: في باريمانياس، وهي الكلام في العبارات وأداء المعاني على حقها، والإبانة عنها. والغرض منها: تعريف الأقاويل الجازمة المفردة البسيطة الجملية، التي هي أقسام الصدق والكذب وكيف تحصل المقدمات القياسية، وتركيبها من الألفاظ البسيطة المفردة، وتقابل الإيجاب والسلب، وتقسيم أصناف الأقاويل، وأنها هي الجازم الذي منه تتركب المقدمات البرهانية، وما الاسم وما الكلمة وما القول المطلق، وما القول الجازم، وما الموجبة، وما السالبة، وما المحصل والمستقيم والعدول، وما القضايا الثنائية والثلاثية والرباعية، وما العناصر الثلاثة: من ضروري وممكن وممتنع، وما الضد وما النقيض، وغير ذلك مما يحتاج إليه في مقدمات القياس.

الرسالة الثالثة عشرة منها: في انولوطيقا الأولى، وهي القياس. والغرض منها: هو بيان كمية القياس الذي تستعمله الحكماء والمتكلمون في احتجاجاتهم، والدعاوى، والبينات والمناظرات في الآراء والمذاهب، وأنه الميزان بالقسط، وصنعته الفلاسفة ليعرف به الصدق من الكذب في الأقاويل، والخطأ من الصواب في الآراء، والحق من الباطل في الأفعال، وأي شيء يكون وكيف يكون ومتى يكون، وأيها الصحيح وأيها الفاسد.

الرسالة الرابعة عشرة منها: في انولوطيقا الثانية، وهي البرهان. والغرض منها: هو البيان والكشف عن كيفية القياس الصحيح الذي لا خطأ فيه ولا زلل، وهي المسمى البرهان، وهو ميزان البصائر، يقيم الوزن بالقسط، ومثاقيلها بداية العقول، والمعارف الأولى يستعملها الصيارفة الإلهيون من الحكماء الذين يعرفون به الصواب من الخطأ، والحق من الباطل، ويوضح الحق المبين والعلم اليقين. تمت الرسائل الرياضية التعليمية والفلسفية.

ومنها الرسائل الجسمانية الطبيعية، وهي سبعة عشرة رسالة:

الرسالة الأولى منها: في الهيولى، والصورة، وماهيتهما، وما الزمان والمكان، والحركة، واختلاف أقاويل الحكماء في حقائقها، وكيفياتها. والغرض منها: هو تعريف ماهية الجسم وحقيقته وما يخصه من الأعراض اللازمة والزائلة، والصور المقومة والمتممة، ولقب هذه الرسالة بسمع الكيان.

الرسالة الثانية منها: في السماء والعالم، وبيان كيفية أطباق السماوات، وكيفية تركيب الأفلاك، وما هو العرش العظيم، وما هو الكرسي الواسع. والغرض منها: هو البيان عن كيفية تحريك الأفلاك وتسييرات الكواكب، وأن المحرك لها كلها هو الروح القدس، والنفس الكلية الفلكية الموكلة بها بإذن بارئها.

الرسالة الثالثة منها: في الكون والفساد. والغرض منها: هو البيان عن ماهية الصور المقرمة لكل واحد من الأركان الأربعة، أعني الأمهات التي هي: النار والهواء والماء والأرض، وأنها هي الأمهات الكلية، الكائن منها: المعدن والنبات والحيوان، وكيفية استحالة بعضها إلى بعض باختلاف كيفياتها عليها بدوران الأفلاك حولها، ومطارح شعاعات الكواكب عليها، وأن الطبيعة الفاعلة لها المحركة لكل واحد منها إلى كمالها وغايتها، هي قوة من قوى النفس الكلية الفلكية، وملك من جملة الملائكة الموكلة بها، وسائقة لها إلى تمام ما أعد لها من غايتها.

الرسالة الرابعة منها : في الآثار العلوية . والغرض منها : هو البيان عن كيفية حوادث الجو، وتغييرات الهواء من النور والظلمة، والحر والبرد، وتصاريف الرياح من البحار والأنهار، وما يكون منها من الغيوم والضباب، والطل والندى، والأمطار والرعود والبروق والثلوج والبرد، والهالات وقوس قزح، والشهب وذوات الأذناب، وما شاكل ذلك.

الرسالة الخامسة منها : في كيفية تكوين المعادن، وكمية الجواهر المعدنية، وعلة اختلاف جواهرها، وكيفية تكوينها في باطن الأرض. والغرض منها : هو البيان بأنها أول مفعولات الطبيعة التي هي دون فلك القمر التي هي قوة من قوى النفس الكلية الفلكية بإذن بارئها المصور للجميع، والموجد للكل، لا من موجد إبداعاً واختراعاً وخلقاً وتكويناً، ومنها تبتدئ الأنفس الجزئية بالتهدي الباعث بها إلى الترقي من أسفل سافلين، من مركز الأرض إلى أعلى عليين، عالم الأفلاك، وفوق السماوات، موقف الأبرار المتقين، ومقر الأخيار المستجيبين، ومحل الأنبياء المرسلين، وهذا أول صراط تجوز عليه الأنفس الجزئية ثم النبات بوساطة الكون والنمو، ثم الحيوان بواسطة الكون والنمو والحس، ثم الإنسان بواسطة الكون والنمو والحس والعقل، ثم التجرد والدخول في زمرة الملائكة الذين هم سكان الأفلاك والملأ الأعلى الذين هم أهل السماوات.

الرسالة السادسة : في ماهية الطبيعة، وكيفية أفعالها في الأركان الأربعة التي هي الأمهات، ومواليدها التي هي : الحيوان، والنبات، والمعادن، والفرق بين الفعل الإرادي من الفكري والشوقي. وبين الضروري من الطبيعي والقهري. والغرض منها : تنبيه الغافلين على أفعال النفس، وماهية جوهرها، والبيان عن أجناس الملائكة، وهي التي تسميها الفلاسفة روحانيات الكواكب الموكلة بإنشاء المواليد بتحريكها إلى استكمال صورها والتمام المعد لها.

الرسالة السابعة منها : في أجناس النبات وأنواعها، وكيفية سريان قوى النفس النامية فيها. والغرض منها : هو تعديد أجناس النبات، وبيان كيفية تكوينها ونشوها واختلاف أنواعها من الأشكال والألوان والطعوم والروائح في أوراقها وأزهارها وثمارها وحبوبها وبزورها وصموغها ولحائها وعروقها وقضبانها وأصولها، وغير ذلك من المنافع، وأن أول مرتبة النبات متصلة بآخر مرتبة المعادن، وآخر مرتبتها متصلة بأول مرتبة الحيوان.

الرسالة الثامنة منها : في أصناف الحيوان وعجائب هياكلها، وغرائب أحوالها، والغرض منها هو البيان عن أجناس الحيوانات، وكمية أنواعها واختلاف صورها وطبائعها وأخلاقها، وكيفية تكوينها ونتاجها وتوالدها وتربيتها لأولادها، وأن أول مرتبة الحيوانية متصلة بآخر مرتبة النبات، وآخر مرتبة الحيوانية متصلة بأول مرتبة الإنسانية، وآخر مرتبة الإنسانية متصلة بأول مرتبة الملائكة الذين هم سكان الهواء والأفلاك وأطباق السماوات، وأن نفوس بعض الحيوانات ملائكة ساجدة لنفس الإنسان التي هي خليفة الله في أرضه، ونفوس بعضها راكعة له، ونفوس بعض الحيوان شياطين عصاة مغلغلة في جهنم عالم الكون والفساد، وأن الإنسان إذا كان خيراً عاقلاً فهو ملك كريم خير البرية، وإذا كان شريراً فهو شيطان رجيم شر البرية.

الرسالة التاسعة منها: في تركيب الجسد، والبيان بأنه عالم صغير، وأن بنية هيكله تشبه مدينة فاضلة، وأن نفسه تشبه ملكاً في تلك المدينة. والغرض منها: هو معرفة الإنسان، جسده وبنيته المهيأة له، وأن انتصاب القامة أجل أشكال الحيوانات، وأن بنية جسد الإنسان مختصر من العالم الذي هو في اللوح المحفوظ، وأنه الصراط الممدود بين الجنة والنار، وأنه ميزان القسط الذي وضعه الله بين خلقه، وأنه الكتاب الذي كتبه الله بيده، وصنعته التي صنع الله بنفسه، وكلمته التي أبدع الله بذاته، وأن النفس الإنسانية هي خليفة الله في أرضه، حاكماً بين خلقه، سائساً لبريته، مستعملاً لعالمه السفلي مدة من الزمان، فإذا انتقل صار زينة لعالمه العلوي وحافظاً لذاته الوجودي على الأبد، وأن الإنسان إذا عرف نفسه المستخلف عرف ربه الذي استخلفه، وأمكنه الوصول إليه والزلفى لديه، فائزاً بنعيم الأبد والدوام السرمد.

الرسالة العاشرة منها: في الحاس والمحسوس. والغرض منها هو البيان عن كيفية إدراك الحواس محسوساتها، واتصالها بواسطة القوة الحاسة، واتصالها إلى الحاسة المشتركة الروحانية الواصلة التي منها انبعثت قوى الحواس الظاهرة، وأنها ترد كالخطوط الخارجة من المركز إلى المحيط بنقط كثيرة، الراجعة إليه بنقطة واحدة، وهو أول منازل الروحانية، إذ القوة الحاسة المؤدية إليه جسماني بوجه وروحاني بوجه، والحاسة المشتركة، أعني: الداخلة، روحانية محضة، لأن حكم الجزء منها حكم الجميع وإن كانت التجزئة لا تقع عليه بالحقيقة، لأن تصورها الشيء بإدراكها واتصالها إلى القوة المتخيلة التي مجراها مقدم الدماغ لتوصلها إلى القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ لتميزها وتخلصها بجولانها فيها وتعرف حقائقها ثم توصلها إلى القوة الحافظة الذاكرة التي مجراها مؤخر الدماغ لتمسكها وتحفظها معتقدة أو غير معتقدة إلى وقت التذكار، ثم تؤديها إلى القوة الناطقة العاقلة التي هي ذات الإنسان المدبرة للكل الباقية بالذات تنتزع جميع المعاني والصور، ثم تصور تلك المعاني والصور المنتزعة من مصوراتها المترسمة فيها وهي القوة الناطقة أيضاً بوساطة الأولى، فتلك الصورة هي لها كالموضوع وكالهيولى، والقوة المعبرة أيضاً للنطق الخارج هي القوة الناطقة أيضاً على وجه ثان بواسطة الألسن، فإذا همت الأولى بإظهار شيء إلى الخارج، وهو النطق الإلهي على الحقيقة من صورة النفس؛ تصورت النفس الثانية إذ هما جوهر واحد لتجردهما عن المواد وتعريهما عن الهيولى أعني: الجسمانية، فتأدت إلى القوة الناطقة التي مجراها على اللسان، لتعبر عنها بالألفاظ الدالة للمخاطبين على المعاني التي تخرج من النفس إلى القوة الصانعة التي مجراها اليدان لتخط بالأقلام على أوجه الألواح وصفحات الدفاتر وبطون الطوامير، تلك الألفاظ، وهي النطق الخارج والكلام الظاهر، لتبقى العلوم بصورها الذاتية، أعني: معانيها محفوظة من الأولين إلى الآخرين وخطاباً من الحاضرين للغائبين إلى يوم يبعثون.

الرسالة الحادية عشرة منها: في مسقط النطفة وكيفية رباط النفس بها، أعني: الهيولانية عند تقلب حالاتها شهراً بعد شهر، وتأثيرات أفعال روحانيات الكواكب في أحكام بنية الجسد من المزاج والتركيب أربعة أشهر قدر مسير الشمس ثلث الفلك، واستيفائها طبائع البروج من النارية والترابية

والهوائية والمائية ، ثم كيفية تأثيراتها وأفعالها في أحكام النفس أربعة أشهر أخر ، وما ينطبع فيها من التهيؤ والاستعداد التي هي صورة الأولى بالقوة لتصير صورة بالفعل عند التهيؤ لقبول الأخلاق والأعمال والعلوم والآداب والحكم والآراء في مقبل الزمان ومستقبل العمر بعد الولادة في الشهر التاسع عند دخول الشمس من بيت التاسع من موضعها يوم مسقط النطفة بيت الحركة والسفر والنقلة والتصور والعلم والفطنة . والغرض منها : هو الإخبار عن حال الأنفس البسيطة قبل تشخصها واتصالها بالأجسام الجزئية المحصورة المحدودة المحسوسة بوساطة الألوان والأشكال والأعراض الأخر ، وأن المكث في الرحم هذه المدة لتتميم البنية وتكميل الصورة ، وهو الكمال الأول لاستكمال الآلة وإعدادها الأدوات ولاستتمام رباط النفس بالهيكل واتحادها بقواه وانبساطها في البنية وتمكنها من الجملة .

الرسالة الثانية عشرة منها : في معنى قول الحكماء : إن الإنسان عالم صغير وهو معنى العالم الكبير المؤدي عن جملته والمخصوص بثمرته ، وأن صورة هيكله مماثلة لصورة العالم الكبير الجسماني وأن أحوال نفسه وسريان قواها في بنية هيكله وحقيقة جوهره مماثلة لأحوال الخلائق الروحانيين من الملائكة والجن والشياطين وأرواح الحيوانات أجمعين ، فإن الإنسان مختصر من العالمين : الروحاني والجسماني جميعاً ، مهيأ مجبول من سوس هو في الحقيقة خلاصة هذا العالم وثمرته وزبدته ، وكدر ذلك العالم وثقالته ، وأن يكون جوهراً آخر المعاني الجسمانية وأول المعاني الروحانية ، فهو كالحد المتاخم لكل العالمين ، وكالأصل الصالح لمجموع الكمالين ، وكالجوهر الذي هو بإنيته معقول وكيفيته محسوس ، وكالشيء الذي بذاته حياة من وجه وذو حياة من وجه ، وكالذات القائم بنفسه من جهة والقائم بغيره من جهة ، وكالمعنى المشير بمضمون فحواه ، ويفطن بمفهومه لما سواه ، ومن وجه آخر كالفرخ المتفقأ عنه البيضة الذي هو له كمال من وجه ومنتهى للكمال من وجه آخر ، فهو اللازم للوكر مادام طائراً بالقوة ، فإذا استكمل طار فصار طائراً بالفعل ، وكالزاوية التي يوجد ذاتها متوسطو بين المتجزئ وغير المتجزئ ، ثم النقطة جامعة لحاليهما ، أعني البسيط والمركب ، وكالنبوة التي هي ممتدة إلى الروحانيين بخط وإلى الجسمانيين بخط ، ثم الوحي جامع بين طرفيهما والإلهام حاو لحديهما ، وكنهاية المحيط التي هي السطح لذي مكان وليس له مكان ، والغرض من هذه الرسالة هو الإخبار عن حال الأنفس البسيطة قبل تشخيصها واتصالها بالأجسام الجزئية والأشخاص الحسية وعلة اتصالها مدة ، وحال مفارقتها عند بلوغ نهايتها ، وكيف يعرف الإنسان هويته وأنيته وكيفية نفسه وحقيقة ذاته ، وأنه مجموع فيه معاني الموجودات كلها ، فهو كالكل ومحيط بالجميع ، فيتنبه كذلك ويتأمل الصواب والفرصة مدة حياته فيقصده ويقتنيه ويحتويه ، إذ لذلك أنشأه منشئه فيعيده ويبدئه ، ويديمه ويبقيه ، وهو يبليه ويشفيه ، ويهديه لينجيه ، فيفوز بالبقاء والنعيم المقيم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

الرسالة الثالثة عشرة منها : في كيفية نشر الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية والأجسام الطبيعية . والغرض منها : البيان عن كيفية بلوغ الإنسان بدوام انتقاله وتغير أحواله وآخر معاده

ومآله، وكيف يصير إلى رتبة الملائكة، ومنازل الروحانيين، دار القرار ومحل الأخيار عند خلع المادة، وبلوغ الإرادة ونهاية السعادة إلى حلوله بعد الموت أو قبله بوجوده الصوري وجوهره النوري.

الرسالة الرابعة عشرة منها: في بيان طاقة الإنسان في المعارف وإلى أي حد هو، ومبلغه في العلوم، أي إلى أي غاية ينتهي وأي شرف منها يرتقي. والغرض منها: هو التنبيه على معرفة الله جل جلاله، والقصد نحوه، واستنجاز لقائه والوقوف بين يديه، والرجوع بالكلية إليه كما كان منه المبدأ وإليه المعاد والمنتهى.

الرسالة الخامسة عشرة منها: في ماهية الموت والحياة وما الحكمة في وجودها في الدنيا عالم الكون والفساد وما حقيقة المعاد. والغرض منها: هو البيان عن علة رباط الأنفس الناطقة بالأجساد البشرية واتصالها بالأشخاص الجزئية إلى وقت الموت، وكيفية التأهب والاستعداد قبل الموت والاستعجال ما دام الخلاص ممكناً، والنجاة معرضة والأجسام موجودة والآلة متمكنة، والاستهانة بالموت والتجافي عنه وإزالة الخوف منه ببقاء النفس بعد الموت الذي هو مفارقتها الجسد وترك استعمالها إياه، واستراحتها من أذاه، ووصولها إلى عالمها ووجودها مناها وبلوغها منتهاها، وأنه لا سبيل لها إلى البقاء السرمدي الذي لا يتغير ولا يزول إلا بمفارقة الجسد المستحيل الذي هو سبب الانتقال والزوال والتغير من حال إلى حال.

الرسالة السادسة عشرة: في ماهية اللذات والآلام الجسمانية والروحانية، وعلة كراهية الحيوانات الموت، وكيف أسباب الآلام واللذة التي تنال النفوس بسبب الأجسام، وكيف تنال بمجردها إذا فارقت الجسد، وكيف يكون انفرادها بذاتها وتجردها بنفسها خلواً منها وانتهائها إلى الفردانية واتحادها بالجواهر الصورانية والذوات الروحانية، وكيف يكون لذات أهل الجنان وآلام أهل النيران. والغرض منها: هو التصور أن عذاب أهل جهنم كيف يكون مع الجن والشيطان المغللة المقيدة المنكوسة المعكوسة، وأن نعيم أهل الجنان كيف يكون مع الملائكة والروحانيين مسرورين فيها مخلدين لا يمسهم فيها نصب ولا عناء، يتبوؤون من الجنة حيث يشاؤون، وأن جهنم عالم الكون والفساد يصلاها من شقي بسوء المنقلب والمعاد، وأن الجنان في أعالي عالم الأفلاك وسعة السماوات، سعد بها من فاز بعد الممات بذخائر الخيرات والباقيات الصالحات.

الرسالة السابعة عشرة منها: في علل اختلاف اللغات ورسوم الخطوط والعبارات، وكيف مبادئ المذاهب والديانات والآراء والاعتقادات، وأول نشوها وابتداؤها ونماؤها وتزايدها حالاً بعد حال وقرناً بعد قرن، وكيفية انتقالها من قوم إلى قوم، وسبب تغييراتها والزيادة فيها والنقصان منها. والغرض منها: هو التنبيه على أن أفعال النفس إنّما تقع بحسب ما في طبعها وغريزتها، وأن قوة البحث عن الخفيات موجودة في جوهريته، أي: بضمير التذكير اعتباراً للإنسان، أي في جوهرية النفس كالمادة والعلم صورة لتلك المادة، فهي علامة بالقوة والعلم صورة قائمة فيها، وأن في قوتها أن تعلم الأشياء المحسوسة والمعقولة من أصناف العلوم في الأعلى والأسفل والأدق والأجل منها بقوة النطق، ولذلك يسنح لذاته سوانح ويخطر بباله خواطر فيعمل فيها فكره، فيستخرج بعلمه آراء ويستنبط

بذهنه مذاهب، ثم يعبر عن تلك الصورة المتخيلة في ضميره بألفاظ مؤدية عنها، ثم يقيد تلك الألفاظ برسوم من الكتابة دالة على تلك الألفاظ دلالة الألفاظ على تلك الخواطر، ودلالة الخواطر على أعيان الأشياء وحقائقها ومعانيها، وإنّما يتعاطون ذلك على حسب مناسبات من الطباع واتفاقات تقع في الأوقات والبقاع والمنشأ والمولد والمخالطات بأقوام أصدقاء وأقارب ومعارف، والإصغاء إليهم والأخذ عنهم والتخلق بأخلاقهم، فبحسب هذه الاتفاقات يقع إيثار الإنسان الشيء على غيره من الآراء والمذاهب والمطالب والاعتقادات والنحل والصناعات والمكاسب، لأن كل إنسان وإن كان في ظاهر أمره متمكناً من اختيار ما يقتنيه من المذاهب والآراء؛ فبينه وبين كل واحد منها مناسبات جبلية طبيعية باطنية وعادات إلفية ظاهرة تجذبها إليه وتحببها عنده وتحرضه عليها وتدعو إليها، وبحسب انجذابه في طبعه وميله وإلفه يكون تبرزه فيها ومهارته بها، ولذلك برز أحدهم في شيء وتخلف آخر واجتهادهما واحد، وربما اتفق أن واحداً منهما سمع كلاماً أو رأى أمراً فيرضاه لنفسه ويميل إليه بطبعه ويقتنيه ويدخل في جملة أهله، فيتأكد إلفته وأنسه به على مرور الزمان، فإذا قوي الإلف واستمرت العادة وسكنت نفسه إليه وتمكن إليه من قلبه لشدة صحبته له ومعرفته به وفرط ميله إليه؛ آثره على غيره حتى يصير في آخر الأمر إلفاً لما يختاره منه ومعانداً لما سواه، ويرى له الفضل على غيره من المذاهب الحقيقية والآراء العقلية وإن كان مفضولاً ويحكم له بالشرف والعلو، وإن كان مشروفاً فبحسب ذلك تكثر الاختلافات وتتباين المذاهب والديانات، والحق فيهم مع الأندر الأقل، والآخر لاحق بالأول.

ومنها الرسائل النفسانية العقلية تشتمل على عشر رسائل:

الرسالة الأولى منها: في المبادئ العقلية على رأي الفيثاغوريين. والغرض منها: أن الباري جل جلاله لما أبدع الموجودات في المبدع الأول، وهو العقل واخترع المخترعات بوساطته في النفس وخلقها مقدرة في الطباع وكونها بحسب الأمهات والموالد، ورتبها ونظمها كمراتب الأعداد من الواحد الذي قبل الاثنين والاثنين قبل الثلاثة وكذلك ما بعده، وجعل لكل جنس منها حداً مخصوصاً ونهاية معلومة مطابقة بعضها لبعض فاعلة ومنفعلة هيولى وصورة نوعاً وجنساً، إذ رأى ذلك أحكم وأتقن وأكمل وأهدى إليه وأبين.

الرسالة الثانية منها: في المبادئ العقلية على رأي إخوان الصفا وخلان الوفا. والغرض منها: هو البحث عن علة الأشياء والأخبار وأسباب الكائنات الكليات والجزئيات عن الباري جل وعز كتركيب العدد الصحيح عن الواحد قبل الاثنين.

الرسالة الثالثة منها: في معنى قول الحكماء: إن العالم إنسان كبير ذو نفس وروح حي عالم طائع لباريه خلقه ربه جلّ ثناؤه يوم خلقه تاماً كاملاً، وإن كل الخلائق داخلون فيه، وهو جملتهم، وليس خارج العالم شيء آخر لا خلا ولا ملا، وليس العالم في مكان، وكل ما فيه في مكان موكل كل واحد من أهل العالم بما يتأتى منه ويقدر عليه، ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[النحل: ٥٠]، ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس: ٤٠]، ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٠]، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾[الصافات: ١٦٤-١٦٦].

الرسالة الرابعة منها: في العقل والمعقول، وما العقل الهيولاني، وما العقل بالقوة، وما العقل بالفعل، وما العقل المستفاد، وما العقل الفعال. والغرض منها: هو تعريف ذات الإنسان وصورة الصور، وما جوهر النفس بحقيقتها والإشارة إلى الباقي فيها، وكيف اجتماع صور المعلومات فيها على تباينها وتغايرها، وكيف تصورها الموجودات المنتزعة من المواد، وكيف تصير أحد موجودات العالم بعد أن لم يكن شيء من الموجودات إلا بالقوة، وكيف خروجه بالصورة من العدم إلى الوجود وكيف يحصل عقلاً بالفعل وعاقلاً بالفعل ومعقولاً بالفعل، والوجود الصوري مجرداً من سائر المواد معراة من الهيولات، فتبقى ببقاء العقل الفعال وجه الله ذي الجلال والإكرام، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون.

الرسالة الخامسة منها: في الأكوار والأدوار واختلاف القرون والأعصار والزمان والدهور. والغرض منها: هو البيان عن كيفية إنشاء العالم ومبدئه وترتيبه وظهوره وغايته، وكيفية فنائه وخرابه لو انقطعت مواد بقائه عن مبقيه لينعدم في الحال ويضمحل بلا زمان، ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾[النحل: ٧٧].

الرسالة السادسة منها: في ماهية العشق ومحبة النفوس ونزوعها وتشوقها إلى الاتحاد والمرض الإلهي وما حقيقته ومن أين مبدؤه. والغرض منها: هو البيان بأن السابق المشوق إليه المعشوق المطاع المراد المطلوب المحبوب على الحقيقة هو الباري جل ثناؤه، وأن الخلائق وجملة العالم مشتاقة إليه مريدة متحركة نحو الكمال باستتمام الصورية وعاشقة إلى مصورها الذي هو فوق الصور، والكمال: التمام وهو الباري المصور له الأسماء الحسنى والأمثال العلى.

الرسالة السابعة منها: في ماهية البعث والصور والنشور والقيامة والحساب وكيفية المعراج وعلمها؛ هو الغرض الأقصى من رسائلنا كلها، وإليه المنتهى وهو الغاية القصوى، وإليه أشار بقوله: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾[المعارج: ٤].

الرسالة الثامنة منها: في كمية أجناس الحركات وكيفية اختلافها ومباديها وغاياتها. والغرض منها: هو البيان عن كيفية وجود العالم عن الباريء جل جلاله، وكيف حركة الطبائع إلى استكمالها وقبول صورها الخاصية في كل واحد منها، وكيفية سكونها عند استكمال كل واحد واحد منها لصورته الخاصية، إذ بالصورة يصير الشيء هو ما هو، وبه يحصل في الوجود ويتميز ويتحيز ويصير شيئاً معلوماً مشاراً إليه.

الرسالة التاسعة منها: في العلل والمعلولات وكيف رجوع أواخرها على أوائلها وأوائلها على أواخرها. والغرض المقصود منها: هو معرفة أصول العلوم ومباديها وأسبابها وقوانينها ورسومها وكيفياتها على الحقيقة.

الرسالة العاشرة منها: في الحدود والرسوم. والغرض منها: هو معرفة حقائق الأشياء وماهياتها وأجناسها وأنواعها المركبة والبسيطة بما هي كل واحد منها، وبمعرفتها الوقوف على ذوات الأشياء وكيفياتها وفصولها.

ومنها الرسائل الناموسية الإلهية والشرعية الدينية، وهي تشتمل على إحدى عشرة رسالة:

الرسالة الأولى منها: في الآراء والمذاهب في الديانات الشرعية الناموسية والفلسفية، وبيان اختلاف العلماء في أقاويلهم، وما أدى إليه اجتهادهم من البحث والنظر والكشف عن الحقائق والأصول، وكمية تلك المقالات، وما الأسباب والعلل التي من أجلها كان اختلافهم، ومن المحق ومن المبطل، وما يصلح للجميع وما يصلح للخاص وما يصلح للعام. والغرض من هذه كلها: هو البيان بأن المذاهب والديانات كلها وضعت كالعقاقير والأدوية والأشربة لمرض النفوس وكسب الصحة ولطف الحيل لخلاصها من بحر الهيولى وأسر الطبيعة، ووصف طريق الآخرة وكيفية النجاة في المعاد من جهنم، عالم الكون والفساد، والوصول إلى الجنان والفردوس، عالم الأفلاك وسعة السماوات، وأن أكثر هذه الديانات لأقوام قد انحرفوا عن طريق النجاة وبعدوا عن انتهاج سبيل الرشاد، فاستولى عليهم الميل والعصبية والحمية الجاهلية، نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فضلوا ضلالاً بعيداً وما الله بظلام للعبيد.

الرسالة الثانية منها: في ماهية الطريق إلى الله عز وجل وكيفية الوصول إليه. والغرض منها: هو الحث على تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق وتطهير السرائر وتنزيه الضمائر وتنبيه النفوس الساهية عما بعد الموت في المعاد من أحوال يوم القيامة والبعث والنشر والحساب والميزان والصراط والجواز على جهنم والورود فيها وحقائق معانيها، ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[مريم: ٧١-٧٢].

الرسالة الثالثة منها: في بيان اعتقاد إخوان الصفا وخلان الوفا ومذاهب الربانيين الإلهيين. والغرض منها: هو وضوح الحجة على بقاء النفوس بعد مفارقتها الجسد الذي يسمى الموت، وحل الشكوك فيها، وكشف الشبه بطريق إقناعي لا برهاني، إذ الرسالة الجامعة مقصورة على البراهين على ما أشرنا إليه في رسائلنا التي هي كالمدخل إليه والعنوان له.

الرسالة الرابعة منها: في كيفية عشرة إخوان الصفا وخلان الوفا وتعاون بعضهم لبعض بصدق المودة وصحة المحبة ومحض الرأفة والشفقة والتحنن والرحمة وسيرهم في صلواتهم ومذاكرتهم ومجالستهم واجتماعاتهم. والغرض منها: تأليف القلوب والتعاضد في الدين والدنيا جميعاً، إذ هي سبب نجاتهم والمؤدية إلى خلاصهم.

الرسالة الخامسة منها: في ماهية الإيمان وخصال المؤمنين المحققين. والغرض منها: هو معرفة الجلالة الروحانية وما الإلهام وما الوسوسة وما التوفيق وما الخذلان وما الهداية وما الضلالة، إذ كان هذا الباب علماً غامضاً وسراً خفياً من العلوم الروحانية والأسرار النفسانية.

الرسالة السادسة منها: في ماهية الناموس الإلهي والوضع الشرعي وشرائط النبوة وكمية خصالهم ومذاهب الربانيين والإلهيين. والغرض منها: هو التنبيه على أسرار الكتب النبوية ومرامي مرموزاتهم المقصودة وأوضاعهم الناموسية الإلهية، والتهدي إليها، وكيفية الكشف لها من المهدي المنتظر والبرقليط الأكبر.

الرسالة السابعة منها: في كيفية الدعوة إلى الله عز وجل بصفوة الأخوة وصدق الوفاء ومحض المودة وخطاب طبقات المدعوين ومنازل المستجيبين إلى ذلك. والغرض منها: هو البيان بأن دولة أهل الخير تبتدئ أولها من قوم أخيار فضلاء أبرار يجتمعون ويتفقون على رأي واحد ومذهب واحد وسنة رضية وسيرة عادلة من غير تخاذل ولا تقاعد.

الرسالة الثامنة منها: في كيفية أفعال الروحانيين والجن والملائكة المقربين والمردة والشياطين. والغرض منها: هو البيان أن في العالم فاعلين نفسانيين روحانيين غير جسمانيين، لا يتمانعون ولا يتزاحمون ولا يتضايق بهم المكان ولا يحويهم الزمان ولا يتحصلون بمشاعر الحواس ومدارك العيان، ذواتهم حيث أفعالهم وصورهم معروفة بآثارهم.

الرسالة التاسعة منها: في كمية أنواع السياسات ومراتب المسوسين وصفات المدبرين لها في العالم. والغرض منها: هو البيان بأن مدبر الجميع وسائس الكل الحكيم الأول البارئ المصور جلّ جلاله، وأن من كان أحسن سياسة وأحسن تدبيراً كان عند الله أعظم منزلة ولديه أقرب زلفة، ومن كان بقدرة الله أبصر وبحكمته أعرف كان بسياسة خلقه أعلم، ومن كان بها أعلم فسياسته أحسن وأعدل، ومن كان كذلك فإليه أقرب ولديه أوجه.

الرسالة العاشرة منها: في كيفية نضد العالم بأسره، وفي مراتب الموجودات ونظام الكائنات، وأن آخرها منعطف على أولها من أعلى الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض، وأنها كلها عالم واحد كمدينة واحدة وكحيوان واحد وكإنسان واحد. والغرض منها: هو الوقوف على معرفة الحقائق ومباديها وتواليها وسوابقها ولواحقها علماً يقيناً وبياناً شافياً مقنعاً كافياً بلا شك وشبهة ولا ريب ولا مرية، وأن مبدأها كلها صادر عن فعل الله عز وجل وحده الذي هو الإبداع المحض لا من موجود، هو أولها بالوجود وأقدمها فيه، وهو المبدأ الذي أبرز الله فيه سائر الموجودات، تنبعث منه القوى متكثرة نحو غايتها المختلفة وإليها تصاعد متحدة، وأن إلى ربك المنتهى، وإلى الله ترجع الأمور، وجعله السبب الأول الذي به يتعلق ما سواه من سائر الموجودات تعلق المعلول بالعلة مرتبطاً بعضها ببعض فاعلة ومنفعلة، منتقلاً من رتبه الدنيا إلى رتبه القصوى ارتباط معلول بعلة على حسب بواديها وتواليها إلى أن تتلاحق بأجمعها وتتوارد بأسرها إليه، فيكون هو علة العلل ومبدأ المبادئ الفائضة بما أفاض إليه الباري جلّ جلاله على ما دونها بخيرها وجودها يقبل كل ذات من الذوات بقدر ما يحتمله منها من الوجود اللائق به في الدوام والبقاء، نور الله وعنايته ورحمته وكلمته به الله يهدي من يشاء ويثيب، وإليه يرجع من ينيب. انتهى ما جاء من إخوان الصفا.

المبحث الثاني: في نظرات المؤلف وبهجة النجوم في السماء

آثار جمال الله وإبداعه الجميل، والكلام على النجمة المسماة فريحة عند الفلاحين بمصر

في سحر يوم الأحد ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٥٢، ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣٣ استيقظت قبل الفجر لأتعاطى طعام السحور، ثم وقفت في العراء أرقب النجوم وأدرسها وأطبقها على الخريطة المرسومة أمامي المترجمة عن اللغة الإنجليزية، ولقد لفت نظري كوكب ساحر بهج جميل، ما هو ذلك

الكوكب؟ذلك أنني كنت نائماً في الحقل، فسمعت الفلاحين العاملين فيه يقولون: هاهي ذي «فريحة» فقلت في نفسي: لقد كنت أسمع اسم فريحة وأنا صبي وأراها بعيني، وكنت أفرح بها إذ أراها ترقص في أفق السماء بهيئة تفرح النفوس وتشرح الصدور، فلما نظرتها قابلتها بالخريطة السماوية إذا هي العيوق، ذلك الكوكب اللامع البديع، ويقرب منه باء ممسك الأعنة، وباء الثور، وألفه الثريا، وإيضاح هذه النقطة ـ أي: منطقة العيوق ـ هو ما جاء في كتاب «النجوم في مسالكها»، وهذا نصه:

في هذه المنطقة تكتسح المجرة كوكبة ممسك الأعنة «راكب العربة أو سائقها» التي تحتوي النجم الساطع العيوق أو ألف ممسك الأعنة.

ومن السهل تعرف العيوق، لأنه يقع في منتصف المسافة بين حزام الجبار وبين القطبية، كما أنه يقع تقريباً على خط استقامة أكبر ضلع في الشكل الرباعي الظاهر الذي يكون جزءاً من الدب الأكبر، ويمكن تعرفه أيضاً بثلاثة نجوم لامعة قريبة منه على شكل الرقم ٧ صغيرة، وتعرف هذين بالجديين، أما العيوق نفسها فهي المعزى.

ويصل العيوق إلى خط الزوال عند منتصف الليل في أوائل ديسمبر في لندن، وعندئذ يكون جنوب السمت بنحو ٦°، وهو النجم الذي تمتاز به ليالي الشتاء، كما أن النسر الواقع ـ انظر منطقة ٧ ـ هو النجم الذي تمتاز به ليالي الصيف، والعيوق أقل لمعاناً من النسر الواقع بشيء قليل، لكن كلًّا منهما ألمع من أي نجم آخر في نصف الكرة الشمالي، أما نصف الكرة الجنوبي ففيه الشعرى اليمانية وسهيل اليمن وألف قنطورس ـ انظر الذيل الثاني ـ وكلها نجوم ألمع من أيهما.

والعيوق نجم ثنائي بعده عنا معروف بدقة تذكر، وهو ٥٢ سنة ضوئية، وشقاه «النجمان المركبان له» أضوأ من الشمس، أحدهما بقدر ١٠٥ مرة، والثاني بقدر ٨٠ مرة، وهما يدوران أحدهما حول الآخر في ١٠٤ من الأيام، وقطر أكبر النجمين يبلغ نحو قطر الشمس إحدى عشرة مرة، فيكون حجمه قدر حجمها نحو ١٢٠٠ مرة، ومع ذلك فوزنه قدر وزنها $\frac{1}{5}$٤ من المرات فقط، وقطر النجم الأصغر نصف قطر الأكبر ووزنه نحو $\frac{4}{5}$ وزنه، وكلاهما مارد أصفر.

ويقع باء ممسك الأعنة تقريباً على نفس الخط العرضي الذي يقع عليه العيوق، أي أنهما على نفس البعد من القطب، وهو أيضاً نجم ثنائي مكون من نجمين كلاهما أكبر من الشمس، يدور كل حول الآخر في أقل من ٤ أيام بقليل، وإذ يفعلان ذلك يكسف كل منهما الآخر ويغمه، وبذا يدخمس ضوء النجم مؤقتاً، وهذه المجموعة تبعد عنا بنحو ١٠٠ سنة ضوئية، وشقاه متساويا اللمعان، كل منهما أضوأ من الشمس نحو ٥٠ مرة، وهما من نجوم التتابع الرئيسي، تقرب طبيعة تركيبهما من طبيعة الشعرى اليمانية. وفي جنوب هذين النجمين ـ وعلى بعد من كل منهما يقرب من ضعف البعد بينهما ـ نجد نجماً لامعاً آخر هو باء الثور، وهو ثاني نجم في اللمعان في برج الثور الذي يقع جزء كبير منه في هذه المنطقة، وألمع نجم فيه وهو ألف الثور أو الدبران يقع في منطقة ٩، لكن الجزء الذي يقع في منطقة ٣ يحتوي الجمع الشهير المعروف من القدم باسم الثريا، هذا الجمع يكون طائفة من النجوم تسترعي حتى العين المجردة، لكن محاسنها تكون أكثر تجلياً لو نظر إليها من خلال مرقب ولو ضعيف القوة، وهي

طائفة من نجوم متصلة اتصالاً فعلياً تتحرك كلها معاً عبر الفضاء بسرعة واحدة في اتجاه واحد كسرب من الطير البري.

وإذا رسمنا خطاً من باء ممسك الأعنة إلى العيوق ثم مددناه بقدر ضعف طوله وصلنا إلى الغول أو باء فرساوس ثاني نجم في اللمعان في كوكبة فرساوس. وهو نجم متغير شهير جداً كان تغيره معروفاً من أقدم الأزمان، وهو أيضاً مجموعة ثنائية تتألف من نجمين: واحد لامع وواحد مظلم، يدور كل منهما حول الآخر مرة في كل يومين وإحدى وعشرين ساعة، ويكسف أحدهما الآخر في خلال ذلك، فعندما يكون النجم المظلم أمام اللامع يأخذ الضوء يهبط فجأة إلى ثلث ما كان عليه، وبعد ذلك يرتفع ثانية إلى مقداره الأصلي من غير تريث يذكر، فالهبوط والارتفاع يستغرق كل منهما نحو ٤ ساعات، والتغيرات في اللمعان يسهل رؤيتها بالعين المجردة، وفي شمال الغول فوق فرع من المجرة يقع النجم اللامع ألف فرساوس أو المرفق، وتحتوي كوكبة فرساوس أيضاً على جمعين نجوميين ظريفين مكونين من نجوم لامعة، كلاهما يرى بالعين المجردة كأنه رقع لامعة على المجرة، ولو أن النجوم المكونة لهما بالطبع أقرب إلينا كثيراً من نجوم المجرة، وهما بالتقريب على الخط الواصل من ألف فرساوس إلى دال ذات الكرسي على نحو $\frac{٣}{٥}$ البعد من الأول، ولو نظرنا إلى الجمعين بمرقب صغير لكشف لنا في ألمعهما عن نجوم جميلة على شكل حدوة الحصان، ولكشف لنا في أخفاهما على شكل مثلثين.

ثم أقول: هذه النجوم كلها راقبتها بنفسي وحققتها، وانشرح صدري للوقوف على هذه الظواهر التي كنت سابقاً أقرؤها في الكتل ولا يتسنى لي معرفتها، فحمدت الله حمداً كثيراً، ثم فكرت في أمر هذه النجوم وبدائعها، وأخذت أقول: يا الله حمداً لك أهذا هو العيوق؟ سبحانك يا رب وجب حبك، ليس في هذه الأرض أعقل من الأنبياء والأولياء، والناس جميعاً بالنسبة لهم همج الهمج رعاع يتبعون كل ناعق.

رباه، أهذا هو العيوق الذي تمتاز به ليالي الشتاء كما تمتاز بالنسر الواقع ليالي الصيف، أهذان هما النجمان اللذان هما ألمع النجوم في نصف الكرة الشمالي.

هذا الضوء الذي وصل إلى عيني من العيوق قد سافر منذ اثنتين وخمسين سنة، إني أراه نجماً واحداً، ولكنه نجمان، وأحدهما قدر الشمس (١٢٠٠) مرة.

وقفت في هذا الموقف أنظر الثريا والدبران والهقعة التي تقرب منه والثور ممسك الأعنة والعنزين وفرساوس والجبار ورجل الجبار وحزام الجبار والرزم، وقفت أنظرها، وقفت أفكر فيها وفي عظمتها وفي جمالها، وقفت ووقفت وحرت وطار لبي ودهشت وفكرت في عقلي وفي قلبي وفي تركيب مخي وجمجمتي وفي عجائب عيني المرسومة عند آية: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾[الآية:٦] في سورة «ق»، وأن في داخلها أعمدة تعد بالملايين وأسطوانات تعد بالملايين أيضاً قد رسم بعضها هناك، وهذه كلها تساعدني على أن أنظر هذه النجوم وغيرها وفي مخي من العجائب فوق ما في عيني، هذا بعض تركيب جسمي لأنظر وأفكر في عظمة هذه النجوم التي أراها الآن بعيني، حقاً حقاً صدق الأنبياء، وصدق المرسلون، وصدق الأولياء، هؤلاء هم الذين يعقلون

وسواهم نائمون، لقد أجمعوا على أمر واحد، وهو أن المحبوب الحقيقي هو الذي أبدع هذا النظام، لا سعادة في الدنيا ولا في الآخرة إلا بحب مبدع هذا النظام، حقاً إن المقصود الحقيقي ذات الله تعالى، أفليس هذا الجمال من آثار إبداعها؟ أفليس هذا النور من إشراقها؟ أفليس الحب الذي في النفوس أثراً من آثارها؟ أفليست كل رحمة وكل محبة وكل عظمة إنّما تنزلت من هناك؟ جاهل جاهل من يعيش وهو غافل عن منبع كل جمال وكمال في الأرض.

(١) إن الصور الجميلة في الغيد الحسان.

(٢) وعظماء الملأ من أشراف الأمم وملوكها الذين يملؤون القلوب مهابة والنفوس روعة.

(٣) والأنبياء والحكماء الذين لهم السلطان الأدبي على الطائفتين المتقدمتين. هذه الطوائف الثلاث لكل منهم نوع من الجمال والإجلال، فالغيد الحسان النظر إليهن راجع للشهوة الوقتية التي تنتهي ببقاء نوع الإنسان والحيوان، وبإجلال الملوك والعظماء تحفظ الأمم ويسود فيها الأمان، وبإجلال الأنبياء ونحوهم تكمل النفوس وتشرف الطباع ويهذب القسمان الأولان.

فأنواع الجمال المتقدمة صادرة من الذات الأقدس فهي منبع الجمال الظاهري والباطني، فليكن الحب لذلك المنبع والإجلال له. فيا ليت شعري كيف يستغني بالجنة عاقل عن مبدعها، فلله درّ علمائنا رحمهم الله إذ يقولون في قوله تعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[ق: ٣٥]: إنه النظر لوجه الله الكريم، وصدقوا إذ يقولون: إن النظر إلى ذات الله أرقى من التمتع بجنات النعيم، هذه يسمعها الجاهل من وراء حجاب.

إن إبراز هذه المعاني في الكتب من أكبر النعم على نوع الإنسان، لأن في الناس من خلقوا ونفوسهم تتوق إلى ما هو أعلى في الجمال، وهو مبدع الجمال، فلا تهوى سواه ولا تحب إلا إياه، بل تفنى أرواحهم في حبه وتكاد تذوب شوقاً إليه، فمتى سمعت هذا القول حنت إليه وأنت وبكت وتمنت لو تركت الدنيا والآخرة وتمتعت بلقائه، فذلك المشهد مقصدها وهمها الوحيد.

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهم

لما فكرت في ذلك رجعت إلى ما سمعته من الفلاحين وهم يقولون في العيوق إنه فريحة. ولا جرم أن هذا تصغير فرحة وهذا تصغير تعظيم كما قيل:

عوذت حبيبي برب الطور ... كل ما يجري من المقدور

ما قلت حبيبي من التحقير ... قد يعظم اسم الشيء بالتصغير

فرح الفلاحون والصبيان بفريحة، فرحوا بمظهر جمالها، ولكن فرح الأنبياء والأدباء والحكماء بباطن الجمال، بل بمن هو مشرق الجمال والبهاء، فرح تعجز عن تسطيره الأقلام، فرح هو نهاية الأفراح، فإذا قال الفلاحون في الحقل: إنها فريحة، أي فرح عظيم، فكأنهم عبروا عما تكنه قلوب الأنبياء والحكماء من الفرح العظيم الدائم، وكيف يكون الفرح عظيماً إلا إذا دام، وهل دوام لغير مصدر ذلك الجمال، إن في السنة العامة لحكماً. إن الصبيان والعامة في بلادنا الشرقية يقولون إذا رأوا في السماء سحباً بيضاء متقطعة: «إن السماء مزينة، لقد مات اليوم عالم». إذن هم يقولون: إن السماء زينت للعالم إذا مات، وهذا حق لأن كل امرئ ماتت نوازعه الحيوانية وهذبت وعرف الحقائق تزين له

السماء الآن في حياته وبعد موته، ولكن السماء لا تظهر زينتها لغير هذه الطائفة، والسماء مكشوفة ولكن لا يراها إلا الأقلون، هي مزينة ومكشوفة لكنها محجوبة عن جميع نوع الإنسان إلا عن أكابر المفكرين، فهؤلاء تغيب عقولهم في المسرة وتتصل بالعالم الأعلى، ثم ترجع فتشرق بأنوارها على أهل الأرض، أي: على إخوانهم التائهين في ظلمات هذه الدنيا وشهواتها، فهم خلفاء ربهم، منه يأخذون ويرجعون إلى إخوانهم العباد، فحالهم الأولى حمد الله، وحالهم الثانية اهتداء وهداية للصراط المستقيم، وهذا ملخص معنى «الفاتحة».

قد يبرع الإنسان في علم الفلك ومسالك النجوم، وقد يكون من أكابر العلماء في العوالم العلوية والسفلية وهو محروم مبعد عن ذلك الإدراج العالي البهيج، فالعلم بهذه العوالم شيء والاستلذاذ بإدراكها شيء آخر، إذن قوله تعالى: ﴿ وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[الحجر: ١٦] يشمل كل ناظر، لأنها مكشوفة للناس أجمعين، ولكن لما كان أكثر الناس ينظرون هذا الجمال ولا يطربون ويكتفون بالجمال الجزئي الأرضي لنقص فطرهم أتبعه بقوله: ﴿ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾[الحجر: ١٧]، ففي ذلك إشارة إلى أن النفوس الناقصة وإن لم تكن شياطين الجن فهي شياطين الإنسان قد أبعدت بفطرتها عن التمتع بهذا الجمال وحجبت عنه كأنها رجمت فبعدت، فأكثر الناس عمي القلوب وعيونهم مبصرة، ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦]. إن القلم ليعجز عن التسطير، وإن اللسان ليعجز عن التعبير.

كتب قبل الفجر وتم بعد صلاة الصبح في التاريخ المذكور أعلاه بقرية كفر الباشا عند زيارتي لمزرعتنا بذلك الكفر من ضواحي القاهرة، والحمد لله رب العالمين.

سحر ليلة الاثنين

قد نمت هذه الليلة في الحقل لأشاهد النجوم واستيقظت قبيل الفجر وأخذت أرقب النجوم فرأيت منطقة التوءمان، وهي المنطقة الرابعة وتحققتها بمعونة العيوق وفرساوس ومد الخط على استقامته من جهة العيوق فيصل إلى ما يقرب منهما، وهذه المنطقة تحوي أجزاء كبيرة من برجي التوءمين والسرطان وجميع كوكبة الفهد، وأهم أجرامها النجمان ألف التوءمين وباؤه، وهما ألمع نجوم برج التوءمين، يعرفهما الجميع باسم الذراع المبسوطة «التوءم المقدم والتوءم المؤخر»، والتوءم المقدم الذي لعله أظرف نجم ثنائي في السماء الشمالية صالح جداً لأن يرصد بالمراقب الصغيرة، وأحد هذين النجمين يبدو نصف الآخر في لمعانه، أما في الواقع فهما أضوأ من الشمس نحو ٢٣ و١١ مرة، ويبلغ بعدهما عنا نحو ٤٣ سنة ضوئية، وطبيعة تركيبهما العام كطبيعة تركيب الشعرى اليمانية، ووزنهما معاً قدر وزن الشمس ٥ $\frac{1}{2}$ من المرات، ويدور كل منهما حول الآخر مرة في كل ٣٠٦ سنة، ويوجد في المستعمرة نجم ثالث خفي أحمر هو ثالث ألف التوءمين، لا يبعث من الضوء إلا بـ $\frac{1}{5}$ ما تبعث به الشمس ولا يرى إلا بمرقب جيد.

وقد اكتشف حديثاً أن كل واحد من هذه النجوم الثلاثة هو نفسه نجم مزدوج، فالتوءم المقدم في الواقع مستعمرة من ستة نجوم، ولا يمكن إدراك ازدواج أي هذه النجوم الثلاثة الرئيسية حتى ولا

بأقوى المراقب، لكن طرقاً طيفية « سبكتروسكوبية » كتلك التي استعملت للكشف عن أسرع السدائم البعيدة صفحة ١٥٥ ـ في كتاب النجوم في مسالكها ـ تبين أن كل نجم منها يتركب من جزأين متحركين بسرعتين مختلفتين، وإذن فلا بد أن يكون كل منها مكوناً من كتلتين منفصلتين تتحرك إحداهما حول الأخرى على بعد منها هو من الصغر بحيث لا يمكن أن ترى متميزة عنها بأي مرقب، وتسمى مثل تلك النجوم بالثنائيات الطيفية، وتبلغ مدد الدوران ٢٢ , ٩ من الأيام لألمع نجم و٩٣ , ٢ من الأيام للذي يليه في اللمعان، و٤١٨ , ٠ فقط من الأيام، أي عشرين ساعة للنجم الأحمر الخفي، والنجمان المكونان للأخير يكسف الواحد منهما الآخر بانتظام في أثناء دوران أحدهما الآخر، وهما فيما يظهر متشابهان من جميع الوجوه، ولكل منهما قطر يزيد زيادة تذكر على نصف قطر الشمس، ووزنه يساوي نصف وزن الشمس. وليس فيما تحتويه منطقة ٤ من أجزاء برج السرطان نجوم لامعة ولا أجرام أخرى ذات أهمية خاصة. كذلك كوكبة الفهد أيضاً لا تحتوي على نجوم تلفت النظر، وإنّما تحتوي على كثير من النجوم المزدوجة وأجرام أخرى تمتع من بيده مرقب جيد. كتب هذا قبيل الفجر.

تذكرة: لقد تذكرت ليلة أمس ذكريين: إحداهما ذكرى مدرسة دار العلوم وأنا بها تلميذ، وثانيهما ذكرى المدرسة الخديوية وأنا بها مدرس.

ذكرى دار العلوم

تذكرت أن المرحوم أحمد أفندي حمدي أستاذنا في العلوم الرياضية وهو يدرس لنا بسائط علم الفلك سألته قائلاً: إنني كنت أسمع وأنا في بلاد الفلاحين أنهم يقولون لثلاثة نجوم لامعات في السماء وأمامها ما يشبه لسان « الميزان ». فأجابني قائلاً: هذه تسمى حزام الجبار، ومضى ذلك الزمان وأنا حائر لا أدري أليست هذه هي الجوزاء، فهاأنا ذا الآن وقفت على الحقيقة، فهذه من برج الجوزاء وتقدم شرحها.

ذكرى المدرسة الخديوية

كنت مدرساً بالمدرسة ومعي مدرسون من أبناء العرب والإنجليز، ولقد كانت بيني وبين الآخرين محادثات ومسامرات في الأمور العلمية، فكنت أسمع منهم أن بعض المجلات عندهم قد رسمت اليوم جميع النجوم التي ترى في السماء بهيئة واضحة ليتمتع القراء بدراسة نجوم السماء ليلاً، فكنت أقول: يا عجباً، إن الإنجليز يدرسون منطق السماء في الفلك كما يدرسون مناطق الأرض في علم الجغرافيا، ولكن لماذا يحرم المصريون من هذه النعم والحكم؟ وصممت أن أؤلف كتباً صغيرة تحوي كل ما أعرفه من هذه العلوم لتكون تذكرة للأجيال المقبلة، ذلك أني كنت أعرف أنهم يسلبون من أبناء بلادي تلك العلوم شيئاً فشيئاً ليحرموهم من معرفة السماء ونجومها إلا قليلاً، ومن معرفة النبات والحيوان، ولم ترجع العلوم لبلادنا إلا بعد أن نالت الاستقلال الداخلي الجزئي.

ما سر هذا المنع؟

إن سر هذا المنع قد عرفته من كتبهم، فهم يقولون: إن الإنسان لا يكون محباً لبلاده نافعاً لهم إلا إذا أغرم بالعلوم الطبيعية ونحوها، فيدرس النبات والحيوان والكواكب ونحوها، فالوطني

الحقيقي هو الذي يغرم بتلك العلوم، وكأنه لما درس عجائب ما حوله أشرقت نفسه بالجمال فمال قلبه إلى سكان ذلك الوطن، وقد قوى هذا الرأي علماء النفس في زماننا، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾[عبس: ١٧].

إذن كان الإنجليز يمنعون هذه العلوم لتقتل حماسة الشبان لبلادهم. بذلك ظهرت خيانة الوطن في الشرق لغفلة الزعماء ونقص علومهم، ولذلك نرى أكثر الزعماء في الغرب يحافظون على أوطانهم فأما زعماء الشرق فإن بعضهم لا يبالي ببلاده، وذلك لأن نفسه لم تستنر بجمال العلم، ولم تشرق بنور الحكمة المشرقة في نباتها وحيوانها ونجومها، فأصبحت تلك النفس محصورة في اللذات الحيوانية وهذا القول يمت بسبب إلى ما قاله سقراط: إن الحكام الذين لم يغرموا بالعلوم والحكمة يكونون قوماً ظالمين، ذلك لأنهم يدورون حول مقصد واحد وهو شهواتهم، فيظنون أن أممهم إنّما هي مزرعة فيها شهواتهم القصيرة المدى، أما ذلك المغرم بالعلم المعجب بالحكمة فإنه تتسع مداركه، فيرى أنه أب لأبناء أمته، ويزدري تلك الشهوات الوقتية، هذا هو السبب الذي من أجله اجتهدت دول أوروبا أن تحجب أبصار أهل الشرق عن هذه المعرفة الشريفة.

رجال السياسة ورجال الدين والمنوم المغناطيسي كل هؤلاء من واد واحد

لا يقوم للاستعمار سوق إلا في بلاد أخضعها الجهل، لهذا السبب يجد أهل أوروبا في تعميم الجهل في بلاد الشرق، ولكن هيهات هيهات، هاهو ذا دين الإسلام قد ظهرت في تفسيره جميع العلوم وازدهرت، وأصبحت نفس العلوم عقيدة إسلامية، فلا ذل للمسلمين بعد اليوم إلا قليلاً.

ولقد سار رجال السياسة في أوروبا على نفس النهج الذي سار عليه كهنة المصريين قديماً وعلماء الدين في الهند من البوذيين والبراهمة، فهؤلاء جميعاً غشوا عقول الشعوب بتلك الهياكل والتماثيل فحجبوا عنهم الحقيقة فاستكانوا لهم فصاروا لهم عبيداً خاضعين، وهل هذا إلا كالتنويم المغناطيسي، فالمنوِّم ـ بكسر الواو ـ يخضع المنوَّم ـ بفتحها ـ فيكون طوع أمره، لأنه لا إرادة له، فهكذا المتدينون التابعون للأديان البائدة، وقلدهم في ذلك صغار الرجال من الصوفية ومن نحا نحوهم من الباطنية والقرامطة، ألم تر إلى حسن بن الصباح في أواخر القرن الخامس فإنه حرم العلم على أتباعه مريداً بذلك أن يستخذوا له، كل ذلك قد تم في القرون الماضية والحاضرة. فأنا بهذا أحذر المسلمين، وأنا أبشرهم أيضاً بأنهم لن ينال منهم بعد اليوم الطامعون إلا قليلاً، لأن الله أذن باستنارة عقولهم، وإشراق نورهم وهو الولي الحميد. كتب في سحر يوم الاثنين ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣٣ بكفر الباشا بقرب المرج من ضواحي القاهرة.

تفصيل لما تقدم

تذكرة بعد صلاة الصبح في تاريخه

قد ذكرت في المقال المتقدم أن خيانة البلاد لا تكون إلا من أناس جاهلين، وأفصل ذلك الآن تفصيلاً فأقول: لقد استخدمت أوروبا رؤساء الدين في البلاد المستعمرة الإسلامية لها. مثال ذلك أنهم استعملوا فتنة ابن رفادة في هذه السنة وما قبلها، فقام بثورة على عبد العزيز بن سعود بالحجاز ونجد،

وقد أعطاه النقود والسلاح الأوروبيون، فأخمد ثورته ملك نجد والحجاز المذكور. هكذا في الأسبوع الذي أكتب فيه هذا المقال حرض الأوروبيون طائفة الآشوريين بالعراق، وأعطوهم السلاح والمال، فقاموا بثورة أخمدتها حكومة العراق، فلماذا هذا كله؟ ذلك كله لأن الإنجليز أدخلوا العراق في عصبة الأمم، وجعلوهم مستقلين، ويراد بأمثال هذه الثورة أن يمس استقلال العراق بالسوء.

إن هؤلاء الآشوريين لجهلهم اتبعوا غواية الأوروبيين، ولكن الأقباط بمصر وإن كانوا مسيحيين كالآشوريين قد أخذوا حظاً من العلم فاتحدوا مع المسلمين وقاموا ضد المستعمرين، هذا ضرب مثل للقاعدة المتقدمة، فحكام البلاد وعظماؤها المتعلمون هم الذين يعرفون أوطانهم، أما جهلاؤهم كمن ضربنا بهم الأمثال في زماننا، وهكذا صغار رجال الصوفية الذين يتولون الزعامة في بلاد الإسلام لجهلهم الفاضح بجمال العوالم المحيطة بهم من عجائب السماوات والأرض، صاروا حبائل يقتنص بها المستعمرون المسلمين المساكين. ومثلهم في ذلك بعض من تعلموا في مدارس المبشرين، ومن حرموا جمال الحكمة في السماوات والأرض، فهؤلاء صاروا مثل السوء في حكمهم في بلاد الشرق، وظلمهم الفاضح، ومعاونتهم للمستعمرين الذين هم به يصولون، ولكن الحمد لله قوة الرأي العام تقوم بإنهاك قوى هؤلاء الفاسقين.

جمال السماوات وجمال الأرض جواذب العقول لحب البلاد

فشتان ما بين أولئك الجهال المساكين أمثال ابن رفادة والآشوريين وصغار رجال الصوفية الذين اتخذوا الدين حرفة لهم، والمتعلمين تعليماً ناقصاً في مدارس الشرق ممن اغتروا بالشهادات البتراء التي تنقصها العلوم الطبيعية التامة، وما بين الفتاة الصغيرة في جميع الأمم الأوروبية، فهؤلاء لما أشربت قلوبهم حب بلادهم بما أنسوا بجمالها بالدراسة لم يثوروا عليها ولم يمكنوا الأعداء منها، اللهم إلا أمة اليهود بألمانيا، فإن هؤلاء لا يحبون أحداً غير بني إسرائيل، وقد اتخذوا الأمم كلها مزرعة لهم، وكأنهم فوق الجميع، لذلك طردهم «هتلر» من البلاد في هذه الأيام.

وبالإجمال إن جمال العوالم العلوية والسفلية سيملأ قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وهذا أمر أصبح واقعاً حقاً، والحمد لله رب العالمين. انتهى الكلام على الزبرجدة الثالثة.

الزبرجدة الرابعة

في بعض نتائج العجائب المحمود عليها، وهي المحبة تفصيلاً لقوله:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]

المفصلة لآية: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ في يوم الأربعاء ٤ أكتوبر سنة ١٩٣٣

هاأنا ذا في قرية كفر الباشا عند مزرعتنا التي اعتدت الترويض فيها والعمل في إصلاحها.

ذكرى

هاأنا ذا بعيد عن ضوضاء القاهرة قريب من الصحراء الشرقية في الهواء الطلق النقي، هاهي ذه أعمال المزرعة قائمة ويعوزها تفكير وتدبير، ولكن هل تحجب نفسي عن مزاولة ما خلقت له. هاهو ذا قلبي يحدثني بالحب، هاهي ذه نفسي تقول: البدار البدار، لهذه العوالم جمال،

ذلك الجمال تحجبه شؤون الحياة، وهواجسها ومصاعبها والاغترار بظاهرها، كلا، غلب الجمال نفسي فتمتعت به فهاك حديث الحب:

منذ أيام كنت جالساً في هذه القرية مع نفر من سكانها، وقد أخذ أحدهم يذكر ابنه الذي يتعاطى من ديوان الأشغال نقوداً كل شهر ولكن لا يعطي والده إلا قليلاً منها، قال: ولما أن بلغني من أحد أصحابه أن في عينه مرضاً بت ليلة نابغية، وساورتني الهموم، وأحاطت بي الأسقام، ولم يرقأ لي دمع حتى إذا انفلق عمود الصباح وقال المؤذن: حي على الفلاح، بادرت إلى السعي في معالجته، والقيام بشؤونه، حتى اطمأنت نفسي على سلامة عينيه، وذلك شأن الآباء والأمهات مع أبنائهم في هذه الحياة، فما أتم مقالته حتى أحسست أن روحي في عالمها وقد تجردت للمعاني الشريفة والحكم المنيفة، نعم أنا جالس معهم ولكن الجسم شيء والروح شيء آخر. الجسم يحدث سامعيه، والقلب تجلت له أنوار وجمال، وما مثال هذه الكلمات من ذلك الفلاح إلا كمثل حب نبت زرعاً وشجراً فأورق وأزهر وأثمر أجمل الثمرات.

خيل لي أن في هذه الأرض نفوساً شريفة أدركت من المعاني أسماها، ومن الحكم أعلاها، فأخذت تقيس حب الأبوين لأبنائهم بحب الله لمخلوقاته، وليس يصد هؤلاء عن هذا المبحث ما يعترضهم من أن في هذه الأرض نفوساً كافرة تخلد في النار، فهؤلاء ليست عيونهم في غطاء ولا هم في غفلة، لأنهم يعلمون أن العوالم واسعة جداً، والأرض تكاد تكون عدماً بالنسبة لهذا الوجود، ولقد قدر العلماء أن العوالم كلها لو صغرت فصارت ألف مليون أرض كأرضنا لكانت أرضنا إذ ذاك جوهراً فرداً لا تستطاع رؤيتها.

الله خلق العالم وهو عالم قدير، لا خلق إلا مع علم وقدرة، وليس يعقل أن يخلق بعلمه وقدرته ما يكره وجوده، كلا فهو مختار، والمختار لا يخلق ما يكرهه، ولم نر امرأ في أرضنا يكره حقوله وبساتينه فيحرقها لشوكة فيها نابتة أو حشائش نبتت فيها ضارة بزرعها، كلا بل نراه يقلع جذور ما يضر النبات ويعزق من الشوك والقتاد والحشائش مالا فائدة منه وهو مغتبط بحقله، سعيد بحديقته، مجد في عمله مكين. فإذا جاء في القرآن في أقوام: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[المائدة: ٥٤]؛ فهذا فتح باب لدراسة الحب. جلّ الله، جلّ الله.

هذا الرجل لا ينال من ابنه كثير فائدة، وهو لا يزال يعطف عليه ولا تقر عينه إلا بأن يراه سعيداً، مع أن هذا الأب لم يخلق لابنه عيناً تنظر، ولا أنفاً يشم، ولا لساناً يذوق، ولا مخاً يكون مناط الإحساس والعقل، ولا هو الذي حسن خلقه وأعطاه الحياة، ولا خلق له من الشجر والزرع ما يقيته، ولا هو الذي سخر له الشمس تشرق عليه، فيرى الطرق، ويميز بين الحبيب والعدو، والضار والنافع. فإذا كان هذا حب الأب لابنه وهو بالنسبة لخلقه لا هو في العير ولا هو في النفير، وغاية الأمر أن حدث بعد شهوة ملكت مشاعره، ولم يكن ليقصد بها خلقاً، ولا حياة، ولا صحة، ولا تعليماً، فما بالك بمن خلق بعلم وقدرة، وهو المصور المقدر الذي جعل في العين تسع طبقات أبعدها وهي الشبكية مقسمة (١٠) أقسام، والقسم العاشر منها وهو أبعدها فيه أساطين ومخاريط تعد بالملايين.

إن هذه الطائفة لا محالة التي تجلت لها الحقائق توقن إيقاناً تاماً بأن هناك محبة فائقة لا كمحبتنا، كما أن هناك رحمة لا كرحمتنا هي محبة قدسية، قد جعل ما نشاهده من محبة الأبوين لأبنائهما ضرب مثل لها. هناك عين ترعى وحب عظيم، وجميع ما نراه من حب الآباء والأمهات لأبنائهن من كل حيوان وإنسان بالقياس إلى تلك المحبة القدسية لا تعدو أن تكون أشبه بالسراج إذا نسبناه إلى الشمس في رابعة النهار.

ضوء المصباح أثر من آثار نور الشمس

هكذا محبة الآباء للأبناء أثر من آثار الله عز وجل، ولا نسبة بين المحبتين كما لا نسبة بين المحبين، الله أكبر، إن هذه الطائفة التي تتجلى لها هذه المعاني متى أيقنت بها أشرقت قلوب رجالها بالحب وأحست في نفسها بالسعادة والكمال.

بهجة العلم في أن من أسباب المحبة الجمال

هذه المعاني تجلت لنفسي وأنا أستمع لحديث ذلك الفلاح في قرية كفر الباشا عند مزرعتنا بضواحي القاهرة من جهة الشمال.

جمال الأزهار في حدائق الجيزة أتم لي هذا المقال

بعد بضعة أيام من هذا الحديث، بدأت لي أعمال في ناحية الجيزة، إذ توجهت إلى مدرسة الهندسة الملكية. عجباً لهذه النفوس الإنسانية! نفوس أتقن صنعها، وأجيد وضعها، فأخذت تستخدم ما حولها فيما تخيلته، وتستنتج مقاصدها مما شاهدته، ذلك أني بعد أيام قصدت المدرسة الملكية في ضواحي الجيزة، فما قفلت منها راجعاً حتى شاهدت منظراً جميلاً راقني، ما هذا المنظر؟ منظر ألفته نفسي أيام الشباب، وقلما نراه أيام المشيب، ذلك أني شاهدت نبات التيل، وقد وزعه تلاميذ المدارس الزراعية هناك حول بعض المزارع، فبهرني إذ ذاك جمال أزهاره وبديع أنواره.

عجب يا رباه! هذا نبات التيل الذي ألفته أيام الصبا، وقد كنا نزرعه حول مزارع القطن، إذن هو منظور مألوف لي، ولكن لما رأيته اليوم أدهشني منظره، ذلك أن أنواره حين شاهدتها خيل لي أنها ازينت إلي، وأخذت تقول: هلم إلي انظر جمالي، وكأنها ثغور باسمات للقائي، أو عيون ناظرات لمشهدي، أو هن صفوف من الغواني العوانس تزين لمقدمي أو رسل من الملأ الأعلى ببشرى المحبة والعلم والإقبال، وكأنهن يقلن لي: أتدري لمَ استقبلناك بهذا الجمال وحبوناك منظرنا الجميل وحسننا البديع، ذلك لتعلم مقدار العناية العالية بنوع الإنسان، ولما لم تكن في زمن الشباب أهلاً للعلم ببهجة جمالنا والأنس بحسننا؛ لم نمتعك بما متعناك الآن، يتجلى الجمال للبصراء، ويختفي عن الذين لا يبصرون، وأكثر نوع الإنسان لا يعلمون، هل كنت في زمن الصبا تعلم من التيل إلا مظاهره وأنه يحيط بمزرعة القطن وينفع الفلاح في آلات الزراعة، أما الآن فإنك تعلم إتقان كل نبات وشجر، وأن الزهرات مناسبات لزهرات القطن. إن زهرات القطن ذات خمسة أوراق، وهذه سمة كل نبات ذي فلقتين، هكذا زهرات التيل وهما معاً متناسبان من حيث إنهما يصلحان للملابس ونحوها، وسيقان هذا النوع مخروطية الشكل وهكذا، هذه بعض المعارف التي يدرسها علماء الزراعة.

مظاهر الجمال

وبينما أنا في ذلك الجمال إذ اعتراني ما يشبه الذهول، وكأن أمامي شبحاً نورياً يخاطبني قائلاً: زهرات تبدو وتذبل، ونجوم تشرق وتغرب، وأمم تقوم وتزول، وأيام تأتي تعقبها الليالي. صور متحركات وعجائب باهرات، أيكون الحب للآفلين، أم يكون الهيام بما ليس حقيقاً بالوجود، أيحب العاقل المفقود، ويهوى ما ليس بموجود، كل هذه المظاهر وجود كلا وجود، إن حكماء الأرض والسماء إذا رأوا هذه المظاهر أخذوا يقولون لها: ما وراءك يا عصام؟ فتجيبهم: إن ورائي علماً وحكمة، صنعت بعلم، وأبدعت بحكمة، وورائي محبة لا ترون إلا آثارها: نجم، وزهر، وسحاب، ونهر، وبر، وبحر، ذلك كله عنوان على قدرة، وعلى علم وحب وجمال. خبرني ما الذي يتجلى للناس من ذوي الجمال؟ فقلت: إن أرباب الجمال يظهرون.

(١) لعيوننا فنرى صورهم.

(٢ و٣) ولأسماعنا فنسر بأصواتهم أو بباهر علومهم.

(٤ و٥) وقد نشاهد ما دبجته يرعاتهم من العلم، أو خلدته أيديهم من الصناعة المتقنة البديعة، فعلم العلماء، وصناعات أعاظم الصناع، تظهر لنا جمالهم الذي كمن في نفوسهم.

فقال: لمَ يحبس العلماء أنفسهم في التأليف، ويعكفون عليه أمد الحياة؟ فقلت: حباً في أممهم، وغراماً بإفادة نوع الإنسان. فقال: إذن العالم دون كتبه أولاً بعلم أدركه في نفسه وقد أبرزها بقدرته على أن يخط بالقلم، أو يملي بلسانه آخرين، فهاهنا علم، وهاهنا قدرة، ويصحبهما حب لإفادة نوع الإنسان، فهو لا يسخر علمه وقدرته إلا لمن أحب أن ينتفعوا بعلمه، هذا في المؤلفين، والمؤلف محبوب على مقدار إفادته، ولن يحب هذا العالم إلا كل من أدركوا مقاصده، فهؤلاء يهتمون له على مقدار ما أثر في نفوسهم، فكلما عرف قراؤه منه علماً ازداد الحب بمقدار تلك المعرفة، فإذا أتقن علمين ازدادت المعرفة ضعفين، وهكذا يزداد الحب أضعافاً مضاعفة تبعاً لما يدرك منها المتعلمون.

ثم قال: فإذا صح هذا في المؤلف الإنساني فما بالك بمعلم المؤلفين، ومربي الأنبياء والمرسلين، الذي ابتدع هذا النيل، والقطن، والكتان، والشجر، والحجر، والبحر، والبر.

الله أكبر، إن في أرضكم أناساً نظروا إلى هذا الجمال كله فاعتبروه تآليف لمؤلف واحد، وهامت نفوسهم به أكثر من هيام الطلبة بالمعلمين النابغين، وبهيام الخلف بعلماء سلفهم الغابرين، هذا أيها الجوهري معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[البقرة: ١٦٥]، فأفعل التفضيل في الآية راجع لما ذكرناه، وهذا من أعاجيب القرآن، وبدائع الفرقان. هناك أفقت من غشيتي، واستيقظت من نومتي، ونظرت الناس غادين رائحين، كل ذلك كان في لمح البصر أو هو أقرب، معانٍ تجلت في برهة من الزمان عند منظر نبات النيل، والحمد لله رب العالمين.

علوم تجلت عند منظر الزهرة الحمراء

وبعد أيام زرت ولدي أحمد بنفس المدينة الجيزة من ضواحي القاهرة، وفي حديقته شجرات، فأخذت من إحداها زهرة حمراء مخروطية الشكل، قرنفلية اللون، عطرية الرائحة، وسرت نحو

شاطئ نهر النيل راجعاً إلى مدينة القاهرة، فقلت: يا الله، عجباً بل ألف عجب! يا الله زهرة حمراء، يا رب بهر جمالها عيني وتمتعت بشمها حاسة شمي، رباه ما هذا الإبداع؟ أين الثريا وأين الثرى؟ أي مناسبة بين عيني وأنفي وبين الزهرة؟ يا الله، الإنسان في نوم عميق، نعم في نوم عميق.

رباه، نحن على الأرض نجهلك جهلاً تاماً، وكيف لا نجهلك ونحن في أخريات العوالم. أرضنا ضئيلة قيمتها صفر في هذا الوجود العظيم، شموسك وأقمارك عظيمات عظيمات جداً لو صغرت فكانت ألف مليون أرض لم تزد أرضنا على أن تكون جوهراً فرداً لا تراه عيوننا، حقاً هذا مثلنا في معارفنا وفي علومنا. هذه الزهرة الحمراء العطرة الرائحة ما علاقتها بعيني وأنفي، من أين جاءت الزهرة ومن أين جاءت عيني وجاء أنفي. هذه أنوار شمسك، هذه الشمس التي تربو على أرضنا ألف ألف مرة و(٣٠٠) ألف مرة، هاهي ذه ترسل أشعتها على أرضنا جارية من بعد (٩٢) مليون كيلومتر. ثم إن هذه الأشعة تخترق هذا الجو فتحرك الهواء فيكون رياحاً وتصل إلى الماء فيكون البخار فتحمله الرياح، والحامل والمحمول يسرعان إلى البر فيكون المطر والأنهار والزروع والأشجار، وهذه الزهرة الحمراء، جرت لخلقها الأنوار من السماوات العلا وحركت ما سكن من الهواء ومن الماء فطارا في الآفاق فكان نبات، وكانت أزهار، وكانت هذه الزهرة الحمراء، ثم كان حب وثمر وحيوان وإنسان، وكان لهذا الإنسان عينان وخيشومان. هاتان العينان قال الله كونا فكانتا، ومم كانتا، وكيف صنعتا؟ إن صنعهما مدهش وكيف لا ندهش من مواد ميتة من الأكسوجين والأودرجين اللذين يكون منهما الماء ومن الآزوت والكربون المحمولين في الهواء، والجير، والمغنيسيا، والكبريت، والبوتاسيوم والصوديوم، والكلور، وآثار الحديد، والسلسكا وهكذا.

هذه المواد الأرضية التي اصطفيت من عشرات من العناصر، هذه العناصر التي كونت وأبدعت على نظام متين، بحيث أحدث جدولاً منمقاً بديعاً على مقتضى المتوالية العددية في الخط الأفقي والخط الرأسي، مع الإبداع في التجانس الطبيعي والكيميائي، كل هذا مشروح في سورة «العنكبوت» في الجدول الذي ابتدعه العلامة مندليف الروسي.

أقول: كيف كانت هذه العناصر الأرضية والهوائية والمائية قابلها الماء وأحاط بها الهواء وضوء الشمس فأخذت تتقلب في شتى الصور وبدائع الجمال والبهاء، فكان منها نبات، وكان من النبات حيوان، وكان منهما إنسان له عينان وشم، من أين هاتان العينان، وهذا الشم، من هذه العناصر، كيف صنعت العينان؟ صورت هذه المواد، واصطفي من دمها كهيئة الأجسام الشفافة، وهي كرة العين، وأبدعت طبقاتها وسويت وجعل في شبكيتها التي تقرب من الدماغ آلاف ألف من الأعمدة والأساطين النورية.

لماذا هذا؟ لنتمكن من إيصال صور هذه العوالم الأرضية إلى عقولنا الجميلة البهية الشريفة المشرقة المحبوسة وراء هذه الحجب فتصل لها الأخبار عن عوالم المادة البديعة الإتقان.

هذه هي العين التي نظرت بها هذه الزهرة الحمراء، ويقرب من صنعها صنع آلة الشم التي بإتقانها أوصلت روائح الزهرة فأدركتها الروح الغريبة في عالم الماديات.

فيا عجباً يا ربنا! شمس، وقمر، وكواكب، وأنوار، وأرضون وسماوات، كل هذه مسخرات لأنظر بعيني هذه الزهرة وأشم بالخياشيم رائحتها، من ذا يظن وهو يرى النور يجري من الشمس إلى الأرض أنه يسير لتكون هذه الأعمال.

الله أكبر، من ذا الذي يظن أن تكوين عيون الحيوان، وأزهار النبات، وحواس الحيوان له عوالم أكبر من شمسنا، وهذه العوالم ترسل أشعتها إلى أرضنا مصاحبة لضوء الشمس.

الله أكبر، ألم يقل علماء عصرنا: إن مجموع أضواء الكواكب الواصلة إلى أرضنا ليلاً ونهاراً ربما تبلغ أربعة أخماس ما يصل من ضوء الشمس إلينا. أليست الكواكب التي تعد بمئات ملايين الملايين كلهن واصل ضوؤها إلى الأرض، وهل يصل ضوؤها لها بلا فائدة، ومن تلك الشموس ما هو أكبر من شمسنا نحو ٢٥ ألف ألف مرة، مثل كوكب منكب الجوزاء الذي لونه كلون هذه الزهرة الحمراء.

رباه! أي إبداع هذا؟ زهرة حمراء عطرية وعين وحاسة شم تشترك في تكوينها كل شمس وكل كوكب في السماء، فالحرارة تصل مع الضوء بهيئة خفية إلى أبداننا ولها فيها آثار، وباجتماعها نقرأ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: ٤]، وبجهله بهذا كله لضعفه، نقرأ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[التين: ٥].

وكيف لا يكون الإنسان مردوداً إلى أسفل سافلين وهو غافل عن هذه العوالم وأنها سخرت له؟ الناس في غفلة عن هذه. إنسان ينظر هذه الزهرة، ويشم رائحتها، ويجهل إبداع الزهرة، وإبداع عينه، وحاسة شمه، ويجهل الأسباب التي أنتجت هذه الزهرة وهذه الحواس، ولا يفكر في ضوء الشمس الذي أرسلته لهذا الإبداع في الأرض، وكيف سافر في الثانية الواحدة (٣٠٠) ألف كيلومتراً (١٨٦) ألف ميل، وهذا المقدار يوازي محيط الأرض نحو سبع مرات، فالضوء بسرعته يجري حولها في الثانية هذه المرات، وبهذه السرعة يصل إلى الأرض، وقد قطع ٩٢ مليون ميل في ٨ دقائق و١٨ ثانية كل ذلك لتصنع الأعين والخياشيم والحواس والزهرات وغيرها، بل هناك ما هو أبدع من هذا، فمن الكواكب والشموس ما بعدها يبلغ آلاف الملايين من السنين بسرعة الضوء، ومنها العظيمة القدر التي لو كانت في موضع شمسنا لكان جرمها يمتد حتى يبتلع أرضنا. وبعبارة أخرى: إن قطر فلك الأرض حول الشمس أقصر من قطر بعض الكواكب كمنكب الجوزاء، فمنكب الجوزاء لو كان في موضع شمسنا لكانت أرضنا الآن في ضمن حجمه، أي أننا لا نراها أشبه بهيئة المنخل كما نرى شمسنا الآن، بل كنا الآن على ظهرها ونعيش تحت سمائها، وفوق أرضها أشجار، وربما كان الراكب يسير في ظل الشجرة أعواماً وأعواما إذا كانت أشجارها منسوبة في العظم إلى حجمها، فتكون مشبهة بعض الشبه أشجار الجنة المذكورة في صحاح الأحاديث، وإن كانت ليست بجنة الخلد التي أعدت للمتقين.

حدوة الفرس عند الحداد

وألوان قوس قزح والمصور الشمسي، وكيف استنتج الناس منها عظم هذه الكواكب وألوانها الزاهية الجميلة وأبعادها الشاسعة الأقطار فلما سمع صاحبي ما قصصته عليه قال: جمال والله وأي جمال؟ وحكمة وأي حكمة؟ عجب عجب! أمور معلومة مجهولة حاضرة غائبة قريبة بعيدة.

سبحان الله ! أنت اليوم أبدعت أيّما إبداع ، ويظهر لي أنه غاب عنك جمال النظام في هذا المقال ، فقلت له : ماذا تعني بقولك جمال النظام في هذا المقال؟ فقال : لقد كان مقال الفلاح في كفر الباشا وحديثه عن ابنه كحبة أنبتت نباتاً حسناً ، هو الحب ، وهو الجمال ، فروحك لما سمعت حديث الرجل عن ابنه رجعت إلى عالمها بأسرع من البرق وأخذت تقول : إن وراء العالم حباً عظيماً ، وحب الله لما خلق أكبر بما لا حد له من حب هذا الرجل لابنه ، وعظمة حب الله لعوالمه أكبر من حب هذا الرجل لابنه ، بنسبة الفرق بين هذا الكون العظيم والعدم ، أو بنسبة عظمة الله إلى ضعف هذا الرجل .

ولم يفت روحك أنها أدركت أن من يحرقهم الله في جهنمه ليسوا شيئاً مذكوراً في هذه العوالم ، بل هم أشبه بالحطب الذي يجعله الناس وقوداً ، وليس صاحب الحقل بكاره لحقله إذا كان فيه حطب ، بل هذا الحطب المعد للحريق من كمال حقوله ، إذن الله لا يكره هذا العالم ، وأيضاً هو مختار ، والمختار لا يصنع ما يكرهه ، والكراهة والحب هنا قدسيان ليسا ككراهتنا وحبنا ، هذا بعض ما قدمته أنت ، وقد أشرت إلى أن في هذه الأرض وفي عوالم أخرى نفوساً أدركت هذا الجمال ففنيت في حب مبدع هذه العوالم ، لأن الحب تابع للمعرفة كحب التلاميذ للعلماء ، وذلك تابع لمعرفتهم بعلومهم .

ولما توجهت إلى مدرسة الهندسة لإدخال ابنك جمال الدين فيها راقك منظر النيل ، فكان ذلك المنظر مفصلاً لما أجمل عند سماع حديث الفلاح عن ابنه ، أي أن هذا المقال تفصيل لما قبله ، فالفكرة عند مدرسة الهندسة بالجيزة فصلت القول تفصيلاً عند كفر الباشا .

فأما منظر الزهرة الحمراء ورائحتها العطرية فإنها جاءت مفصلة للمقالة التي قبلها ، فقد فصلت الحب وفصلت الجمال . هذا ما عنيت بقولي إنه غاب عنك جمال النظام في هذا المقال . وبعبارة أخرى : إن هذا الإبداع في تفصيل هذا المقال في درجاته الثلاث : في كفر الباشا وعند مدرسة الهندسة وفي نفس الجيزة ؛ إبداع لا يد لك فيه ، لأنك لم تقصد أن تفصل كل مقالة مجمل ما قبلها .

الله أكبر ! إن الأفكار الواصلة إليك في هذه المقالات الثلاث في المواطن الثلاثة ليس لك يد في إبداعها كما لم يكن للناس يد في إبداع عيونهم ، وخياشيمهم ، وزهرات حدائقهم وجناتهم ، فالإبداع في هذا المقال لم يكن من عنك ، بل من عوالم وراء عقول الناس ، كما أن إبداع الصور العينية والخياشيم الأنفية لم تكن إلا بواسطة إبداع الله ، فشموس وأقمار ، وكواكب ، وعوالم بعيدة في أقطار السماوات .

مقالة مكونة من ثلاث مقالات مسطرات

في أيام متباعدات ، وأماكن مختلفات ، تصبح جميعها منتظمة كل واحدة منها مفصلة لما قبلها إن ذلك جار على قانون هذا العالم : أجساماً وأرواحاً ، ألم تر أنك في أول المقالات الثلاث لم تكن إلا سامعاً للقائل في الحب والشفقة مفكراً فيما يقول ، فلما كنت عند مدرسة الهندسة رأيت بعينك الزهرة وفكرت فيها . وفي المقال الثالث أمسكت الزهرة بيدك وزدتها شرحاً وتفصيلاً ، أفليس هذا معناه أنك أنت لست المنظم لهذا المقال؟ بل هو من عالم أعلى ، فالأول كعلم المقلدين ، والثاني كعلم العلماء ، والثالث كحكمة الحكماء ، وهي عين اليقين .

ولكن أريد أن توضح لي بعض ما غمض في هذا المقال: كيف عرف الناس بعد الكواكب. وكيف عرفوا عظمتها. وكيف أدركوا أن كوكب منكب الجوزاء عظيم جداً حتى إن شمسنا بالنسبة له صغيرة جداً. وكيف يتفق حب الله لخلقه مع تخليد بعضهم في جهنم، وهل المغرمون بحب الله يقدرون أن يساعدوا المجموع بعلمهم وعملهم.

فقلت له: إذا كنت أنت اليوم قد فهمت من مقالي ما لا أفهمه، وعرفت أن ما ذكرته في أماكن وأيام متفرقة يفصل بعضه بعضاً، وإن لم أكن لأعلم ذلك فأنت إذن على الأقل تعرف ذلك من سابق التفسير، بل تعرفه أيضاً مما نقلته عن كتاب «النجوم في مسالكها» المترجم عن الإنجليزية.

فقال: إن للعقول الإنسانية خواص، وليس ما يعرفه زيد يعرفه عمرو، وربما عرف امرؤ من العلوم أدقها، ولكنه في علوم أخرى يعرفها أصاغر الطلبة عاجز عن إدراك ظواهرها فضلاً عن بواطنها، وليس علم الخضر بالعوالم الخفية بالذي يجعله ملماً بكل ما يعلمه موسى، كما أن موسى عليه السلام مع جلالة قدره ليس ملماً كل الإلمام بعلم الخضر:

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وليست عظمة الإنسان في معارفه وعلومه بمغنية له عن اشتيار عسل النحل الضعيفة، فقد أعوزه أن يتخذ العسل الذي جمعته من الأزهار، وأتقنت صنعه في حواصلها المعدة لذلك، وعجز عن صنعها الإنسان. إذن ليس إدراكي لما دق من الآراء وأنت غافل عنها بمانع جهالتي بأمور أخرى. أنا إلى سؤالك مفتقر في فهم مغزاها، وتحصيل نتائجها، على أن ما ذكرته من كتاب «النجوم في مسالكها» حين قرأته لم يرو لي غلة، ولم يشف من علة، فهو كلام علمي جاف، وإني أرى أن تفسير هذا الموضوع يشفي الصدور ويسر الجمهور، لأن هذا اليوم له ما بعده، وربما كان سؤالي ليستفيد منه قراء هذا المقال.

فقلت: أخي، الآن اقترب قيام قائم الظهيرة، وقد أحسست بتعب، فلنترك العمل حتى تستجم القوى، ونرجع بعد العصر إن شاء الله تعالى.

الرياضة البدنية في الحقل

فقمت من فوري إلى مزارع الذرة فأمسكت الفأس وأخذت أعزق الأرض مع العازقين كما كنت أفعل ذلك زمن الشباب وأنا طالب بالجامع الأزهر، ولما حل بي التعب من العمل أخذت أستريح تحت الشجر وصليت الظهر ثم العصر.

لطيفة: أثناء اشتغالي بالعمل في عزق الذرة جاء ابن زارع الأرض، فلما رآني قال لأبيه: وكيف يعزق الشيخ يا أبتي، وهذه عادة شائعة في بلادنا أن العلم والثروة لا يليق بمن ملك أحدهما أن يزاول الأعمال العادية، وهذه الفكرة اليوم قد أخذ التعليم يمحوها من البلاد إن شاء الله تعالى.

إتمام هذا المقال بعد العصر يوم الخميس الخامس من شهر أغسطس سنة ١٩٣٣

فلما رجعت بعد صلاة العصر، قلت لصاحبي: سأجمل جواب ما سألت عنه في ثلاثة فصول: كيف عرف الناس بعد الكواكب. وكيف عرفوا كبر أحجامها بواسطة أنوارها وأبعادها. وكيف يخلد قوم في النار مع أن الله رحيم مختار لا يفعل ما لا يحب فعله من حيث التكوين.

الفصل الأول: كيف عرف الناس بعد الكواكب وكيف عرفوا كبر أحجامها بواسطة أنوارها وأبعادها

أيها الأخ، إن الكواكب تعرف بطريق المثلثات في فن الهندسة، وذلك أنهم يرصدون الكواكب في موضعين مختلفين، كالإسكندرية ومصر. أو الإسكندرية وباريس في وقت واحد، والزاويتان الحاصلتان بين الضلعين المتجهين في ذلك الوقت مع الأرض، يكونان إذ ذاك معروفين.

ولا جرم أن المسافة بينهما على الأرض معروفة في الجغرافيا، فيرسم المثلث على الورق بنسبة خاصة مصغرة ثم ينسب المثلث الممتد إلى الكوكب إلى هذا المثلث، وقد اتحدت زواياهما، وصارت أضلاعهما متوازية فتكون هناك نسبة بين الأضلاع، وبين الارتفاعين، ولا جرم أن ارتفاع المثلث المرسوم معلوم، فيعرف به ارتفاع الكوكب.

فقال: فإذا كان الكوكب شديد البعد، فإن الراصد لا يتبين شيئاً، فقلت: يرصد الكواكب في وقتين متقابلين من السنة كالانقلاب الصيفي والانقلاب الشتوي، وتؤخذ الزاويتان ويفعل بهما ما تقدم، ومتى عرف البعد أمكن معرفة الحجم، لأنه كلما ازداد العد إيغالاً كان الكوكب أصغر حجماً والتفصيل في علم الفلك. فقال: وهل لمعرفة الأحجام طريق غير هذه؟ فقلت: نعم طريق الأنوار المشرقة من الكواكب، فقال: ما معنى هذا؟ فقلت: ذلك أمر يدركه الناس من أمثال حدوة الفرس في يد الحداد، فقال: ما معنى حدوة الفرس في يد الحداد؟. فقلت: إذا نظرنا إلى الحدوة في يد الحداد وهو يوقد عليها النار ألفيناها أولاً حمراء فبرتقالية فصفراء فخضراء فزرقاء فنيلية فبنفسجية فبيضاء، هذا هو ترتيب الألوان، فأقلهن حرارة الحمراء، وأعلى منها البرتقالية فالصفراء وأشدهن حرارة البنفسجية فأما البيضاء ففيها جميع الألوان، فإذا قاسوا الحرارة الواصلة من كوكب أحمر مثلاً وعرفوا بواسطة بعد مسافتها أنها عند منبعها تساوي مثلاً حرارة الشمس ونورها أصفر؛ فإنهم لا محالة يحكمون أن هذا الكوكب أكبر حجماً من الشمس. ذلك لأن الأحمر أقل حرارة من الأصفر بضع مرات، فاتساع سطحه يقوم مقام كثرة الحرارة في الكوكب الأصفر المذكور.

وإذا رأوا كوكباً آخر أحمر اللون قد وصل منه ضوء أشد حرارة من حرارة الشمس؛ حكموا بأن سطحه أكثر اتساعاً من الشمس إلى حد كبير، وهكذا إذا رأوا كوكباً أزرق مثل كثير من كواكب الجوزاء، ورأوا أن حرارة ذلك الكوكب مماثلة لحرارة الشمس حكموا حكماً قاطعاً أن حجم ذلك الكوكب أصغر من حجمها لأن حرارة الأزرق أشد من حرارة الأصفر، فيكون حجم الأول إذن أصغر من حجم الثاني. فقال صاحبي: القول مفهوم، والمعنى معمى. فقلت: ماذا تريد بهذا؟ فقال: من أين يعرفون أن هذا الكوكب أحمر، وهذا أصفر، وهذا أزرق، هذه أقوال غير مفهومة ولا معقولة، إن جميع الكواكب بيضاء فأين الزرقاء والحمراء والصفراء ما عدا الشمس.

فقلت: إن ذلك منشؤه أمر واحد. قال: وما هو؟ قلت: الثروة والغنى، فرأيته أشبه بالمذهول، فقال: ما هن؟ فقلت: ألم تسمع كلام الشيخ محيي الدين بن عربي في «الفتوحات المكية»، إذ يقول: إن الغني محبوب عند الناس وإن كان بخيلاً لأنه ليس في حاجة إليهم.

ويقول الشاعر:

سأضرب للغني في الأرض إني ... رأيت الناس شرهم الفقير

وقال آخر:

إن الغني من الرجال مكرم ... وتراه يرجى ما لديه ويرغب
ويبش بالترحيب عند قدومه ... ويقام عند سلامه ويقرب
والفقر شين الرجال فإنه ... حقاً يهون به الشريف الأنسب

وقال آخر:

إن الغني إذا تكلم بالخطا ... قالوا أصبت وصدقوا ما قالا
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم ... أخطأت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم في الأماكن كلها ... تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة ... وهي السلاح لمن أراد قتالا

وقال آخر:

إن الفقير يهان بين لداته ... ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت ذا بزة ... أصغت إليه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوماً فقيراً عارياً ... نبحت عليه وكشرت أنيابها

كل هذا وصاحبي واجم ساكن ظهرت عليه أمارات الحيرة، فقال: ثم ماذا؟ فقلت: كفى. فقال: أتخرج من الجد إلى الهزل، ومن الصواب إلى الخطأ، أبمثل هذا الجواب يجاب سؤالي، وما لنا وللغنى والفقر، نحن الآن في مقام التمييز بين ألوان النجوم فكلها بيضاء، فما الدليل على اختلاف ألوانها؟ فأخذت تجيب بالفقر والغنى.

سارت مشرقة وسرت مغرباً ... شتان بين مشرق ومغرب

أتتخذنا هزواً؟ فقلت: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. ما أنا بهازل أنا جاد، فقال: إذن ما معنى ما تقول؟ أين الفقر والغنى في الكواكب؟.

فقلت: المعول عليه في ذلك الآلة المصورة الشمسية المكونة من الرمل ومن البوتاسا ومن بعض المعادن كالرصاص، فهذه أمرها عجب، فإنها إذا التقطت صورة زرقاء بالغت في تصويرها حتى جعلتها بيضاء، وإذا صادفت صورة حمراء أظهرتها بصورة غير واضحة، فصارت إلى السواد أقرب، وهذا فعل تلك الآلة مع كوكب منكب الجوزاء، فإنها لما أظهرتها بهيئة ضئيلة عرفنا أنها حمراء، وإذا صادفت الكوكب المسمى رجل الجوزاء فإنها تجعله بهيئة بيضاء، فدل ذلك على أن هذا الكوكب أزرق اللون.

إذن المصور الشمسي يبالغ في حالتي الضعف والقوة، فإن كان الكوكب أحمر ـ ومعلوم أنه أقل حرارة من غيره ـ أنزله تحت الحمرة فجعله إلى السواد أقرب، وإذا كان الكوكب أزرق رفعه في أعين الناس، فجعله أبيض، والبياض أرقى من الزرقة.

فالآلة المصورة فعلت مع الكواكب والأشخاص ما يفعله الناس مع الفقير والغني، فهم يحقرون الفقير، ويعظمون الغني.

هذا معنى ذكري لك الفقر والغنى. فقال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. فأرجو الإجابة على السؤال الثاني الآن كما وعدت، فقلت:

الفصل الثاني
في الكلام على عذاب الكفار في النار
وكيف يكون هذا مع الرحمة العامة

أيها الأخ، ألم أقل لك فيما مضى: إن ذلك أشبه بإحراق الخشب والحطب إذ تكون وقوداً للنار، فقال صاحبي: هناك فارقة بين أرواح تحس بآلام وحطب وحشائش توقد فيها النار، فقلت: أيها الأخ، هذا المبحث مقام سام لا يعرف حقيقته إلا الأقلون الذين أطلعهم الله على حقيقته، فجد في العلم حتى تصل إلى الحقيقة بنفسك، وهذه لا يفيد فيها التعليم، فجد بنفسك وأنا واثق أنك ستجد سرها في ثنايا التفسير، فقال: سأبحث إن شاء الله تعالى، فقلت: الحمد لله تعالى، وهاهنا آن أن أجيبك على سؤالك الثالث، فأقول:

الفصل الثالث
في أنه هل الهيام بالله يمنع نفع الناس

أقول: أيها الأخ، إن أولياء الله المحبين له يحثهم ذلك على نفع العباد، كمثل النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، إذ كان لا يصلي وحده، بل يصلي جماعة، وكان يجزئه أن يصلي وحده ويعبد وحده، ولكن الهداية الإلهية علمته كيف تعم الحكمة علماً بالقرآن وعملاً بالصلاة والزكاة والصيام والحج، وهذه الطائفة المحبة لله هم الذين يقومون بمنافع العباد، وهم أولياء الله الذين يفرحون بالموت فرحهم بمقابلة أحبائهم، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٦-٧].

هذه الطائفة تشعر بسعادة الحياة وسعادة الممات، يفعلون مع الناس ما تفعله الأمهات والآباء مع الأبناء، يعملون العمل خالصاً لا يبتغون جزاء عليه ولا شكوراً، وإذا أحبوا ربهم فقد أحبوا أعماله فيكونون خلفاءه على عباده، فهؤلاء تلاميذ المرسلين يعلمون أن الله معهم أينما كانوا، ويفهمون من حوادث الخلائق ذلك، إذ يرون حر الشمس يثير الرياح ويكون سبباً في خروج البخار من البحار، فيحمل الأول الثاني ولا يذر نور الشمس السحاب، بل يعطيه ألواناً في جو السماء، ومتى أمطر على الأرض فخرج النبات أخذ الضوء والحرارة يعملان عملهما متحدين مع الماء في إنماء النبات، فإذا سلم النبات مادته إلى الحيوان ساعدهما الهواء والماء، ولم يزل ضوء الشمس يساعد الحيوان في دفئه وإضاءة الطرق له، فإذا وصلت الحال إلى عالم الإنسان رأينا الضوء يعمل مع كل ما ذكر في إصلاح شأن الإنسان أيضاً، فالضوء أولاً وآخراً يجد في إسعاد نوع الإنسان.

فهؤلاء إذا رأوا ذلك أيقنوا بأن الله يفعل مع الناس فعل الضوء مع كل مخلوق، فالله لما أرسل الضوء إلى الأرض، وفعل ما تقدم، لم يذر هو رياحاً ولا سحاباً ولا نباتاً ولا حيواناً ولا إنساناً إلا وهو معهم، كما رأينا الضوء مع جميع ما قام بإنمائه.

هاهنا استبان معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ [الحديد: ٤]، وعرفنا كيف يعقل العقلاء، ويؤلف العلماء، ويصلح الأمم الحكماء، ويوحي الله إلى الأنبياء.

فإذا كان هو الذي أسبغ نعمته على العوالم كلها من الشموس إلى الأرضين إلى العناصر إلى المولدات؛ فهاهو ذا يهب العقول والآراء والعلوم الخفية التي تتعالى عن الأضواء وجميع العوالم العلوية. إن الله يعطي الناس تلك العلوم والمعارف، وقد عاملهم معاملة الضوء للحيوان والإنسان، فهذه الحوادث ضرب مثل لعمل القديم، إن العلوم والمعارف والهداية تنزلت من نفس العالم الأعلى الإلهي، ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، والحمد لله رب العالمين.

تم هذا المقال بعد منتصف الليل ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٣ بكفر الباشا في ضواحي القاهرة.

تم طبع الجزء الأول من ملحق الجواهر: تفسير القرآن



التقاريظ

وردت إلينا عدة تقاريظ فاقتصرنا على بعضها لضيق المقام

ترجمة كلمة العلامة الفاضل الشيخ محمد إبراهيم شاه كوجين رئيس البعثات الصينية بالجامع الأزهر، المثبتة صورتها الفوتوغرافية في الصفحة التالية بالخط الصيني.

قال حفظه الله:

إن القرآن الكريم هو الأساس الذي يبنى أركان الإسلام وأحكامه، فهو أصل الأصول لسعادة الحياة في الدارين، ومصدر المصادر للسلام العام في العالم.

لكن آيات القرآن معان وأسرار لا يدركها كل إنسان، فقام الراسخون في العلم من السالفين واللاحقين ببيان غوامضها، وتفسير حقائقها للطالبين الآتين من بعد.

من علماء العصر الأستاذ الشيخ طنطاوي جوهري الذي جاء بأغرب التفسير على أحسن أسلوب مبني على النظريات العلمية العصرية فسهل طريقاً لمن أراد من الأخلاف أن يقف على أسرار القرآن وحقائقه، وهو مجهود يكمل حاجات الزمان ويشفي غليل أهله.

ما أسعد من خدم الدين الإسلامي بأحسن مجهوداته، وما أجدر الشكر من أحسن إلى المجتمع الإنساني بأجل أعماله، جزاك الله خير الجزاء.

محمد إبراهيم شاه كوجين

رئيس البعثات الصينية بالجامع الأزهر

٣١/٨/ ١٩٣٥ م، ٢ جمادى الثانية ١٣٥٤ هـ.

وهاك صورته الفوتوغرافية باللغة الصينية :

古蘭天經乃伊斯蘭之基本大典凡復命歸根之理修齊治平之道
無不賅括其中惟真言妙諦非人人皆能通曉一般賢哲有鑒於此
遂爾先後註釋俾後學有所借鑑今者
唐達威趙俄赫爾老先生更用科學方式註疏
古蘭詞精義顯此不獨使研習者易於了解且合乎現代之需求
老先生有功於社會宗教實無量矣謹綴數語用誌景仰

愛資哈爾大學
中國留埃學生部部長儒識沙國珍撰書

中華民國二十四年（一九三五）八月二十日

بسم الله الرحمن الرحيم

نصر من الله وفتح قريب، إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. إن زماننا أشبه الأزمان بعصر النبوة، عصر الاتحاد والعرفان. لم يخطر لي أن تتحد جميع المذاهب الإسلامية المتباينة، لا سيما أهل السنة والشيعة على رأي واحد فيما أكتبه في التفسير قبل أن أفارق هذه الحياة.

ويظهر لي أن الله عز وجل أراد أن يعيد للإسلام شبابه في مدة تعادل المدة التي ظهر فيها وانتشر أيام النبوة المحمدية، والدلائل على ذلك لا تكاد تحصر، وآخر ما وصل إلي منها عند طبع هذا المجلد أربعة أدلة: دليلان لفظيان، ودليلان خطيان. أما الأولان فهما ما حدثني به صديقي العلامة المجتهد بحر العلوم من الأمة الإيرانية، فقد قال لي ونحن راجعون من الحج إلى مصر: إننا في بلادنا نخطب على المنابر بفضل عمر رضي الله عنه. وثانياً ما حدثني به الأخ في الله تعالى، العلامة الإيراني أبو عبد الله الزنجاني، من أكابر علماء الشيعة، منذ أيام قال: لقد كان كثير من طلبة المدارس العصرية ببلادنا الإيرانية يرون تنافياً بين العلم والدين، ولما قرؤوا تفسير الجواهر اطمأنوا إليه وأيقنوا بالدين. وأما الدليلان الخطيان فهما أولاً: تقريظ الأستاذ الصيني المتقدم. وثانياً: ما دبجه العلامة الأستاذ مرتضى الحسيني أحد علماء الشيعة أيضاً قال:

كنت أيام اشتغالي بدراسة العلوم الإسلامية متألماً غاية التألم مما أرى من التدابر والتقاطع بين أرباب المذاهب الإسلامية، لا سيما مذهب أهل السنة والشيعة والإمامية، ، ذلك هو أكبر عوامل الوهن والضعف للجامعة الإسلامية. وكنت أقول: لماذا هذا الخلاف والشقاق، فإذا كان استحقاق سيدنا علي للخلافة أو أبي بكر أو غيرهما من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم هو السبب في ذلك الشقاق والعداوات والحروب، فهذا أمر قد مضى وقته، وأدبرت الظروف التي أحدثته، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون.

فهل بقي هناك إلا اختلاف آراء في فروع الأحكام الشرعية كاختلاف كل مذهب مع الآخر في الشيعة أو أهل السنة. وهذا من أعظم الحكم في الإسلام حيث باب الاجتهاد في الفروع مفتوحاً لكي تطبق القواعد الكلية على الحوادث الطارئة الجزئية على مقتضى المكان والزمان، فالحق والحق أقول: إنه لولا ألاعيب السياسة، وأغراض كثيرة من متأخري العلماء من الجانبين ومطامعهم الشخصية. أولئك الذين يقولون ولا يعملون كما يقتضيه الحق والحقيقة، بل إنّما يتبعون في ذلك مسلك العوام، ويقولون ما يرضيهم لا ما يرضي الله ويرضي ضمائرهم ووجدانهم.

أقول: لولا ذلك لم يقع ما حصل من الفتن والدسائس، ولم يتسع الخرق على الراقع بين أفراد الجامعة القوية الإسلامية، ولساد الإسلام أنحاء المعمورة، ولكانت له شوكة وعظمة فائقة بدل ما نشاهد مع الأسف الشديد من عوامل الوهن والضعف في هذه الجامعة القدسية الإلهية.

ثم اتفق لي أن قرأت كتاب التفسير الذي كتبه الأستاذ العلامة الشيخ طنطاوي جوهري متع الله الإسلام والمسلمين بطول بقائه، وعجبت من مبدئه ومسلكه: وهما الخصلتان اللتان بهما أبان المنهج الواضح الذي به يتم إيجاد الوحدة، والاتفاق بين أجزاء الجامعة الإسلامية، وذلك بتطبيقه العلوم الإسلامية وقوانينها القدسية على العلوم العصرية، التي أظهرت ما خفي من حقائق الإسلام وأنواره، وعظم تعاليمه وأحكامه في عصرنا هذا عصر العلم والنور.

ولقد أخذت أعجب من تدابر هذه الأمة الإسلامية، وكيف نرى علماء أوروبا يترجمون فقه الإمامية بإيران إلى لغاتهم؛ ولا علم لسائر أمم الإسلام بذلك، أفلم يكن الأحق بهذه العلاقة أمم الإسلام، لذلك صممت على السفر إلى مصر حين اطلعت على كتاب تفسير الجواهر لتكميل نواحي الثقافة الإسلامية، وما يتعلق بها من العلوم العصرية والآداب العربية. إن هاتين الخصلتين اللتين ذكرت أنهما أثارتا في نفسي أن أغادر بلادي وأترك مركزي الممتاز بها مؤقتاً؛ هما اللتان أثارتا الإعجاب والحب العام لهذا التفسير بين جميع الأمم الإسلامية على اختلاف مذاهبهم ومسالكهم.

ولقد حدث بعد مجيئي إلى مصر أني رأيت الأستاذ ذات يوم في الطريق وهو في غاية الحزن والأسى، لما ورد له من كتب من بعض العلماء والأدباء من إيران في «تبريز»، وهم من أصدقائه المعجبين بتفسيره، والموافقين لمبدئه ومسلكه في إيجاد عوامل الوحدة والاتفاق بين طبقات الجامعة الإسلامية وتشييدها، وأخذ الأستاذ يقول: ما لنا وللمهدي، هل يليق بنا أن ننام ونكسل حتى يجيء المهدي ويصلح لنا الأمور. إن هذه آراء الجهلاء في بلادنا، فلكم اسمع منهم أن يقولوا: سيظهر المهدي قريباً، ويقسم المال والأرض بالسوية فيكون الناس متساوين، وهذا القول ورثه الأبناء عن الآباء قروناً وقروناً بعد العصور الثلاثة الأولى التي هي خير القرون، فقلت له: كلا، إن الإمامية لا تقول بذلك، بل إن العلماء هم النواب عن المهدي عليه السلام يلزمهم أن يجدوا ويسعدوا في سبيل الإصلاح وهم لا يعذرون في الإهمال والتواكل، فقال: هذا أمر عجب، إنني في خطابي لأصدقائي العلماء هناك ذكرت هذا ولا أعلم أنه هو مبدؤهم.

السية المضرة ما يعتقده كثير من جهال المسلمين هنا في حق المسيح والمهدي، وينامون ويتواكلون حتى يأتي المسيح والمهدي ويصلحا الأمور، ، هذا كما يقال: حق أريد به باطل.

ولقد أوضحت ذلك في ثنايا التفسير، وأبنت أن كل عقيدة تنافي النشاط والجد وتدعو للكسل تكون محرفة. فلما اطلع عليه أصدقائي علماء تبريز بإيران خافوا أن يفهم العامة من الشيعة غير ما أريده. اهـ كلام الأستاذ.

هنالك رأيت أن من الواجب علي أن أخاطب هؤلاء الأكابر في هذا الموضوع بما يدفع الوهم، حتى لا يكون في ذلك أدنى تأثير في مكانة التفسير في قلوب محبيه في إيران، فأرسلت خطاباً ذكرت فيه ما هم مهتمون به ومجدون فيه، وهو جمع الكلمة، ورقي الجامعة الإسلامية في كل ما يحتاج له الإسلام والمسلمون في هذا الوقت من الوحدة، والاتفاق التام، والصلوات القوية بين الأمم الإسلامية واستدللت بكلام أهل البيت الكرام عليهم السلام، وقد كان لهذا الخطاب أحسن الأثر في الدفاع عند

إخواننا، ودفع سوء التفاهم عن الأستاذ لأنهم يعرفونني ويعرفون والدي الذي كان هناك أشبه الناس بالمرحوم الشيخ محمد عبده قدس الله سرهما من حيث المركز والمقام، وحرصه على الإصلاح، واهتمامه بالتجديد.

وقد وعد العالم الفاضل، فضيلة الأستاذ «الجرندابي» الذي هو من أعاظم وعاظ إيران أن يقرأ ذلك الخطاب على المنبر، لذلك رأيت من المفيد أن أنشر هذا مع ملحق التفسير تتميماً للغرض ودفعاً لما عسى أن يفهمه بعض إخواننا على غير ما يقصد الأستاذ طنطاوي جوهري في التفسير في الموضوع المذكور.

ونسأل الله أن يوفق الجميع لخدمة الإسلام، التي هي خير خدمة للإنسانية في دينها ودنياها، وخير مبدأ قوي يتخذه المرء في هذه الحياة، وما التوفيق إلا بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

مرتضى الحسيني الفاضلي الهمذاني





فهرس ملحق تفسير الجواهر